

شَرُّ أَوْ عِبَارِسِيُون مَنَسِيُون

القسم الأول

الإشكالية المسألة

ابراهيم النجار



شِعْرَاءُ عِبَاسِيُّونَ مَنِيَّيُون

المجلة
غفر الله له ولوالديه

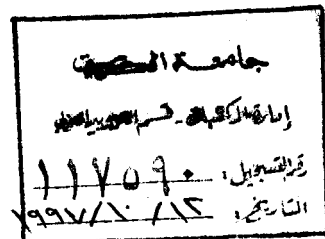
2008-12-10

كلية آداب - بنين

شعراء عبايون منسيون

القسم الاول

الإشكالية العامة



ابراهيم النجار



المجلة
غفر الله له ولوالديه

١١١ / ٢
٤

© 1997 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي

ص . ب . 5787 - 113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .



وَذَكَّرْ... .

إلى روح والديّ

اللّذين كانا أوّلَ مَجْمَعٍ لذاكرتي الأولى الملتحمة بموطني الأوّل
القيروان في أعقاب العشرينات وطوال الثلاثينات، تلك المدينة التي
لم تمسّها بعدُ «لَوْتة» العصر ولم تنقطع أسانيدُها في خضمّ «بدع
المحدثين»، والتي هيأت الطفل الذي كنت لأن يتقبّل - بعد أن أصبح
قارئاً طُلعةً للشعر القديم - أصداءَ مدينة أخرى، هي بغداد عاصمة
العباسيّين، تلك المدينة التي سيّخذ منها - طوال عشرةٍ مديدة أوقفته
على بعض أسرارها - حقلاً متميّزاً للبحث، من نتائجه هذا العمل
حيث تتقاطع مسالك الذاكرة ومسالك النسيان في رحاب جمهرة من
الشعراء المغمورين هم، بلا ريب، أحسن شاهد لأخصب فترة
عرفتها أشعار العرب.

1. *Phragmites australis* (Cav.) Trin. ex Steud.

إلى القارىء

«واعلم أنّا لم نزل نلتقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السنّ والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم وعمّن هو دوننا غير مستكفين أن نأخذ عن الحديث سنّاً لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخساسته ولا عن الأمة الوكّعاء لجهلها فضلاً عن غيرها، فإن العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه، ولن يُزرى بالحق أن تسمعه من المشركين ولا بالنصيحة أن تُستنبط من الكاشحين، ولا تَضيّرُ الحسنة أطمارها ولا بنات الأصداف أصدافها ولا الذهب الإبريز مخرجه من كِبَا، ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة، والفرص تمرّ مرّ السحاب.

وإن وقفت على باب من أبواب هذا الكتاب لم تره مُشبعاً فلا تقض علينا بالإغفال حتى تتصفّح الكتب كلها، فإنه ربّ معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع فنقسم ما جاء فيه على مواضعه»

ابن قتيبة

(من مقدمة المؤلف لـ «عيون الأخبار»)

1. *Phragmites australis* (Cav.) Trin. ex Steud.

تصدير عام
أو
منهجنا في هذا العمل

أتقدم بخالص الشكر إلى كلّ من الأستاذين الزميلين الأستاذ إبراهيم شبوح أمين
المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وعمّان والدكتور الطيب العشاش أستاذ
العربية بكلية الآداب بتونس لتعقبهما معي بعض ما أشكل عليّ من النصوص ممّا كنت لا
أهتدي إلى فكّ مغالقه لولا مسعاهما الجميل .

إبراهيم النجار

تصدير عام

يرجع اهتمامنا بقضايا الأدب القديم بوجه عام وبمُدونة الشعراء «المُقلّين»⁽¹⁾ الذين عاشوا في ما بين أواسط المائة الثانية وأواسط المائة الثالثة بوجه خاص إلى عهد الطلب بباريس في الخمسينات⁽²⁾. ثم باعد بيننا وبين الأدب مادة درسٍ وحقلًا مُتميِّزاً من حقول البحث الجامعي، استثنائاً دار المعلمين بتونس طيلة عقدين بكامل نشاطنا إنْ على مستوى التدريس أو التسيير أو التنشيط التربوي⁽³⁾، وعُدنا بعد ذلك إلى الشعر في فَوَاحِ السَّبْعينات عند التَحَاقنا بكلية الآداب، وأقبلنا آنذاك على هذا العمل الذي نقدّمه اليوم من زاوية محدودة إذ كانت النية متّجهةً إلى قَصْرِهِ على شاعرٍ واحد من شعراء المائة الثالثة هو خالد الكاتب الذي كنّا أصبْنَا النسخة الخطيّة الفريدة من ديوانه بظاهرية

(1) وهم من عنيّناهم في هذا العمل حسب السياق بـ «المغمورين» أو «الأغفال» أو «المغطى عليهم».

(2) نذكر ما كان لوقوفنا آنذاك بإحدى مجلات الاستشراق (ونعني هنا مجلة «أورينتاليا» ORIENTALIA في عددها 1948/22) على نماذج من شعر المغمورين في العصر العباسي الأول عني بتخريجها من مظانها وضبط نصوصها والتعليق عليها والتقديم لها المستشرق فون قرونباوم VON GRUNEBaum، نذكر ما كان لذلك من أثر في تجديد رؤيتنا للشعر العربي في عصوره الأولى مما تحدّدت به فيما بعد بعض اختياراتنا في ميادين البحث والتدريس.

(3) انظر ما كان للنادي الثقافي لدار المعلمين في هذه الفترة من أثر في تطوير مناهج البحث التربوي بتونس وما كان من مساهمته في ميدان التأليف والنشر في نطاق قومي (راجع في هذا المضمار قائمة منشورات النادي التي أدرجناها بذيّل كتابنا: «الفكر التربوي عند العرب»، بالاشتراك، تونس 1985).

دمشق، وذلك أثناء مشاركتنا في أحد الملتقيات التربوية المنعقدة ببلاد المشرق، ولقد قمنا بتحقيق الديوان، وكان في العزم مواصلة العمل بدراسة معمقة تستقصي أخبار الشاعر وخصائص شعره حسب ما يقتضيه النموذج السائر لرسائل الدكتوراه في هذا الباب، لولا ما اتضح لنا في الأثناء من مسالك جديدة في تقسيم مُدَوَّنة «المقلّين»، حَمَلْتُنَا على غير ما كنّا اعترّمناه في البدء من قصر عملنا على شاعر مفرد. وهكذا تحوّلت مجاري عملنا وانفتحت أمامنا مجالات نظر ما كنّا لنجد مُتَسَعاً لمعالجتها لو قَصَرْنَا الاختيارَ على ما بدأنا به، أو قَصَرْنَاهُ على مُدَوَّنة الرؤوس «الفحول»، وتحدّدت بذلك ملامح مشروعنا الجديد في حلقاته الخمس⁽¹⁾. واستغرق عملنا فيه سنين طويلة حَتَمَتْهَا نَوْعِيَّةُ البحث ومدّت في آجال إنجازهِ⁽²⁾. أضف إلى ذلك أنّ ما يميّز به هذا العمل من حيث هيكلته (أي ربطُ مجموعات النصوص التي تُولّف سَدَاهُ والتي تتوزعها مضامينُ مختلفة، ربطها بمداخلها وحواشيها وذيلها في إطار بنية متكاملة متماسكة العناصر) سوف يكون لنا قيداً بخصوص كلّ محاولة نُشَرُّ نُنْجِزُهَا في الأثناء تمهيداً له، سواء تعلّقت بدراسات جزئية أو أبحاث مطوّلة. ذلك أن كل سعي من هذا القبيل نتفرّغ له، سريعاً ما ينقلبُ لِبَنَةِ تَأْخُذُ مَكَانَهَا من مجموع الحلقات الخمس التي يتألّف منها مشرُوعُنَا، وهكذا تَبَقَى ملازمةً له في انتظار نشره.

* * *

هذا هو مشروعنا في منطلقاته الأساسية.

فكيف هو في عَرَضِهِ وهَيْكَلَتِهِ، وما هي حدودُهُ وخصائصُهُ، وما هو نَهْجُنَا فيه؟

(1) ذلك ما سنحدده في غضون هذا التصدير.

(2) أعددنا هذا العمل بإشراف الأستاذ أندري ميكال (ANDRÉ MIQUEL) لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الآداب، وتمت مناقشته يوم السبت 9 جوان 1984 بجامعة السربون الجديدة بباريس.

المخطط العام:

يتألف العمل من قسمين رئيسيين:

القسم الأول: وَيَسْتَقِلُّ بِجُزءٍ خاصٍ قَصَرَنَاهُ عَلَى دراسةٍ تَأْلِيفِيَّةٍ⁽¹⁾ تناولنا فِي تَضَاعِيفِهَا مُخْتَلَفَ الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَا تَمَّ لَنَا جَمْعُهُ وَتَحْقِيقُهُ وَالتَّعْلِيلُ عَلَيْهِ وَالتَّقْدِيمُ لَهُ مِنْ شَعْرٍ ثَلَاثَةٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ «الْمُقَلِّينَ» أَوْ الْمَغْمُورِينَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ، هَذَا بَعْدَ أَنْ أَفْصَحْنَا عَنْ اخْتِيَارَاتِنَا وَدَلَّلْنَا عَلَى الْمُنْحَى الْعَامِّ لِمَشْرُوعِنَا وَضَبَطْنَا أَبْعَادَهُ وَحَدَّدْنَا الْمَنْهَجَ فِي مُعَالَجَةِ الْإِشْكَالِيَّةِ الْعَامَّةِ لِشَعْرِ «الْمُقَلِّينَ».

القسم الثاني: وَيَشْتَمِلُ عَلَى الْمَدُونَةِ وَيَسْتَقِلُّ بِسِتَّةِ أَجْزَاءٍ⁽²⁾ أَقْمَنَّا حَدُودَهَا عَلَى قَاعِدَةِ التَّوْزِيعِ الْمِخْوَريِّ كَاخْتِيَارٍ مِنْهَجِيٍّ مَكَّنَّا مِنْ عَدَمِ الْوُقُوعِ فِي عَيْبِ التَّوْزِيعِ الْأَفْقِيِّ مِمَّا نَهَجْتُ إِلَيْهِ مُصَنَّفَاتُ تَارِيخِ الْأَدَبِ، وَعَيْبِ التَّرْكِيزِ عَلَى الْأَعْلَامِ أَوْ الظَّاهِرَةِ الْأَدْبِيَّةِ الْمُسْتَقِلَّةِ مِمَّا نَهَجْتُ إِلَيْهِ بَعْضُ مَدَارِسِ النِّقْدِ الْحَدِيثِ.

1 - الْجُزْءُ الْأَوَّلُ: وَمِخْوَْرُهُ «ثِقَافَةُ الْبَادِيَةِ وَمَسَالِكُهَا لَدَى ثَلَاثَةٍ مِنَ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ»، وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْحَلَقَةُ مُعْظَمَ مَا تَبَقَّى مِنْ شَعْرِ خَلْفِ الْأَحْمَرِ (تُوفِّيَ نَحْوَ 180هـ)، وَأَبِي الْخَطَّابِ الْبَهْدَلِيِّ (كَانَ حَيًّا أَيَّامَ الرَّشِيدِ)، وَأَبِي شُرَاعَةَ الْقَيْسِيِّ (تُوفِّيَ نَحْوَ 230هـ)، وَنَاهِيضَ بْنِ ثُومَةَ (تُوفِّيَ نَحْوَ 200هـ)، وَابْنَ أَبِي كَرِيمَةَ (تُوفِّيَ نَحْوَ 200هـ)، وَأَبِي الشَّيْصِ (تُوفِّيَ 196هـ).

2 - الْجُزْءُ الثَّانِي: وَمِخْوَْرُهُ «مَسَالِكُ الْغَزَلِ»، وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْحَلَقَةُ أَرْبَعَ

(1) نُشِرَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ فِي نَصِّهَا الْأَصْلِيِّ بِبَارِيسَ بِعَنْوَانِ:

La mémoire rassemblée: poètes arabes «mineurs» des IIe/VIIIe et IIIe/IXe siècles, La Française d'Édition et d'Impression, 1987, (Diffusion: Maisonneuve et Larose, Paris).

(2) مَا سَيُعْتَرِضُ الْقَارِئُ مِنْ إِحَالَاتٍ عَلَى هَذِهِ الْأَجْزَاءِ السِّتَةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا هَذَا الْقِسْمُ، إِنَّمَا اقْتَصَرْنَا فِيهِ عَلَى ذِكْرِ الْجُزْءِ دُونَ الْقِسْمِ لَوْضُوحِ الدَّلَالَةِ.

طبقات: الأولى استغرقها شعراء أفرزناهم بدراسات مُطوّلة وهم: مجهولٌ صاحبُ القصيدة اليتيمة، وخالد الكاتب (توفي 260هـ)، ومانيّ المؤسّس (توفي 254هـ)، ورَبِيعَةُ الرّقّيّ (توفي 198هـ). والثانية يمثلها شعراء معاصرون لهؤلاء اقتصرنا على إيراد نماذج موسّعة من آثارهم، وهم: محمّد بن أبي أمية (أدرك المعتصم)، وعُليّة بنتُ المهدي (توفيت 210هـ)، وشَمْرُوخ (أدرك المتوكل). والثالثة يمثلها شعراء لاحقون ويستغرقها شاعرٌ متميّز هو الحُبزُ أرزيّ (توفي 317هـ). والرابعة يمثلها شعراء سابقون أوردنا لهم قصائد مُفردات عدّها القدماء من عُيون الشعر ونوادره، وأردناها شاهداً لأنساق القصيدة الغزلية عبّر تطوّرها من العهود الأولى للشعر حتى أعقاب القرن الثاني، وهؤلاء هم جرّان العود (جاهلي؟)، وسُحَيْم عبد بني الحسّاحس (توفي نحو 40هـ)، وعبد الله بن الدُمَيْنَة (توفي 180هـ). وختمنا هذه الحلقة بمجموعة من القصائد النادرة تُكشف عن وَجْهِ للمرأة غير وجهها التقليدي المألوف.

3 - الجزء الثالث: ومخوره «بين الجدّ والهزل، وتضمُّ هذه الحلقة ثلاث مجموعاتٍ من النصوص: الأولى أجريناها بعنوان «مسالك الصّغلة والكُذبة والمُحارَقة» ويمثلها: الأَخِيْمُ السّعدِيّ (من شعراء الدولتين)، وأبو فِرْعَوْن السّاسي (أعقاب المائة الثانية)، وأبو الشّمَقَمَقيّ (توفي 190هـ)، وجَحْظَة البرمكيّ (توفي 324). والثانية أجريناها بعنوان «مسالك التّهزّل» ويمثلها: الحَمْدَوِيّ (أواسط المائة الثالثة) وعليّ بن الخليل (من شعراء الدولتين)، وإسماعيل بن عَمّار (توفي 175هـ)، وإبراهيم اليَزِيدِيّ (توفي 225هـ)، وأَبَانُ اللَّاحِقِيّ (توفي 200هـ) وعبد الله اللَّاحِقِيّ (توفي في أعقاب المائة الثانية)، وعلي بن نصّر بن بَسّام (توفي نحو 300هـ). والثالثة أجريناها بعنوان «مسالك الشُّخفِ والرّقاعة والسّماجة والوشوسة» ويمثلها عَمّار ذو كِناز (من شعراء الدولتين)، وأبو دَلَامَة (توفي 160هـ)، وأبو العِجَل (أواسط المائة الثالثة)،

وابن جُدَيْر (كان حيًّا في أيام الِوائق) وأَبُو الْمُخَفَّف (كان حيًّا في أيام المأمون)،
وجُعَيْفَرَانِ الْمُوسُوس (توفي 203هـ).

4 - الجزء الرابع: ومِخْوَرُه «مَسَالِكُ الرِّثَاءِ وَالتَّفَجُّعِ» وتضمُّ هذه الحلقة
كذلك ثلاث مجموعات من النصوص: الأولى أجريناها بعنوان «رِثَاءُ الْجَوَارِحِ»
واستغرقها معظمُ ديوانِ رَاشِدِ بنِ إِسْحَاقَ في رِثَاءِ «مَتَاعِهِ» (توفي 240هـ؟).
والثانية أجريناها بعنوان «رِثَاءُ الْحَيَوَانِ وَشُكْوَاهِ وَالتَّفَجُّعِ لِفَقْدِ الْمَتَاعِ» ويمثلها
القَاسِمُ بنُ صَبِيحٍ (توفي نحو 220هـ)، وأبو الشَّيْلِ عَاصِمُ بنُ وَهْبِ الْبُرْجُمِيِّ
(كان حيًّا في أيام المتوكل). والثالثة أجريناها بعنوان «رِثَاءُ الْمُدُنِ وَالتَّفَجُّعِ
لِأَحْوَالِ الْعَصْرِ»، ويمثلها: عَمْرُو الْوَرَّاقِ (توفي نحو 200هـ)، وعليّ بن
أبي طالب الأعمى (أعقاب المائة الثانية) والخُرَيْمِيُّ، (توفي 214هـ).

5 - الجزء الخامس: ومِخْوَرُه «مَسَالِكُ الْبَطَالَةِ أَوْ التَّطَرُّحِ فِي الدِّيَارَاتِ
وَمُنْتَزَهَاتِهَا وَحَانَاتِهَا»، وتضمُّ هذه الحلقة الأخيرة فئة من الشعراء «الظُّرَفَاءِ»
أَشَادُوا بِاللَّذَّةِ الْجَامِحَةِ وَجَاهَرُوا بِالْمَجَانَةِ السَّافِرَةِ، وهم: مُحَمَّدُ بنُ عَاصِمِ
(أواسط المائة الثانية)، والثَّرَوَانِيُّ (أعقاب القرن الثاني)، وعبد الله بن العباس
الرَّبِيعِيُّ (أواسط المائة الثالثة)، والحُسَيْنُ بنُ الضَّحَّاكِ (توفي 250هـ)، وبُكْرُ بنِ
خَارِجَةَ (أعقاب القرن الثاني)، ومُصْعَبُ الْكَاتِبِ (كان حيًّا في أيام المتوكل)،
وعَمْرُو الْوَرَّاقِ (توفي نحو 200هـ)، وَجَحْظَةُ الْبَرَمَكِيِّ (توفي 324هـ).

6 - الجزء السادس: وهو خاتمة الأجزاء ويتألف من:

- ملاحق في أدب العشق.

- ثَبَتُ نَقْدِي مَفْصَلٍ لِمَا أَمَكَّنَا الْوُقُوفُ عَلَيْهِ مِمَّا نَشَرُ مِنْ شِعْرِ الْمُقْلِينَ فِي

العقود الأخيرة.

- فهرس مفصل لِإِمْهَاتِ الْمَفَاهِيمِ التي جعلناها رَكِيزَةً لِإِشْكَالِيَّةِ الْعَامَةِ

لِمَدُونَةِ «الْمُقْلِينَ»، والتي تَحَدَّثَتْ بِهَا نَظَرُنَا فِي مَعَالِجَةِ الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَنْسَاقِ

الشعر ومعانيه ومقاصده وخصائصه الأسلوبية في الفترة المدروسة. وهذا
الفهرس الخاصّ توخّينا في تَرْكِيبِهِ وإِحْكَامِ عناصره مَنْحَى مِخْورِيّاً مِمَّا يُمَكِّنُ
القارئَ المتتَبِّعَ لقضايا الشعر القديم من الوقوف - من أقرب سبيل - على غَرَضِهِ
دون أن يَتِيَهَ في عملٍ متفرِّعٍ البِنَاءِ متعَدِّدِ الأجزاء.

- فهارس عامة للشعراء وأوزان الشعر وقوافيه.

- فهارس عامة للأعلام والأماكن.

- ثبت مفصل للمصادر والمراجع.

* * *

ذاك هو مخططنا العام في بناء هذا العمل، وتلك هي حدوده، فما هو
نَهْجُنَا فيه؟.

لقد أجرينا هذا العمل على مستويات ثلاثة:

1 - مستوى المَثْنِ: نَغْنِي المدوَّنة ذاتها التي بلغ ما جمعناه منها زهاء
ثمانية آلاف بيت بين مخطوط أخرجناه من خزائنه وغير مخطوط ممَّا طُبِعَ وَبَقِيَ
مَطْوِيّاً في بَطُونِ الأُمّهات، والتي تَوَخَّينا في تخريج نُصوصها من مَظَانِّها،
وتَحْقِيقِ رِوَايَاتِها، وضبط لُغَتِها ما تُملِيه شَرَايِطُ التَّحْقِيقِ الجامعي من تَمَحِّيصٍ
واستيعاب، مع حرصنا على وُضُوحِ العَرَضِ وشَكْلِ النُّصوص⁽¹⁾. على أَنَّهُ
تَحَسُّنُ الإِشارةُ في هذا المستوى إلى أمور ثلاثة وهي:

- أن الجهد الذي بذلناه طيلةَ عَقْدٍ وَنِيفٍ في مُمارَسةِ المَخْطُوطِ وغير
المخطوط من الآثَارِ الشعرية، وَمَا أَمَكَّنَ تَقْوِيمُهُ في هذه الآثَارِ من تَضَحِيْفِ

(1) على أَنَّا ننبه القارئ إلى أَن الضوابط الأساسية تعرضت في أكثر من موضع إلى
التحريف المطبعي مما جرَّ إلى إصلاحات متتالية، ولا يبعد لدينا أن نكون أغفلنا بعضها
بعد الإذن بالطبع.

وَتَحْرِيفٍ جَزَّ إِلَيْهِ النَّسْخُ السَّرِيعُ، وَمِنْ اخْتِلَالٍ فِي الْوِزْنِ وَالتَّرَكِيبِ وَاللُّغَةِ جَرَّ إِلَيْهِ السَّهْوُ أَوْ عَدَمُ الْفَهْمِ، وَمِنْ طَمَسٍ خَلَفَ بِيَاضاً نَتِيجَةً مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ الْأَصُولُ مِنْ خَرَمٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَمْ نَزِمْ مِنْ وَرَائِهِ إِلَى بُلُوغِ الْغَايَةِ وَالتَّهَابَةِ فِي التَّحْقِيقِ، وَإِنَّمَا أَقْصَى مَا كُنَّا نَطْمَعُ فِيهِ هُوَ الْإِسْهَامُ فِي تَقْوِيمِ بَعْضِ مَا اغْوَجَّ، وَإِبْقَاءِ بَابِ الْجَاهِدِ مَفْتُوحاً لِلدَّارِسِينَ فِي انْتِظَارِ ظُهُورِ طَبْعَاتِ لِأَصُولِ الْأَدَبِ الْجَدِيدَةِ أَوْ الْعُثُورِ عَلَى أَصُولٍ خَطِيئَةٍ ضَائِعَةٍ تُعِينُ عَلَى اسْتِكْمَالِ أَسْبَابِ تَحْقِيقِ هَذَا الثَّرَاثِ.

- أَنَا قُمْنَا بِعَمَلِ التَّحْقِيقِ هَذَا فِي أَزْمَنَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ مِمَّا أَعَانَ عَلَى ضَبْطِ كَثِيرٍ مِمَّا اسْتَغْلَقَ فِي قِرَاءَاتٍ أُولَى، وَالنَّاطِرُ فِي مُدَوَّنَتِنَا يَتَضَحَّى لَهُ، انْطِلَاقاً مِنْ بَعْضِ الْعَيْنَاتِ، مَدَى مَا تَعَرَّضَ لَهُ الشَّعْرُ غِنْدَ تَدْوِينِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْخَلَلِ⁽¹⁾، مِمَّا جَعَلْنَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ لَا نَقْطَعُ بَوَجْهِ دُونَ وَجْهِ فِي الْاسْتِقْرَاءِ. وَلَعَلَّنَا نَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى هَذِهِ النُّصُوصِ عَلَى ضَوْءِ مَا قَدْ يَتَقَدَّمُ بِهِ زُمَلَاؤُنَا، مِمَّنْ يُمَارِسُونَ نِصُوصَ الثَّرَاثِ، مِنْ قِرَاءَاتٍ خَفِيفَةٍ عَنَّا، أَوْ تَصْوِيبَاتٍ أَغْفَلْنَاهَا، وَبِذَلِكَ نَخْطُو خُطْوَةً أُخْرَى فِي تَقْوِيمِ مَا لَمْ نَهْتَدِ إِلَى تَقْوِيمِهِ، وَنَسْتَكْمِلُ مَا لَمْ يَتَسَنَّ لَنَا بُلُوغُ الْأَرَبِ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ التَّحْقِيقِ الَّتِي يَدُونَهَا سَوْفَ لَا يَتِمُّ مَا نَرُومُهُ مِنْ نَشْرَاتٍ عِلْمِيَّةٍ لِلشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ.

- أَنَا أَقْرَزْنَا فِي بَدْءِ هَذَا الْعَمَلِ الْجَامِعِ قَصَرَ عَمَلِ التَّحْقِيقِ فِي مَرَحَلَةٍ أُولَى عَلَى نُّصُوصِ يَتِمُّ ضَبْطُهَا فِي حِينِ جَمْعِهَا دُونَ مَا اعْتَبَارَ لَهَا قَدْ يَطْرَأُ أَثْنَاءَ الْعَمَلِ عَلَى مُدَوَّنَتِنَا مِنْ تَفْصِيحٍ وَتَضْحِيحٍ وَمَرَاஜَعَاتٍ قَدْ تَجَرَّزْنَا إِلَيْهَا مُسْتَحْدَثُ الْمَنْشُورَاتِ. عَلَى أَنَا عَازِمُونَ عَلَى تَذَارِكِ هَذَا الْفَوَاتِ بِصِفَةِ شُمُولِيَّةٍ فِي طَبْعَاتٍ لَاحِقَةٍ.

(1) انظر الجزء الأول ص 195 القصيدة رقم 12 وكذلك الجزء الثالث ص 266 قصيدة محمد بن يسير الرياشي في شاة منيع (التعليق في ذيلها).

2 - مستوى استنطاق المَتن: نَغني تَزييلَ المُدَوِّنةِ في إطارِ إشكاليّ عام، وتمحيصَ مُغلَقَاتِها، ومحاولةَ الكَشَفِ عن مَكْنُونَاتِها، وإدراجِها في سياقِ ثقافيّ له خصائصُه المُميّزة. هذا الجانب من عملنا الذي هو في الآن نفسه عمل نقدٍ للآثار وتاريخُ لها بالمفهوم التقليدي، وكذلك محاولة قراءة لها بالمفهوم الحديث، قد خصّصنا له الدراسةَ التاليفيّة التي استقلّت بالقسم الأول منه، ثمّ واصلنا استنطاق المدونة عبرَ المداخل⁽¹⁾ التي افتتحنا بها كلّ جزءٍ من أجزائها، وكذلك عبرَ ما أجريناه من دراساتٍ تتعلّق بهذا الشاعر أو ذاك⁽²⁾، أو هذا الأثر أو ذاك⁽³⁾، وأخيراً عبرَ شتّى التعاليق التي ذيلنا بها جانباً هاماً من النصوص التي قد تَسْتَعْرِقُ من الصفحات أضعافَ ما تستغرقه المتون ذاتها⁽⁴⁾. أضف إلى ذلك الأهمية القصوى التي أوليناها للهوامش، ناهيك أنها تستغرق الذيل المطوّلة وتكاد أحياناً تُؤلف خطاباً نقدياً ثانياً موازياً للخطاب الأم لا يقلُّ خطورةً عنه في التعبير عن مَوْقفٍ أو التصريح بِرأيي⁽⁵⁾. ذلك أنّ عملنا المديد في المدونة ضَبْطاً وَتَحْقِيقاً، وما اهتدينا إليه عبرَ المظانّ التي وقفنا عليها من شواهد وأحكام تتعلّق بنظرة القدماء إلى الشعر وقضاياها، وما جمعناه من مادّة موسّعة تتعلّق بالآثار ومُنشئِها، وما أثارته فينا هذه المادّة من أسئلة - تَقَرُّنُ في نظرنا بإشكالية شعر «المُقلِّين» عموماً - كلّ ذلك كان من آثاره أنّ وجدنا أنفسنا أمام حَصِيلَةٍ ضخمةٍ من الآراء والأحكام والشواهد حَالٍ تَضَحُّمُ العَمَلِ من استثمارها تَوْأاً وإِفْحَامِها

(1) انظر على وجه الخصوص المدخل الذي افتتحنا به الجزء الخامس.

(2) انظر على سبيل المثال الدراسة المطوّلة التي خصصناها لخالد الكاتب (الجزء الثاني ص 47 - 103).

(3) انظر «رأي في القصيدة اليتيمة» (الجزء الثاني ص 13 - 24).

(4) انظر مثلاً تعاليقنا على قصائد خلف الأحمر وبالخصوص الأرجوزة رقم 3 (الجزء الأول ص 54 - 59) واللامية رقم 1 (نفس الجزء ص 40 - 44).

(5) انظر على وجه الخصوص الهوامش المطوّلة التي ذيلنا بها الصفحات التالية: الجزء الأول ص 19، 23، 41، ... الجزء الثاني ص 9، 20، 23، 54، 80، 81، 92، 101.

في صُلب مقالنا النقديّ، فحرضنا على أن لا يخلو مقالنا هذا من إشاراتٍ إلى ما انتهينا إليه من نتائجٍ أولى، ورأينا أن نظام الحاشية قد يؤلف إطاراً مؤاتياً لهذا الغرض في هذه المرحلة الأولى من بحوثنا، وقدّرنا أن في هذه «الذيول» ما قد يفيد الطالب الرّیض المتحمّس لشؤون الأدب القديم، وما يدفع به إلى مزيدٍ من الاكتشاف والتقصّي. ثم إن هذه الحواشي تُؤدّي في نظرنا وظيفةً أساسيةً ثانية. ذلك أنّها بمثابة الدّليل الذي يُيسّر للقارئ تنزيل فقرات المدوّنة المُشعّبة المسالك في إطار بناءٍ متكاملٍ مشدودةٍ عناصره بعضها إلى بعض، ويمكنه في كلّ إن من ردّ متون المدوّنة إلى شبكةِ الإحالات التي تتخلّل الدراسة التّأليفية أو المقدمات والتحاليل التي تُصدّر هذه المتون أو تُدّيلها.

3- مستوى النصوص المُتمّمة نثريةً وشعريةً، مُعاصرة أو سابقة أو لاحقة:

(أ) النصوص النثرية: سيلاحظ القارئ أننا ذيلنا بعض فقرات المدوّنة بجُملة من الأخبار اختِجاجاً لوجهة نظر، أو تأييداً لموقف، أو تذليلاً على ظاهرة أو - وهو الأهم - إichاء بمسلك في الرّأي جديد⁽¹⁾، على أننا ما كنّا لنقطع هذه المتون عن أصولها لولا ما التزمناه من منحي في تقديم هذا العمل الجامع نريدُه أن يكون حصيلة مشاغل مزدوجة كما ذكرنا بذلك مراراً، نعني البَحْث والتدريس. ذلك أنّ هذه الأخبار - وهي تتعلّق بجمهرة من الشعراء لم تأخذ بعُد مكانها الذي تستحق من أعمال المحققين والنقاد - إن توفّرت للقارئ مجموعة في ذيول دون أن يُكلّف نفسه مؤونة الرجوع إلى مصادرها - وقلّ ما يفعل إذا كان من غير ذوي الاختصاص - فهي خير ما تلتئم به آتياً وفي رؤيةٍ موحّدة الآثار

(1) انظر نماذج من هذه الأخبار 109/1 - 113 (من قضايا تدوين الشعر ونقده)، 265/2 - 273 (في الموسوسين)، 8/3 - 88، 412 - 414 (في المكدين) ص 329، 335 - 339، 375 - 392 - 400 (في أدب السخف ومضاحك الأشعار)، 5/192 - 202 (في الديارات). انظر كذلك ملاحق الجزء السادس.

المدرسة وما حيك حولها من روايات تتعلق بتاريخ أصحابها وبالحياء في المجتمعات التي عاشوا فيها، بها تحدت صورهم لدى القدماء. وللقارئ آنذاك أن يعمل عمله فيها من أي جهة أراد علماً منه أنها ملازمة لهذه الآثار، وأن النظر فيها عن كثب لا غنى عنه، وبذلك لا يبقى بمعزل عن مادة أساسية تلونت بها أنظار النقاد قديماً وحديثاً وسوف تبقى خير سند لكل قراءة تروم الكشف عن سبل جديدة في تقييم الشعر العربي القديم.

(ب) النصوص الشعرية: (وتوزعها مختارات أنموذجية محدودة لشعراء معاصرين أو سابقين أو لاحقين، معظمها من الأشباه والنظائر).

هي مدونة صغرى موازية أرذناها سندا ومرجعاً للموازنة، من أقرب سبيل، بين شاعر وشاعر أو شعر وشعر في سياق زمني مديد، مما يمكن القارئ المُمحص للآثار من هذه النظرة الشمولية التي بدونها لا يتسنى له إدراك لطائف الخصائص الدالة على ما تطور من أنساق الشعر وما لم يتطور، من عصر إلى عصر⁽¹⁾.

وبين بعد هذا كيف أننا حرصنا على أن تأتلف مستويات هذا العمل الثلاثة كما حدّدنا في نطاق بناء متكامل، مشدودة لبنائه عضويّاً بعضها إلى بعض، يخضع لرؤية شمولية موحدة تتقاطع في مجالها المتون وما تعلق بها من مداخل وحواشٍ ومتمّمات يردّ بعضها إلى بعض مع استقطاب النصّ لها جميعاً.

* * *

ذاك هو نهجنا في وضع هذا العمل. فما هي مقاصدنا فيه؟

(1) انظر على وجه الخصوص الجزء الثاني وما يتخلل تضاعفه وملحقاته من أشعار في الغزل أجريناها على هامش مدونتنا، وتوزعها العصر الجاهلي والعصور الإسلامية حتى القرن الرابع. انظر كذلك الجزء الخامس حيث تقف ضمن هذه الأشعار على قصائد لمشاهير الشعراء خلت منها دواوينهم.

أولاً: هو عملُ أردناه مشاركةً متواضعةً في تحقيق ما لا يزال مُهملاً من أشعار «المُقلّين» (أو «المغمُورين»، أو «المنسيين» أو «المُغطى عليهم» كما يقول القدماء) في العصور الأولى للشعر. وهو عملٌ يندرج في إطار حركة إحياء التراث القائمة منذ عُقود بالبلاد العربية⁽¹⁾، مع الملاحظة أن تفاوت أعمال التحقيق في هذا الباب من حيث قيمتها العلمية من ناحية، وتباعد المناهج في مباشرة النصوص من ناحية أخرى، وأثر هذا وذاك في الحد من الجدوى المنتظرة، ظاهرةٌ تسم الجانب الأكبر من هذه الأعمال. أضف إلى ذلك أن افتقار الباحثين لجهازٍ إعلاميٍّ موحدٍ يسمح لهم في كلِّ آنٍ من أن يكونوا على بينة مما يجري في مجال اختصاصهم شرقاً وغرباً، وأنعدامَ خطةٍ منسقةٍ تجمع بينهم في مباشرة كُبريات القضايا المعلقة بإحياء التراث⁽²⁾ من ناحية أخرى - كلُّ ذلك أفضى إلى تبعثر الجهود وشيءٍ غير قليل من الارتجال والفوضى. وليس أدلَّ على ذلك من أعمال في التحقيق يُقبل عليها اثنان في بلدان متباعدة وأحياناً في البلد الواحد، وليس لأحدٍ علمٌ بما أنجزه الآخر، والأمثلة كثيرةٌ في هذا الباب⁽³⁾. ونحن كغيرنا لم نسلّم من الوقوع في هذا العيب من حيث لا نعلم⁽⁴⁾.

ثانياً: وهو عملُ أردناه من بعض الوجوه وفي مُعظم حلقاته⁽⁵⁾ كشفاً عن

(1) نخص بالذكر العراق وله يرجع الفضل الأكبر في تحقيق الدفع الذي عرفته هذه الحركة خلال السبعينات.

(2) من ذلك توحيد مناهج العمل، وإقرار سلم للأولويات في مجال البحث العلمي، وإرساء جهاز مركزي متكامل يُعنى بضبط ما تنأثر شرقاً وغرباً من التراث المخطوط (أصول ومصورات) وإحصائه والتعريف به والتشجيع على نشره، وإحداث بنوك لخزن أرصدة التراث الشعري...

(3) نذكر من هذه الأعمال ما جمع من أشعار المعكوك، وابن مطير، وابن هرمة، والحماني، وبكر بن النطاح، والغزال خلال السنوات الأخيرة. (انظر الجزء السادس).

(4) انظر الجزء الثالث من هذا العمل ص 111: التعيب.

(5) نعني بالخصوص الأجزاء 3 و 4 و 5.

جانب من الشعر العربي بَيَّ مُهْملاً في خزائن المخطوطات شرقاً وغرباً أو مطوياً في ما نُشِرَ من الأمّهات، خَرَجَ فيه أصحابه عن مسالك الشعر «الرّصين» وَزَجُّوا به في مسالك الهزل الصّريح. فتماجَنُوا وتَعَابَثُوا وتَشَبَّهُوا بالمُحَارِفِينَ والمُتَصَعِّلِينَ والمُكَدِّينَ والمُؤَسَّوسِينَ والمُتَرَنِّدِينَ وأهل الرّقاعة والرّطازة والسّمَاجَةِ⁽¹⁾ والمَجَانَةِ السّافرة، وَتَصَرَّفُوا في أَفَانِينَ المُتَنَاقِضَاتِ وَ«تَهَاجَوْا هَزْلاً وَعَمَداً» كما يقول صاحب الأغاني، وَأَخْرَجُوا ذلك كُلَّهُ مَخْرَجَ الشُّخْرِيةِ، فَضَحِكُوا وَأَضْحَكُوا على سبيل الإخْمَاضِ والمُمَازَحَةِ، وأدركوا عن كَثَبِ أَنْ الهزل ومسالك الشُّخْفِ التي تجري مَجْرَى المُدَاعِبَةِ والمُفَاكِهَةِ قد يصبَحان أَحْسَنَ طَرِيقَةً لَتَغْرِيةِ الواقع والكشف عما اسْتَتَرَ من مُتَنَاقِضَاتِهِ وَ«قَبَائِحِهِ»، وكذلك أَحْسَنَ مَطْيَةِ لَيْلِ الحظوة لدى الرُّؤَسَاءِ والارتقاء في سُلَّمِ الصّناعة⁽²⁾. ولعلّهم ذَهَبُوا في ذلك إلى أبعد حَدٍّ وخرجوا بالشعر إلى عَنيفِ الاستهزاء وصَريحِ العَبَثِ ورخيصةِ الكلام. ومع ذلك - وهو ما رَكَّزْنَا عليه في أَكْثَرِ من موضع - لم يَأْتِ القِدْمَاءُ من تَذْوِينِ هذا الشعر⁽³⁾، ولم يُحْمَلُوا أَصْحَابَهُ تَبَعَةً ما مَارَسُوهُ أو تَشَبَّهُوا به، ولم يَطْمَسُوا الآثارَ على نَحْوِ ما فعله المُتَأَخَّرُونَ⁽⁴⁾ ولم يُشْهِرُوا بالأشخاص، بل لَعَلّهم أدركوا - إِذْ رَاكَنا اليَوْمَ - أَنَّ نَصِيبَ هؤلاء من الْإِبْتِدَاعِ وَالْخَلْقِ في نَحْتِ «الْإِنْسَانِ النّاقِصِ» أو الْإِنْسَانِ الْأُذْنَى، لم يكنْ دونَ من أَفْنَى شِغْرِهِ في نَحْتِ «الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ» أو الْإِنْسَانِ الْأَسْمَى مِنْ كِبَارِ المُدَاحِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ، بل لعلّ هذا النّصيبَ كانَ أَوْفَرَ! أَضِفْ إلى ذلك أَنَّ هَذِهِ الْمَسَالِكَ، وَإِنْ خَرَجَتْ بِالشَّعْرِ عن أَرْكَانِهِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ الْمَأْلُوفَةِ، فَإِنَّهَا أَبْقَتْ

(1) انظر الجزء الثالث الفهرس.

(2) انظر أثر ذلك في تطور أنساق الشعر شكلاً ومقصداً لدى شاعر كالحمودي (الجزء الثالث ص 110 - 111) أو كابتن جدير (نفس الجزء ص 343: قصيدته في مدح الوائلي).

(3) انظر ما حققناه من ديوان أبي حكيمة (الجزء الرابع).

(4) انظر الجزء الأول ص 64 الهامش رقم 3.

على خَصَائِصِهِ الأساسية من حيث أَشْكَالُهُ وَمَبَانِيهِ وصيغُهُ، تلك الخصائص التي تحدّدت مع القُدَامَى في العهود الأولى للشعر. وفي هذا تكْمُن الطَّرَافَةُ؛ ذلك أننا نلمسُ عبْرَ هذا الشعر تحوُّلاً لِمَجَارِي الخِطَابِ ومَقَاصِدِهِ يتمثّلُ في انْتِحَالِ أنْسَاقِ التّعْبِيرِ على سُنَنِ الأقدمين لِتَأْدِيَةِ حَسَاسِيَةِ حضريّة جديدة تنغرسُ أساساً في صميم اهتمامات الفرد داخل المجتمع المدنيّ الجديد.

ثالثاً: وهو عملُ أردناه إطاراً سانحاً لإثارة جُملة من القضايا تتعلّق بمدوّنَةِ الشعراء «المقلّين» لَمْ تَكُنْ - في نظرنا - حظّاً كافياً من عناية الدارسين مع ما تكتسبه من أهمية في استبصار الخصائص النوعية للشعر العربي عموماً، وهي قضايا قد لا يجذُّ لها الباحث متسعاً لمعالجتها إذا هو قصرَ حَقْلَ بحثه على مُدَوَّنَةِ الرؤوس من الشعراء.

ونحن نذكر في ما يلي الخطوط الكُبرى لما عالَجناه من هذه القضايا عبْرَ الدّراسة الافتتاحية الأمّ وكذلك عبْرَ الدّراسات الجزئية والتعليق التي تتخلّل أجزاء العمل الستة:

1- الفُحولة والإفلال في نظر القدماء: علاقة ذلك بظاهرتي التباهة والخُمُول وأثرُهُ في تحديد المَلامح العامة لمدوّنَةِ «المقلّين».

2- ظاهرة تَضَخُّمِ عددِ الشعراء في العصر العباسي الأول كَنَتِيْجَةٍ لاسْتِثْنَاءِ الخطاب الشعري دون النثر عموماً بمجالات التعبير الحرّ عن المشاغل الذاتية، وذلك بمعزل عن الفروق العرقية أو الطبقيّة.

3- أثرُ هذا التَضَخُّمِ في تحديد مصير المدوّنَةِ وعلاقة ذلك بما لاحظناه في جانب كبير منها من انتفاء الفروق النوعية التي تُميّزُ شاعراً عن شاعر، أو شعراً عن شعر، واتّساع فقراتٍ عريضة منها بطابع الشّيع (نغني الشعر الغفل الذي وصلنا بدون عَزْوٍ)، وما تَسَرَّبَ منها إلى دواوين الفحول.

4 - مَتَاهة «مُدَوْنَةُ الْمُقْلَيْنِ» عَبْرَ مَوْسُوعَةِ الْأَدَبِ الْقَدِيمِ وَقَضِيَّةِ الْمَصَادِرِ .

5 - ظَاهِرَةُ الضِّيَاعِ وَالْبُعْثَرَةِ وَالتَّدَاخُلِ وَالنَّحْلِ (وَمَا نَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ اضْطِرَابٍ وَفَوْضَى) الَّتِي تَسِمُ هَذِهِ الْمُدَوْنَةُ: اسْتِقْصَاءُ الْعَوَامِلِ الدَّاخِلِيَةِ وَالخَارِجِيَةِ الَّتِي سَاعَدَتْ عَلَى «انْفِجَارِ» هَذَا التَّرَاثِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي قَدْ لَا يَقِلُّ جُودَةٌ فِي بَعْضِ مَعَارِضِهِ عَمَّا أَثَرُ لِلْمَشَاهِيرِ .

6 - جَدَلِيَّةُ الْقِدَمِ وَالْحَدَاثَةِ وَدَوْرُ الشَّعْرَاءِ «الْمُقْلَيْنِ» فِي تَطْوِيرِ مَا أَسْمَيْنَاهُ بِالْبَيْنَتَيْنِ الْأُمِّ لِلشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ اللَّتَيْنِ أَفْرَزَهُمَا: أَوَّلَاهُمَا الْمُنْعَرَجُ الْجَاهِلِيُّ، وَثَانِيَتُهُمَا الْمُنْعَرَجُ الْعَبَّاسِيُّ .

7 - الْعَوَاصِمُ الْجَدِيدَةُ (بَغْدَادُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ) وَدَوْرُهَا فِي اسْتِقْطَابِ فَنَاتِ الشَّعْرَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي تَحْدِيدِ مَعَالِمِ نِظَامِ ثَقَافِيٍّ جَدِيدٍ مُضَادٍّ لِثَقَافَةِ الْبَادِيَةِ سَيَجِدُ فِي شَعْرِ «الْمُقْلَيْنِ» عَلَى وَجْهِ خَاصٍ مَسَالِكَهُ التَّعْبِيرِيَّةَ الْمَفْضَلَةَ .

8 - الْمَجَالِسُ عَلَى اخْتِلَافِ صَيَغِهَا، وَاخْتِلَافِ مَشَارِبِ مُنْشِطِهَا وَالفَنَاتِ الْمَتَطَرِّحِينَ بِهَا وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي سَيَرُورَةِ الْأَثَرِ الشَّعْرِيِّ عُمُومًا وَشَعْرِ «الْمُقْلَيْنِ» عَلَى وَجْهِ أَخْصَصٍ .

9 - مَسَالِكُ النَّقْلِ الشَّفَوِيِّ (الْإِنْشَادُ وَالْغِنَاءُ) سِمَةٌ طَاقِيَّةٌ عَلَى مُدَوْنَةِ الْعَصْرِ، وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي الْحَدِّ مِنْ مَسَالِكِ نَسْخِ الشَّعْرِ وَتَدْوِينِهِ وَرَوَاجِهِ بِسُوقِ الْكِتَابِ .

10 - مَسَالِكُ الْإِنْتِقَاءِ الَّتِي نَهَجَ إِلَيْهَا كِبَارُ الرُّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ فِي جَمْعِ أَصُولِ الْأَدَبِ وَتَدْوِينِهَا عُمُومًا، وَتَقْيِيدِ شَعْرِ «الْمُقْلَيْنِ» مِنَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَإِقْرَارِهِمْ فِي مَا وَضَعُوهُ مِنْ مَجَامِيْعٍ بِمَبْدَأِ «الْأَخْذِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِطَرَفٍ» وَأَثَرُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي «هَيْكَلَةِ» هَذِهِ الْمُدَوْنَةِ .

11 - شعر المقلين وطوايع الشُّذُوذ التي تَسِمُ جانباً وافرأ منه، وعلاقة هذه الظاهرة بالضمير الديني، وتعايشُ المتناقضات في سير الشعراء، وعَمَلُ الشعر في التعبير المباشِر الحر عن هذه المتناقضات.

رابعاً: وهو عملُ أردناه حَصِيلَةً لِحُمْلَةٍ من الآراء النقدية أُجْريناها في سِياق مَا نَرُومُه من كَشْفٍ عن سُبُلٍ جديدةٍ في استِقْرَاءِ مدوْنَةِ الشعر العربي القديم. على أننا لم نَزْكُنْ في عَمَلِنَا النقديّ هذا إلى أساليبِ النظر المستَحْدَثَةِ المُتَفَرِّعة عن علوم اللُّسان (والبنِيوتية منها على الخصوص) إلَّا بِمِقْدَارٍ، مِقْدَارُ مَا تَسْمَحُ به نوعِيَةُ النُّصوص التي بأيدينا، عِلْماً مَّا أَنَّ ثُلَّةً مِمَّنْ رَكَنُوا، في قراءة التراث الشعري، إلى هذه الأساليب قد انتهَجُوا خطاباً نقدياً كثيراً مَا تَنْتَفِي مَعَهُ كُلُّ رُؤية تَأْسِيسِيَّة نتيجةً ازدواجيةً مَسَالِكِ التكوينِ لَدَى بَعْضِهِمْ من ناحية، وجَرَيَانِ الخطابِ لَدَى آخَرِينَ في لُغاتٍ أجنبيَّةٍ من ناحية أخرى، مِمَّا أَدَّى إلى هذه القَطِيعَةِ التي نَلْمِسُها في كثير من الأحيان بين حَقْلِ البحث (شِعْرٌ عَرَبِيٌّ متقادم لهُ مُمَيِّزَاتُهُ التي ينفرد بها) وأنماطِ التَّصَوُّرِ المُسَلَّطَةِ عليه والتي تُجْريها مَفَاهِيمُ مُسْتَحْدَثَةٌ منقولةٌ عن بُنَى الثَّقَافَةِ الغَرْبِيَّةِ⁽¹⁾ مِمَّا دَفَعَتْ إليه - مِنْ بَعْضِ الوجوه - هَزَاتُ الفِكرِ التي تَمَحَّضَتْ عَنْهَا أَرْمَةُ الضَّمِيرِ الأوروبي في القرن العشرين.

كما أننا ذهبنا في عملنا النقديّ إلى تَغْلِيْبِ مَا اعتبرناه المقصَدَ الأساسيَّ لكلِّ خَلْقٍ شعريٍّ على اختلاف المُستويات التي تناولناها بالتمحيص فيه، وَيَتَلَخَّصُ هذا المقصَدُ في أَنَّ الشعرَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ طَرْفَةً من الطَّرَائِفِ تَتَلَوَّنُ عِبَارَتُهُ وَصِيغُهُ وَأَلْفَاظُهُ بِأَصْبَاغِ كُلِّ جَدِيدٍ يَزُولُ بِزَوَالِ أَعْرَاضِهِ، إِنَّمَا قَرَارَتُهُ الْإِنْسَانُ يَكُونُ مَا لَمْ تَنْقَطِعْ صِلَتُهُ بِالْأَصُولِ. كَذَلِكَ حَرَضْنَا عَلَى أَنْ لَا تَنْقَطِعَ

(1) بعض الدراسات التي تطل علينا من حين لحين خير شاهد على هذا، ولقد ذكرنا بعضها في غضون عملنا (انظر الجزء الأول ص 19 (الهامش 1)، ص 41 (الهامش 1) والجزء الثاني ص 79 - 82).

مسيرتنا النقدية في بعض وجوها عن مسيرة القدماء، فذكرناهم وأشدنا في أكثر من موضع ببعض ما انتهوا إليه من آراء حصرية قد يجد لها الدارس المثبت المنصف إيقاع كبريات المذاهب النقدية في العصر الحديث.

كانت هذه منطلقاتنا في قراءة المدونة، وسوف نكتفي فيما يلي بإيراد بعض ما انتهينا إليه من آراء وقيدناه من مراجعات تتعلق بجُملة من المواقف النقدية مما انتهى إليه الجيل الأول من النقاد، والتي لا تزال نجد امتداداً لها في آثار الدارسين حتى اليوم.

1 - قضايا النحل:

حرصنا في مباشرة هذه القضايا على أن لا نترلق بها في إطار جدلية الصراع بين العرب والموالي واقتران ذلك لدى بعضهم بظاهرة الشعوبية⁽¹⁾، بل خرجنا بها عن الموروث من المواقف، وبيتنا - انطلاقاً من شاهد هو خلف الأحمر - كيف أن عملية قول الشعر ونخله القدماء إنما اقترنت لدى هذا الشاعر الراوية بعملية الإبداع ذاتها - فهذه توأم لتلك -، كما بيتنا أن هذا المنحى (ولا نظن أن خلفاً انفرد به) يتأكد به منزغ خاص في تصور الخطاب الشعري تنغرس أصوله فيما استقر في الملكات والطبائع والأذهان منذ العهود الأولى للشعر من أنماط مثلى للشعر يجد اقتضاه في محاكاتها (أو النسخ على منوالها) ومعارضتها⁽²⁾. وهو ما لم يهتد إليه الدارسون القدماء (الجمحي، الخالديان، أبو الفرج...)، ومن نحا نحوهم من المستشرقين (آلوردت، بلاشير...)، ومن سار على منوال هؤلاء من الدارسين العرب، عندما ردّوا بصفة آلية مثل هذا الشعر الذي أفرزه القرن الثاني إلى نظام القصيدة كما استقر عند الجاهليين لا

(1) انظر. هدارة: «اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني»، ص 400.

(2) انظر. قصائد خلف المطولات بالجزء الأول.

يَخْرُجُ عنه في أَشْكَالِهِ وَأَغْرَاضِهِ وَدَلَّالَتِهِ، وَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ - دُونَ أَنْ يُصَرِّحُوا بِهِ - أَنَّ شَعْرَ الْعَرَبِ أَشْبَاهُ وَنَظَائِرُ يُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَصَرَّبْتُ مِنَ اللَّفِّ وَالذَّوْرَانِ حَوْلَ رَصِيدِ مَوْرُوثٍ مِنَ الْقَوَالِبِ الْجَاهِزَةِ (كَلِيشِيَّاتٍ)، بِمَغْزَلٍ عَنْ كُلِّ هَاجِسٍ تَجْدِيدٍ وَابْتِدَاعٍ، وَهِيَ كَمَا نَرَى مَسَالِكُ فِي النَّظَرِ تَقِفُ فِي تَصَوُّرِهَا لِتَطَوُّرِ أُبْنِيَةِ الشَّعْرِ الْعَمِيقَةِ عِنْدَ ظَاهِرِ شَكْلِهِ، لَا تَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى نَظَرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ شَامِلَةٍ تَتَعَلَّقُ جَوْهَرًا بِمَقَاصِدِ الشَّعْرِ كَمَا سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّا.

2 - مسالك الغزل:

لقد حاولنا في هذا الباب مراجعة ما استقرَّ في الأذهان منذ القديم من آراءٍ تتعلَّقُ بِتَصْنِيفِ الْغَزْلِ إِلَى «عَفِيفٍ غُذْرِيٍّ» وَ«مَاجِنٍ خَلِيعٍ»، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْ هَذَا الْمَنْظُورِ فِي الدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ مِنْ مُصْطَلَحَاتٍ أَبَقَتْ عَلَى هَذِهِ الْازْدَوَاجِيَّةِ فِي تَصْنِيفِ هَذَا الْفَنِّ. وَأَشْرَفْنَا إِلَى أَنَّ تَحْلِيلَ الظَّاهِرَةِ الْغَزَلِيَّةِ لَمْ تَخْرُجْ لَدَى عُمُومِ الدَّارِسِينَ عَنْ هَذَا التَّصَوُّورِ الثَّنَائِي (مَنْ غَزَلَ أَفْلَاطُونِي إِلَى غَزَلٍ وَاقِعِي، وَمَنْ رَمَزِي إِلَى تَحْقِيقِي، وَمَنْ عَاطِفِي إِلَى حِسِّيٍّ، وَمَنْ بَدَوِيٍّ إِلَى حَضْرِيٍّ...). دُونَ مَا تَحْدِيدِ وَاضِحٍ دَقِيقٍ لِمَا تُجْرِيهِ هَذِهِ الْمَصْطَلَحَاتُ مِنْ مَفَاهِيمَ كَثِيرًا مَا تَجْمَعُ فِي أَنْ وَاحِدٍ لَدَى النِّقَادِ بَيْنَ الدَّلَالَةِ الْفَنِّيَّةِ، وَالدَّلَالَةِ السُّلُوكِيَّةِ، وَالدَّلَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.

كما حاولنا مراجعة الرأي الشائع القائل بأنَّ الغزلَ «العَفِيفَ» ضَعُفَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ الْأَحْنَفِ يُوَلِّفُ حَالَةً شَاذَةً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ⁽¹⁾.

3 - مسالك الظرف والظرفاء واقترانها بمسالك الشعر «الْمُتَمَاجِنِ»:

لقد حاولنا في هذا الباب كذلك - انطلاقةً مِنْ مَدَوْنَتِنَا (الجزء الثالث بالخصوص حيث جمعنا أشعاراً تُمَثِّلُ أَحَدَ تَيَّارَاتِ الْعَصْرِ الطَّاعِيَّةِ، أَشَادَ فِيهَا

(1) انظر كتابات المستشرق بلاشير، وشوقي ضيف، وعبد الستار الجواري، وقد أحلنا عليهم في تضاعيف الجزء الثاني من هذا العمل.

أصحابها بمواطن اللذة على اختلاف مجاريها وخرجوا فيها عن السنن) أن نبيّن كيف أن الظرف في المجتمع البغدادي تحوّل في بعض مسالكه وتصاريفه من ظرف قوامه «المروءة» و«الفتوة» و«العفة» كما حدّدها الوشاء، إلى ظرف متماّجن يقترون بمظاهر سلوكية أفرزها نظام الحياة بالمدينة وتميّز بها فيما تميّز فئات من الشعراء تشبّهوا - استطرافاً وخروجاً عن العادة أو طلباً للرزق - بالمؤنوسين (خالد الكاتب، ماني الموسوس)، والمُحارفين والمُصغّلين والمُكذّين (جَحْظَة، أبو فرعون الساسي، أبو الشمقمق) وأهل السُخف والرفاعة (عمار ذو كِنَاز، أبو العبر)، ممّا أفضى بنا إلى محاولة تحديد ما أسمّيناه بـ «ظرف مضاد»، مثله شجر العُصر أحسن تمثيل، وهو ظرف تتحوّل معه الرؤية للإنسان الكامل من نموذج الفتى كما أقرّته ثقافة البادية وتحدّدت صورته لدى المُفضّل الضبّي والأضعي في اختيارهما، إلى نموذج جديد يتخذ من الحياة الحضرية أهمّ خصائصه من رفض للعنف، وركون إلى السلم، وطلب جامع للمسرات، وإشادة بطيّبات الحياة، وما كان من أثر هذه الظاهرة الجديدة في توجيه الأخلاق وتكييف الأذواق وتحديد أنماط جديدة في السلوك لدى فئات الخاصة من ذوي السلطان والجاه والثروات، ومن لفّ لفهم من الأتباع من ذوي البطالة من فتيان بغداد والمُتظرفين بها من أصحاب الحرف⁽¹⁾.

4 - ما حُسر من الشعر القديم فيما أسمّاه بعضهم بـ «الأدب الهادف» :

لقد حاولنا في هذا الباب التعديل من الرأي الشائع لدى جمهور النقاد والقاتل بأنّ بعض مسالك الشعر العربي في عصوره الأولى (وضربوا لذلك مثل شعراء الصغلكة والكُذبة والمُحارفة وشعراء الفتنة ببغداد في أعقاب القرن الثاني) قد نهج فيها من انتحائها من الشعراء نهجاً «نضالياً»، «ثورياً»، وأوضحنا استناداً

(1) انظر بالخصوص الدراسة التي مهدنا بها لشعر الخبز أُرزي (الجزء الثاني ص 353 - 406).

إلى ما دَوَّنَاهُ من شَوَاهِدَ موسَّعة في هذا الغرض، بأنَّ سائرَ هذا الشعر لا يَغْدُو في جَوْهره أَنْ يَكُونَ مجردَ تعبيرٍ عن جُملة من المشاغل الذَّاتِيَّة لآ علاقة لَهُ بِمَشَاغِلِ المَجْمُوعَةِ وَلَا صِلَة لَهُ أَصْلًا بِالثَّورِيَّة والنُّصَالِيَّة⁽¹⁾. وقلنا بأنَّ جَحْظَةً مثلاً - وهو من شُعراء مُدَوَّنَتنا - لم يَكُنْ «مِنْ خَيْرٍ مَنْ يُمَثِّلُونَ حَيَاةَ الشَّعْبِ التَّعْسَةِ» كما ذهب إلى ذلك بعض النقاد⁽²⁾، وإنَّما شَكَّوَاهُ الْفَقْرَ كان مِنْهُ تَخَلُّقًا بِأَخْلَاقِ الْمُحَارِفِينَ الطُّيَّابِ لَا غَيْرٍ. كذلك شَأْنُ أَبِي فِرْعَوْنَ السَّاسِي، هذا الذي كان لَا يَضْبِرُ عَنِ الكُذْبَةِ وَلَوْ «عَرَضَ عَلَيْهِ مِيَاسِيرُ البُصْرَةِ الكِفَايَةِ»⁽³⁾. وكذلك شَأْنُ فِتَّةٍ مِنْ شُعراء بَغْدَادَ المذكورين عندما تَفَجَّعُوا لِأَحْوالِ العَصْرِ، وذكرنا مِنْهُمْ عَمْرُو الْوَرَّاقَ هذا الذي نَغَصَّتْ عَلَيْهِ حَوَادِثُ بَغْدَادَ ما كان عَلَيْهِ مِنْ حَيَاةٍ بَطَّالَةٍ وَمَجَانَّةٍ فَانْبَرَى يَتَفَجَّعُ لِمَا لَحِقَ الْمَدِينَةَ مِنْ دَمَارٍ مِنْ جَرَاءِ الْحَرْبِ لَا يَغْنِيهِ مِنَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ (وقد صرَّح بذلك في شعره) إِلَّا مَا يَسْتَتِبُّ فِي كَنَفِ هَذَا أَوْ ذَاكَ مِنْ أَمْنٍ قَدْ يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْعَوْدَةَ إِلَى ما كان عليه من حَيَاةِ الْخِلَاعَةِ⁽⁴⁾.

5 - ما أسماه بعضهم بـ «الطَّوابعِ الشَّعْبِيَّةِ» للشعر في القرنين الثاني والثالث :

في هذا الباب أيضاً حاولنا أَنْ نَرْفَعَ لِبَسًا، وَأَقَمْنَا الشَّاهِدَ مِنَ الشعرِ⁽⁵⁾ على أَنَّ مَا أَسْمَاهُ بَعْضُهُمْ بـ «الطَّوابعِ الشَّعْبِيَّةِ»⁽⁶⁾ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَ الْمُتَأَمِّلِ

(1) انظر دراسات يوسف خليف وحسين عطوان بثبت المراجع .

(2) انظر الجزء الثالث، ص 55 - 72 .

(3) انظر الجزء الثالث، ص 73 - 88 .

(4) انظر الجزء الرابع، ص 127 - 141 .

(5) انظر ما جمعناه وقدمنا له من شعر الخبزأرزي في الجزء الثاني .

(6) انظر شوقي ضيف: «العصر العباسي الثاني» ص 509 - 510، وكذلك «الشعر وطوابعه

الشعبية على مرِّ العصور» ص 129، مع الملاحظة أن الناقد لم ينفرد بهذا المنحى في تحليل بعض خصائص الشعر العباسي، بل نجد نفس الأفكار أو ما يجانبها في كتابات البهيمتي (تاريخ الشعر...)، وهذارة (اتجاهات الشعر العربي...) والمستشرق «فون قرونباوم»/ (GRÜNEBAUM): (شعراء عباسيون...).

مَجْرَدُ طَوَائِعِ حَضَرِيَّةٍ (لَمْ يَنْقُ الشَّعْرُ الْجَاهِلِيُّ هُوَ أَيْضاً بِمَعْزِلِ عَنْهَا فِي عَهْدِ الْمَنَازِرَةِ) تَكُونُ بِهَا جَانِبٌ مِنْ مَدُونَةِ الْعَصْرِ نَتِيجَةً مَا أَفْرَزَتْهُ الْحَيَاةُ بِالْعَوَاصِمِ الْجَدِيدَةِ مِنْ أَنْمَاطٍ فِي السُّلُوكِ تَحَدَّثَتْ بِهَا أَسَالِيبُ الْعَيْشِ بِهَذِهِ الْعَوَاصِمِ عَلَى اخْتِلَافِ الطَّبَقَاتِ الْمُتَسَاكِينِ فِيهَا، كَمَا بَيَّنَّا أَنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بُرُوزِ «شُعْرَاءَ شَعْبِيَّينَ حَقًّا»، فِي فَتْرَتِنَا، «يَقْدَمُونَ أَشْعَارَهُمْ لِلْجُمْهُورِ لَا لِلطَّبَقَةِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ» (وَضَرَبُوا لَذَلِكَ مِثْلَ شَاعِرِنَا الْخُبَزَارِزِيِّ)⁽¹⁾ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى نَفْسِ الْوَهْمِ فَضْلاً عَنْ اعْتِقَادِ خَاطِئٍ فِي نَظَرِنَا مُفَادُهُ أَنَّ «الْفَوَارِقَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْعَامِيَّةُ وَالْفُضْحَى لَمْ تَكُنْ وَاسِعَةً» وَهُوَ مَا لَمْ يَكْشِفْ عَنْهُ بَعْدُ الْبَحْثُ الْأَلْسُنِيُّ، وَلَا نَجِدُ لَهُ فِي شِعْرِ الْخُبَزَارِزِيِّ نَفْسَهُ مَا يَدْعُوهُ.

6 - «الرِّيَاةُ» فِي الشَّعْرِ أَوْ السَّبْقُ إِلَى الْمَسَالِكِ الْجَدِيدَةِ وَالْأَغْرَاضِ الطَّرِيفَةِ:

هنا أيضاً حاولنا مراجعة بعض الآراء الشائعة لدى الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين، وبيّنا كيف أن باب السُّخْفِ وَالرَّقَاعَةِ وَالْكُذْبَةِ إِنَّمَا سَبَقَ إِلَيْهِ ثُلَّةٌ مِنْ شُعْرَاءِ فَتْرَتِنَا قَبْلَ أَنْ تَتَبَلَّوْا خِصَائِصَهُ مَعَ شُعْرَاءِ الْيَمِّمَةِ (أَبُو الرِّقْعَمَقِ، ابْنُ سَكْرَةَ، ابْنُ الْحَجَّاجِ، أَبُو دُلْفٍ...)، وَأَنَّ رِثَاءَ الْبُلْدَانِ سَبَقَ إِلَيْهِ شُعْرَاءُ بَغْدَادٍ فِي الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ شُعْرَاءُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ (الْحُضْرِيُّ، ابْنُ شَرْفٍ، ابْنُ رَشِيقٍ...) رَوَائِعُهُمْ فِي التَّفَجِّعِ لِنَكْبَةِ الْقَيْرَوَانِ، وَأَنَّ «هَرِيَّةَ» ابْنِ الْعَلَّافِ لَيْسَتْ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي رِثَاءِ الْحَيَوَانِ، بَلْ سَبَقَتْهَا رَوَائِعُ يَوْسُفَ بْنِ صَبِيحٍ فِي الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ... إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ عِنْدَ اسْتِقْرَاءِ الْمَدُونَةِ الَّتِي بَيَّنَّ أَيْدِينَا.

* * *

هذا عملنا، فَإِنْ وَفَّقْنَا إِلَى اسْتِيفَاءِ الْغَرَضِ فِيهِ فَذَاكَ مَا سَعَيْنَا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى فَذَاكَ مَا وَسِعَتْهُ النَّفْسُ.

(1) نَعْلَمُ أَنَّ «الطَوَائِعَ الشَّعْبِيَّةَ» الْحَقَّ إِنَّمَا مِثْلُهَا شِعْرُ الرَّجُلِ بِالْأَنْدَلُسِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ (انْظُرْ دِيوَانَ ابْنِ قَزْمَانَ: تَوَفَّى نَحْوَ 555 هـ).

شعراء عباسيون منسيون

القسم الأول الإشكالية العامة⁽¹⁾

(1) نص هذه الدراسة صدر بالفرنسية بعنوان:

«*La mémoire rassemblée: poètes arabes «mineurs» des IIe/VIIIe et IIIe/IXe siècles*» La Française d'Édition et d'Impression, 1987 (Diffusion: Maisonneuve et Larose, Paris).

ولقد أشركنا في ترجمته زميلنا الأستاذ محمد قوبعة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس) مع الملاحظة أننا توسعنا في النص الأصلي بمراجعات وإضافات يهتدي إليها القارئ بيسر عند مقابلة النصين.

مكتبة
الشيخ
محمد
المنجد

توطئة

إن الدراسة التأليفية التي بين أيدينا تقديم مجموعة منتظمة تتألف من ستة أجزاء خُصَّ بها شعراء من المشرق في القرنين الثاني والثالث للهجرة الموافق للقرنين الثامن والتاسع للميلاد.

وإنني لن أسم هؤلاء الشعراء بـ «المقلّين»⁽¹⁾ أو الأغفال لأنه من الاعتساف في الحكم في أغلب الأحيان ألا نعترف بموهبتهم. ومهما يكن من أمر فإنه من المؤسف أن نراهم مغمورين وقد صيّرتهم القرون الخوالي نسياً منسياً. وقد أنجز إبراهيم النجار هذا العمل الباهر فنشر للناس «ما كان مطوياً من شعرهم» عاملاً في ذلك بما يقتضيه عمق البحث من محكم الإلمام بالمعرفة، بل وكذلك بما يتطلبه الحكم بين الأمور من حصافة وبعد نظر وهذا يعني أن العمل الذي سنطالع ليس من قبيل الملفّ الذي تتراكم فيه الوثائق ويقصد به استرداد حقّ من الحقوق وحيث يتسع المجال للتعاطف والمجاملة. إننا، على العكس من ذلك أمام بحث من صنف البحوث التي تذكرنا بمسالك التنقيب الأثري من حيث صرامة المنهج ودقّة الأداة، وهو بحث هدفه الحثّ على إعمال الفكر والروية.

ومهما يكن فإنّه لِمِمّا تطيب له النفس أن يظفر الباحث بأداة عمل كان

(1) أبقينا على هذا المصطلح المتعارف لدى النقاد لتأدية المصطلح اللاتيني «minores» الوارد في النص الفرنسي مع العلم أنه لا يؤدّي تماماً القصد (فكم من شاعر مقلّ عدّه الجمحي في «طبقاته» من الفحول!). وإنّما نعني بالمقلّين هنا شعراء «أصاغر» أو «مغمورين» لم يدركوا درجة «الأكابر»، فلم يعدّوا من كبار الشعراء وفحولهم. (المؤلف).

يحلم بأن تتوفر له . وإنني أنا نفسي أهتمّ بشعراء هذا العصر منذ زمن غير بعيد، ولم تنفك تعترضني الخطفى بعض الجوانب الغامضة، ولكنها جوانب أخاذة كنت أودّ أن أستجلي خفاياها، فمحنة الشعر التي حدّدت معالمها الآثار الأمّيات، آثار الفحول، تزيج النّقاب عن مسالك متشعبة - وما أكثرها مسالك - لا نعلم إلى أين منتهاها. وقد كان في مدينة الشعراء معالم شامخة تروي مجدها الأثيل، ولكن أصواتاً بعيدة الغور تنبعث من رحابها وتنبؤنا بأنّ هناك أماكن أخرى هي أيضاً تنبض حياة.

وها قد توفّرت العدة الآن. فبين أيدينا اليوم مدونة يجد فيها عددٌ لا يستهان به من الشعراء المغمورين مكانهم. لقد كان العمل شاقاً طويلاً وكان البحث عرضة لعوائق مستمرة وذلك من جرّاء بعثرة المصادر وانقسام وحدة الآثار وتشتتها، وبسبب الإهمال والضياع، ووجوه الاستعمال المختلفة. وفي هذا العمل واصل إبراهيم النجار السّنة الحسنة التي سار عليها علماء الأدب في العهد الوسيط، سنة أولئك الذين كان يقال عنهم إنهم قادرون على مكابدة أعمال هي كالجهاد، إلّا أنّ التبحّر في المعرفة لم يورث الانغلاق، وإنما خاضه الباحث بذكاء، فاتّسم العمل بالفتّح الفكري، ممّا أتاح إثارة قضايا مهمّة تتعلّق بسوسيولوجيا الأدب أو بتاريخه، وهي قضايا ليست من مجال اهتمام دارسي العربية دون غيرهم من ذوي الاختصاص.

وسيجد دارسو العربية، طبعاً، في هذا العمل مكنزاً على قدر كبير من الثراء. ففي مجموع الأجزاء الستة التي تلي هذه المقدمة القيّمة عدد من الدراسات المستقلّة سيبقى لمُدّة طويلة حجة لا تردّ. إنّ المؤلف من المنقّبين في الكتب، وهو إلى جانب ذلك يميل ذوقاً إلى شكل من أشكال الكتابة العربية يعجب به قبل كلّ شيء. وهو يريد إحياء الازدهار الأدبي الذي كان يتميز به ذلك العصر. أما تعدّد الأعلام فيعكس ما يزخر به الوسط الأدبي آنذاك من أوجه نشاط متعدّدة، ومن اتجاهات متنوّعة، ومن مواهب متألّقة.

ولكن ينبغي ألا ننتبه في خضم هذا الشعر، فالكثرة ليست بالضرورة دليلاً

على الجودة، وقدرة الأديب الأريب على نظم الشعر لا ترفعه بالضرورة إلى مرتبة الشاعر الحق.

لقد كان العرب يطربون لنظم القوافي، وكانوا يفعلون ذلك في كلّ المناسبات. وهذه الظاهرة إن دلّت على حجم ثقافة فإنها بلا منازع لا تدلّ على نسبة المواهب أو درجة النبوغ. ذلك ما أقرّه التاريخ في الحكم الذي أصدره على هذا الشعر حيث توخّى الصرامة في تمحيص الآثار وانتقاء جيدها.

وقد فسر لنا إبراهيم النجار تفسيراً شافياً جملة المسالك والوسائل التي أُعْتُمِدَتْ في إجراء هذا الانتقاء، كما وصف الطرائق المتوخّاة في طمس آثار بأكملها. وهكذا يتبيّن لنا كيف تتولّى الثقافة - ونعني هنا ثقافة العرب - محاكمة نفسها بنفسها. أفليست هذه المحاكمة محاكمتنا نحن؟ لا أهمية لذلك، إنما الشأن في أن هذا الإجراء هو ثمرة وعي ثقافي فاعل.

ونتساءل: هؤلاء الشعراء المقلّون هل هم حقاً دون غيرهم طبقة فبارت بضاعتهم، ولم يقووا على منافسة كبار الشعراء المتزلّفين فانهزموا شرّ انهزام؟ نعم هو ذاك أو بعضه ولكن نضيف أنّ بعض هؤلاء الشعراء ذوي الموهبة التي لا جدال فيها أُهْمِلُوا لأنهم لم ينظموا قصائد المدح تلك المطوّلات الفاخرة التي اقترنت بأحداث التاريخ وأخبار أمرائه. وهم بهذا لم يحفلوا بنموذج الكتابة المثالي الذي جدّ في ضبطه الخطاب النقدي بداية من القرن الأوّل للهجرة. ولذا فإن آثارهم لم تُدرج ضمن النصوص الشعرية الكبرى التي قامت شرعيتها على أساس ما اتّصفت به من مثالية.

وهكذا استطاع هؤلاء الشعراء إنشاء مقطّعات طريفة في بعض الأحيان تهشّ لها طباع هواة الشعر، ويمكننا ونحن نتصفح هذا الشعر أن نعجب بكلام وقاد، وأن نبسم لدعابة، وأن تهتّزّ مشاعرنا طرباً لصورة حبّ غريب. وعلى قدر ذلك يمكن أن نقطف من الممتع لطائفها حين نفاجاً بإيقاع جريء أو نقف على ما أنتق من التراكيب أو ما دقّ من الصور. كل ذلك يُسهم بعض الإسهام في تدقيق الصورة القائمة في الأذهان للشعر العربي، ويبعث فيها حياة جديدة.

وقد أدى العمل الذي أنجزه الباحث إلى إحصاء المصادر وإلى اقتراح تصنيف لها يستند فيه إلى طبيعتها. فالصفحات المخصصة لحركة الاختيار تبدو على درجة كبيرة من الدقة والرشاقة. وكان بودّي لو تمّ التوسع في الحديث عن مسالك التّداول لهذه المصادر وعن عدد قرائنها الفعلي. فلعلّ هذا الأمر قد استحال؟ ويمكن على كل حال أن نتداركه بقراءة الصفحات التي خصصت لمجالس الشعراء.

أمّا حواشي المدوّنة فإنّها ستشبع نهم المولعين بسوسولوجيا الأدب، خاصة أنّ المؤلف لم يتوان كلّما سنحت الفرصة في تقديم مقارنات مفيدة يتناول فيها الحياة الأدبية في العصر الحديث. فترانا لذلك وقد أخذتنا الدراسة وقادتنا بثبات وجراءة بين مختلف النصوص دون أن يفتر اهتمامنا ولا يتقلص ما نجنيه من الفائدة منها.

وقد بيّن إبراهيم النجار بما له من خبرة بدقائق اللغة أن التحليل الكلاسيكي يمكنه أن يستفيد من المكاسب الحديثة التي حققها النقد الأدبي. فالتأليف إذن بين هذا المنحى وذاك ممكن. وهكذا لا ينتصر المؤلف لمذهب في النقد دون آخر بل يوفق بين مذهبين في النقد العربي، مذهب المتمسكين بالشرح الخطي الذي يعدّ فناً من الفنون الأدبية، ومذهب المقتفين لخطي الجديد، المولعين بآخر ما يظهر في سوق النقد، وهم قوم لا ندري أعجب بغموض كلامهم أم بتفاهة ما يقدّمون من الآراء.

وقصارى القول إنّ هذه النصوص تؤدي - عن وعي - إلى مناقشات تمسّ جوهر الأمور، وينجرّ عنها بالطبع اختلاف في وجهات النظر يقتضيه التحليل. وقد بدا التحليل نفسه حريصاً كلّ الحرص على التنبؤ بالمفاجأة. أما، من جهتي، فإنّ ملاحظتي تتصل بمسألتين اثنتين:

أولاهما مسألة «الشفوية»⁽¹⁾ وقد تناولها المؤلف لا باعتبارها مفهوماً نظرياً

(1) نعني بالشفوية ما ارتبط بسنة الخطاب الشفوي للشعر في أوليته ولم يتقيّد بمنطق الخطاب المكتوب.

أو نظاماً يفسّر نمطاً من أنماط التفكير بل باعتبارها طريقة تلفّظ . وقد بدا لي أنّ الشفوية إذا تناولناها بهذا المعنى تحدّ من النقاش الذي كان يمكن أن يثار حول المولّدين ، وهم شعراء متأخرون لا محدثون كما ينبغي أن نفهم على ما اعتقد . فكلّ شعر قيل بعد العهود التأسيسية التي أحيطت بهالة أسطورية والتي كان الكلام فيها خالصاً صافياً هو حتماً شعر داخل في دائرة الإحداث . ويعني ذلك أنه ينتمي إلى مرحلة متأخرة ، لا يبقى الشعر فيها بمعزل عن شبهة الانحراف والخروج عن الأصل والمنوال .

وإنّه ابتداءً من تاريخ لم يُضبط بدقّة يحدّده بعضهم مثلاً بعصر ذي الرّمة ، كل شاعر جاء بعد هذا العصر يُعدّ بصفة نهائية مولّداً سواء في ذلك بشّار بن برد أو المتنبي .

وسيتولّى النقد مهمّة السهر على حراسة قواعد الكتابة المثلى أو ما يسمّى بعمود الشعر ، بكلّ انتباه ويقظة . غير أننا على يقين من أن الرهان قد تجاوز طريقة الكتابة تلك التي قد لا تدلّ إلّا على ضرب من الأكاديمية . ناهيك أن الرقابة عملت عملها أيضاً في المضامين ، فمحصّنت تصوّرات المتخيّل الشعري وحصرته في الحدود التي عيّنتها له .

ولننظر مثلاً في أبي نواس : فقضيّته ليست قضية أخلاقية . والشاعر ليس نموذجاً للخلق الفاضل . ومع ذلك فإنّ شعره حظي بشهرة كبيرة وإن كان صاحبه ربّما قد أقيم عليه الحدّ وقتل . إنّ المشكلة تكمن في التحوّل العظيم الذي مرّ به المجتمع العربي وذلك حين انتقل من حضارة شفوية إلى حضارة يستبدّ فيها العقل بالحرف المرسوم . فما هو ثمن هذا التحوّل؟ إنه من العسير أن نقدر تطوّر الشعر والخطاب النقدي الذي احتضنه إذا نحن أهملنا هذا المعطى الأساسي . وفي هذا السياق تندرج ملاحظتي الثانية إذ أنني لم أتبيّن بما يشفي العلاقة التي تشدّ الشعر إلى سائر وجوه الثقافة الإسلامية بما هو إجراء لغوي أولاً ، وبما هو أداة تعبيرية ثانياً . لقد تمّ في القرن الثالث للهجرة توزيع الوظائف ، وصنّفت الابدستمولوجيا العلوم تصنيفاً تفاضلياً ، وعمّقته حركات التفسير والتأويل .

واستوى البناء قائماً بعد لأي، وإثر خصومات ثقافية حامية عدّلت بين الأطراف .
فما هي منزلة الشعر في هذه المجموعة التي سادها الفكر بلا جدال؟ وإذا كان
عدد كبير من الشعراء قد غمرهم النسيان أفليس مردّ ذلك إلى أنّ المجتمع قد
«استهلك» هؤلاء الشعراء استهلاكاً . إذ أقبل عليهم الناس للاستمتاع بلطائفهم
ولكنهم لم يروا أنّ كلّ ما قالوا من شعر جدير بأن يحتفظ به . إنّ للشاعر منزلة
مخصوصة في المجتمع المدني ولكنّ النشاط الذي كان يمارسه لم يكن له من
التأثير الحاسم ما كان للعلوم المتصلة بأصول الثقافة الدينية . ولعلّ هذا المجتمع
الذي تعدّدت شعراؤه قد تولّد فيه ضرب من عدم الاكتراث جعله يعتبر أنّ ضياع
أثر من الآثار لا يمثل خسارة ذات بال . ويرى أنّ الصّوت الضائع سيلقى عل كلّ
صدى يبعثه من جديد .

ويتساءل المؤلّف بعد هذا إن كانت الحصيلة هزيلة، بل نقول إنها على
العكس تبهر الناظرين! على أنه ينبغي أن نتسلّح في المستقبل بوسائل أخرى
تساعدنا على مواصلة هذا البحث، ومنها خاصة الوسائل التي توفرها الإعلامية .
ولعلنا آنذاك ستمكّن من استغلال المدونة الكبرى للشعر العربي المنتظرة في
وضع معجم واف للغة، وفي كتابة تاريخها وهي أدوات ينبغي أن نقرّ في خجل
بأننا منها خلاء والحال أنّنا نقترّب من القرن الحادي والعشرين . وإذا توفرت لنا
في يوم ما فإننا سنكون مدينين في ذلك لرجال علمهم وصبرهم في علم إبراهيم
النجار وصبره .

جمال الدين بن الشيخ
أستاذ بجامعة السربون

مدخل

«إنّ «الكلام على الكلام» الذي يظل خاضعاً لما تمليه السنة القائمة من تكليف يقيد الأحكام أو هو يسعى إلى تبوأ المنزلة تلك، كلام ينبغي لنا أن نكفكف من غربه. فقد ضقنا ببطلانه ذرعاً. والكلام على الكلام الذي لا خلل فيه ولا فطور يخفي أبشع وجوه الخسة والحقارة، ويبطن الزور والبهتان. أما ما ينبغي لنا أن نستبدله به فهو الشرح، ذلك الذي بإمكاننا أن نقوم به في كلّ المستويات، والذي يضع تحقيق النص أي المادّة ذاتها في المقام الأوّل».

جان بولاك⁽¹⁾ (Jean Bollack)

إذا كانت مدوّنة الشعر في الآداب الأوروبية الناشئة (القرون XI-XIII) المنحدرة عن اللغة اللاتينية (ونأخذ لذلك مثال الشعر الفرنسي)، تحليل على أنسجة لغوية، وأشكال ثقافية هي من الغرابة لدى القارئ من ذوي نفس اللسان في القرن العشرين، بحيث لا يقدر على فهمها إلا أهل الاختصاص، وقد تولّى بيان هذا الأمر بياناً شافياً بول زمتور PAUL ZUMTHOR في دراسته المهمة حول «الشعرية في القرون الوسطى»⁽²⁾، فإنّ الأمر يختلف بالنسبة إلى الشعر العربي في العصر العباسي الأوّل. ولا مجال لمقارنة عتمة القرون الأربعة أو الخمسة

(1) من حوار أجرته جريدة Le Monde الفرنسية مع «بولاك» ونُشر بتاريخ 12 جويلية. و«بولاك» من الدّارسين الجامعيين الذين عُرِفوا بأرائهم الجريئة في التعامل مع نصوص التراث الإغريقي في القرن 5 قبل الميلاد.

(2) «دراسة في الشعرية في القرون الوسطى»

. Essais de poétique médiévale, Seuil-Paris 1972

التي تفصل بين المدونة الأولى والعصر الحديث، بما تتميز به القرون الأحد عشر أو الاثنا عشر الفاصلة بين المدونة الثانية والناطقين بالضاد في عصرنا هذا من شفافية شديدة لا تعكّر إلا لمأماً.

لقد حافظ الخطاب الشعري العربي على وحدته وهويته على مدى العصور بفضل جملة من العناصر المكوّنة له الثابتة فيه . وهي المقومات اللغوية (المحاور المعجمية والصرفية التركيبية)، ومجالات القول الشعري وموضوعاته (الأبنية الأغراضية)، وأساليب التعبير (الوجوه البلاغية). لهذا فإن تقسيم مدونة الشعر العربي تقسيماً صارماً تُعزل فيه المراحل التي مرّ بها بعضها عن بعض باعتماد الطريقة التي دأب عليها مؤرخو الآداب الأوروبية قد يكون تقسيماً شكلياً محضاً.

لقد تحدّى الشعر العربي الزمان (نصوصه الأولى تحيلنا على القرن الخامس بعد المسيح) والمكان (امتداده على ثلاث قارات)، فجاء القول فيه توليداً ونسجاً على منوال واحد، في نطاق المواصلة والتجانس غير أنه لم يقع في محض التكرار (سنرى كيف أنّ التوليد يفتقر في هذا السياق بمفهوم الإبداع المتجدد). ويجد الباحث في هذا الشعر ثوابت يتضح من خلالها أن دراسة الآثار التي قيلت في عصر ما دراسة آنية إنما هو عمل لا يخلص إلى نتائج مفيدة ما لم يراع العوامل المتواصل تأثيرها، الدائم حضورها، وهي عوامل ينطوي عليها قسم من الموروث ظلّ حياً في تلك الآثار، أو يتضمنها جانب من الجوانب تمّ إحيائه في العصر الذي يعنينا الباحث أو في العصور اللاحقة. ففي هذا المجال نذهب إلى ما ذهب إليه رومان جاكبسون (ROMAN JACOBSON) في دراساته الضّافية لعلم العلامات العام (السيمائية) التي تؤطر معظم مؤلفاته⁽¹⁾ وذلك أنه لا مجال في تدبّر الشعر للفصل بين الدراسة الآنية والدراسة التطورية. ويحسّ الباحث أثناء دراسة قسم من أقسام المدونة بأنه مدعوّ دوماً إلى اعتماد المنظورين في آن واحد⁽²⁾. ونخلص من هذا إلى القول بأنّ الحواجز القائمة في

(1) نذكر خاصة: «دراسة في الألسنية العامة» (Essais de linguistique générale) (1963)

و «مسائل في الشعرية» (Questions de poétique) (1973).

(2) تحدّث زمتور ZUMTHOR في سياق تحليله للأدب في القرون الوسطى عن وجود =

الدراسات الأدبية بالجامعات الغربية بين دارسي الأدب القروسطي والمهتمين بالأدب الحديث من جهة، وبين مؤرخي الأدب ونقاده من جهة ثانية وهي حواجز يبدو أن الجامعات العربية نقلتها نقلاً حرفياً استجابة لملاسات ظرفية، لا تلائم المشاكل المخصوصة التي يطرحها الشعر العربي. ويترتب عن كل ما سبق جملة من النتائج ذات الصبغة المنهجية، حاولنا أن نستغلها في تصورنا الشامل لهذا العمل، لذلك تجدها قد حذدت أجزاء ومفاصله.

ونشر أولاً بتقديم الفترة التي اخترناها. وسنرى من خلال ضبط مختلف أقسام المدونة أن هذه الفترة تتجاوز أحياناً سنة 247هـ/860م. (تاريخ مقتل الخليفة المتوكل). فهذه السنة تمثل في تقسيم العصور التقليدي نهاية العصر العباسي الأول، وستبين أن الفترة التي تعيننا تمتد إلى نهاية القرن الثالث للهجرة⁽¹⁾، التاسع للميلاد. فهذا الحيز الزمني منعرج تاريخي حضاري عرف تشتت مركزية بغداد وبروز عواصم الأقاليم الكبرى مما سيكون له أبعاد الأثر في التطورات اللاحقة.

فعلى القارئ إذن ألا يستغرب حين يجد في بعض أقسام المدونة التي تضم ستة أجزاء⁽²⁾، والتي نقدمها باعتبارها قسماً ثانياً من هذا العمل، قلت ينبغي ألا يستغرب إذا وجد جنباً إلى جنب نصوصاً بعضها ينتمي إلى الفترة التي تعيننا، وبعضها قليل في فترات متقدمة عليها أو متأخرة عنها.

= شبكات من الخطوط التطورية في آنية النص. ويبدو لنا أن هذه المسألة تنطبق تمام الانطباق على الشعر العربي القديم (المرجع المذكور - ص 12).

(1) لسنا بحاجة في هذا السياق إلى التذكير بمنهج جاك لوفوف (Le Goff) في أبحاثه حول «l'imaginaire médiéval» باريس 1965، المقدمة ص VIII - XIII (بالفرنسية)، وقد قدّم تقسيماً جديداً للعصور الوسيطة يختلف عن التقسيم القديم الذي أقره الدارسون القدامى. ونعتقد أنه بإمكاننا أن نستوحي من المنهج نفسه تقسيماً جديداً للعصور الإسلامية يختلف عما جاء في التقاليد المدرسية. فنضيف للفترة التي اعتبرها التقسيم القديم منعرجاً من منعرجات الأدب العربي نصف قرن، وهكذا يمتد العصر العباسي الأول حتى أواخر القرن الثالث.

(2) هذه المدونة التي تم تحقيقها والتعليق عليها وتقديمها وتحليل جوانب منها تم كذلك طبعها في نشرة مقتضبة ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تونس الأولى (1987/1990) وذلك بعنوان: «مجمع الذاكرة أو شعراء عباسيون منسيون».

أما الملاحظة الثانية فتتصل بالعنوان الذي وضعناه لهذه الدراسة التأليفية والذي ينم عن تصوّرنا لمحتواها. إنّ مدار البحث لن يكون حول الشعراء، وإنّما حول المدونة وهي تتألف ممّا تبقى وجمعنا بعضه من آثارهم. ولئن كان تاريخ هذه المدونة يرجع إلى القرون الوسطى فإنّ ما مرّ عليها من الزمن (أحد عشر قرناً ونيف) لم يغيّر من وضوح الرسالة التي تحملها كما سبق أن ذكرنا. ونبادر بالقول إنّ منهجنا في البحث نقيض المنهج الذي اعتمدته زمطور (ZUMTHOR) مثلاً. فلقد اقتضت دراسة هذا الباحث عن الشعرية في آداب الغرب في القرون الوسطى أن يجازف في عمله فيعتمد نصوصاً محقّقة دون أن يتساءل عن الأسس التي قام عليها التحقيق⁽¹⁾ في حين أن منهجنا يندرج في إطار ما اصطلاح على تسميته بالمقدمات أو بالأعمال التمهيدية وهي أعمال تسبق حقاً كلّ عمل تحليلي وتنظيري. فنحن لا نعتمد منهج مؤرخ الأدب أو منهج الناقد الأدبي إلّا لماماً. ولو أردنا ذلك مع توخّي ما تملّيه طرائق البحث العلمي من دقة واستقصاء وشمول لاستحال علينا الأمر وذلك لأسباب ثلاثة:

(أ) لقد كان ينبغي أولاً أن نجد بين أيدينا مدونة جاهزة، ولكن لما كان القسم الأكبر منها غير محقق فإننا اضطررنا، في خصوص القسم الذي يعنينا في هذا العمل على الأقل إلى إعداد النصوص إعداداً جديداً، وهو عمل تأسيسي في بعض وجوهه، أو بعبارة أخرى اضطررنا إلى جمع المادة وإحصائها وتبويبها، واختيار نماذج منها تكون ممثلة لها، ضافية، متجانسة، علماً أنّ كلّ عمل يجمع بين البحث في أدقّ دقائقه والتأليف يكون عملاً سابقاً لأوانه إن هو لم يستند إلى هذا القدر من الأعمال التمهيدية. فالقسم الثاني من عملنا هذا (أي

(1) انظر زمطور (ZUMTHOR): المرجع المذكور ص 11، مع ملاحظتنا أنه من الخطأ أن ندعي أنه لا يوجد تماثل من بعض الوجوه بين الأدب الغربي المسيحي في القرون الوسطى والأدب العربي القديم. وأن البحوث في هذا المجال قد تقضي إلى نتائج قد توضح بعض ما انغلق من القضايا المعلقة بالنصوص القديمة جمعاً وقراءة وتأويلاً، فالمشاكل تطرح بطرق متشابهة هنا وهناك مما يبرز مدى ما يمكن أن يستفيد منه علم الأدب المقارن في نطاق الحوار بين الثقافات.

المدونة في أجزائها الستة) يرمي إلى الإجابة عن هذه النقطة الأولى وإن كانت الإجابة جزئية.

(ب) وكان ينبغي، ثانياً، أن يكون بين أيدينا تقويم شامل يصف المادة النصية التي جمعنا (مخطوطة ومطبوعة). ولما كانت هذه الحصيلة التقويمية معدومة فإننا اضطررنا إلى إعدادها، ويعني ذلك محاولة التفكير في هذه المادة لاستخلاص السمات التي تميّزت بها المدونة عبر مآتها طوال السنين الألف ونيف التي مرّت عليها. ويتمثل هذا العمل في ضبط حدود المدونة، والنظر في حركيتها الداخلية، وفي تفحص طرق الاحتفاظ بها، وفي الوقوف على مختلف العوامل التي أسهمت بنصيب كبير في تشتتها وتبعثرها. وإن دراستنا التمهيدية هذه أردناها محاولة لتقديم إطار شامل لهذه الإشكالية.

(ج) وكان ينبغي ثالثاً أن تتوفر لنا، في باب المقدمات التي تسبق الدراسات التحليلية المعمّقة، بحوث تمهيدية تتعلّق بطبيعة المدونة ونمطيتها، ولما كانت هذه الأعمال غير متوفرة، اضطررنا إلى إنجازها في حدود، وإلى اقتراح جملة من الآراء النقدية أجريناها في سياق ما نرومه من الكشف عن سبل جديدة في استقراء مدونة الشعر العربي القديم. فنظرنا في أوجه المحيط الثقافي التي تطورت فيها المدونة، لتندبّر أمراً ذكره بول فالري (PAUL VALERY) وهو مصيب فيه، وهو الفرق الكبير بين الآثار التي تبدو مستجيبة لذوق الجمهور نابعة منه (فهي تلبي حاجته وتستجيب لانتظاره)، ونستطيع تحديد هذه الآثار بصورة تقريبية بفضل معرفة هذا الانتظار. وبين الآثار التي تسعى مقابل ذلك إلى خلق جمهورها⁽¹⁾. إن القسم الأول من هذا العمل يسعى إلى الإجابة بشكل غير مباشر

(1) نستوحي هذه الفقرة من الصفحات الدسمة التي تضمنتها دروس فالري (Valery) في «كلاج دي فرانس» (Collège de France) حول الشعرية، وهي دروس يتسع مجالها إلى دراسة تاريخ الأدب عموماً، حيث يلخص الكاتب منهجه الجديد بقوله: «يمكن أن نحلل بالانطلاق من هذا الفرق بين الآثار كلّ المسائل والخصومات التي تولدت عن الصراع بين القديم والجديد، وكل المناقشات التي دارت حول المصطلحات، ووجوه التقابل بين الجمهور المعداد والجمهور الكبير، ومظاهر التنوع في النقد، ومصير الآثار عبر الزمن، وصنوف التغيير التي تطرأ على قيمتها. إلخ...» (ألوان» 5، ص ص 291 - 292) (variété V).

عن النقطة الثالثة التي نحن بصدد تقديمها (أي طبيعة المدونة ونمطيتها)، وسنسلم مؤقتاً بأن المدونة تنتمي إلى النوع الأول من هذه الآثار بحسب تصنيف بول فالري.

* * *

وسيقصر عملنا، في أولى مراحل البحث إذن على المدونة (تحقيق النصوص، ضبط حصيلة المادة المدروسة، تصنيف النماذج الأدبية) وسنشفع هذا العمل بالتحليل الإجمالي (وقد تمّ في غضون هذه الدراسة التأليفية وضع الأدوات المفهومية والمنهجية التي سنعتمدها في هذا التحليل). وفي هذا المجال لا يوجد فيما نعلم، وفي خصوص الفترة التي تعيننا أيّ عمل علمي شامل، باستثناء الأعمال التي أسهم بها جمال الدين بن الشيخ⁽¹⁾ (هذا الإسهام البكر لما تتسم به الإشكالية التي يطرحها من ثراء وعمق، ولطبيعة التقنيات التي يستخدم)، وباستثناء بعض الدراسات العامة، الغنيّة مادّتها، الجادة معلوماتها، ولكنها دراسات تجاوزها الزمن⁽²⁾ وبعض الأبحاث المطبوعة بالتعميم والتبسيط⁽³⁾.

فإن وُقِّنا إلى أن تكون مدوّنتنا هذه وجملة البحوث والآراء التي تصاحبها وما تضيفه هذه الدراسة التأليفية من عناصر منهجية تنير طريق الباحث، منطلقاً لبحوث أخرى تكون مهمتها إنجاز هذا المشروع العظيم المتمثل في إعداد مدونة الشعر العربي القديم قاطبة، فإننا نكون بذلك قد وفينا بعض ما سعيينا إليه.

هذه هي طريقتنا، ولا نزعم أن الأجزاء التي نقدّم اليوم قد بلغت الإحاطة والشمول أو أدركت الكمال فحاشا أن نكون من المرحين، بل إن عملنا يظل في حدود تقديم حصيلة وقتية وطموحنا لا يعدو هذه الدرجة.

(1) «الشعرية العربية، دراسة في مسالك الإبداع»، باريس 1975 (بالفرنسية).

Poetique arabe, Editions Anthropos, Paris, 1975.

(2) أعمال طه حسين، ريجيس بلاشار (Regis Blachere)، شارل بلا (Ch. Pellat)، فون قرونبوم (G. Von Grunebaum)، محمد نجيب البهيتي، شوقي ضيف، أحمد الشايب، محمد مصطفى هدار، أحمد عبد الستار الجوّاري (انظر قائمة المراجع).

(3) دراسات محمد النويهي (خاصة دراسته حول بشار)، ومصطفى الشكعة وحسين عطوان.

الفصل الأول

المدونة:

طرج القضية معالم العمل وفرضياته

مكتبة
الشيخ
محمد
البربر
بغداد

المنطلقات التمهيدية

تتعلق همتنا في هذا البحث التألّفي بتقديم خلاصة أولى للأعمال التي انكبنا عليها ولا نزال، في كلية الآداب بتونس على مدى سنين طوال. فقد تطرّقنا ونحن نسعى إلى الجمع بين التدريس والبحث إلى تدبّر مسألة الشعراء الذين يوسمون «بالمقلّين» في السنين المائة والخمسين الأولى من تاريخ الخلافة العباسية. وألفينا أنفسنا في مستهلّ البحث أمام جملة من المعطيات الثابتة معطيات ستحدّد منهج عملنا، وترسم له وجهته النهائية. وهي تتلخّص في نقاط ثلاث:

(أ) الشعراء «المقلّون» وبرامج التعليم:

إنّ النظر في برامج الأدب المدرجة في مراحل التعليم على اختلافها بما في ذلك التعليم العالي يبرز، في حدود الفترة التي تعيننا، معطى أساسياً قاراً وهو أن عناية المؤسسات التعليمية (أساتذة وحلقات تفكير وبحث) لا تكاد تتجاوز في اختياراتها «مشاهير» الشعراء، أو من تطلق عليهم تلك الصفة، أولئك الذين بوّأهم السّنة النقديّة مكان الصّدارة لأسباب تقتضي منا أن نتناولها بالتحليل. وهؤلاء الشعراء هم بشّار بن برد (ت 167هـ/782م) وأبو نواس (ت 193هـ/808م) وأبو العتاهية (ت 211هـ/826م) ومسلم بن الوليد (ت 208هـ/813م) وأبو تمام (ت 232هـ/846م) والبحتري (ت 286هـ/899م) وابن الرومي (ت 283هـ/896م) وابن المعتز (ت 286هـ/899م)⁽¹⁾.

(1) لاحظ أنّ عبد الجليل مثلاً في كتابه «مختصر تاريخ الأدب العربي» قد اقتصر على ذكر =

إنّ هذا العدد القليل من الشعراء الموسومين تارة بـ «الفحول» (ضرب من النماذج المثلى)⁽¹⁾ وطوراً بـ «الأعلام» و «الرؤوس» بل الملقّين أحياناً بـ «الأمراء»⁽²⁾ استأثر بلباب التفكير النقدي، ووضع من منزلة العديد من الشعراء الموسومين بالمقلّين⁽³⁾ بل حكم عليهم بأن يطويهم النسيان. فنحن إذا اقتصرنا على ذكر بعض كتب الطبقات، كطبقات الشعراء لابن المعتز وهو معاصر لهم، وجدنا في هذه الجمهرة الشهيرة، رغم صبغتها الانتقائية ثلاثين ومائة شاعر من صنف هؤلاء المنسيين: وهم شعراء - في رأينا - قد توصلوا هم أيضاً إلى تمثيل عصرهم بقدر ما مثله الفحول أو أكثر، وأسهموا إسهاماً حاسماً في تأسيس مذهب في الشعر سيطلق عليه مؤرخو الأدب اسم حركة التجديد أو التوليد. ويكفي شاهداً على مكانتهم المتميزة ما جمعه هذا الناقد الحصيف (وغيره من المعاصرين كابن الجراح) من عيون أشعارهم.

(ب) الشعراء المقلّون وواقع المدوّنّة:

يبرز تحليل المصادر التي تحمل في مظانها هذا الجانب المغمور من الإنتاج الشعري الذي قيل في هذه الفترة ثلاث معطيات أساسية، تتأكد للدارس

= هؤلاء الشعراء بل استثنى منهم مسلماً. (ص 92 - 102).

J.M. Abd-el-Jalil: *Brève histoire de la littérature arabe*, Maisonneuve, Paris, 1946.

- (1) نذكر في هذا الصدد بأنّ سامي البارودي (ت 1322هـ/ 1903م) استعمل هذه التسمية من جديد في منتخبه الضخم الصادر بالقاهرة سنة 1327هـ/ 1909م لضبط حدود اختياره.
- (2) استعمل هذه التسمية أنيس المقدسي في كتابه الموسوم بـ «أمراء الشعر العربي» ط 7 بيروت 1967. وقد اقتصر في الانتخاب على خمسة شعراء وحذف بشاراً ومسلماً وابن المعتز.

- (3) نذكر في هذا الصدد أنه تمّ رصد الظاهرة نفسها في الآداب الأوروبية، ولكن بدرجة أقلّ شأنًا، فالاهتمام بالشعراء والكتّاب الموسومين بالمقلّين أو أهل الطبقة الثانية متأخر نسبياً، أنظر أعمال جيزال ماتيو كاستلاني (G.Mathieu-Castellani) المتصلة بشعر العصر الباروكي في فرنسا وخاصّة «منتخبات أغراضية من شعر الغزل»، (Eros baroque...) باريس 1986 وهذه المجموعة كما جاء في تعريف الكاتبة بها ليس لها من «مطمح سوى فتح باب لا يزال موصداً، والنفاذ إلى نصوص مغمورة قالها شعراء فرنسيون في القرن XVI» ص 9.

للهولة الأولى، وهي معطيات ينبغي في رأينا أن تؤخذ بعين الاعتبار في كلّ محاولة ترمي إلى الجمع والتقويم:

● ظهور عدد من الشعراء لا يحصى⁽¹⁾ وهو ما يؤكد سمة تبدو ثابتة من ثوابت الفضاء الثقافي العربي على مدى العصور، وهي أنّ الشعر يظل بلا ريب الأداة الفعّالة في إقرار غلبة سلطان اللغة في تحديد ملامح هذا الفضاء دون سلطان الانتماء المذهبي (على كثرة الملل والنحل) أو الانتماء العرقي (على كثرة الأجناس).

● الحالة التي بلغتنا فيها المدوّنة، وما لحقها من ضيم من جرّاء صنيع أهل الرواية والتدوين والنسخ والنقد وأصحاب المختارات والنقول وذلك بتفجير وحدتها وتشيتها: وقد استمرّ هذا الصنيع ألف سنة ونيف وزجّ بجانب كبير من الإنتاج الشعري في متاهات الروايات المختلفة المتشعبة، وربّما حكم عليه بأن يظلّ إلى الأبد فريسة للأسانيد تقلّبه وفق الهوى أو تلقّي به في تلك الحاشية من المدوّنة حاشية الأغفال التي لا تقلّ كثير من عيونها جودة عما أتى به الفحول.

● اتّسام هذه المدوّنة بطابع حضري بالأساس وهو طابع تتأكّد من خلاله منزلة شاعر المدينة غير المريحة إذ هو يجد نفسه في فضاء اجتماعي، واقتصادي يهيمن عليه الكاتب والتاجر، قطبا المجتمع المدني الحضري الجديد⁽²⁾.

(ج) الشعراء المقلّون وموقف النقد القديم:

حين ندرس الشذرات النقدية التي نعثر عليها هنا وهناك فيما تبقى من كتب الاختيار وما ألّف في القرن الثالث من مجاميع الأدب⁽³⁾ وحين نضيف إليها

(1) نلاحظ أنّ معجم الشعراء للمرزباني (ت 384هـ) يتضمن حوالي خمسة آلاف اسم (فهرست طهران ص 147)، وهو يشمل الفترة الممتدة من بداية تاريخ الشعر إلى أواسط القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد، ويبدو رغم ذلك، أنّ هذا العدد غير مبالغ فيه، وذلك حين نعلم أنّ القسم الذي وصلنا من هذا المعجم، وهو يبدأ بحرف العين (الراجح أنّه ثلث المعجم) يتضمّن أسماء 1600 شاعر.

(2) انظر أندري ميكال، «الجغرافيا الإنسانية»، 1/448، بالفرنسية.

(Andre Miquel, *Lagéographie humaine...* Mouton, 1973).

(3) يهتّمنا من كتب الأدب، بالنسبة إلى هذه الفترة: الورقة لابن الجراح، وطبقات =

المجموعة الفريدة من النصوص النقدية التي نجدها في مظان كتاب الأغاني، هذا الكتاب الأساسي الذي جمع من جديد عيون الشعر في القرنين الثاني والثالث صفوته، تبيين بالغ الاهتمام الذي حظي به الشعراء المقلون من لدن معاصريهم.

إن هذا المعطى الثابت يكتسي في نظرنا أهمية قصوى إذا اعتبرنا أن هؤلاء الشعراء أنفسهم لم يقع تهميشهم بشكل يكاد يكون نهائياً إلا بداية من القرن الرابع للهجرة حين انتهى المطاف بحركة التفكير النقدي، وهي حركة لم تنفك تستقطبها آثار الخصومة بين القدماء والمحدثين وتغذيها فنون البحث في القرآن ونظمه (الباقلاني وإعجازه) وفنون الموازنة (الآمدي في موازنته والقاضي الجرجاني في وساطته) والشروح البلاغية (العسكري في الصناعتين)، انتهى بها المطاف، لفرط استخدامها شواهد من شعر زعماء الاتجاهات الجديدة⁽¹⁾ إلى اصطفاء كوكبة من الشعراء تتألف من أبي نواس وأبي تمام والبحري والمتنبّي، عدّتها خير من يمثل الشعر العربي وخير ما يحتذى من النماذج. وسيكون هؤلاء الشعراء، بالإضافة إلى شعراء الجاهلية والذين نسجوا على منوالهم في القرن الأول للهجرة، مراجع النقد القديم العليا، وذلك إلى زمن غير بعيد.

- 2 -

معالم منهجية

لقد أفضت بنا الملاحظات السالف ذكرها، وغيرها من الملاحظات الجزئية التي جاءت ثمرة عشرة طويلة جمعت بيننا وبين نصوص قيلت منذ ما

= ابن المعتز، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ، والقسم الذي وصلنا من اختيار المنظوم والمتنور لطيفور.

(1) حالات التواتر القصوى عند العسكري (ت 395هـ) في كتاب الصناعتين يبلغ عددها 153 بالنسبة إلى أبي تمام، و 96 بالنسبة إلى البحري، و 72 بالنسبة إلى أبي نواس. ونلاحظ أننا نجد نفس المعطيات تقريباً في كتاب التشبيهات لابن أبي عون (ت 322هـ/933م)، وفي أسرار البلاغة للجرجاني (ت 471هـ/1078م) حيث يمثل هؤلاء الشعراء، بالإضافة إلى ابن الرومي وابن المعتز والمتنبّي أهم الشواهد التي تقوم عليها نظرية البيان في هذين الكتابين.

يزيد عن ألف سنة، عشرة هي أشبه ما يكون بمؤانسة الصديق للصديق، إلى استخلاص جملة من النتائج نسوقها في شكل فرضيات:

1 - سنفترض أن لمدونة الشعر العربي في جملتها طابعاً يميّزها منذ بداية تاريخ الشعر إلى عصر أحمد شوقي (ت 1351هـ/ 1932م)، وأن مدار الأمر في خصوص القسم الذي يعنينا من المدونة أن نحدّد كيف أسهم هذا الطابع إلى حدّ كبير في خلق الهوية التي لاحظنا أنّها باعدت منذ زمن مبكّر بين جمهرة الشعراء المشاهير الفحول والحشد الهائل من الشعراء المقلّين المغمورين المنسيّين.

2 - سنفترض أنّنا لن نستطيع، في خصوص الفترة التي تمتدّ من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) إلى نهاية القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد)، وهي فترة يمكن أن نعدّها من أخصب فترات الشعر العربي، لأنّ نستطيع أن ندّعي تفسير كلّ الأمور انطلاقاً من مجموعة الصور البارزة التي تمثل الشعراء المشهورين - وهم قلّة - المنتصبين من حين إلى آخر علامات تميّز هذه المرحلة، بل ينبغي لنا من الآن فصاعداً أن نفسح لغيرهم من الشعراء مجال التعبير، حتّى يتكلّم من حرم الكلام، أعني أولئك الصّامتين المنسيّين عبر التاريخ.

وتقتضي هذه الفرضية أن نرسي مقارنة تتسع للمدونة كلّها ولا تستثني من إنتاج هذه الفترة الشعري أي جانب، مهما يكن غرضه، ومهما يكن السجل (أو أنماط الخطاب) الذي يدخل فيه. فنحن نعلم، مثلاً، وهذا الأمر جدير بالإبراز، أنّ جانباً ذا بال من الشعر العربي الذي قيل في ما يسمّى بالإباحة أو الخلاعة أو المجون قد ضربت عنه التقاليد المدرسية الذكر صفحاً أو كادت. وهذا الشعر أدرجنا منه في الأجزاء 3 و 4 و 5 من هذا العمل نماذج تمثّله، وهي تجلّو في الشكل والمضمون على السواء ميزات لا مراء فيها ولا جدال، ويبدو لنا أنّ مؤرخ الأدب يجد فيها ما يهتمّه بشكل أساسي، وذلك أنّها قد تمكّنه من تسليط أضواء جديدة على مقوم

أساسي من مقومات الشعر العربي عامة ألا وهو وحدة هذا الشعر، وما ينطوي عليه من مظاهر الحيوية ومن قابلية التجدد⁽¹⁾ إن هذه المقاربة الشاملة التي ترمي بالدرجة الأولى إلى الكشف عما يتسم به الفضاء الشعري العربي من تماسك عضوي تفترض بدورها أن نراجع مراجعة جذرية المقاييس التي اعتمدها النقاد الأوائل في توزيع المدونة (الأصمعي في «فحولة الشعراء» والجمحي في «طبقات فحول الشعراء» وابن قتيبة في «الشعر والشعراء»). وفعلاً فإننا نعلم أن منهج القدامى، وهو منهج يستند إلى مفاهيم غير واضحة المعالم تتصل بمدلول «الفحولة»⁽²⁾ ومدلول «الطبقات»، ويوجّهه الانتماء المذهبي والعنقي والجغرافي، هذا المنهج تسبّب إلى حدّ بعيد في تهميش جانب كبير من المدونة. وهذا التهميش أدى بدوره إلى تشتيت هذه الآثار وتفريقها شذر مذر. بل إن بعثرة المدونة وافقت اتجاهات العصر العميقة في التعامل مع الشعر. وهو عصر - كما سنرى - سيسعى حثيثاً إلى التخفيف من حجم المدونة وثقلها بدافع الضرورة: ضرورة الانتقاء التي غذتها تقاليد المجالس الأدبية⁽³⁾، وضرورة الاستجابة لذوق جمهور هواة الأدب الذي يرى في عدم الإطالة (ومن هنا كان الاعتناء بالمقطعة القصيرة والشاهد المختصر والإجابة الحاضرة والإجازة على البداة)⁽⁴⁾ خير ما يتوافق وظاهرة الاقتضاب و«الأخذ من كل شيء بطرف» التي شرعتها ثقافة المحدثين⁽⁵⁾.

3 - سنفترض أن ظاهرتي التهميش والتشتيت تمثلان إحدى السمات الغالبة على

(1) انظر خاصة الجزء الرابع من هذا العمل حيث تقدّم أهم ما تبقى من ديوان راشد بن إسحاق أبي حكيم، وهو مجموع في شعر الرثاء الهازل (الشاعر يرثي أبيه)، يشار إليه منذ سنين في فهراس الآثار غير المطبوعة، ويُعلن عن قرب طبعه (انظر مجلة المورد، م II، ج 3، 1974، ص 223) ولكنه لم يصدر إلى الآن.

(2) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(3) انظر الفصل السابع، ص 160 - 169: «الشعر وفضاء المجالس».

(4) انظر في هذا السياق: «بدائع البداة».

(5) انظر تحليلنا لهذه الظاهرة: ج 2/ 76 - 79.

سائر الإنتاج الشعري في هذا العصر، وإن لم يختصّ بهما⁽¹⁾ وسنسعى لتدعيم هذه الأطروحة إلى تبيان كيف أن هذه الظاهرة المزدوجة شوّهت شكل المدوّنة العام إذ ساعدت على انطلاق عملية من التشويش والتفتيت واسعة النطاق، وهي عملية نجد آثارها على مستويات أربعة :

أولاً: تضخّم آثار بعض المشهورين كديوان أبي نواس، وذلك بتغذيته بشذرات من شعر المقلّين استلّت من دواوينهم، ممّا أعان على اختلال هذه الدواوين وتفكيك أصولها وطمس بعضها وضياعه .

ثانياً: الأسانيد الجماعية أو المجهولة، وقد أدّت إلى إضفاء طابع جماعي على قسم من المدوّنة .

ثالثاً: التقليد (أو المحاكاة) ووجوه التصرف فيه: ويتمثّل في القصائد الموضوعية أو المصنوعة على هيئة القصائد الأصلية. وهي من صنع شعراء مغمورين أو أدباء أريبين أو رواة مهرة، أو ورّاقين متأدّبين أو مجرد قراء ذوّاقة للشعر. وقد جاءت لسدّ الفراغ الذي افتعله الشعراء المشهورون أنفسهم أولئك الذين ظلّوا أمثلة تحتذى⁽²⁾ وقد انجرّ عن هذه الظاهرة أن بدت في المدوّنة جوانب مُعتمّة مربية أدّت بمؤرخ الأدب في أغلب الأحيان إلى الاقتصار في معالجة النصوص على اعتماد مقياس الخصائص الأسلوبية المشتركة دون اعتبار للمقاييس الفارقة المتعلقة بالأصالة أو صحّة النسبة أو التوثيق التاريخي. أما المعطيات المتّصلة بأخبار الشعراء وما تخلّلها من ملاحظات نقدية في خصوص هذا الشعر والبيئة التي نشأ فيها فهي، إن وجدت، لم تسلم هي أيضاً من التشتيت والتهميش شأنها في ذلك شأن الآثار الشعرية نفسها⁽³⁾.

(1) نقتصر على الإشارة إلى أنّ الظاهرة نفسها تنطبق على الشعراء الصعاليك قبل الإسلام، وعلى شعراء الخوارج والشيعة في القرون الثلاثة الأولى.

(2) تذكر الروايات أنّ البحري كشف خمسمائة من شعراء عصره وذلك بجمع دواوينهم وإخفائها عن الناس. ولئن كان هذا الخبر من قبيل الخرافة ولا شك، فإنه لا يخلو على كلّ من دلالة بعيدة.

(3) انظر دراستنا لشعر خالد الكاتب، ج 2، ص 61 - 66.

وإنه لمن السذاجة في التفكير أن نعتقد أننا قادرون على معالجة المسائل المتصلة بحياة الشعراء وبمدونة الشعر نفسها معالجة يسيرة لا عقبة فيها.

والحق أننا في هذا الصدد، كما ذكر بذلك جان بولاك (JEAN BOLLACK) في جمعه وتحقيقه للنصوص المطوية التي كتبها أمبيدوكل (EMPEDOCLE) ⁽¹⁾ واپيقور (EPICURE) ⁽²⁾، لا يمكن أن نجد أخباراً أو معلومات تتعلق بالمدونة مما تناقله العلماء، لم يطبعها التأويل بميسم خاص، ولا تدعو ضرورة البحث إلى إعادة النظر فيها وتحقيقها كل مرة. وليس هناك ما يُزيحُ عن الباحث الفراغ (أو شبه الغيبوبة) الذي تطفو فيه النصوص وقد افتقدت أسانيداً صحيحة، إلا ما نعلم من انتمائها إلى التراث، أي انتمائها، آخر الأمر، إلى فضاء ثقافي نعرف بنيته الأم طبعاً، لكن أبعاده الجغرافية التي تمتد عبر ثلاث قارات والتاريخية التي تمتد على حوالي اثني عشر قرناً، تظل ماثلة أمامنا لتذكرنا بعبث كل محاولة لضبط السياق ضبطاً دقيقاً. وترانا هنا نؤكد ما قاله جان بولاك، من «أن المفارقة ثقيلة النتائج إذا ما أدركنا أننا لا نستطيع العمل إلا بفضل وجود ذلك التراث مهما تكن نقائصه» ⁽³⁾.

رابعاً: التفكير النقدي، وهو تفكير جزئي لا يسعى إلى الشمول، مقيدةً أسانيداً وشواهداً بمن ذكرنا من أعلام الشعر المشهورين، مركّز على جوانب من المدونة لم تتعرض إجمالاً إلى آفة البتر والتداخل والبعثرة، هي الجوانب التي تمثلها أساساً أغراض الشعر الكبرى من مديح وهجاء ورثاء كما مارسها «الفحول»، مما سيحدّد الأفق ويحدّد الرؤية النقدية فيقصرها على ما يمثل جانباً من الجوانب المهمة في المدونة طبعاً، ولكنه ليس الجانب الوحيد. ومن ثم كانت الحاجة التي يحسها البحث الحديث إلى توسيع مجال النظر إلى الجوانب المهمشة من المدونة ⁽⁴⁾ حتى ندرك وحدتها وانسجامها: وهو عمل بحث «أثري

(1) أمبيدوكل: فيلسوف وشاعر إغريقي (ت 435 قبل المسيح).

(2) إبيقور: من كبار فلاسفة الإغريق (ت 270 قبل المسيح).

(3) حوار أجرته جريدة لوموند مع بولاك، ونشر بتاريخ 12 جويلية 1981.

(4) انظر: فون قرونبوم: شعراء عباسيون، مطيع بن إلياس، سلم الخامر، أبو الشمقمق، =

- أدبيّ» يستوجب، كما سنرى، أعمالاً أولية كبيرة لجرد النصوص ونشرها نشرًا نقدياً علمياً.

4 - سنفترض - أخيراً - أن النتاج الشعري طوال المائة وخمسين عاماً الأولى من الخلافة العباسية، إذا ما أضيف إلى نتاج فترة ما قبل الإسلام - وهما فترتان لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى بسبب معاصرة أعلام الشعر المحدث لأعلام الرواية والتدوين الذين قَدّوا الشعر الجاهلي⁽¹⁾، - نفترض أن هذا وذاك يمثلان جميعاً المرحلتين المتميزتين في الشعر العربي من بدايته إلى العصر الحديث، فهما مرحلتان متميزتان لأسبقيتهما أولاً، ولكننا ننبه هنا أيضاً إلى أن التقدم في الزمن لا ينبغي أن يضفي حتماً على النصوص فضلاً وتميزاً، كما يبدو ذلك من خلال النقد التقليدي ومن خلال بعض الاتجاهات النقدية الحديثة التي عمدت إلى إقامة الأسبقية في الزمن مقياساً للمثال الذي يحتذى، فالّ بها الأمر إلى اعتبار أجزاء كبيرة من المدونة المتأخرة عن (القرن IIIهـ/IXم). مجرد طروح أو نسخ باهتة عن نماذج سابقة عليها⁽²⁾، بينما نجد نفائس مثل يتيمة الثعالبي (القرن IVهـ/Xم)

= (وقد نقل إحسان عباس ويوسف نجم إلى العربية مقدمات البحث وما صاحبه من معلومات نقدية، بيروت 1959).

(1) كان بعض «كبار الرواة» شعراء مجيدين؛ انظر الدراسة التمهيدية التي خصصنا بها أحدهم، خلف الأحمر، وشعره، (الجزء I، ص 11 - 120).

(2) أينبغي التذكير، مرة أخرى، أن برامج الأدب القديم المدرجة في الدراسة بمختلف مراحلها في النظام المدرسي والجامعي العربي قد عاشت، إلى عهد غير بعيد، على مدونة شعرية مقتصرة خاصة على القرون الهجرية الأربعة الأولى، معتبرة أن أبا العلاء المعري (364/973 - 449/1057) يكاد يكون آخر الشعراء الكتاب من الفترة الكلاسيكية؟ أينبغي التذكير أيضاً أنه لا توجد - على حد علمنا - دراسة جدية شاملة مخصصة لهذه الفترة الطويلة من تاريخ الأدب العربي، الممتدة على حوالي ستة أو سبعة قرون (VIIهـ/XIم - XIIهـ/XVIIIم) غير أن بعض الاهتمام بهذه الفترة قد بدأ يظهر منذ بضع سنوات، كما أن بعض ردود الفعل لدى بعض الباحثين ولدى بعض المستشرقين قد بدأت تبرز من أجل إعادة الاعتبار لهذه الفترة، بالكشف عن الجوانب الإيجابية الطريفة فيها.

وذخيرة ابن بسام (القرن ٧هـ/XIم) وفريدة العماد الأصفهاني (القرن ١٢هـ/VIم) وبعض دواوين الشعر التي يعود تاريخها إلى فترات متأخرة (ولا نهمل هنا لا الشعر الصوفي ولا الموشحات) قد حفظت لنا آثاراً ذات دلالة لا تنكر، وهي آثار بعيدة عن أن تكون خلواً من الطرافة والإبداع^(١). قلنا هما مرحلتان متميزتان باعتبار الأقدمية وأنها لمنعرجان هامان متميزان لما يسمهما من طابع تأسيسي أيضاً. ذلك - وهذا رأينا - أن شعراء ما قبل الإسلام والشعراء الذين ساروا على نهجهم في القرن الأول للهجرة من جهة، وشعراء جيل بشار (قتل ١٦٧هـ/٧٦٢م) وأبي نواس (ت ١٩٩هـ/٨١٣م) وأبي العتاهية (ت ٢١١هـ/٨٢٦م) من جهة ثانية قد اكتمل على أيديهم وضع أصول الشعر العربي. وهي أصول قوامها قالبان أساسيان (أو والدتان) سيمثلان منذ ذلك الحين وعلى مدى ألف سنة النموذج الأمثل للكتابة الشعرية الذي لا يسع الشعراء إلا القول في حدوده.

وليس مردّ هذا الأمر إلى أنّ هاتين الوالدتين قد أسرتا الخطاب الشعري في نظام مغلق تنعدم فيه كلّ محاولة ترمي إلى الإبداع، كما قد توحى بذلك بعض النظريات التي تقول بمبدأ الثبات واللاتطور في الشعر العربي^(٢) ولكن الشعر العربي نفسه بفضل ما يتسم به من نسيج لغوي مخصوص (استخدامه لغة ختمت بطابع البيان القرآني)، وما يتميز به من أبنية عروضية (قيام أوزانه على

(١) سنبدى، في ثانيا عملنا هذا، احترازا شديدة تتعلق بالتقسيم المرحلي الكلاسيكي الذي تبناه مؤرخو الأدب العربي الذين أدخلوا مفهوم «الانحطاط» في الشعر منذ بداية (القرن ٧هـ/XIم) (انظر: فروخ: تاريخ الأدب العربي III، ٤١). والملاحظ أن أتباع المدرسة التاريخية الحديثة الذين درسوا روما في العهد الامبراطوري قد اصطدموا بنفس هذا المفهوم، مفهوم «الانحطاط» الغائم غير المستقر، الملتبس معناه، فصاروا يعملون - منذ سنوات - إلى تعويض مفهوم «الانحطاط الروماني» بمفهوم «العصور القديمة المتأخرة». (انظر دراسات مرو (H.I. MARROU) ومنها:

«*Décadence romaine ou Antiquité tardive? IIIe-VIe-s*». Paris, 1977.

وكذلك المقدمة القيّمة الموحية التي صدر بها لوقوف (J.LEGOFF) كتابه الأخير:

«*L'imaginaire médiéval*», Paris, 1985.

(٢) انظر الفصل الثاني ص ٧٥، الهامش ٢.

البحور الثابتة، ووحدة القافية)، قد توفّق منذ زمن مبكّر أي في فترة لا تتجاوز قرنين أو ثلاثة، بفضل هذه الخصائص، إلى تحقيق توازن داخلي تامّ، توازن بدا للجميع نهجاً مثالياً، على الشعراء منذ ذلك الحين أن يسلكوه، إذ هو يمثل البداية والنهاية لكل محاولة في نظم الشعر.

على أنه ينبغي أن نذكر بأنّ هذا التوازن يتفرّع إلى مستويين:

● مستوى أوّل سيمنح الشعر العربي ما سميناه آنفاً بالبنية الأم أو الوالدة الأولى. إنّ هذا القلب الذي ولدته وضبطت حدوده فرائد الشعر قبل الإسلام (انظر مختارات متنوعة منه في المجموع الفريد: «متهى الطلب»⁽¹⁾ سيلزم الشعراء، بدون أن يكون ذلك نتيجة مسار تطوّري جلّيّ المعالم، سيلزمهم بالقول في نطاق هيكل موحد (بنية القصيدة⁽²⁾ أو عمود الشعر)، ويلزمهم بسنّة ثقافية عناصرها متجانسة⁽³⁾ (هي جملة المتخيّل الثابت الذي يُصوّر باستمرار - إنّ بالتصريح أو التعريض والإيحاء - حضارة الصحراء) ويلزمهم كذلك بأنماط تعبيرية⁽⁴⁾ مخصوصة (جملة من المجالات المعنوية تأتلف حول مجموعات من الصور القارّة هي منطلق المتخيّل الشعري، كما تأتلف حول شبكات متقاطعة من الصياغات الفنية والأبنية الإيقاعية والنحوية).

● مستوى ثان سيمنح الشعر العربيّ قاعدته الثانية (أو الوالدة الثانية) وسيتولّى هذا القلب الذي افترعه وأقرّ أركانه شعراء «التوليد» أساساً (جيل بشّار وأبي نواس) إعادة بناء هيكل القصيدة وإثراء السنّة الثقافية، وتفرّيع الأنماط

(1) متهى الطلب في أشعار العرب لابن ميمون (ق. السادس)، مخطوط (انظر كشف المصادر).

(2) في خصوص بنية القصيد انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، المقدمة ص 20، 21، وهي من أهم النصوص وأقدمها في التنظير للقصيد.

(3) انظر الحاتمي (ت 388هـ)، حلية المحاضرة، فقد قدّم ص ص 27 - 29 منظومة مكتملة لهذه السنّة الثقافية وإن لم تكن ضافية، وستصبح منذ ذلك الحين مرجعاً أساسياً تنسج على منواله كتب المعاني.

(4) بول زمثور (P. ZUMTHOR)، لغة الشعر وأدواته الفنية في العصر الوسيط ص 197 (بالفرنسية).

التعبيرية، وفي الآن نفسه - وبدون قطيعة بينه وبين القالب التأسيسي الأول - سيعمل على توليد طبقتين في الخطاب الشعري متراشحتين أشد التراشح ستظلان مصباً تتآلف فيه عوداً على بدء، وفي ذات الأثر الشعري، أشكال التجديد وعوامل التحول ومظاهر القديم وعناصر الثبات، وهو تآلف سيضبط حدود الفضاء الشعري العربي لمدى ألف سنة ونيف⁽¹⁾ ولئن مثل الموشح في زمن متأخر نسبياً ضرباً من ضروب السعي إلى زعزعة هذا التوازن فإنه لم يُثمر من مظاهر التطور ما من شأنه أن يفجر الهياكل الثابتة وينتج أشكالاً جديدة للتعبير الشعري خارجاً عن بنية القصيدة كما تحدت معالمها مع القدماء.

* * *

ويتيسر لنا بهذه الصورة أن ندرك لماذا تقتضي منا كل دراسة آنية نخص بها جانباً من الشعر العربي - ويهّمنا في هذا السياق شعر القرن الأول من تاريخ الخلافة العباسية - أن ندرجها في الآن نفسه ضمن دراسة زمنية تطورية. فالإشكالية التقليدية التي تقابل بين مفهوم النظام ومفهوم التطور تبدو في هذا المجال غير صالحة. ويبدو لنا أن النظرة الشمولية بالنسبة إلى كل أثر (سواء في ذلك قصيدة لشاعر محدث - بشار مثلاً - أو شاعر معاصر - بدر شاعر السياب مثلاً، والفاصل بينهما اثنا عشر قرناً)، هي وحدها التي تمكّن البحث من استخلاص الطبقتين اللتين لا تقبلان الفصل للخطاب الشعري كما حدّدناهما.

والرأي عندنا أن الباحث لن يتبين وحدوية الشعر العربي وهويته وما سمّياه الطابع المميّز له إلا بما يبذله من جهد في اعتماد هذا المنهج⁽²⁾ وسنقدّم

(1) لأبي الشبص (ت 196هـ/812م) قصيدتان مطولتان إحداهما بائية والأخرى نونية تصوّران هذا التوازن بصورة واضحة (انظر ج 1، ص ص 201 - 204، 211 - 215)، ويبدو هذا التوازن في شعر بشار بأكثر جلاء، وخاصة في القسم الغزلي من ديوانه، وهو قسم مغموّر إلى الآن، ويعدّ زهاء مائتي قصيدة ومقطوعة تضمّ نحو أربعة آلاف بيت وتضاهي في عددها ما بقي من شعر العباس بن الأحنف (ت 198/814) أو عمر بن أبي ربيعة (ت 93هـ/717م). ونرى أن الظاهرة نفسها تهّم شعر أبي نواس الخمري.

(2) الحق أن هذا المنهج الذي - اكتفينا بالإشارة إليه في توطئة هذا العمل - يفتح على =

في مضان الدراسات التي خصصناها لثلة من شعراء هذه الفترة ما به يتبين
القارئ ملامح المنهج المذكور⁽¹⁾.

= مسلكين متوازيين:

فالباحث في أي مقطع من مقاطع المدونة التي بين أيدينا (شعراء عاشوا في القرنين الثاني والثالث)، بل وكذلك الباحث في الشعر الحديث (شوقي - مطران) أو الشعر المعاصر (السياب، عبد الصبور)، تدعوه الضرورات المنهجية، في الحاليتين، إلى اعتماد المناهج المتبعة في دراسة الآثار القديمة وأخواتها المتبعة في دراسة الآثار الحديثة، تارة بتارة، مما يفضي إلى تفكيك طبقتي الخطاب المذكورتين آنفاً قبل أي محاولة تحليل تروم تأويل الهياكل العميقة لتلك الآثار.

(1) انظر على وجه الخصوص التعاليق التي خصصنا بها خلف الأحمر وأبا الشيبص (ج 1، ص ص 21 - 24، 199 - 200) والتعليق على قصيدة اليتيمة ودراستنا لشعر خالد الكاتب (ج II، ص ص 19 - 25، 70 - 82).

Lactuca

الفصل الثاني

المدونة:

تقديمها وتحديد برنامج البحث

[illegible]

مشروعنا

إنَّ عامَّة ما استخلصناه من الملاحظات والاستنتاجات قادتنا إلى تطوير جهودنا في البحث، على مستويين متكاملين، انجرَّ عنهما هذا التمثيل المزدوج الذي منحناه لمشروعنا، فأضفى على العمل الذي انطلقنا فيه طابعاً انفرادياً به :

(أ) الوجه الأول من هذا العمل خصصناه للمدونة نفسها وفيه جمعنا النصوص وحققناها تحقيقاً نقدياً، وصدرناها بمداخل تمهيدية مختصرة أو دراسات مطوّلة⁽¹⁾ بسطنا فيها ما تتضمنه إشكالية البحث من عناصر أساسية، وذيّلناها بشروح وتعليق تحدد الإطار المنهجي لبحوث لاحقة .

وهذا العمل الذي شرعنا في إنجازه فذهبنا فيه شوطاً كبيراً سيتواصل لا محالة في مستقبل السنين، وهو يقتصر في هذه المرحلة من البحث على تقديم خمس حلقات من المدونة جمعناها في خمسة أجزاء وألحقناها بهذه الدراسة⁽²⁾.

أمّا مجال البحث الأول فقد مكّنتنا من وضع معالمه وحدوده طوائف من الشعراء خمسٌ. هي مجموعات خمسٌ تختلف في مجال القول الشعري ولكن يجمع بينها ما يميّز المجدّدين من هيجان المعارضة للمألوف والتهافت على كلّ طريف شاردٍ.

وقد مكّنتنا جمع هذه النصوص - وهو جمع يعود إلى الصّدف التي توفّرها عمليّات الجرد الأولى للمدونة أكثر مما يعود إلى اختيار مسبق أو إلى ميول

(1) دراستنا لشعر خالد الكاتب مثلاً (انظر الجزء الثاني، ص 43 - 95).

(2) تحتوي هذه المدونة على خمسين مجموعة من النصوص الشعرية تعدّ في جملتها زهاء ثمانمائة ألف بيت، من بينها قسم كبير لم ينشر من قبل.

شخصية، كما هو جمع لا يدعي الكمال ولا بلوغ المثال - مكنتنا من أن نستخلص مؤقتاً جملة من الثوابت أكثرها دلالة تلك الحاجة إلى الهروب واللواذ (أو الخروج عن العادة، ومحاولة الخلاص من القيود مهما كانت، والأخذ بحقوق الحرية في السلوك والرأي) التي تجمع بين الشعراء الذين ندرسهم، وهي حاجة تكيفت بها معظم أشعارهم الباقية كما سنرى، واعتبرنا ذلك في تصنيف المدونة، وأتيننا بالشاهد على كل لون من ألوان هذه الظاهرة في الحلقات الخمس أو الأجزاء الخمسة التي يتألف منها هذا العمل الجامع:

● ففي الجزء الأول نقف على ظاهرة محاولة «الخلاص من الواقع» بالعودة إلى المنابع أو الأصول. وقد صور هذا المنحى الشاعر الرأوية خلف الأحمر (ت 180هـ/ 796م). ولئن لم يتخذ طريقته في قول الشعر على منوال القدماء مطية للجهر بعقيدته، شأن الشاعر أندري شينييه (A.CHENIER) ⁽¹⁾ فإنه أشبهه في نظم شعر يجري على أساليب الأوائل إلا أنه يكشف - بما تعتمل فيه من عناصر التوليد - عن حساسية جديدة. وكأننا به في مطولاته التي أوردناها يردّد مع الشاعر الفرنسي قوله مشيداً بثقافة الإغريق القديمة وآدابهم:

«إنني محبّ مخلص لهؤلاء المعلمين القدامى
أريد أن أتلفّع برفاتهم المقدسة» ⁽²⁾.

وقد اعتمدنا في هذا الجزء الأول من المدونة منهجاً يرمي إلى تقديم أحد الأجوبة الممكنة على الإشكالية التي تطرحها قضية «الخصومة بين القدامى والمحدثين» وما تفرّع عنها من جدل بشأن المفاضلة بين الشعراء وأثارته من مسائل تتعلق بالانتحال والسرقات.

● وفي الجزء الثاني نقف على ظاهرة محاولة «الخلاص من الواقع»

(1) أندري شينييه: من شعراء فرنسا المجدّدين في عهد الثورة (1762 - 1794).
(2) من قصيدة مطوّلة (140 بيتاً) يتعلق غرضها بمنحى الشاعر في الكتابة (انظر «الأعمال الكاملة» ط ولتر، باريس 1950).

Andre CHENIER, oeuvres complètes, ed. Walter, Paris, 1950.

بإستبداله، عبر قناة العشق والفناء في ذات المعشوق، بعالم يتمّ إعلاؤه إلى المثال⁽¹⁾. وما أكثر ما يقع ذلك بسلطان الكلمة الساحر⁽²⁾. ومن بين الشعراء الذين مثلوا أحسن تمثيل هذا المسلك خالد الكاتب، وهو شاعر أضناه الهوى فتدفّق نفسه الشعري سيلاً من الرثاء والتفجع عبر ما يناهز ستمائة مقطعة (معظمها من الرباعيات) هي كلّ ما تبقى من ديوانه.

وهذا الجزء الثاني الذي خصّصناه لغرض الغزل وتصاريف الشهوة، فقد سعينا من خلاله إلى التعريف بهذا العالم المتفتح على شجون النفس وآلامها (وإنّ لم يعد ضرباً من الاستمتاع بذائقة الألم ذاته) حيث تمتدّ ظلال النموذج الأنثوي الثابت كما يتصوّره العرب. وأوردنا شاهداً لذلك جملة من النصوص المتجانسة (هي من صنف الأشباه والنظائر) قيلت في أزمنة متباعدة، ويبدو من خلال هذا الإطار الزمني الفسيح أنّ الشعراء يجذّدون القول في إطار خصائص ثابتة يميّز بها الخطاب الشعري، وأنّ «كلّ التجارب تعمل على استغلال طاقات الكلام في حدود هذه الخصائص»⁽³⁾ التي ستظل على الدوام طابعاً مميّزاً لغرض من أغراض الشعر العربي الرئيسية ألا وهو الغزل.

● وفي الجزء الثالث نقف على ظاهرة محاولة «الخلاص من الواقع» عبر البحث المتحرّر عن المبتذل من الأمور، وعن الساخر من الأشياء ووضيعها، بل وعن مواطن السخف والرّقاعة ومظاهر السلوك الهامشي المتحرّر

(1) نلاحظ في هذا الصدد ردّ فعل عدد من شعراء هذه الفترة إزاء مظاهر المثالية المزيفة التي أحيط بها البعد الجنسي. ونسوق في الجزء الثالث من المدوّنة أمثلة عديدة من مواقف هؤلاء الشعراء. كما نلاحظ أنّ الجاحظ نفسه يقدّم لنا في رسالة صناعة القواد صورة ساخرة تخصّ هذا التزييف (الرسائل، ج 1، ص ص 382 - 393). ويشير بول زمطور في بحثه المذكور (ص 105) إلى الظاهرة نفسها في خصوص شعر الغرب في القرون الوسطى ويبيّن كيف «تولّد عن النشيد الغزلي الرصين، في أعقاب القرن الثالث عشر، جنس من أجناس الشعر قائم على المحاكاة الساخرة وهو الأغنية السخيفة».

(2) انظر، جمال الدين بالشيخ، الغنائية العربية، دائرة المعارف العالمية، ج 10، ص 209، (بالفرنسية) (ENCYCLOPAEDIA UNIVERSALIS, VOL. 10- P. 209).

(3) بول فاليري (P. VALERY)، ألوان «variété» V، ص 289.

من القيود الاجتماعية. وفي هذا السياق يصبح الشعر - وقد مزج بين الأغراض وجمع بين ما تباعد من أساليب النظم ومسالك التعبير، وخلط بين مفاتيح الكلام دون تكتنية، وزاوج بين النقيض والنقيض - سيصبح وسيلة للتعبير عن لغة مزدوجة يجري الخطاب فيها على طبقتين:

— هي أولاً لغة الرغبة أو لغة الحرية المنشود استرجاعها. فما كان يُعدّ عند شعراء ما قبل الإسلام من قبيل الحرية الطبيعية التي يحياها الشاعر دون أن يعيها (الغزل الإباحي، الهجاء المقذع) غداً عند المحدثين مطلباً يسعون إلى تحقيقه أو استرجاعه⁽¹⁾ وهو ضرب من السعي إلى التحرّر من المحظورات، ومما تمّ سنّه من المحرّمات⁽²⁾.

— هي ثانياً لغة الشعر الذي تمّت المصالحة بينه وبين عالم متحوّل، «عالم لا يكبت التجربة الفردية، ولا يرفض ما تزخر به ذات الفرد من لواجع وخلجات، ولا يعتبر مصدر القول الشعري حكراً على ما يشترك فيه عموم الناس من المشاعر والهموم»⁽³⁾.

إن هذا الشعر شعر ضحك وإضحاك، غدّته الروح الشعبية بلطائفها وأطاييب ملحها، ولعله يجتر الحماقات والفواحش فيصوّرها بلا تحفظ وبلا

(1) للتوسع في هذا الغرض انظر: ألبرتو مورافيا (A. MORAVIA)، «الجنس في الأدب»، ضمن: «الإنسان»، فلما ريون، 1965 ص ص 322 - 324

(2) «L'homme», Flammarion, Paris, 1965).

(2) نلاحظ في هذا السياق أنّ عملية التحرّر من المحظورات التي أشرنا إليها عند الشعراء العباسيين، هي اليوم، مع مراعاة الفارق، من الأمور التي تم تجاوزها في مجالات عديدة بالنسبة إلى الإبداع الأدبي والفني في أوروبا الغربية، وقد انجرّ عن ذلك فيما انجرّ أن ذوت لغة الرغبة وفترت. يقول رولان بارت (R. BARTHES): «لعل الأزمة الحضارية، والإحساس بالقلق اللذين نتحدّث عنهما اليوم يرجعان إلى ما نعيشه من أزمة في الرغبة إذ أنه كلما تقلّصت الموانع ضعفت الرغبة» انظر: «Le grain de la voix», p. 337.

(3) نعيد في هذه الفقرة نفس العبارات التي استخدمها جمال الدين بن الشيخ في تحليله للغنائية العربية، ولكن بصورة معاكسة يقول: «فهو (يعني اللغة الغنائية) تكبت التجربة الفردية، وترفض كلّ ما تزخر به ذات الفرد من لواجع وخلجات، فلا يصير شعراً إلّا ما يشترك فيه الناس من المشاعر والهموم» المرجع المذكور أعلاه، ص 209.

حياء، وهو يمهد للمحاولات الشعرية التي ستظهر في القرن الرابع للهجرة مع شعراء كابن الحجاج وأبي الرقعمق والواساني وأبي دلف⁽¹⁾ والرأي عندنا أن هذا الشعر يمثل أطرف ما أنتجه هذا العصر الزاهر من الآثار.

وهكذا فإننا خصّصنا الجزء الثالث من المدونة لهذه الطائفة الثالثة من الشعراء⁽²⁾ وقد حظيت في أعمال الجمع التي أنجزناها بمرتبة متميزة، نظراً لحجم ما جمعناه من أشعارها (ثلث الحجم الجملي تقريباً) ولثراء مضامينه (أغراضه موزعة على ثلاثة أبواب)، ولما يتميز به شعراؤها من كثرة وتنوع (حوالي عشرين شاعراً تفتنوا في مختلف أشكال الإضحاك)⁽³⁾.

ويسعى هذا الجزء إلى إبراز هذه الجوانب كلها، كما يرمي، من خلال ما يتضمنه من قصائد بلغ عددها نحو ثلاثمائة قصيدة إلى تصوير عالم الفكاهة العابت⁽⁴⁾ أو فن الضحك والإضحاك، وهو فنّ نضج على يد الجاحظ في كتاب البخلاء، واعتنى به من بعده كتاب المقامات في القرنين الرابع والخامس (الهمذاني والحريري). ولكنّ هذا الفنّ انحطّ بعد ذلك إلى مرتبة الفنون الثانوية التي تنهض بها الحكايات والنوادر واللطائف والملح، وأصبح باباً هامشياً من أبواب الأدب العربي، ونحن اليوم نحاول أن ننفض الغبار على القسم الشعري من هذا الأدب المهمّش⁽⁵⁾.

(1) انظر، ريجيس بالاشار (R. BLACHERE)، «الشعر العربي في العراق» مجلة «أرابكا» (Arabica) عدد خاص ببغداد، ص 431 (بالفرنسية)، وانظر في خصوص الشعراء الأربعة المذكورين ما تبقى من أشعارهم في يتيمة الدهر للثعالبي.

(2) إنّ بعض ما أوردناه في الجزء الرابع من المدونة، (وخاصة قصائد أبي حكيمة راشد بن إسحاق في التفجّع الهازل) شبيه بالأشعار الواردة في هذا الجزء من حيث طابعها العام.

(3) لم يعتن النقاد بدراسة هذا الجانب، فالبحوث فيه نادرة، انظر الدراسة الجيدة التي أنجزها حسن الصادق الأسود: «الجذّ والهزل في الأدب العربي قبل النهضة»، ضمن «مشاكل الأدب العربي»، ص ص 79 - 93، مطبوعات مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978 (بالفرنسية) (Publications du C.E.R.E.S., Tunis, 1978).

انظر كذلك «الأدب الهازل ونوادر العقلاء» ليوسف سّدان، تل أبيب، 1983.

(4) ولا نغني هنا السخرية بمعنى التهكم، الاستهزاء، وهي سمة مميزة لفنّ الهجاء.

(5) اعتمدنا في جمع جانب لا يستهان به من مدوّنتنا على الكتب التي تتضمن هذه الحكايات والنوادر مثل: الفرج بعد الشدة للتوخّي والعقلاء للنيسابوري، والتطفيل للبغدادى،

● وفي الجزء الرابع نقف على ظاهرة محاولة «الخلاص من الواقع» عبر الشكوى أو التفجع، وتتخللهما رغبة في التمرد، أو التحرر، أو إحساس بالكآبة والغم... والشكوى أو التفجع ضربان: شكوى جماعية نذكر منها رثاء المدن التي دمرتها الفتن والحروب الأهلية⁽¹⁾، وشكوى فردية كالمراثي التي قيلت في الحيوان أو فقد المتاع، بل وإننا نجد على وجه الخصوص قصائد قيلت في الشكوى التي تجري مجرى الهزل مثل القصائد التي يتألف منها ديوان برمته والتي لم ينفك أبو حكيمة راشد بن إسحاق يقولها في رثاء أبيه الهرم.

ونلاحظ في هذا السياق أنّ شعر التفجع هذا - بخروجه عن مألوف السنن مع ثلّة من الشعراء - يمتدّ المجال المعنوي الذي ضبطت فيه سنن الرثاء وأصوله، وما أكثر ما كانت هذه السنن تحُدّ من حرية الشاعر، بنفس من العفوية يعمل على تجديد هذا الغرض الأدبي. ونتبين من جهة أخرى أنّ راشداً، ذلك الشاعر الذي ذكرناه منذ حين، وأخرجنا أهم ما في شعره في الجزء الرابع من مدونتنا قد قال عدداً من القصائد نلمس فيها لا محالة رغبة في المحاكاة الساخرة، ولكنها لا تخلو من نظرة إلى الحياة تحرّرت من ضغوط الجنس وقبوده، نظرة تخرج بالبعد الجنسي من حيز المحرّمات التي لا يُجهر بها إلى حيز الكلام المباح.

وهذا يعني، أنّ على الباحث إذا رام دراسة المدونة دراسة أغراضية شاملة، أن يتفطن إلى ما تُبطنه الاتجاهات الجديدة في شعر المحدثين، من دلالات عميقة.

● وفي الجزء الخامس نقف على ظاهرة محاولة «الخلاص من الواقع»

= والمحاسن والمساوى للبيهقي، وجمع الجواهر للحصري، والمحاضرات للراغب الأصفهاني، ومجاميع أخبار ابن الجوزي والمستظرف للإبشيhi (انظر الفهارس العامة بالجزء 6).

(1) لقد سبق شعراء المشرق شعراء المغرب بقرنين في تجاوز المراثية الكلاسيكية، وفي وضع العناصر التأسيسية لمراثية «المدن» وهذا خلافاً لما قدّمه زميلنا الشاذلي بويحيى في أطروحته (انظر «الحياة الأدبية في إفريقية» ص 335، (بالفرنسية).

(«La vie littéraire en Ifriqiya sous les zirides»).

عبر الإقبال المتحرّر على متع الحياة وملاذّها. وهو نهج في السلوك يتخذ المتعة مذهباً دون أن يستند في ذلك إلى موقف فكري مخصوص⁽¹⁾ وقد تعاطى هذا السلوك جماعات من الشعراء سمّوا بالمعّجان ونُعتوا أحياناً بالظرفاء. وهم شعراء دعّتهم البطالة أو سأم الحياة إلى التطرح في حانات المدينة أو في الديارات أو في الخمارات المنتشرة في البساتين والمنتزهات فأشادوا باللذة الجامحة وجأهروا بالمجانة السّافرة ونشّروا في هذا الصدد إلى أنّ هؤلاء الشعراء عبّروا بذلك أحسن تعبير عن رفضهم للثقافة التي تصوّر الإنسان العربي كما تمثّلتها مجاميع الاختيار الأولى (جمهرة أشعار العرب والمفضليات والأصمعيات)، وساروا في ذلك كلّ على نهج جديد في نحت الإنسان⁽²⁾: فأفاضوا في التّعني ببطل نموذجي مضادّ يتخذ من الحياة الحضريّة أهمّ خصائصه من رفض للعنف وركون إلى السّلم وتهافت على النقد البذيء والسخرية اللاذعة، وإشادة بمسالك الشذوذ في السلوك والمواقف. وهذا «البطل المضاد» ستخلّد صورته سنّة التمرّد على الأعراف، وإن كانت لا تتعدى في أغلب الأحيان دائرة الكلام وسحره⁽³⁾، وهي سنّة ستطبع جانباً من الشعر العربي لا يستهان به⁽⁴⁾.

وهكذا فإنّ هذه الأجزاء الخمسة تمثّل الوجه الأول من عملنا وتضمّ في

- (1) انظر الدّراسة التمهيدية التي فتحنا بها الجزء الخامس من المدوّنة، ص 9 - 22.
- (2) يمثّل هذه الفئة من الشعراء الفضل بن عبد الصمد الرقّاشي (كان حياً في عقاب القرن الثاني): انظر على وجه الخصوص ميمّته المشهورة وقد أثبتناها في الجزء الثالث، ص ص 281 - 282.
- (3) انظر مثلاً القسم الأوّل (40 بيتاً) من تخميس ابن الهبارية لقصيدة صفي الدين الحلّي بجمهرة الإسلام للشيزري (مخطوط). أوردناه بالجزء 6، ص:
- (4) ولعلّ دراسة ما تبقى لنا من آثار هؤلاء الشعراء دراسة نقدية جادة، تكشف لنا في مستوى التحليل النفسي أنّ كل شاعر من هؤلاء الشعراء ينطوي على شخصيتين اثنتين عرفهما الكاتب الفرنسي المتحرّر أندري جيد (A.GIDE) في العصر الحديث بقوله في معرض الحديث عن نفسه «إنّ إحداهما طفل لاهٍ والأخرى قسّ أصابه الضجر والملل» ولعلّ هذه الظاهرة تفسر ميل عدد كبير من هؤلاء الشعراء إلى التوبة عند دنو الأجل، وقد ذكر الأصفهاني هذا الموقف في معرض حديثه عن واحد منهم فقال: «وكلّهم يموتون على توبة وإقلاع ومذهب جميل» الأغاني ج XX، ص 336.

جملتها جانباً من مدونة الشعر الذي قيل في هذه الفترة، وهو جانب تعرّض للتهميش أكثر من سواه. وما نسعى إليه هو أن تتواصل الأبحاث في هذا المضمار فتتقدّ جوانب أخرى من المدونة أصابها هي أيضاً التشييت والتهميش، ونذكر منها الشعر السياسي وبخاصة شعر الشيعة⁽¹⁾، وقد نشرت منه نماذج قليلة تنمّ عن نفس شعري قوي، وعن جهد في التجديد جلب اهتمام الدارسين⁽²⁾.

ولا يفوتنا في خاتمة هذه الفقرة المطوّلة، ونحن نسعى إلى تحديد منزلة المدونة في مجمل الإنتاج الشعري في هذه الفترة، أن نشير إلى أنّ الشعراء الذين اعتنينا بجمع ما تبقى من شعرهم أو بعضه، والذين لم يستظلوا بظلّ سلطان، ولم يتعاطوا لذلك ضروب التزلف والتقرب، لم يطرقوا شعر المناسبات إلاّ لماماً، ونشير كذلك إلى أنّ انصرافهم عن القول في الأغراض التي يحتفل بها الشعر الرسمي وخاصة أغراض المدح⁽³⁾ يُفسّر مقابل ذلك تنوّع الموضوعات ومصادر الإلهام التي زخر بها شعرهم. وهذا التنوّع الذي سبق أن ألمعنا إليه سمة تميّز بها موهبتهم في القول الشعري من قبل ومن بعد.

* * *

2- أما الوجه الثاني من عملنا فيتمثّل في هذه الدراسة التمهيدية التي نضعها بين أيدي القارئ. وهي بحث تأليفيّ يرمي أساساً إلى تقديم محاولة استقراء أوّل لما جمعه من مادّة، كما يرمي إلى ضبط أدوات المنهج بغية استغلالها استغلالاً وافياً في مرحلة لاحقة، وذلك بوصف أقسام المدونة وتقويمها ومقارعة بعضها ببعض.

(1) انظر أعمال الطيب العشّاش في هذا الحقل وبخاصة رسالة الدكتوراه التي أعدها في هذا الجانب المغمور من الشعر العربي (قيد الطبع).

(2) كما جلب اهتمام الدارسين شعر الخوارج (انظر «شعر الخوارج» جمع وتحقيق لإحسان عباس، بيروت، 1963).

(3) نذكر في هذا السياق أنّ نسبة قصائد المدح في ديوان أبي تمام تساوي 45٪ من مجموع شعره، وأنها في ديوان البحتري تبلغ 51٪. (جمال الدين بن الشيخ، «الشعرية العربية» ص ص 106 - 108).

وكان لزاماً علينا في سياق هذا التصوّر الثنائي، وفي انتظار الفراغ من أعمال الجمع التي نحن بصدد إنجازها أن نجنب التصوّر الشكلي الطموح الذي يستند إليه مؤرّخو الأدب ونقّاده فيما يقدّمون من العروض العامة، فهذا التصوّر يغلب عليه في كثير من الأحيان - نظراً لغياب الدراسات التمهيدية التي لا غنى عنها - متزع الاهتمام بتراجم الأعلام، وبالمسائل التي تتصل بالعصر وبالوسط، وبالانتماء الاجتماعي والمذهبي وذلك على حساب الدّراسة الفنّية للآثار ذاتها (وكثيراً ما لا يتوفّر من هذه الآثار سوى نصف قليلة إن لم تكن مفقودة)⁽¹⁾. ويتمّ كذلك، في سياق هذا التصوّر اعتماد نفس الشواهد بوجه عام، وهي شواهد كثيراً ما ترد معزولة عن سياقها، لتدعيم نفس الآراء، وهي لا تخرج عادة عن طائفة معلومة من المصادر (الدّواوين المطبوعة وعددها محدود، ومجاميع الأدب المتداولة). وما أكثر ما تحلّ هذه الشواهد في نهاية المطاف - لطولها وتواترها - محلّ الدّراسة النقدية نفسها⁽²⁾. لذا فقد اجتنبنا حشو دراستنا بشواهد مقتطعة، معزولة عن سياقها وآثرنا أن نحيل القارئ إلى المدوّنة نفسها كلّما دعت الحاجة إلى الاستشهاد. ذلك أنّ هذه المدوّنة تمثّل في عملنا قطب الرّحى وأننا أصررنا تمام الإصرار على أن نصون وحدتها وتكاملها. فخلا إذن مقالنا النقديّ من النصّ الشعري، واستعضنا عنه بنظام الحواشي أو الذيل التي أوليناها أهمية قصوى، ذلك أنها بمثابة الدّليل الذي ييسّر للقارئ تنزيل فقرات المدوّنة المتشعبة المسالك في إطار بناء متكامل مشدودة عناصره بعضها إلى

(1) نلاحظ أنّ بعض الشعراء من الذين لم يبق من آثارهم سوى نصف قليلة يتبوّأ في كتب تاريخ الأدب منزلة هامة، وهذا المنهج يذكّر بالسّنة المتبعة في تصنيف كتب التراجم. وقد حملت هذه الظاهرة ريجيس بلاشار (R. BLACHERE) على القول في مقدمة تاريخه للأدب العربي - وهو يعني فيما يعني - مدوّنة الشعر العربي العامة التي لم تضبط بعد - إن العمل الذي انقطع إليه عمل في جوهره سابق لأوانه لأنه يقتضي جملة من الأبحاث التمهيدية لم تنجز بعد.

(2) نذكر من النماذج التي تمثّل هذه الدراسات خير تمثيل أعمال محمّد مصطفى الشكعة النقدية، وهي حديثة نسبياً: انظر خاصة: رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، بيروت 1971.

بعض، ويمكنه في كل آن من ردّ متون المدوّنة إلى شبكة الإحالات التي تتخلّل هذه الدّراسة التّأليفية، أو المقّدّمات والتحليل التي تصدر هذه المتون أو تذيّلها.

وكان علينا كذلك، في سياق حرصنا على إبراز مواطن التميّز التي تتجلّى في المدوّنة أن نولي التعاليق النقدية المصاحبة للنصوص عناية فائقة. وهذا العمل يقتضي لا محالة إلماماً معرفياً كبيراً ولكنه يترجم عن حرصنا الشديد على ترسيخ جملة من الأدوات الأساسية لا مندوحة لأي كان من أن يعتمد عليها إذا رام دراسة المدوّنة وتاريخها دراسة نقدية.

وكان علينا أخيراً أن نعتمد في إعداد المدوّنة وفي إنجاز الدراسة التي تمهّد لها، منهجاً يتّسم بالتطور والحركة كي يواكب بصورة أفضل تسلسل المشاكل التي بيّنا مميّزاتها، وذلك عوضاً عن الاتكال على منهج كلاسيكي مسطور من قبل.

وقد ترتّب عن اختيار هذا المنهج أن أجّلنا وضع هذا الشعر في إطاره الجغرافي الدقيق إلى حين، ولم نسارع إلى ذلك بشكل آلي. ولكننا، مع ذلك، اتبعنا في ضبط مجال دراستنا حدوداً عامة استثنينا منها المغرب الإسلامي لأنه قد تمّ تعريبه في فترة متأخرة ولأننا لا نملك في الوقت الراهن أيّ مصدر معاصر للأصول يمكن اعتماده. أما محور هذه الحدود فهي بلاد ما بين النهرين، وهي إقليم جدّ معمر⁽¹⁾ مركزه بغداد ويمتد إشعاعه إلى بلاد الشام غرباً وإلى الجبال (نجد إيران) شرقاً.

كما أنّ هذه الدراسة اقتضت أن نحجم عن تقديم شبكة نصّ في هذه المدوّنة بحسب الفترات أو المدارس أو الاتجاهات والتيارات والآل نُقدّم على القول الفصل في هذه الأمور على غرار ما فعل مؤرخو الأدب⁽²⁾ وذلك لأننا لا

(1) انظر موريس لمبار، «الإسلام في عظمته الأولى» (بالفرنسية).

(Maurice LOMBARD, L'Islam dans sa premiere grandeur - pp. 121 - 133).

(2) انظر أعمال جرجي زيدان وج. عبد الجليل، وشوقي ضيف، وعمر فروخ وانظر أيضاً =

نملك من المعطيات المتصلة بتطور أجزاء المدونة ما يسمح لنا بهذا العمل من جهة، ولأننا لم نقف بعد على مدى ما بلغته وجوه التحول في العقلية والوعي اللذين يحددان هذا التطور من جهة أخرى.

وهكذا فإننا حرصنا كلَّ الحرص على اجتناب التقسيم المتعسف الذي يورثه الاهتمام بالأحداث أو بالأسر الحاكمة وحدها، وانصبَّ اهتمامنا على المعطيات التي تبرز تماسك هذه المدونة وانسجامها وتواصلها من الناحية الأسلوبية⁽¹⁾ وقد قادنا هذا المنهج إلى اتباع خط زمني مديد ومرن في الآن نفسه. فالعصر الذي يعيننا والذي تحدّد السنن المدرسية مدته - تيسيراً للعرض - بقرن (أي ما يقابل العصر العباسي الأول الذي ينتهي بوفاة المتوكل سنة 247هـ)، إنما يمتدّ في الحقيقة إلى نهاية القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد، فهذه الحقبة هي المنعرج الحقيقي الذي شهد تفكك الخلافة وانقراض عصر الاستقطاب الذي فازت به بغداد من قبل. وقد بشر هذا المنعرج بإشراق عواصم الأقاليم (الري، نيسابور، إصفهان، شيراز، حلب، الموصل)، وأعلن عن ظهور جيل من رجال السياسة سيبسط نفوذه وسلطانه على الشعر فيصبح الشعر منذ ذلك الحين وعلى امتداد ألف سنة خاضعاً للسلطة السياسية، ويغدو شعراء المدح أبواقاً لها⁽²⁾.

- = بلاشار (BLACHERE) ضمن (Arabica)، عدد خاص ببغداد 1962، STUDIA VIXX
- ISLAMICA، 1966 (بالفرنسية). إذ نلاحظ في خصوص الفترة التي تعيننا أنّ هؤلاء الدارسين يباعدون بل يحدثون في تقسيمهم للعصور فجوة كبيرة، لا نرى لها مبرراً، بين ما يسمّى بمدرسة المحدثين (وهي تنتهي إلى أبي نواس ومن أتبع نهجه في نفس الجيل) وبين ما يسمّى بمدرسة الاتباع الجديدة (وهي تنتهي إلى ابن المعتز).
- (1) إننا لا نرى أن علياً بن عاصم العنبري مثلاً وهو شاعر عاصر أبا نواس وبدت في شعره ملامح شعر المتنبي (انظر المدونة ج 1، ص ص 229 - 233) دون ابن المعتز تمثيلاً لمدرسة الاتباع الجديدة، ولا نرى كذلك أنّ ماني الموسوس وهو شاعر عاصر البحتري (انظر المدونة ج 2، ص ص 229 - 262) دون أبي نواس تمثيلاً للمحدثين.
- (2) إذا استثنينا الشعر الصوفي وهو شعر عرف تطوراً هاماً في العصور المتأخرة فإننا نلاحظ أن تاريخ الشعر في تلك العصور سيعدم - أو يكاد - شعراء أمثال العباس بن الأحنف وخالد الكاتب وربيعة الرقي وماني الموسوس، أولئك الذين انصرفوا في شعرهم إلى =

إنّ هذا العصر عصر مديد، وسع، كما سنرى في المدوّنة، آثاراً جدّ متنوّعة، بينها تباعد في الزمن كبير، كالتباعد بين أبي الشيص (ت 196هـ/812م) وخالد الكاتب (ت 260هـ/883م) وعلي بن بسّام (ت. حوالي 302هـ/913م). ولكنّ هذه الآثار تنطوي كلّها على هاجس لا ينفك يراودها، هو هاجس اختزال الماضي وإحداث ضرب من التوازن بينه وبين الحاضر، شأنها في ذلك شأن الآثار المعاصرة المتميزة التي تركها أبو نواس والبحثري وابن المعتز. وهي تُقرّ بأنّ الموروث الشعري باقٍ في الضمائر وفاعل في القول على الدوام، بل وإننا نجد هذا الهاجس عالقاً بأشدّ الشعراء تمسكاً بالتجديد ودعوة إليه، وسيظلّ أولى السمات المميزة لهذا العصر العظيم.

- 2 -

الحدود المنهجية

نختم هذا الفصل بالإشارة إلى ثلاث نقاط تقتضي منا أن نبرزها وذلك كي نضبط حدود مشروعنا بشكل أفضل.

(أ) لما كنّا نرمي من وراء هذا العمل إلى الإسهام إسهاماً متواضعاً في التعريف بالشعراء «المقلّين» في العصر العباسي الأوّل فقد بدا لنا من الأساسي في مرحلة أولى أن نقصر مجال بحثنا على المدوّنة وحدها أي على الإنتاج الشعري نفسه، أو المعطى النصّي لا نخرج عنه. ولم نقيّد منهجنا بتصوّر ابيستمولوجي معيّن، ولو فعلنا ذلك لاقترضنا هذا التصوّر أن نتوخى تحليلاً يلائم الآثار (وهي آثار لا يزال جانب منها كبير مفقوداً) ويسعى إلى وضعها في السياق الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي شهد ذلك العصر. ومن الطبيعي أنّ عملاً كهذا، وهو يكمل العمل القيم الذي أنجزه ريجيس بلاشار في تاريخ الأدب، سيتولاه الباحثون من أجيال المستقبل. وهؤلاء الباحثون سيعتمدون في عملهم مدوّنة محقّقة مضبوطة، قد تمّت فيها عملية الجمع بنسبة عالية. وهكذا

■ التعبير عن تجاربهم الذاتية ولم يخضعوا لسلطان السياسة (تجدد الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الشعراء الذين ذكرناهم يفوزون بمنزلة متميزة في الجزء الثاني من مدونتنا).

فإنّ في منهجنا الذي وصفناه، وفي مطامحنا التي حدّدناها ما يعلّل ميلنا في ضبط عنوان هذا العمل - وهو «شعراء عباسيون منسيّون» - إلى عدم الحصر والتحديد الضيق.

(ب) لا يرمي عملنا في هذه المرحلة من البحث إلى تقويم جوانب المدوّنة المختلفة بلّه تحليل بناها العميقة وتفكيكها وإنما يرمي إلى استخلاص ما يميّزها من السمات الخارجية، وإلى وصفها وصفاً شاملاً إنّ في مستوى التفصيل أو في مستوى الأغراض. ولما كان ذلك كذلك فإننا حرصنا، كلّما اقتضى منا البحث إصدار حكم من الأحكام، على اجتناب الوقوع في أحد وجهي التطرّف التاليين:

● الحطّ من قيمة جانب كبير من المدوّنة مراعاة للبعد التعليمي، وهو ما فعله ابن قتيبة إذ أنه ذكر الشعراء «المقلّين» فيمن ذكر من المحدثين، وعابهم - دون أن يصرّح بذلك - بأنّهم خرجوا بالشعر عن مرتبة القصيد كما حدّدها في بيانه النقدي الفاتح لكتابه «الشعر والشعراء»، ونزلوا به إلى شكل الأبيات القصار (المقطعة) وخسيس الأغراض («مدح قينة ووصف كأس»)(1).

● مسaire بعض المذاهب النقدية ذات الاتجاه الثقافي أو السوسيولوجي أو الانتروبولوجي، تلك التي تعتبر الثبات(2) والاتباع قاعدة عامة يسير عليها الشعر العربي. وترى في النهاية أنّ كلّ جهد في الإبداع الشعري إن هو إلّا ترديد لما قيل من قبل. فعجاك بارك (J. BERQUE) يعدّ هذا الجهد ترديداً في

(1) انظر أدب الكاتب، ص 2 حيث يقول: «... وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس».

(2) نظرية الثبات أو اللاتطور تدّعي أنه يوجد نظام مغلق، كلّ شيء فيه تمّ وضعه دفعة واحدة وذلك في نطاق الثقافة أو الأيديولوجيا. ونلاحظ في هذا الصدد أنّ فون قرونباوم (VON GRUNEBAUM) وهو مستشرق واسع الثقافة، وله عدد من الآثار الجيدة لا تخلو من جرأة في التحليل، لم يسلم فيما يبدو من هذه النظرة (انظر الدراسة العميقة التي خصّ بها عبد الله العروي منهج هذا المؤلف، ديوجان (DIOGENE)، عدد 83، سنة 1973). وراجع كذلك، جاك بارك (J. BERQUE): «وجوه الكلام العربي في الحاضر» (Langages arabes du présent) فقد ترجم الثبات بما سمّاه على وجه التورية «السنة الثقافية».

مجال اللغة يشبه في مجالات فنية أخرى أعمال التحاس والسداء والخرائط والزخرفي والخطاط والمنمنم. وهو عنده عمل يقوم على الإعادة والتكرار أو المعارضة وتقدر فيه قيمة الشاعر بمدى تمكنه من احتذاء النموذج الأصلي، وبما لا يحصى من البدع الشكلية التي لا يملّ من البحث عنها في شعاب البلاغة وما تتيحه من وجوه التصرف في أساليب البديع التي لا تحدّ⁽¹⁾. ونشير في هذا الصدد إلى أنّ الناقد دارقونتي (DRAGONETTI) في إحدى دراساته المتعلقة بالشعر الغنائي وبيئة الظرفاء في العصر الوسيط⁽²⁾، وهو مجال بينه وبين الشعر العربي وجوه شبه عديدة، قد فتّد هذه المناهج، وأثبت بوضوح «أنّ الاتباع في الشكل لا ينجزّ عنه بالضرورة اتباعاً في الدلالة، فالشكل محلّ تأويل متجدّد (أو) يمكنه أن يكون كذلك على الأقلّ»⁽³⁾ والرأي عندنا أنّ هذا الأمر ينطبق تمام الانطباق على الشعر العربي القديم⁽⁴⁾.

(ج) أمّا النقطة الأخيرة فهي تتصل بأساليب النظر في النصوص، والمصطلحات المستخدمة في تحديد المفاهيم النقدية التي يستند إليها التحليل، سواء في هذه الدراسة أو في مختلف الأبحاث المصاحبة للمدوّنة. ولما كنّا حريصين على أن يكون العرض واضحاً في اللغتين (العربية والفرنسية)، وعلى

(1) انظر الجزء II، ص 91 - 95 على أنّنا نلاحظ أنّ الآفاق الجديدة التي فتحتها علوم اللغة بداية من سوسير (SAUSSURE) تتّجه فيما يبدو اتجاهاً جديداً في دراسة الظواهر البلاغية، وفي قراءة الكتابة الشعرية (انظر في هذا المضمار، ريفتار (RIFFATTERRE): «دراسة في الأسلوبية الهيكلية»، وجان كوهان (J. COHEN)، (بنية الكلام الشعري)، وجمال الدين بن الشيخ، «الشعرية العربية».

(2) انظر الصفحات القيمة التي فتح بها دراسته: «موضوعات ثلاثة في الغنائية الغزلية في العصر الوسيط».

(3) ممّا نقله الناقد زمتور (ZUMTHOR) المذكور في «اللغة الشعرية وأدواتها» ص 196، الهامش 1. (بالفرنسية).

(4) نلاحظ في هذا السياق أنّ جمال الدين بن الشيخ حلّل الفكرة نفسها بوضوح، في دراسته للشعرية العربية، وتحدث عمّا سماه «بالاستعمالات المستطرقة المتجددة»، التي نقدّ معدنها من «سلطان الكلمة الساحر» (دائرة المعارف العالمية، ج 10، ص 209، بالفرنسية).

اجتناب الإسراف في استعمال المصطلحات الفنية التي هي ضريبة سلّطتها الألسنية على علوم الأدب فإننا حاولنا أن نلائم قدر الإمكان بين النظم الاصطلاحية في العربية وفي الفرنسية، وذلك كي نتحاشى اللبس وسوء الفهم. وقد لاحظ أبناء جيلي وفرة الدراسات النظرية التي وضعتها علوم اللغة في العقود الأخيرة بين يدي الباحث، وباتوا على يقين بأن تناولها عسير في أغلب الأحيان، نظراً لتنوعها، ولتعقدها، ولما تتسم به، على وجه الخصوص من فوضى في استعمال المصطلحات، مصطلحات ربّما بلغت حدّ التعمية والإغلاق فسقطت في كثير من الأحيان في الشكلية المحض⁽¹⁾.

لذلك فقد حصرنّا على أن نستعمل في هذه الدراسة المصطلحات المتداولة المعروفة، باستثناء عدد قليل من العبارات التي لا تدعو إلى لبس ولا إشكال.

وقد فصلنا القول في هذه المسألة في مظانّ الفصول التي قدّمنا بها هذا القسم من المدوّنة أو ذاك (انظر خاصة الجزئين I و II). فتمكّنّا فيما تمكّنّا منه، من الإشارة إلى فساد بعض المناهج التي تعتمد طرّقاً في البحث حديثة تجريها على الشعر العربي. إنّ المحاولات في هذا المجال لا تقنع إلا لماماً، مهما تكن اللغة التي تستخدم فيها أدوات هذه المناهج.

ففي صورة كتابة الخطاب النقدي في لغة أجنبية يكون التحليل مستنداً إلى سنة مخصوصة أو إلى نظام رمزي أو إلى تصوّر للعلم نابع من ثقافة تختلف عن الثقافة التي تنتمي إليها لغة المدوّنة المدروسة (ونعني هنا العربية)، فيؤول الأمر إلى كتابة قائمة على نظام رمزي يعسر نقله إلى لغة المدوّنة، وتتضاءل تبعاً لذلك

(1) لقد أشار فاليري (VALERY) منذ نصف قرن إلى ما كان يسمّيه بالترجرج في المصطلحات في مجال الفنون الأدبية فقال: «إنه لينبغي لنا أن نقرّ بأنّ المصطلحات في مجال الفنون وخاصة فن الأدب هي من أكثر المصطلحات بعداً عن اليقين. فما يسمّى بالشكل والأسلوب والإيقاع والنوثرات ومصادر الإيحاء، والعرض والتأليف الخ... . إنما هي عبارات يفهمها الجميع ولا شكّ، ولكنّ هذا الفهم لا يتمّ إلا إذا كان الأشخاص الذين يستعملونها متفقين فيما بينهم (ألوان Variété، v، 292 - 293).

فائدة التحليل فلا يستفيد منه في نهاية المطاف إلا فريق من أهل الاختصاص، وأغرب به فريقاً مولعاً بلغة خاصة لا يفهمها القارئ العادي⁽¹⁾ أو ربّما استفاد من هذا التحليل الصفوة المختارة من المتصلّعين في علوم اللغة⁽²⁾.

وأما إذا كانت اللغة المستعملة هي العربية نفسها (أي لغة النصّ) فإن الأمر كثيراً ما يفضي إلى خطاب نقدي مستعار (يقتصر في أغلب الأحيان على النسخ) ويتحوّل لفرط ما يقع فيه من انزلاق وتعميم، وتحريف لنظام اللغة، إلى خطاب مشوّه تشويهاً تاماً، قاصر على الإبانة عن المقاصد، يكاد لا يقرأ وخاصة بالنسبة إلى الذين لا يحسنون إلاّ العربية، فهؤلاء القراء لم يظفروا بما ظفر به الجيل السابق من تكوين لساني مزدوج. وهم لذلك يشعرون بأنّ ما يكتنف المعاصرة من فوضى في الدلالة لا يعنيه، فينخرطون في مدرسة علماء اللغة القدامى، ويحسّون بأنهم مدعوون أكثر فأكثر إلى العمل بصورة شاملة على إحياء سنة في البحث لا تزال دفيئة في تراث بلاغي كتب بين القرن الثالث والقرن الخامس، وهم يرون أنه بالإمكان أن تبعث هذه السنة من جديد، وأنّ يعاد تنشيطها واعتمادها منهجاً في البحث⁽³⁾.

نضيف إلى ذلك ما لاحظناه لدى عدد غير قليل من الباحثين العرب الشبان من الذين «يلهثون» وراء كلّ جديد (وهم في كثير من الأحيان من خريجي

(1) انظر تزفان طودورف (T. TODOROV): نقد النقد: رواية الدربة، ص 161 (بالفرنسية) «Critique de la critique: un roman d'apprentissage».

(2) غير أننا لا نغفل عن الأعمال التي كتبت في لغة أجنبية مثل التي أنجزها من الجامعيين أندري ميكال وجمال الدين بن الشيخ (في مجال الأدب) وعبد الوهاب بوحدية ومحمد أركون وعبدالله العروي وأنور عبد الملك (في مجال الفكر)، فهذه الأعمال تساعد إلى حدّ كبير (مساعدة جدّ ضرورية في بعض الأحيان) الجمهور غير الناطق بالعربية على تصحيح نظرتهم للثقافة العربية، وهي نظرة مشوّشة في كثير من الأحيان.

(3) تبرز هذه الظاهرة بشكل مميّز إلى حدّ ما في بعض المجلات الرائدة مثل: الفكر العربي المعاصر (بيروت)، المعرفة (بيروت)، مواقف (بيروت)، الثقافة الأجنبية (بغداد)، فهي لا تسلم من هذه الفوضى في الدلالة رغم الجهود التي تبذلها في اتّجاه إحكام الأدوات اللسانية المستعملة والتنسيق بين مجاريها.

الجامعات الأوروبية)، ما لاحظناه لديهم من تصوّر خاطيء لأدوات النقد جعلهم يعتقدون أنه بالإمكان تحديث الخطاب النقدي العربي بمجرد النقل لتقنيات وأساليب عن لغات أخرى⁽¹⁾.

أما نحن فإننا لا نزال نعتقد وقد ذكرنا ذلك⁽²⁾ أنه لا يمكن لأية عملية من عمليات النقل أن تقوم بديلاً عما ينبغي أن نخترع من مفاهيم (سواء كان ذلك عبر الأخذ أو النسخ أو الترجمة الحرفية، أو المناقلة أو الاقتباس أو المعادلة)⁽³⁾. وهذا الاختراع يكون نتاج ما تعيشه كل لغة من تطوّر وملاءمة خاصّين بها، لا يمكن أن نعرضهما عليها أو أن نقلهما نقلاً حرفياً على وجه التصنع والتكلف.

ونقول في خاتمة هذه الفقرة المطوّلة إنه ما دامت الدراسات النقدية التي ننجز بل نقلد في إنجازها غيرنا مجرد تطبيق للمناهج المستعارة لا غير، وما دما نصرف النظر عن شعبة من شعب البحث أساسية، تتمثل أولاً وقبل كلّ شيء في تأسيس تنظير جاد يعتمد فيه وجوباً الموروث النقدي والبلاغي قصد استيعابه أولاً ثم تجاوزه ثانياً (وهو كما نعلم تراث ثريّ أبلغتها إياه سنّة ثقافية عريقة ترجع نصوصها التنظيرية الأولى إلى فواتح القرن الثاني، سنّة ما أكثر ما أسيء تقديرها إن لم نرمها بالتحجّر⁽⁴⁾)، وما دما أخيراً نرغب عن الاستفادة من المعارف الأساسية التي تتصل بالنص وتساعد على قراءته وتأويله⁽⁵⁾ ونعني

(1) صحيح أننا لا نزال نؤمن، نحن بلدان العالم النامي، في مجالات أوسع نطاقاً هي مجالات التنمية، نؤمن بفضائل ما أسماه بعض علماء الاقتصاد بـ «نقل التكنولوجيا» وهو ضرب من ضروب التركيب العجيب قادر، عند بعضهم، على مدّنا، في المجال الذي نتحدث عنه، بأدوات لغوية ومفاهيم اصطلاحية بها يتمّ عبر عملية سحرية، تحديث الخطاب النقدي العربي.

(2) انظر الجزء 2، ص ص 79 - 82.

(3) انظر فيناي ودربالنت (VIANET ET DARBELNET)، «الأسلوبية المقارنة بين الفرنسية والإنجليزية» (بالفرنسية).

(4) يبدو أن بعض الدراسات في هذا المجال تبشّر باتجاه جديد في البحث كالدراسة التي قدمها الأستاذ الجامعي حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، تونس 1981.

(5) انظر ت. طودوروف (T. TODOROV)، نقد النقد، ص 13 (بالفرنسية).

بالمعرفة في هذا السياق كلّ المعطيات التي تسبق النص بما في ذلك موروث المتصورات المخصصة، وهي متصورات تستمدّ معانيها الحافة على وجه الدوام من اللغة العربية المطبوعة بالبيان القرآني، المتصلة في جوهرها بثقافة الصحراء. وصفوة القول أنه ما دام البحث في هذا المجال متردداً متوانياً، لا يراعي في خطته هذه المعطيات الأساسية فإنه لا أمل لنا في تجديد مناهج البحث وأدواته ووسائله تجديداً يضارع الجهود المبذولة منذ قرن لإحياء التراث بما في ذلك مدونة الشعر القديم، وهو ما يعيننا في هذا المضمار.

تلك هي الأفكار الأساسية التي ينطوي عليها برنامجنا. وليس من شك في أن عملاً يروم «نفذ الغبار» عن الشعراء المغمورين في العصر العباسي الأول، لهُو من الأعمال التي لا تخلو من مجازفة، بل مخاطرة. بل لعلّ عمل سابق لأوانه لندرة المصادر من جهة، ولما يحيط ببعض المسائل المعلقة به من غموض من جهة أخرى. ومع ذلك، وبالرغم من «الضبابية» التي تغمر رحاب الدرس، عزمنا على خوض هذه الدراسة يحدونا في ذلك اليقين بأن العمل الذي انقطعنا إليه يقتضي نفساً طويلاً، وبأن البحث في هذا المجال يتقدم ببطء سبيله في ذلك سبيل غيره من البحوث الأثرية.

لهذه الأسباب كلّها تبدو الفصول السبعة التي تؤلف هذه الدراسة ناقصة في بعض المواطن وذلك رغم ما أضفناه من معطيات وتحاليل في غضون الأبحاث التي تتخلّل الأجزاء الخمسة من المدونة. فلا غرابة إذن إذا كان منهنّا في نهاية المطاف أقرب إلى وضع المشاكل منه إلى تقديم الحلول، وبذلك فإنه لا مفرّ من أن تظلّ الأسئلة التي كنّا نودّ أن نجيب عنها قائمة.

الفصل الثالث

طلب المدونة

الشعراء المشتهرون والشعراء «المقلّون» أو الأغفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريفات

لقد اخترنا عند تحريرنا لهذا العمل في نصّه الأصلي (بالفرنسية) أن نستعمل مصطلحات لاتينية^(*) نرمي من ورائها إلى إبراز صعوبة مزدوجة. إذ نلاحظ أولاً أنّه لا توجد في لغات أجنبية ألفاظ محايدة كافية لتأدية معنيي الفحولة والإقلال اللذين يحيلان في الأصل كما سنرى على مفهومين لم تستقرّ فيهما الدلالة على نحو من الوضوح يرفع عنهما كلّ لبس. ونلاحظ ثانياً أنّ النصوص الأولى التي ورد فيها هذان اللفظان، وهي في كثير من الأحيان تعاليق مقتضبة، لا تسمح لنا بأن نستخلص إطاراً عاماً أو تصنيفاً نموذجياً يمكن أن نرتّب فيه الشعراء ضمن طبقة الفحول أو طبقة المقلّين دون أن نخلط بين الطبقتين في الترتيب إن قليلاً أو كثيراً.

ذلك أنّ مفهوم الفحل (وهو يعني في مدلوله الأوّل البعير الذكر الذي تجتمع فيه خصال النموذج المثالي في الجنس) وإن أفاد عند القدامى معنى التفرد والتميّز⁽¹⁾ ومعنى الغلبة⁽²⁾ والتفوق⁽³⁾، ومردّ هذه الصفات كلّها بوجه عام إلى غزارة الإنتاج، فإنّ مفهوم المقلّ، وإن كان يعني في مدلوله الأوّل الشعراء الذين قلّ شعرهم ولم يتجاوز عدداً قليلاً من القصائد فهو لا يمنع من أن تكون

(*) «Poetae majores»: شعراء «أكابر» أو من أسميناهم «شعراء مشتهرون».

«Poetae minores»: شعراء «أصاغر» أو من أسميناهم «شعراء أغفال».

(1) نذكر في هذا الصدد تعليق الأصمعي في فحولة الشعراء ص 9 إذ يعرف الفحل بأنّه الشاعر الذي له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقائق.

(2) يذكر ابن منظور في اللسان أنّ الفحولة تطلق على الشعراء الذين تميّزوا بالغلبة والمعارضة في الهجاء.

(3) يعبر الأصمعي عن معنى التفوق بقوله: «كان غاية في...» وهو يذكر هذه العبارة عند الحديث عن الشاعر الجاهلي طفيل الذي يعدّه فحلاً لأنّه أجاد وصف الخيل.

للمقلّين نفس الصفات التي استأثر بها سائر الفحول⁽¹⁾.

إنّ التّمييز العميق بين الفحول، وهو مصطلح يطلق على الشعراء الكبار، وبين المقلّين، وهم شعراء يعدّون دونهم فذاذة ومرتبة، هذا التّمييز الذي اعتمدته السّنة النّقديّة المتأخّرة في تصنيف الشعراء⁽²⁾، ونجد أثره إلى اليوم في بعض البرامج المدرسيّة والكتابات النّقديّة⁽³⁾ يبدو أنّه إحدى النتائج التي ترتبت عن منهج الانتقاء الذي سلكه النّقاد في القرنين (V-IV هـ / XI-X م)، أولئك الذين فتحوا باب الموازنات والسرقات⁽⁴⁾ وقصروا شروحهم المستفيضة على عدد محدود من الشعراء المحظوظين⁽⁵⁾ وبذلك أسهموا بقسط كبير في الزجّ بعدد كبير من الشعراء في غمار النسيان. وقد انجرّ عن ذلك أنّ شوّهت المدوّنات في جملتها، وخاصة مدوّنات الشعراء المقلّين.

إنّ هذا الجانب من المشكلة، وهو جانب غالباً ما غصّ عنه الطرف مؤرخو الأدب رغم أنّ القدامى المعوا إليه في مواطن عديدة من مؤلفاتهم النّقديّة، ربّما استحقّ منا أن نخصّص له فصلاً كاملاً. غير أنّ إطار هذا العمل لا

(1) انظر طبقات فحول الشعراء للجمحي، ص ص 115 - 131. فقد أدرج طبقات من الفحول بأكملها ضمن المقلّين.

(2) انظر مختارات سامي البارودي المذكورة أعلاه فقد اعتمد مفهوم الفحولة مقياساً في الاختيار.

(3) لاحظ أنّ شوقي ضيف في مؤلفاته حول تاريخ الأدب العربي في القرون الثلاثة الأولى استعمل عوضاً عن عبارة «فحول» - وهي عبارة ربّما عدّها متقدمة - استعمل عبارة «علم» وخصّ بها تسعة شعراء من الفترة التي تعيننا. أمّا المقدسي المذكور آنفاً فقد اختار عبارة «أمراء» فوضعها عنواناً لأحد مؤلفاته المتصلة بالشعر العربي في العصر العباسي، في حين أنّ محمد نجيب البهيتي، وهو ناقد جامعي آخر، واصل استعمال عبارة فحولة نعتاً يسم به بعض الشعراء الذين يميّز شعرهم بما يسميه «الذكورة» و«القوّة»، انظر تاريخ الشعر العربي، ص 480.

(4) الآثار البارزة التي تصوّر هذا الفنّ المتعدّدة أشكاله هي: الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، والموازنة بين شعر أبي تمام والبحري للآمدي، وسرقات أبي نواس لمهلل بن يموت، والإبانة عن سرقات المتنبي للآمدي.

(5) نذكر هنا أبرز الذين صنّفوا شروحاً وهم: المعري (ت 1057/449) والواحدي (ت 1076/468) والتبريزي (ت 502هـ/1109).

يسمح بذلك، فنحن نقتصر في هذا السياق قبل أن نشرع في دراسة ظاهرة التآكل والبعثرة التي أصابت المدونة، على إبراز بعض المعطيات التي من شأنها أن تنير منهجنا في العمل.

— 2 —

الأسباب العميقة للمباعدة بين منازل الشعراء

بالإضافة إلى المعيار الذي يقوم على الكمّ والكَمّ وحده في تحديد منازل الشعراء (لا ننس أن الأصمعي يشترط في فحولته أن يكون عدد القصائد التي يستحقّ صاحبها لقب فحل⁽¹⁾ متراوحاً بين خمس قصائد وعشرين قصيدة ولا يستحقّ هذا اللقب من له دون هذه القدر)، ورغم الاعتبارات التي استندنا إليها سابقاً فإنه يبدو لنا أن سببين رئيسيين كانا في نهاية المطاف عماد النقاد القدامى في التمييز بين المشهورين والمقلّين أو بعبارة المرزوقي (ت 421هـ/1030م) «المشتهرين» و «الأغفال»⁽²⁾.

وفعلاً فقد ارتأى النقاد أنّ صفة المقدرة أي امتلاك ناصية اللغة (الفصاحة)، وحذق تقنيات الشعر (جودة الصناعة) ليست حكراً على المشهورين. وأنّ عدداً من الشعراء أقلّ شهرة، وهم أولئك الذين سيعدهم الخلف من درجة ثانية وسيغمرهم النسيان في نهاية المطاف، لا ينقصهم من الكفاءة ما يحسدون عليه نظراءهم.

ولا يتسع هذا المقام لاستعراض قائمة شعراء هذه الفترة الذين لم تحتفظ السنة الأدبية إلا بجانب قليل من إنتاجهم، وقد جاء في أغلب الأحيان في شكل مقتطفات من دواوينهم الضائعة توزعتها مجاميع الأدب وكتب الاختيار، لكن لها مكانتها المتميزة ضمن الآثار المشهورة في ذلك العصر. وحسبنا ذكر أشجع

(1) لاحظ أنّ عبارة فحل تستعمل أيضاً لنعت القصيدة («قصيدة فحلة»: طبقات ابن المعتز ص 122) أو لنعت الراوية («راوية فحل»: لسان العرب مادة فحل).

(2) انظر شرح ديوان الحماسة ص 13.

السلمي (ت 811/195) والخريمي (ت 829/214)⁽¹⁾ وقد توفقا كما يرى أحد النقاد الكبار في (القرن X/IV) وهو الجرجاني إلى أن يكونا كبشار وأبي نواس ممتن سنوا جديد الطرق في الشعر، وإلى أن يفرضا أسلوباً يتميزان به⁽²⁾. بل إن أبا حاتم السجستاني (ت 255هـ)، فيما نقله ابن الجراح في الورقة، يذهب إلى أبعد من ذلك، ويرى في الخريمي أشعر المولدين. ولنذكر كذلك كوكبة من الشعراء هم: أبو الشيص (ت 811/196) وأبان اللاحقي (ت 815/200) والحسين بن الضحّاك (ت 864/250)⁽³⁾ وقد عدّ ابن رشيق ثلاثتهم من طبقة أبي نواس⁽⁴⁾.

ولنذكر أخيراً ربيعة الرقي (ت 814/198) وماني الموسوس (ت 245/859)⁽⁵⁾ وقد شبهتهما ابن المعتز - وهو من هو شاعراً وناقداً - بأكبر الشعراء المعاصرين لما للأول من قصائد في الغزل لا نظير لها عند غيره⁽⁶⁾ ولما للثاني من موهبة في قول الشعر فذة⁽⁷⁾.

هكذا فإننا نلاحظ أن البحث عن الأسباب العميقة لهذه المباعدة بين منازل الشعراء، ينبغي أن نتجه فيه إلى مجالات أخرى غير مجالات الفصاحة وجودة الصناعة كما افترضنا أولاً. وقد اهتدى إلى ذلك ابن قتيبة (ت 276هـ/839) حين حدّد العلامات الأولى لهذه المباعدة فكان صدى لاتجاهات عصره العميقة. فهو يرى إجمالاً، في نصّ مشهور يتردّد ذكره بين النقاد، أن الشاعر

- (1) ندرج شذرات من شعر الخريمي في الجزء IV من مدوّنتنا.
- (2) انظر الوساطة، ص 50، حيث يشير الجرجاني إلى ما أسماه بـ «منهاج أشجع والخريمي». انظر كذلك الورقة ص 110.
- (3) ندرج أهم ما تبقى من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة في الأجزاء 1 و III و V من مدوّنتنا.
- (4) انظر العمدة لابن رشيق، ج 1/ ص 101.
- (5) انظر الجزء II، ص 291، 335.
- (6) ينعت ابن المعتز في طبقاته ص 159 ربيعة الرقي بقوله: «ما أجد أطبع ولا أصحّ غزلاً من ربيعة».
- (7) «كان ماني المجنون من أشعر الناس» المصدر نفسه ص 384.

المجيد، ويعني به الفحل هو الذي يلتزم إطار «القصيد» فيعدل بين أقسامه، ويبلغ فيه مقصده الذي لا مقصد سواه، وهو المدح⁽¹⁾. ولم يكن ابن رشيق (ت 1064/456) بعد ذلك سوى مفسر لهذا المعطى الأساسي في فنّ الشعر ونقده، وهو معطى سيكون له أبعد الأثر فيما سيتمّ، بعد المولدين، من محاولات تجديدية لأنّ الشاعر «المبرز» - في رأي صاحب العمدة - (أي الشاعر «الفحل» كما ذكر أبو الفرج)⁽²⁾ هو الشاعر الذي يستجيب في سبيل إثبات فحولته، لمقتضيين اثنين هما: امتلاك ناصية الصناعة (ويعني ذلك حذق تقنيات البناء، والأساليب البلاغية التي تقوم عليها طرق التعبير في القصيدة)، وتسخير هذا الفنّ لخدمة المدح الذي هو غرض الشعر الرئيسي⁽³⁾.

وبذلك ندرك معنى قول ابن قتيبة، وهو يستشهد لإثبات هذه النظرية بشعر ذي الرمة (ت 735/117): إنّ هذا الشاعر «أحسن الناس تشبيهاً وأجودهم تشبيهاً» ووصفاً للصحراء، ولكنه شاعر غير مطبوع في المدح والهجاء لذلك لم يُعدّ شاعراً فحلاً⁽⁴⁾.

* * *

ذاتك هما السببان اللذان حدّدا خلال أكثر من ألف سنة الخطّ الفاصل بين «المبرزين» - الفحول - المشتهرين» وسائر الشعراء. وقد أحسن الأصمعي (VIII/II) تمثّل هذه الظاهرة حين أدرك قبل ابن قتيبة أنّ الأوائل إن هم عدّوا ثلّة من شعراء الجاهلية المعدودين من غير الفحول فذلك لأنّ هؤلاء الشعراء خرجوا في قول الشعر عن العمود السائر فلم يتقيّدوا بمراتبه (اتخاذ «القصيد» قصيد المدح الشكل المفضل للتعبير) وانتحوا في أشعارهم مسالك الذات للتعبير عن

(1) انظر الشعر والشعراء: ص 20 - 21.

(2) الأغاني XXII، ص 245 حيث يشير أبو الفرج - في تحديده لمراتب الشعراء - إلى المغمورين المنسيين دون أن يصرّح بذلك، فيخرجهم عن طبقة «المبرزين» - الفحول، منبهاً بهذا المركب اللفظي الملتحم إلى ما بين العبارتين المتجاورتين من نسب.

(3) العمدة، ج 2/ ص 110 حيث يقول ابن رشيق: ... الشاعر المبرز [هو] الذي الشعر صناعته والمديح بضاعته.

(4) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 13 - 14 (أوردنا النص ص 221 - 222).

مشاغلها وشجونها. ونجد في كتاب الفحولة⁽¹⁾ الذي ألفه هذا العلامة البصري ضمن هؤلاء الشعراء كوكبة الشعراء الصعاليك وعدداً كبيراً من الشعراء المغمورين. وهم يذكرّونا بدورهم بالحشد الذي لا يحصى من الشعراء اللاحقين الذين سيكون لهم نفس المآل (لعلهم بضعة آلاف كما سبق أن ذكرنا). والذين سيؤلف منهم المرزباني قائمته الشهيرة في معجم الشعراء.

بل وإنّا نعلم، كما لاحظ جمال الدين بن الشيخ، أن البذور الجديدة، ومحاولات التجديد في مختلف المجالات كثيراً ما تظهر وتبرز عند المقلّين⁽²⁾. وليس من قبيل الصدفة أن ينتمي أغلب هؤلاء الشعراء - كما نلاحظ في الجزئين الثالث والخامس خاصة من مدوّنتنا - إلى الشعراء الذين انصرفوا عن الاحتفال بالشعر غير الذاتي وصار الشعر عندهم معبراً للإفصاح عن التجربة المعيشة⁽³⁾، سواء أكان هؤلاء الشعراء من الظرفاء المتماجين الذي يتفنّون في الإشادة بالعيش المرح والبحث عن اللذة بمختلف أشكالها، أو ممّن غلب على شعرهم الرثاء والتفجّع فهم يردّدون في قصائدهم، عوداً على بدء، أنات الشكوى والحنين، أو ممّن انتهجوا مسالك الخلاعة وأباحوا لأنفسهم المحظورات فخرجوا بشعرهم عن سنن المباح وغدوا مهمّشين، غرباء عن أنفسهم وفي جدل مع المجتمع.

فليس بغريب إذن ألاّ تتضمّن أجزاء المدوّنة الخمسة التي نقدّمها اليوم، إلاّ التّزّ من القصائد التي احتذى فيها شعراؤنا نماذج القصيد (قصيد المدح والهجاء والرثاء بوجه خاصّ) في أشكاله الموروثة. بل نلاحظ أن هذه القصائد كثيراً ما تنزاح عن المثال من حيث بناؤها واشتقاق

(1) فحولة الشعراء، ص ص 12 - 15.

(2) «الشعرية العربية» ص 15 (بالفرنسية).

(3) لقد قدّم ابن رشيق أثناء تطرّقه إلى شعر الكتاب والأعيان (العمدة ج II، ص 106 - 113) تعريفاً جيداً للشعر الذاتي فقال ما معناه إنّ الشاعر الذي يتحرّر ممّا هو مستعار (أو ممّا هو نسج على منوال) من الأغراض والمواقف، وهو مجال الشاعر الرسمي، ويستجيب لدوافع ذاتية، لا يفصل عن أثره بل يلتحم به بشكل حرّ ويجعل منه تعبيراً عن عالمه الذاتي.

معانيها⁽¹⁾. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن محاولات التجديد في هذا الصدد بلغت عند بعض الشعراء مستوى ظهر فيه ضرب من القطيعة لا يخص مستوى الأغراض وطبقات المعاني فحسب بل يتجاوزها إلى شكل القصيدة (تفضيل المقطعة)، وإلى المستويات اللغوية (استعمال لغة تتميز بسهولة معجمها وبساطة صيغتها وتسعى إلى الاقتراب أكثر من لغة الحياة المعبرة عن الاهتمامات والمشاكل الأليفة)، وإلى الطبقات الإيقاعية (إيثار البحور الخفيفة والقصيرة).

وليس بغريب كذلك ألا نتوخى في توزيع المادة المجموعة المنهج التقليدي (تقسيم المدونة بحسب الأغراض الشعرية تقسيماً صارماً)، وأن نتهج طريقة ذات بعد وظيفي (التقسيم بحسب محاور أغراضية كبرى)⁽²⁾.

وهكذا فإنه يبدو أنّ طبيعة الغرض الشعري، وطبيعة اختيار طريقة التعبير قد حدّدتا منذ أقدم العصور المبادئ الكبرى في العالم الشعري العربي وهو عالم وإن تنزّل فيه المقلّون منزلة هامشية هم فيها دون سواهم خطوة⁽³⁾ إلا أنّهم فاقوا أحياناً غيرهم من المشاهير الذين عاصروهم في الاستجابة لانتظار جمهور يعكس مدى ما بلغته الحياة العصرية من تقدّم، وذلك على غرار ما نلاحظ في خصوص الفترة التي تعيننا، جمهور حاجاته متعاظمة، متعطش إلى كلّ جديد، متفتح على كافة أشكال الجرأة. غير أنّنا سنرى كيف أنّ هذا التهميش الذي أصاب المقلّين لم يعدم كونه أسهم بدوره في إذكاء عملية بعثرة آثارهم وتلاشيها.

(1) انظر قصيدتي أبي الشيب، 1 و 5، ج 1، ص ص 20 - 205 وص ص 211 - 215،

وقصيدة ابن جدير رقم 1، ج 3، ص ص 343 لتقف على هذه الظاهرة وقصائد إبان

اللاحقي 1 - 5 ج III ص 225 - 249.

(2) انظر أعلاه ص ص 48 - 55 وأسفله، ص 85.

(3) نلاحظ أنّ تسمية مقلّين تحيل عادة على الكمّ (الجمعي، ابن النديم) وقد عوضت هذه

التسمية عند القدامى منذ وقت مبكر أسماء تحقيرية مثل «أغفال»، «مغمورون»، «مغطى

عليهم»، «منسيون» (المرزباني وابن رشيق).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الرابع

طلب المدونة

الحالة الراهنة للمصادر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنطلقات التمهيدية

يقول أكتاف نادال (Octave Nadal) في مستهل جملة من الأبحاث تتعلق بمشكلية النص وما قبل النص: «اتفق لي أن أجبت أحد الأصدقاء كان يتبجح بأنه عثر على وثائق: تتعلق بفالري (VALERY) لم تنشر، قلت له: «هذا من سوء حظك» ولم أكن حينئذ أتوقع أنني سأخوض مغامرة من هذا القبيل، ولم أكن أعتقد مع ذلك أنني أصبت في القول بمثل تلك الإصابة⁽¹⁾.

لقد أجاد المؤلف تعريف ما سمّاه «بمشاكل الناقد الموفق»، ومغامرة نادال هذه تشبه بعض الشيء مغامرتنا، وسيجد القارئ الخبير بمسالك التحقيق في ميدان النصوص (وهي تذكر بمسالك التنقيب في ميدان الآثار) صدى كبيراً لأبحاث نادال في عملنا هذا، ولا شك في أن طبيعة الأدوات المستخدمة في هذا العمل وذاك مختلفة، ولكن المنهج يظل في جوهره واحداً. ففي حين يتمثل عمل نادال في فكّ غوامض ما قبل النص، ويرمي من وراء تحليل مختلف الروايات (أي المسودات أو المحاولات) وغيرها من «السوابق» إلى الملاءمة بين مقاصد الكاتب وآثاره في صيغتها النهائية الثابتة، يسعى عملنا إلى إخراج النص نفسه من مدافنه المخطوطة أو المطبوعة وإلى تحقيقه أي إلى وضع المدونة ذاتها وكأنه تأسيس جديد لها. فالمشاكل متماثلة هنا وهناك وإن كان مجراها على مستويين اثنين: فالسعي إلى الحصول على الوثائق غير المنشورة واحد، وعملية الجرد وتبديد الغموض والجمع واحدة، والصرامة في دراسة الرواية واحدة،

(1) أكتاف نادال (Octave Nadal)، «مخطوطات ومسودات للقصيدة لم تنشر»، باريس نادي الكتاب الجيد، 1975، ذكره جان بالمان نويل (J. Bellemin Noél)، في «النص وما قبل النص»، ص 9 (بالفرنسية).

كما أن الحرص على التسلسل التاريخي واحد، وكذلك هذا الأمل اللجوج الذي يراود المحقق في بحثه عن النص في صيغته الأولى الثابتة فهو واحد.

وواضح بعد هذا كيف أن مهمتنا في هذا المجال محفوفة بالمزالق: فنحن نشق ببطء غمار مدونة لم تزل منذ ألف سنة ونيف عرضة لضروب التبديل والتغيير، وهي إلى اليوم مهمة مجهولة في جانب كبير منها. ولعلّ البقية الباقية منها وهي - إن جمعت - تؤلف بعض المجلدات الضخمة تساعدنا مساعدة كبيرة متى حققناها ونشرناها على فهم الشعر العربي في ذلك العصر فهماً أفضل.

- 2 -

الإشكالية

إن كثافة قرون عديدة - وهذا معطى كثيراً ما نغفل عنه - تحول بين الباحث الحديث ومدونة شعرية همّشها التاريخ كما رأينا. ونحن اليوم نسعى في مرحلة أولى من البحث إلى إخراج ما أمكن من أقسامها الأكثر دلالة. وهذا العمل الذي يتمثل في إنقاذ الآثار المشتتة، وهي في جانب منها غير مطبوعة بل ومهملة ومفقودة، لم يفتأ يثير مشاكل تتصل بمنهج العمل وبالطريقة التي تلائمه. وفعلاً فإنّ ندعياً إنقاذ ما تبقى من هذه الآثار، وهذا العمل هو بحق من الأثریات الأدبية التي تلزم الباحث بالتنقيب المتواصل الشامل في عدد غير محدود من الكتب المطبوعة والمخطوطة الحاوية في مظانها أغلب الأجناس أو الفنون الأدبية في معناها الواسع التي عبّر فيها العرب عن إحساسهم وتفكيرهم خلال ألف سنة، فإنّ ندعياً إنقاذ هذه الآثار قد يبدو مجرد مجازفة ومخاطرة. وقد ترتّب عن هذا الأمر أن وجدنا أنفسنا مضطرين إلى إيلاء الإشكالية منزلة متميزة. ونقدّم فيما يلي خطوطها الكبرى⁽¹⁾.

(1) لاحظ أنّ عملية الجمع والمقاربة النقدية (خاصة في الجزئين I و II) التي نقدّم لها اليوم بهذه الدراسة التأليفية لم تمكّن في كلّ الحالات من تقديم أجوبة عن المشاكل التي أثّرت ونرجو أنّ مواصلة مشروعتنا الذي يرمي إلى التعمّق في استغلال الأجزاء III و IV و V وهي أجزاء تتسم بالانفتاح على بعض الجوانب المجهولة في الشعر العربي، قلت إن مواصلة المشروع ستمكّننا من تقديم أجوبة جديدة، ومن التوسّع أكثر فأكثر في =

إننا نعلم، كما أثبت البحث الحديث ذلك بما فيه الكفاية⁽¹⁾ أن إعداد مدونة ما إعداداً جيداً ينبغي أن يستجيب لمقتضيات ثلاثة وذلك كي لا يقع جامعها في التقصير سواء بالتعميم أو بالتخصيص أي أن المدونة ينبغي أن تكون ممثلة لمجموعة العناصر التي تؤولها، ضافية تستوعب ما لا يستقيم المجموع إلا به، متجانسة بإسقاط ما اندسّ فيها مما لا يتلاءم وينيتها. غير أن إنجاز هذا الطموح يبدو من خلال البحث الذي نحن بصدد، ومن خلال القسم من المدونة الذي يعيننا شبه مستحيل. والعلّة في ذلك أولاً هي أن الجهود المبذولة منذ عقدين أو ثلاثة في مجال جمع النصوص وتحقيقها والتي ترمي إلى إعادة بناء مدونة الشعر في ذلك العصر ظلّت معزولة وجزئية. أضف إلى ذلك أن المجاميع الشعرية التي صدرت إلى الآن (ما يقرب من ثمانين مجموعاً ستولى عرضها نقدياً في شكل تعاليق تقويمية في الملاحق⁽²⁾) طبعاتها غير مرضية في جملتها⁽³⁾ بل وإننا لا نجد إلى اليوم أي تجريد شامل منظم يتّصل بالفترة التي تعيننا باستثناء الببليوغرافيا الضخمة التي أنجزها بروكلمان (BROCKELMANN) وأثراها سزكين (SEZGIN)⁽⁴⁾. وحتى أحجام الآثار المشهورة نفسها، وخذ مثلاً لذلك دواوين أبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي، فهي لا تعدو أن تكون أحجاماً تقريبية. ففعلاً فإنك تتصفح آثار المحدثين فترى أن حجم الأثر يمكن

= آفاق البحث الذي انطلقنا فيه.

(1) نشير على وجه الخصوص إلى الأعمال المهمة التي أنجزها بول زمثور (P. ZUMTHOR) حول الشعرية في القرون الوسطى. كما نستوحي في هذا المجال من المنهجية التي دعا إليها قريماس (GRIEMAS) في كتابه «الدلائلية الهيكلية»، ص ص 141 - 170 (بالفرنسية).

(2) انظر هذه الملاحق في الجزء السادس.

(3) إن الإحصاء المؤقت الذي تقدّمه في الجزء الأول من هذا العمل ص ص 218 - 293 وهو يهمّ شعر أبي الشيبس يبرز النقائص التي يتّسم بها البعض من هذه الأعمال.

(4) تاريخ الآثار العربية المدونة، الجزء 2، ونشير في هذا الصدد أيضاً إلى مشروع طبعة منقحة لتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) تحت إشراف الألكسو، وهو مشروع قد يستغلّ كل ما وصلت إليه العلوم الببليوغرافية في السنين الثلاثين الأخيرة، انظر عبد الحميد النجار، مقدمة تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، الطبعة العربية، ج 1، ص/س.

أن يتضاعف ثلاث مرات من رواية إلى أخرى، وفي خصوص أبي نواس مثلاً فإننا نلاحظ أن مجموعة الصولي (ت 333هـ/ 945م) تمثل ضمن المجموعات التي وصلتنا ثلث مجموعة حمزة الأصفهاني (ت 360هـ/ 970م)⁽¹⁾. ونعلم من جهة أخرى أن شعر أبي العتاهية الذي قاله في عتبة والتي تدلّ القرائن أنه كان في حجم الزهديات لم يصلنا⁽²⁾. ونشير كذلك بالنسبة إلى ابن الرومي، وهو أحد الشعراء الذين كثر حولهم الجدل في الأدب العربي، إلى أن البحث الحديث قد ظلّ إلى هذه السنوات الأخيرة عالة على مختارات من ديوانه صدرت سنة 1923هـ. وهي لا تمثل سوى ربع الديوان تقريباً، ولا تعطينا عن الشاعر بسبب هذا الاختيار إلا فكرة موجهة تقريبية⁽³⁾ أما قائمة الأعلام في ذاتها فتظلّ في بعض المواطن مضطربة متداخلة ملتبسة لافتقارها إلى فهارس دقيقة⁽⁴⁾. وتنضاف إلى هذه الاعتبارات التي لا تعنى إلا بالإطار العام للإشكالية عدّة شكوك، ومواطن غموض لا تزال قائمة، وهي تهّم تاريخ هذه الآثار ونسبتها إلى أصحابها. وفي هذا المجال نلاحظ أن ضباباً كثيفاً لا يزال يلفّ قسماً لا يستهان به من المدونة وصلنا في شكل شذرات متناثرة نحن نجهل قائلها.

وعلى الباحث الحصيف ذي النظرة الشمولية أن لا يُغفل ذلك وإلاّ أهمل ملمحاً أساسياً من ملامح المدونة. إن مدونة الأغفال هذه - وهي تمثل بلا ريب الشعر العربي في جانب كبير منها كما يشهد بذلك احتفال القدامى بها بما نقلوه

(1) انظر دائرة المعارف الإسلامية (ط 2) E.I.2 ج 1 ص 149 - 147.

(2) انظر الجزء الثاني ص 214 - 219.

(3) انظر الطبعة النقدية التي أعدها حسين نصّار، القاهرة 1973 - 1979 في ستة أجزاء، وهي تضمّ حوالي 30.000 بيت.

(4) نسوق في خصوص الفترة التي نهتمّ بها شواهد جد دالة على الشعراء الذين ينحدرون من نفس الأسرة، والذين يتمّ الخلط بين آثارهم من جرّاء الالتباس الذي يحصل بين أسمائهم مثل آل اليزيدي وأبي عيينة ورزين واللاحقي وابن صبيح وأبي حفصة وأبي أمية وغيرهم. فهذه الظاهرة جلية في الفضاء الثقافي العربي حيث استقرّت منذ العصور القديمة ضروب من التسلسل في تداول السنة الثقافية في مختلف أشكالها وذلك بظهور سلالات من الشعراء (نشير إلى سلالة زهير وجريز) ومن رجال الأدب في مختلف مجالات السنة الشفوية والمكتوبة.

في مجاميعهم من عيونها - لا تزال ثغرة كبرى في البحث الحديث، كما أنّ حجمها وتقويمها يثيران بدورهما لا محالة عدّة مشاكل منهجية. ويكفي في هذه الحالة أن نتصفح كتب الحماسة والأدب وغيرها من المختارات كي نقف على قيمة هذا الشعر، فهو شعر يتضمّن نماذج تمثل بحقّ ورغم كلّ شيء مقتطفات من عيون الشعر العربي⁽¹⁾. وهكذا يبدو واضحاً أنّ عملية الجمع والتقويم النقدي التي ننجزها اليوم محدودة. وينبغي أن نضيف أنّ هذه الحدود ضيقة جدّاً، وذلك لأنّ الجرد الدقيق الشامل للتراث المطبوع والمخطوط وهو جرد يتطلب هو وحده أعواماً طويلاً تسخّر فيها فرق عديدة من الباحثين المسلّحين بأدوات العمل الملائمة ويتطوّر في نطاق مشروع تشترك فيه عدّة بلدان وتتجاوز قاعدته المؤسسات الجامعية لتشمل المنظمات الدولية والمؤسسات الخاصة ذات الصبغة الثقافية - هذا الجرد قد يسمح لنا بضبط قائمة تتضمّن المئات من الشعراء الذين عاشوا في حدود الفترة التي تهّمنا⁽²⁾. وإذا تمّ التأكد من هذه المصادرة فإنّ ما ادّعاه القدامى - وأعجب به ادعاء - من أن البحري قد طمس خمسمائة من شعراء عصره⁽³⁾ يصبح قولاً معقولاً مقبولاً. على أنّنا نصادر بأن كلّ مدوّنة مهما يكن نصيبها من الاستيعاب وتجانس المضامين إن هي أبداً إلّا مدوّنة ناقصة. وإذا انطلقنا من هذه الفرضية، وكان الأمر متّصلاً فيما يهمنا بشعر تفصلنا عنه كثافة زمنية مقدارها أحد عشر قرناً على النحو الذي ذكرنا فإنّنا نرى أنّ منهج التخفيف (أي الاقتضاب) الذي يقتصر على انتخاب قسم من المدوّنة يكون ممثلاً للشعر كلّّه، منهج يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار. ويبدو أنّ هذا المنهج يمكّننا منذ الآن من الشروع في عملية التنقيب والبحث الكفيلة بفتح السبيل لبحوث مستقبلية أعمق، وذلك دون أن ننتظر إتمام أعمال الجرد التمهيدية الشاملة المنظّمة التي تتوقّف عليها كلّ نظرة شمولية، ولكن لا شيء في الوقت

(1) انظر الجزء الثاني من عملنا. لتقف على بعض هذه النماذج.

(2) نذكر في هذا الصدد أنّ إسهامنا في عملية الجرد والجمع يقتصر على عدد من الشعراء محدود. فقد جمعنا حوالي عشرة آلاف بيت لخمسين شاعراً لا يزال ثلثها مخطوطاً (لا تتضمّن المدوّنة التي نحن بصدد طبعها سوى 3/4 هذا الحجم).

(3) انظر الوساطة، ص 160، والعمدة 1/100، والإبانة للآمدي، ص 23.

الراهن يشر بأن هذه الأعمال سيتم إنجازها⁽¹⁾. لذلك قد حملنا حملاً على تجزئة المدونة وعلى الاختصار في الوقت الراهن، مثلما ذكرنا سلفاً، على تقديم خمس حلقات من المجموعات النصية تضم أغراضاً مختلفة ولكنها تدور تقريباً حول ثلاثة محاور أغراضية كبرى هي: محور المتعة ومحور الألم ومحور الرفض⁽²⁾. ولا ريب في إن هذا التقسيم إن هو إلا تقسيم عملي، غير أنه مكثنا بفضل الممارسة وبواسطة جملة من الإحصاءات تخص الفترات السابقة واللاحقة⁽³⁾ من إبراز العناصر الوظيفية في المدونة، ومن تحديد خصائصها الجوهرية ولكن مع ذلك ما كنا لنستطيع المضي في منهجنا لو لم نلجأ بشكل جزئي إلى طريقة الحذف والاجتثاث⁽⁴⁾. وقد وقفنا على ما لهذه الطريقة من جدوى عملية كبرى عندما ألفينا أنفسنا ونحن نخوض على وجه الخصوص عملية الجرد والإحصاء ملزمين باختيار أحد المنهجين إما الإلمام والإحاطة وهو عمل لا طاقة لنا به في هذه المرحلة من البحث⁽⁵⁾ وإما التركيز على النماذج

(1) لقد تم منذ سنوات في نطاق المركز القومي للبحث العلمي في فرنسا (C.N.R.S) التفكير في بحث بنك للمعلومات يتولى جمع مثل هذه الأعمال وغيرها من المعلومات الأساسية التي تتعلق بمدونة الشعر العربي. وفعلاً فإنه من المفروض أن يكون فريق من الباحثين من أقطار مختلفة قد التحق بهذه المنظمة لإعداد معجم للأدب العربي. غير أن الأمور فيما نعلم ظلت في نطاق المشروع الذي لم يدخل بعد حيز الإنجاز.

(2) نلاحظ إجمالاً أن هذه المحاور الأغراضية الثلاثة تستند إلى ثلاثة مستويات تعبيرية حدّدت السنن الشعرية هياكلها الأصول وتتجلى المعاني الحافة المتصلة بها من خلال ثلاثة حقول دلالية هي: مذهب المتعة واللهو، ومذهب الشكوى أو الألمية، ومذهب التكدي والمحارفة والظرف المتماجن (انظر أعلاه ص ص 64 - 70).

(3) انظر تعليقنا النقدي الذي خصصنا به القصيدة اليتيمة، ص ص 17 - 29.

(4) نذكر في خصوص الحذف نموذج خالد الكاتب وما اخترناه من ديوانه (الجزء 2 ص ص 53 - 290) وفي خصوص الاجتثاث نذكر أبا نواس والعباس بن الأحنف وأبا العتاهية وابن المعتز وأبا تمام وما اقتطعناه من دواوينهم (ج II، ص ص 201 - 221).

(5) انظر التقويم النقدي الذي قدمناه في الملحق ويتصل بالمجاميع الشعرية التي صدرت في العقود الأخيرة وهي تحتاج إلى التنقيح والتصحيح والتكملة في ضوء المادة الجديدة التي تم الوقوف عليها في السنوات الأخيرة والتي نشر معظمها كمستدركات في محلات الاختصاص (انظر ج 6 الفهرس).

الدالة . فلهذه العلة تبدو المدونة التي نقدمها اليوم محدودة في بعض المواطن .
إنه اختيارنا . وستتولى الأعمال اللاحقة التي تعتمد مادة غير منشورة أو لا تزال
مغمورة إثراء المدونة شيئاً فشيئاً لتسد ما فيها من الثغرات تدريجياً ، ولتحدد
بشكل تقريبي لمن سيخلفنا من الباحثين ما يمكن أن نعتبره مدونة الشعر العربي
في المائة الأولى من الخلافة العباسية .

— 3 —

الإنتاج الشعري لذلك العصر : الحالة الراهنة للمصادر

لقد سبق أن لاحظنا أن التجريد الشامل المنظم للعدد الضخم من الكتب
المطبوعة أو المخطوطة التي ضمنتها أصحاب النقول من أساطين الأدباء على
امتداد قرون عديدة ما تبقى من مدونة الشعر العربي ، وهذا التجريد عمل غدا
ممكناً بفضل وسائل البحث التي وضعتها الإعلامية⁽¹⁾ بين أيدي الباحثين ، قلنا
إن هذا الجرد قد يمكننا في حدود الفترة التي تعيننا من معرفة عدد ضخم من
الشعراء وإن لم تحتفظ سنة المنقول ، وهي سنة في أغلب الأحيان متأخرة ، إلا
بشذرات من آثارهم ، وبعناصر من ترجماتهم مقتضبة عامة . وقد قدمت لنا بعض
المصادر المعاصرة لهؤلاء الشعراء أو المتأخرة عنها قليلاً - وهي مصادر يسير
تناولها - حصيلة أولى تثير الانتباه بما فيه كفاية . ونذكر على وجه الخصوص
كتابين من كتب الاختيار في القرن IX / III هما طبقات الشعراء لابن المعتز
(ت 296هـ / 908م) والورقة لابن الجراح (ت 296هـ / 908م) فهما يتضمنان
مجتمعين حوالي 180 شاعر . ونضيف إليهما الفهرست لابن النديم
(ت 385هـ / 995م) حيث يرد ذكر حوالي 600 شاعر كلهم من المحدثين .
ونذكر أخيراً حصيلة ما في كتاب الأغاني وما في معجمي المرزباني
(ت 384هـ / 990م) والآمدي (ت 370هـ / 987م)، فالأول يتضمن حوالي

(1) بحث بنوك للمعطيات تعالج هذه المعطيات بواسطة الحاسوب .

1150 شاعراً أحصاهم قويدي (GUIDI) ⁽¹⁾. وأما الثاني والثالث فيذكران حوالي 2500 شاعر أحصاهم كرانكوف ⁽²⁾. وهذه المصادر الثلاثة الأخيرة مجتمعة قد تقدّم في خصوص الفترة التي نهتمّ بها، وذلك بفضل الفهارس المناسبة التي ينبغي إعدادها، حصيلة إضافية على قدر لا بأس به من الأهمية وهي تُثري الحصيلة الأولى وتعزّزها.

وهكذا نلاحظ أنّ قوائم الشعراء وإن كانت ناقصة مفكّكة ⁽³⁾ فهي لا تنفك تثير دهشتنا لما تتسم به من طول ⁽⁴⁾ كما أنّ الإنتاج الشعري الذي تعكسه هذه القوائم حتّى وإن افترضنا أنّه لشعراء لا يعدو شعر معظمهم المجموعات الصغيرة (من 20 إلى 50 ورقة تضمّ ما بين 800 و 2000 بيت على نحو ما لمّح إليه صاحب الفهرست) هو إنتاج لا ينفك بدوره يثير الدهشة لما يمكن أن يكون عليه حجمه الجملي. وإنّا لنعلم أنّه لم يصلنا من المجاميع الستمئة التي أحصاها ابن النديم كما ذكرنا للفترة الممتدة من أواسط القرن VIII / II إلى حوالي أواخر القرن IX / III - لم يصلنا منها سوى عشرين مجموعاً هي في أغلب الحالات ناقصة لم تقع صيانتها وحفظها ⁽⁵⁾. ونعلم كذلك أنّ مجاميع الاختيار الأولى التي استقت مادتها من النسخ الأصلية أو من المصادر التي تقدمتها بزمن قليل قد آلت هي أيضاً إلى نفس المآل. ويكفي أن نذكر في هذا السياق ببعض

(1) الأغاني، ط. د. م. إ. - بريل، ليد 1900.

(2) طبع الكتابان في مجلد واحد، القاهرة 1354.

(3) لم يصلنا من معجم الشعراء للمرزباني إلا القسم الأخير وهو يبدأ بحرف العين. وهذا الكتاب يتضمّن حسب شهادة ابن النديم وهو معاصر له (الفهرست، ط طهران ص 147) حوالي خمسة آلاف شاعر في نسخته الأصلية. لاحظ كذلك أنّ القفطي (ت 1248/646م) أحصى في مؤلفه: «المحمّدون» من المحمّدين وحدهم 328 شاعراً، مما يؤكّد ظاهرة تضخّم عدد الشعراء في المحيط الثقافي العربي.

(4) نذكر الثبّت المؤقت الذي قام به محمد مصطفى هداره في كتابه اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني (ص ص 619 - 643) فقد ذكر فيه حوالي خمسمائة شاعر عاشوا في هذه الفترة.

(5) تشهد على هذا نسخة ديوان راشد أبو حكيمة (مخطوط برلين) وقد اعتمدناها لاختيار أشعاره (انظر الجزء IV من مدوّنتنا).

العناوين المشهورة التي تدخل اليوم في عداد الآثار المفقودة مثل «الباري» لهارون بن المنجم (ت 288هـ/901م) و «الباهر» ليحيى بن المنجم (ت 300هـ/903م) و «المستنير» للمرزباني وهو في ستة آلاف ورقة وستة أجزاء، ولا ننسى كذلك مختارات طيفور (ت 280هـ/893م) والصولي (ت 335هـ/943م)⁽¹⁾. بقي أن نتساءل عما أصاب الآثار الشعرية التي سلمت من عوادي الزمن ومن ضروب التغير والتبديل. فهذه الآثار، وإن قامت شاهداً على أنّ حجم المدونة الأصلية الضخم لا مراء فيه، وإن سلّطت أضواء جديدة على جوانب من المدونة نجهلها أو نعرفها لماماً، فهي تمثل مجالاً لم تذلل بعد صعابه لما اتّسمت به جلّ هذه الآثار من تشتت. فهذه الآثار آثار مبعثرة⁽²⁾ وإذا عثرنا على أجزائها فإننا نجد لها مبعثرة في عدد من كتب الأدب لا يحصى. وكتب الأدب هذه تتعدّد أنواعها (من طبقات ابن المعتز إلى خزانة البغدادي)، وتتخلّل تاريخ الأدب الممتدّ على اثني عشر قرناً وهي تمثّل في نهاية المطاف مدار الأمر في كلّ بحث يروم التعمّق في القضايا التي تثيرها المدونة. وهكذا فإنّ شتات هذه الآثار الشعرية ينصهر في نسيج كتب الأدب تلك، ويصبح ملائماً لواقع جديد لتأدية وظيفة جديدة، فنسقطبه السياقات التي أقحم فيها ويفقد هويته الحقيقية ويغدو مجرد شواهد تورد لتصوير غرض بين الأغراض أو تثبيت رأي أو إسناد حكم أو دعم حجة أو معاضدة استطراد أو ترصيع خبر، لذلك ليس بغريب أن لا نجد لأصحاب المختارات ومصنفات الأدب على اختلافها والنقاد حرصاً ملحوظاً على ضبط أسانيد المادة الشعرية التي اعتمدوها (ذكر أسماء الشعراء وتحديد العصر)، وأن نراهم بعملهم ذلك يلقون بجانب لا بأس به من المدونة في غمار المجهول⁽³⁾.

(1) انظر الفهرست، ط طهران، ص ص 146 - 163.

(2) يقدم لنا سزكين (وهو بذلك يكمل ما جاء في تاريخ بركلمان)، ثبناً مؤقتاً لمصادر هذه الآثار وذلك من خلال تراجم الشعراء الذين عاشوا الفترة التي نهتم بها والذين يقارب عددهم ثلاثمائة شاعر (انظر تاريخ الآثار العربية المدونة، الجزء الثاني).

(3) مثال ذلك أن باب «النسيب» في حماسة أبي تمام وهو يعدّ من أجود النماذج الدالة على هذا الغرض يتضمّن 79 قصيدة نجهل قائلها وذلك من مجموع 139 قصيدة. ويتبيّن لنا =

تلك هي خصوصية المشاكل الداخلية التي يثيرها هذا الفحص الأول بل وإن الصعوبات التي تعترض الباحث اليوم وقد عددنا بعضها (ضياح جزء كبير من الشعر، تشتت الآثار وتلاشيها، تهشيم الأطر، التعتيم على الشعراء) لا تقف عند حدود المدونة كما وصلتنا بعد أن عملت فيها تصارييف النقل ومنازع الأدباء على مدى ألف سنة عملها وشكلتها على الهيئة التي ذكرنا بما تعرضت له من ضروب التحريف والانحرام، وإنما نجد صعوبات أخرى لا تقل شأنًا عن الأولى، وإن كانت خارجية صرفاً، وهي لا تنفك تكون عوائق حقيقية تحول دون أعمال الجمع والتحقيق وإصدار الطبعات النقدية التي هي الآن بصدد الإنجاز. فالأمر يتصل بالطبع وكما سبق أن لاحظنا بوسائل البحث التي تتوفر للباحثين وهي وسائل لا تزال تقليدية. لكنه يتصل أولاً وأساساً بالمادة نفسها، ونعني بها الوثائق المطبوعة والمخطوطة التي بحوزتنا، والتي تحفّ بها كما نعلم ألوان من الشبهات والنقائص.

والصعوبات في هذا المجال نوعان:

(أ) الافتقار إلى طبعات تخضع لشرائط التحقيق العلمي تتناول عدداً كبيراً من المصادر الأساسية. وهو ما ينجر عنه نقص كبير في مجال الاستغلال المحكم لهذه المصادر. نذكر منها مثلاً شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت 1258/656م) أو شرح مقامات الشريشي (ت 1223/619م) أو خزانة الأدب للبغدادي (ت 1682/1093م) - وجميعها موضوع بين أيدي الباحثين في طبعات ينقصها الجهاز النقدي المحكم والفهارس الشافية⁽¹⁾ - وهذه المصنفات رغم كونها متأخرة، لها فضل الاحتفاظ بتنف من الآثار المفقودة أو تقييد روايات نادرة أو تقديم أخبار غير منشورة. ولسنا بحاجة في هذا الصدد إلى أن نشير إلى أن الدراسات العربية لا تزال عالة في خصوص كتاب الأغاني نفسه

= حين نبحت في محاضرات الراغب الأصفهاني (ت 1109/503م) أن في هذا المصنف نسبة من القصائد المجهول قائلها قد تفوق ما وجدناه في الحماسة، وتنطبق نفس الملاحظة على مختارات أبي حيان التوحيدي في الصداقة والصدق.

(1) ونذكر كذلك نهاية الأرب للنويري (ت 1332/732م) وقد طبع طبعة ناقصة في 22 جزءاً.

على الفهرس العام الذي وضعه قويدي في أواخر القرن XIX على ما به من نقص، أما الطبعة الممتازة التي أعادت دار الكتب إصدار قسم منها سنة 1970 يبلغ الجزء السابع عشر فهي كذلك تفتقر إلى الفهارس العامة.

(ب) الفوضى التي تتسم بها حركة الطبع والنشر، أو الغياب شبه الكلي للتشاور العربي الرامي إلى وضع تخطيط شامل لإنقاذ التراث المكتوب ونشره. وقد ترتب عن هذه الحالة وفي هذا المجال أو ذاك أن ظلت بعض النصوص الهامة ذات الثروة الوثائقية الغزيرة والتي لا تقدر قيمتها في كثير من الأحيان عزيزة المنال صعبة الإدراك. والأمثلة على هذا كثيرة.

نذكر أولاً الطبعات النادرة⁽¹⁾ بل والمفقودة مثل الفهرست (طهران 1971) والحماسة البصرية (حيدر آباد 1964) وهي طبعات لا تملكها بعض المكتبات الوطنية.

ونذكر أيضاً المجموعة الضخمة من المخطوطات النفيسة في الخزائن العمومية⁽²⁾ وهي تنتظر من يخرجها⁽³⁾ ونشير بالخصوص إلى بعض كتب الاختيار مثل المنتخب للميكالي (ت 1044/460م) وصفوة الأدب للكوراني (ت 1198/595م) والحماسة المغربية للياسي (ت 1254/652م) والدرّ الفريد لأيدمر (أواخر القرن XII/VII)⁽⁴⁾ ومنتهى الطلب من أشعار العرب

(1) لا تتعلق الندرة بمستوى الطبعة.

(2) لا نغفل كذلك عن المخطوطات التي قد تكون على ملك الخواص وهم يتشئون بها ويحرصون على الاحتفاظ بها. ويكفي أن نذكر ديوان بشار فقد كان إلى زمن قريب مفقوداً ثم تم العثور على قسم منه بفضل نسخة على ملك عائلة ابن عاشور في تونس ونشر لأول مرة ما بين 1957 - 1960.

(3) لسنا بحاجة إلى أن نذكر في هذا السياق بأن بعض المحافظين في المكتبات لا يحرصون في تصوير بعض المخطوطات لطبعها أو لاستغلالها. وقد حدث لنا هذا الأمر في خصوص «كتاب الدرّ الفريد» الذي سيرد ذكره، وقد أشار محقق الحماسة البصرية (حيدر آباد، ص 42) إلى أنه «لم يتمكن من الحصول على نسخة من مخطوط اسطنبول بله الاطلاع على النص الأصلي».

(4) المخطوطات الأربع التي أشرنا إليها توجد في مكتبة أحمد الثالث باسطنبول وقد اطلعنا =

لابن ميمون (القرن XII / VI) وهو مجموعة ذات قيمة كبيرة (1000 قصيدة تضم حوالي 40.000 بيت) لم يصلنا منها سوى ثلاثة أقسام من عشرة، ولولاها لظلت جوانب كثيرة من بعض الآثار مفقودة إلى الأبد فيما نظن⁽¹⁾.

ونسوق أخيراً مثلاً ساطعاً يتمثل في الكتب المخطوطة التي لا نملك ممّا نشر منها سوى طبعات جزئية ناقصة. ونذكر خاصة مجموعتين من المختارات هما حماسة الظرفاء لعبدلكاني (ت 431هـ / 1039م) والتذكرة السعدية للبيدي (ق XIV / VIII)⁽²⁾. ونذكر أيضاً أضخم معجم من معاجم التراجم وهو الوافي للصفدي (ت 1362/764م)، وإنّا نتوقع أن تصدر الأجزاء المتبقية منه في السنين العشر القادمة⁽³⁾ كما نعلم أنّ نفس المآل آل إليه الكتاب العظيم الذي وضعه العمري (ت 1362/749م) وهو مسالك الأبصار ونحن لا نزال ننتظر صدور القسم الخاص بشعراء المغرب الإسلامي⁽⁴⁾.

هذه هي في عجالة بعض الصعوبات الكبرى التي يواجهها الباحث الذي يسعى إلى ضبط المدوّنة. ومن البديهي أنّه ما لم يتمّ تدليل هذه الصعوبات فإنّ جانباً كبيراً من المدوّنة سيظلّ مستعصياً على الجرد الشامل المنظم إلى أمد بعيد، وإن كنّا نعلم أنّ جمع هذا التراث وإنقاذه في وقت قصير أمر ميسور بفضل ما توفّره أجهزة البحث الحديثة من وسائل جديدة ملائمة. ولا شكّ في أنّ

= عليها في مكانها وهي في حالة جيّدة.

(1) نذكر على سبيل المثال عروة بن أذينة وهو شاعر من الحجاز توفي سنة 747/130، يقول عنه بلاشار (BLACHERE) في تاريخه ص 626 الطبعة الفرنسية: «لم يبق من شعره سوى نتف قصيرة» ونحن نعلم الآن أنّ جانباً هاماً من شعر عروة هذا قد تمّ إخراجهم بفضل الكشف عن مخطوطة «منتهى الطلب» (انظر شعر عروة بن أذينة للجبوري، بغداد 1970).

(2) لم يصدر من هذا الكتاب سوى الجزئين الأوّل والثاني وهما يمثلان حوالي خمس حجمه الجملي، نُشرا تباعاً 1972 - 1973.

(3) حصلنا على هذه المعلومة من أحد المشاركين في هذه الطبعة عند مروره بتونس.

(4) لم يظهر من هذا المصنف إلا قسم واحد في طبعة جيدة لأحمد زكي، دار الكتب القاهرة 1924 في جزء واحد.

مظاهر التأخير المتراكمة والنقائص التي نسجلها في خصوص إعداد المراجع السهل تناولها وذلك منذ أن انقضى جيل المحققين الكبار (من المستشرقين أمثال دي ساسي واهلوردت ووستفلد De Sacy, Ahlwardt, Wustenfeld ومن علماء التنقيب والتصحيح الذين عملوا في نطاق دور النشر القديمة كبولاق والجوالب)، لا شك في أن هذه المظاهر لا تعني في نهاية المطاف إلا المؤلفات المتأخرة عموماً والتي يترأى للبعض أن طبعها أو إعادة طبعها ليس أمراً ملحقاً على النحو الذي نرى. وفعلاً فقد تبدو بعض المؤلفات لمن ليس لهم كبير اطلاع مجرد نقول لا تعدو ترديد مادة معروفة تعيد تبويبها في كل مرة على نحو مخصوص. غير أن الذي يغرب عن هؤلاء في كثير من الأحيان هو أن هذه المؤلفات، زيادة عما تضيفه إلى المؤلفات السابقة الناقصة أو المفقودة من مادة لم تنشر، تقوم في كثير من الأحيان بتكملة لم تكن ننتظرها، وذلك حين يتصل الأمر بمراجعة رواية ما، أو بتصحيح سهو أو وهم أو بتوضيح مسألة غامضة، أو بتصويب ما يقع فيه النساخ من أخطاء وما أكثر ما يحدث ذلك⁽¹⁾. كما أن البعض من المصنفين أصحاب النقول واللّم والجمع، وهم من المشاهير الذين حفظوا السنة الثقافية⁽²⁾، كانوا فضلاً عما يجمعون من المخطوطات النادرة التي جاءت بخط كبار النساخ⁽³⁾ فيخلدون بذلك سنة كبار رجال المكتبات كالبكري (ت 487 هـ/ 1094 م) وابن خير (ت 575/ 1179 م) وهما أندلسيان⁽⁴⁾، - قلت إنهم كانوا فضلاً عن ذلك يرتادون خزائن المكتبات السلطانية⁽⁵⁾ بسهولة نظراً

- (1) سنقدم نماذج عديدة في ثنايا التعليقات النقدية التي ترافق المدونة.
- (2) نذكر بأن التذكرة السعدية للبيدي انظر أعلاه ص 104 تتضمن صفوة ما جاء في حماسي ابن فارس (ت 379 هـ) وأبي هلال العسكري (ت. 395 هـ) وهذان المصنفان مفقودان كما نعلم.
- (3) لقد ظلت مجموعة البغدادى (ت 1093/ 1982 م) مشهورة لما تحتويه من نفائس المخطوطات وقد ذكر المؤلف في ديباجة «الخزانة» نماذج فريدة من هذه المخطوطات هي اليوم مفقودة.
- (4) انظر فهرست ابن خير (فهرست الكتب والأعلام) ط كودراويرا، تارقوس 397، وما يتبعها.
- (5) نذكر في هذا الصدد شهادة ياقوت الحموي (معجم البلدان، مرو) فقد وصف إقامته بمرو =

لمناصبهم⁽¹⁾. وكان لهم إلى ذلك متسع كبير من الوقت وفسحة من الحرية كي يستقوا من حجم الكتب الضخم⁽²⁾ الموضوع في تلك المكتبات ما يريدون من المادة الأدبية التي تيسر لهم مراجعتها. وهكذا نبين الدور الحاسم الذي قام به هؤلاء المصنّفون الحفظة في هذه المرحلة وأثرهم العميق في تناقل جانب كبير من المدونة والمحافظة عليه.

* * *

هذه هي حدود المدونة وهي حدود لم تتّضح بعد معالمها كلّ الوضوح، ولا تزال جوانب الغموض فيها كثيرة. لذلك ستظلّ قضية المصادر (التقيب عما لا يزال مهملاً منها في خزائن المخطوطات، جمعها، تحقيقها، إعادة نشر النّادر من طبعاتها، تجديد الطبعات الرديئة منها...) ستظلّ قضية هذه المصادر وكذلك الطرق التي ستُتّوَحَّى في مباشرتها، المشكلة العاجلة الأم⁽³⁾. أمّا أعمال التحقيق والنشر التي بصدد الإنجاز وهي

= بين ستي 1216/613 و 1219/616 وذكر أنّه استعان بالمكتبات العامة في هذه المدينة (خزائن الوقف) وعددها عشر، وهي تحتوي على عشرات آلاف الكتب وذلك لجمع المادة التي ألّف منها معجمه وغيره من المصنّفات (انظر مجموعة النصوص المتعلقة بهذا الغرض في كتابنا «الفكر التربوي عند العرب»، ص ص 108، 109).

(1) نعلم أن ثلّة من حفظة التراث هؤلاء كانوا يشغلون خططاً سلطانية نذكر منهم الخالدين (أبا بكر: ت 380هـ/990هـ وأبا عثمان: ت 390هـ/999م) وقد تولّى خزانة سيف الدولة، وابن أبي الحديد (ت 1258/656م) وكان مشرفاً على خزائن الكتب ببغداد قبل زحف المغول، والنويري (ت 1332/932م) صاحب نهاية الأرب الذي تولّى ديوان الرسائل، وأخيراً السيوطي (ت 1505/911م) الذي جمع إلى خطة القضاء مشيخة إحدى «المدارس النظامية» (خانقاه) بالقاهرة.

(2) انظر الدّراسة الثريّة التي أنجزها الفقيه يوسف العش: المكتبات العربية، دمشق 1976، ص ص XI، X.

(3) نذكر في هذا الصدد العمل الضافّي (وإن كان لا يخلو من نقائص) الذي أنجزه علي الخاقاني في تأريخه لشعراء العراق، وهي موسوعة - كما يزعم صاحبها - ذكر فيها شعراء العراق قاطبة من البداية إلى يوم الناس هذا (ظهر من هذا الكتاب، إلى حدود 1962، عشرون جزءاً، وهو يتضمّن مجموعاً غزيراً تتداخل فيه التراجم والمختارات، وقد رتبه ترتيباً ألفبائياً).

كثيرة⁽¹⁾ فنحن نعلم أنها لا تزال تشكو من البطء والنقص في التنسيق ما تشكو، ولا ندري حتى متى سيظل الإنتاج الشعري في المائة الأولى من تاريخ الخلافة العباسية «في عصرها الزاهر» مقصوراً على شعراء المدح الكبار من الذين عاشوا في رعاية السلطان ببغداد؟ ونتساءل هل سيُنسب معاصروهم من الشعراء المنسيين حقهم في الكلام إلى الأبد؟ هل سيكون مصيرهم الغبن على الدوام، وهم الذين كرمهم كل من ابن المعتز وابن الجراح فصنفاً في حقهم كتابي الطبقات والورقة؟.

(1) تشهد بهذا مجلة المورد (بغداد) فهي لا تنفك تقدّم للباحثين في أعدادها الضخمة، وذلك منذ عشر سنوات، مجموعات شعرية لم تنشر فتثري بذلك مجال البحث وتقدّم عناصر جديدة تدقّق بها أكثر فأكثر ملامح المدونة العامة للشعر العربي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الخامس

مدونة الشعراء وحدودها

العوامل العامة التي أدت إلى تشتتها وانخراطها

— 1 —

العوامل الخارجية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنطلقات العامة

«إن جملة الآثار التي يتألف منها التراث (أو موروث السنن من المكتوب وغير المكتوب) ناتجة عن اختيار. وهي ليست حصيلة لما أنتجه التاريخ بقدر ما هي حصيلة لما تم الاحتفاظ به. وثناء التراث ناجم أيضاً عما سقط عنه أو حذفه. فالقليل الباقي من آثار أبيقور (Epicure) التي بين أيدينا لم يُعرف إلا صدفة. بل وإن الآثار التي احتفظ بها التاريخ هي نفسها ما كان ليتسنى لها أن تبقى لو لم تؤدّ ضريبة التشويه البالغ الذي أصابها أحياناً. وقد فرض عدد كبير من هذه الآثار نفسه لما يتمتع به من فداة، غير أنّ عدداً كبيراً من الآثار ضاع لأنه هو أيضاً فذّ. ولم تتمكّن الآثار الأولى من البقاء إلا بفضل الخدمات التي كانت قادرة على تقديمها في مجتمع ما».

جان بولاك.⁽¹⁾

إن ظاهرة التشتت والضياع⁽²⁾ المزدوجة التي أشرنا إليها بشكل مجمل في الصفحات السابقة، والتي حدّدت شكل المدوّنة الحالي، لم تتولّد عنها فيما نعلم بحوث معمّقة ترمي إلى إبراز العوامل التي قامت بدور حاسم في إتلاف هذه المدوّنة.

ثمّ إن مواصلة التدرّع في معالجة هذه القضية بعوامل لها طابع عام مثل الظروف التاريخية (فالإننتاج الشعري الذي نهتمّ به عمره أكثر من ألف سنة) أو ما تعرضت له المدوّنة من آفات الرواية، أو البعثرة التي أدّى إليها الانتشار

(1) انظر ص 39.

(2) حاولنا توضيح جوانب من هذه المشكلة في الدراسة التي خصصنا بها خالد الكاتب (ت 260 / 868) انظر ج II، ص ص 59 - 68.

الجغرافي، أو أخيراً وبوجه خاص الصراعات العرقية والثقافية (الشعبوية)، والصراعات القبلية (العصبية اليمنية مقابل العصبية القيسية) والصراعات الدينية والسياسية (العلويون والخوارج والأمويون والعباسيون)، وهذه الصراعات عادة ما يتدرّج بها النقد القديم، قلت إنّ مواصلة التدرّج بهذه العوامل لا تمثل في رأينا إجابة نهائية عن هذا المشكل المعقد الذي لم يغب عن أذهان القدامى أنفسهم⁽¹⁾. ولا شكّ في أنّ مهمة مؤرخ الأدب في هذا المضمار غير هينة وقد ينجرّ عن تناول هذه الظاهرة في جوانبها كلّها أن ينخرط النقاش في منظورٍ متعدّد الاختصاصات تُعالج من خلاله المدوّنة باعتبارها نتاج مجتمع ما ونتاج ثقافة ونظام اقتصادي معينين كل ذلك في آن واحد. ولا ندعي أنّنا سنتناول هذه الإشكالية بالتحليل. فهذا الأمر قد يتجاوز قدراتنا وإمكاناتنا في الوقت الراهن والحدود التي وضعناها لهذا العمل في آن واحد. فلهذا السبب سنقتصر في الفصول اللاحقة على تقديم إطار للبحث يسعى قبل كلّ شيء إلى إبراز الأفكار الأساسية التي ينبغي في نظرنا أن نأخذها بعين الاعتبار عندما ندرس هذه الظاهرة دراسة عميقة. ونبادر، دون أن نتخلّى عن المنظور التقليدي في معالجة القضية، باستخلاص مجموعتين من العوامل المتضافرة، بعضها خارجي وبعضها داخلي، يبدو أنّه كان لها بعيد الأثر في عملية الإلتاف التي أشرنا إليها وذلك في مستويات مختلفة. ونعتزم استعراض هذه العوامل واحداً واحداً في شكل معطيات مؤقتة متّبعين نسقاً شكلياً في ترتيب القضايا وذلك لضرورة منهجية يقتضيها العرض. مع العلم أنّ التحليل لا يستقيم إذا نظرنا إلى كلّ عامل على حدة، وأنّ تداخل هذه العوامل كلّها هو الذي يُمكننا وحده في تفسير ما عليه المدوّنة من تدهور.

فهذا الفصل وكذلك الفصل اللاحق يحاولان رسم الإطار العام لهذه النظرة ويقتصران في التحليل على نقاط ست هي:

(1) انظر في هذا المضمار ما قاله الجرجاني في أواسط (القرن IV / V في شأن حالة المدوّنة التي تتعلق بالمحدثين، (الوساطة، ص ص 160، 162).

«السلطان الأدبي» أو سلطان الأعلام المشهورين

إن الأمر الذي نعلمه، والذي لاحظته القدامى منذ زمن جد مبكر، هو أن بروز عدد قليل من الشعراء في كل عصر من عصور المجال العربي، شعراء موالين في أغلب الأحيان للسلطان، يحتكرون النباهة، ويستأثرون دون غيرهم بمفاتيح النجاح والحظوة⁽¹⁾ كان على الأرجح أحد العوامل الرئيسية التي أعانت على طمس حضيرة ثرة من المواهب الفتية إن لم تزج بهم في غمرة النسيان، وهي مواهب ظلت آثارها خارج مسالك النسخ والنشر الطبيعية، وسرعان ما تشتت جانب كبير منها وتلاشى. لقد بلغ نفوذ السلطة الأدبية الرسمية في أواخر القرن VIII / II، وعلى امتداد القرن IX / III، وذلك في بغداد حيث قصور الخلفاء ومقصد الشعراء، وحيث مجالس الأدب، درجة فاز فيها عدد محدود من الشعراء باستقطاب الحركة الشعرية استقطاباً حقيقياً. وسرعان ما غدا هؤلاء الشعراء محكاً «للشرعية الأدبية»⁽²⁾ تخضع له آثار الشعراء المبتدئين الساعين إلى الشهرة، ونذكر في هذا المضممار مثال أبي تمام، فقد كان الرقيب العام لشعراء عصره، وقد ساعد الشاب البحري على النجوم بسرعة. ولعل ذلك كان على حساب أترابه المعاصرين له والذين لم يجدوا من يراعهم⁽³⁾ وقد اعترف البحري لأبي تمام بهذا الجميل وأضمر له خلال حياته كلها إجلالاً كبيراً، وأقر لهذا الأستاذ بعد رحيله كل ما يقتضيه واجب الإكرام والوفاء. غير أن هذا الأمر لم يمنع البحري بعد ذلك من معاملة شعراء جيله ممن لم يحظوا إلى ذلك الوقت بشهرة معاملة مغايرة. فقد ورد في خبر مرده إلى القرن X / IV أن البحري قد دفعته الغيرة فعمل بما له من صيت ذائع كي يضمن تفردّه بالشهرة على طمس

(1) نذكر الثالث الأموي: الأخطل وجريز والفرزدق في القرن الأول، وشار وأبا نواس وأبا العتاهية في القرن الثاني، وأبا تمام والبحري وابن المعتز وابن الرومي في القرن الثالث والمتنبي في القرن الرابع.

(2) أخذنا هذه العبارة من جمال الدين بن الشيخ، «الشعرية العربية»، ص 22 بالفرنسية.

(3) انظر الصولي، أخبار أبي تمام، ص 66 وأخبار البحري، ص 56 - 66.

خمسمائة من شعراء عصره بإحراق دواوينهم⁽¹⁾. ولا ريب في أن هذا الزعم مبالغ فيه غير أنه يمثل مؤشراً يلفت الانتباه خصوصاً عندما يتدبر المرء أمر هذا العدد الهائل من الدواوين الشعرية التي قيلت في ذلك العصر ولم تصلنا. وهذه الظاهرة لن يزيدها شاعر كالمتنبي في عصر لاحق إلا تأكيداً. وشهادة الواحدي (ت 468هـ/1075م) في هذا المضممار، وهو أحد شراح هذا الشاعر الكبير، هي أيضاً ذات دلالة قوية. فهو يقول في مستهل شرحه: «إن الجمهور أبان منذ زمن بعيد عن ازدرائه للشعر والشعراء، وفضل المتنبي دون سواه، ولم يقم وزناً لما جاء به غيره وإن كانت مزيتة فوق مزية المتنبي» وقد قيل إن مدونة الشعر كلها باستثناء الشاعر المفضل قد آلت إلى الزوال وأضاف الواحدي بأن العلة في هذا ليست سوى حظ أورثته الصدفة⁽²⁾. وهكذا فإن المتنبي هو أيضاً يكون، قد أسهم بواسطة نقاده وشراحه إسهاماً كبيراً في طمس جانب كبير من مدونة المقلين، وهو يذكرنا بسلفه الشهير دون أن يلجأ إلى إحراق الآثار.

والراجح أن ظاهرة بعثرة الآثار وتشتيتها قد ظهرت منذ زمن مبكر⁽³⁾ نسبياً. ولعل ابن النديم نفسه قد اعتمد أثناء تأليف فهرسته سنة 377/987، وهو يعد قائمة الشعراء الذين وقف على دواوينهم، مادة أدبية لا تتضمن سوى روايات محرّفة للآثار الحقيقية. بل وإتينا مدفوعون إلى الاعتقاد بأن المجاميع الأصول للآثار التي نعدّها اليوم مفقودة أخذت منذ القرنين IV، V تتلاشى شيئاً فشيئاً. وبأن المولعين بنفائس المخطوطات المهرة من أصحاب الخزائن الخاصة أو أصحاب المكتبات من الورّاقين هواة الأدب كان بإمكانهم، هم وحدهم،

(1) انظر الآمدي، الإبانة، ص 23 وهو يردّد ما قاله الجرجاني في الوساطة ص 160، وانظر أيضاً العش، المكتبات العربية، ص 277 - 278 حيث ينقل المؤلف خبراً ذكره البيهقي في تاريخ الحكماء، مخطوطة دمشق وفيه: «إن إحراق مكتبة الساسانيين كان بإيعاز من ابن سينا وقد كان يرغب في أن ينسب إلى نفسه مباحث الفارابي، هذه المباحث التي كانت محفوظة بعناية شديدة في تلك المكتبة». ولا شك في أن هذا الخبر نادرة تروى غير أنه ذو دلالة عميقة.

(2) انظر، الواحدي، شرح ديوان المتنبي، برلين، ص 3.

(3) إن المدونة التي نقدمها في خمسة أجزاء تمثل أفضل صورة لهذه الظاهرة.

الاحتفاظ بنسخ فريدة من هذه الآثار في خزائهم⁽¹⁾، وهي سنة ستتواصل حلقاتها حتى القرن الحادي عشر الهجري مع البغدادي صاحب الخزانة.

— 2 —

رعاية الأدب

لقد كانت رعاية رجال السياسة للأدب والأدباء مؤسسة فعلية، ورثت سنة ضاربة جذورها في القدم، وهي سنة واكبت في تطورها الدور الذي أوكلته السلطة السياسية إلى الشعر⁽²⁾ وقد عكست هذه المؤسسة ما كان للطبقة السياسية من رغبة في الأبهة ومظاهر العظمة، ومن مشاغل اجتماعية واقتصادية أو من اعتبارات مردّها إلى الأذواق والمنازع⁽³⁾. ففي عهد البرامكة ببغداد⁽⁴⁾ وبني طاهر بخراسان⁽⁵⁾ والعامريين بقرطبة⁽⁶⁾ وابني عبّاد بإشبيلية⁽⁷⁾ والمرينيين بفاس⁽⁸⁾ بدأت

(1) ذكر التوحيدي خبراً ونقله عنه ياقوت في معجمه، ج 16، ص ص 101 - 102 وهو يتعلّق ببعض آثار الجاحظ التي فقدت في (القرن X/IV)، وهذا الخبر مبين بما فيه كفاية وهو يدفعنا إلى تعميم هذه الظاهرة وسحبها على الآثار الشعرية.

(2) في بغداد هذه المدينة التي عرفت تمدناً كبيراً في (القرنين II و III / VIII و IX) كثيراً ما يتحوّل الشاعر من شاعر المجموعة المدافع عن قوم أو مذهب أو مصلحة إلى شاعر نديم ومصاحب حميم للطبقة الحاكمة. انظر في خصوص تطوّر هذه الظاهرة جمال الدين بن الشيخ (الشعرية العربية، ص ص 27 - 32) حيث يعود المؤلف بمزيد من الدقة إلى التحاليل الإجمالية التي قدمها بلاشار (تاريخ الأدب العربي ج III، ص ص 544 - 548 بالفرنسية) والأشتر، (البحثري، ص 23)، والبستاني، (ابن الرومي، ص 311).

(3) نجد مثلاً حياً لذلك في الصداقة التي عقدت أسبابها بين الوزير ابن الزيات والشاعر راشد أو حكيمة، انظر المدوّنة ج IV، ص ص 81 - 83.

(4) انظر الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ص 211، 212.

(5) انظر المرزباني، الموشح، ص ص 439 - 500.

(6) اصطنع المنصور بن أبي عامر ديوان الندماء، انظر: (أ) قنزال بالنسيا (G. PALENCIA)، تاريخ الأدب العربي الأسباني (الترجمة العربية، القاهرة، 1995، ص 65).

(7) انظر المراكشي، المعجب، ص 117.

(8) انظر ليون الأفريقي (الحسن الوزان) وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، ص 263.

هذه المؤسسة تنتظم في إطار ما اصطلاح على تسميته حيثُذ بديوان الشعر، وهو ضرب من الإدارة في أولى مراحل تكوينها يوكل إليها انتقاء الشعراء الذين يثبتون في قائمة المدّاحين الرسميين. ونحن نعلم كيف أنّ هؤلاء الشعراء كانوا يتسابقون في نَهَم ليتقاسموا عطايا رجال السلطة من هبات وأموال ومنح وكيف أن الأمر سيؤول بهم إلى تكوين ما يشبه الحلقة المغلقة الموصولة مصالحها وصلاً وثيقاً بالسلطة السياسية هذه السلطة التي سيصبحون أنصارها المتملقين المحترفين فيتكلفون لها بما تبغي من الشرعية ويمنحونها من طمأنينة الضمير الأخلاقي ما يتم به تبرير كل بادرة نفوذ.

أضف إلى ذلك أنّ رعاية الأدب والكلف به - في عصر كان رجال السلطة (من خلفاء وأمرء ووزراء، وكتاب وولاة) يتفاخرون فيه بأنهم هم أنفسهم مولعون بالأدب - ساعداً على ازدهار المجالس الأدبية (الخصومة بين القدامى والمحدثين، الخصومة حول البحري وأبي تمام)، وعلى إذكاء العصبية القبلية (تواصل الصراع بين اليمنية والقيسية بشكل حاد⁽¹⁾)، وعلى ظهور المدارس (التنافس بين البصرة والكوفة)⁽²⁾. وسرعان ما تحولت هذه المظاهر إلى جملة من التكتلات أصبحت الإطار الأمثل للتصادم والتسابق في مسالك الارتقاء، وهو إطار لم يكن فيه بشكل عام مكان للمقلين. وهكذا فإنه يبدو أنّ رعاية الأدب قد ضاعفت من نسق المباعدة التي كنّا لاحظنا أنّها فصلت بين المشهورين والمقلين. وتركت المقلين يواجهون قدرهم في البحث عن لقمة

(1) يبدو أنّ هذه العصبية كانت وراء التمييز الذي عانى منه الشعراء الذين يتسبون إلى قيس أو يوالونها، وذلك خلال النصف الثاني من (القرن VII/II). وقد أشار الصولي في أخبار الشعراء ص 74 إلى أنّ كلّ شعراء هذه الفترة يمنيون «ليس فيهم من قيس أحد» باستثناء بشار وأشجع السلمي.

(2) يفسر هذا الصراع كيف أدرج الجمحي وهو من المدرسة البصرية طرفة بن العبد الجاهلي ضمن المقلين، ص 115. والحال أنّنا نعلم أنّ ديوان طرفة كان متداولاً في الكوفة، في عصر الجمحي (انظر نجيب البهيتي، المدخل، ص 129). ونشير كذلك إلى أنّ ابن الجراح سيخص في كتاب الورقة شعراء البصرة مرتبة متميزة وذلك على حساب نظرائهم الكوفيين.

العيش، وأرخت على آثارهم التي لا راعي لها سدولاً ازدادت كثافة بمرور السنين وعجلت بتشتت هذه الآثار، وألحقت ما تبقى منها بما نسي التاريخ ذكره من الآثار.

— 3 —

مركزية بغداد

إن «تعدد المراكز الثقافية في العصر الأموي (المدينة، الكوفة، البصرة، دمشق) قد تلتها هيمنة مركز عمراني هائل لا أمل للذين يسعون إلى الشهرة أن يكسبوا خارجة» هو بغداد⁽¹⁾ وفعلاً فإنّ الترشيح إلى الشهرة بالنسبة إلى المواهب الفنية في بداية القرن IX / III، وبإجماع أجيال النقاد الأولى، يقتضي أولاً اتخاذ مسكن في هذه العاصمة الكبرى التي لم يمرّ على تأسيسها سوى بضعة عقود، ولكنها ممتدة الأطراف بعد. ويقتضي كذلك أن يقبل المترشح وهو يلج محيط هذه المدينة التي اكتظت بالشعراء التأقلم مع جوّ التنافس العنيف بل والشرس في كثير من الأحيان الذي كان سائداً بمنتدياتها وأن يتخذ من التزلف سبيل حياة⁽²⁾ وذلك كي يضمن لنفسه حماية يسبغها عليه عين من الأعيان أو عطايا يخلعها عليه رجل من رجال السياسة الراعين للأدب، أما الذين لم يخضعوا لهذه القاعدة من أولئك الذين عاصروا أبا نواس وأبا تمام والبحري، وهؤلاء الثلاثة هم كما نعلم استقرّوا ببغداد، فإنّهم سرعان ما باتوا في عداد الهامشين ولقّهم الاحتجاب الذي لفتّ غيرهم من الشعراء المغمورين، وغدوا في نهاية المطاف وفي أجل قصير نسبياً نسبياً منسياً. وسيذكر الجرجاني هذه الظاهرة بشكل واضح في معرض حديثه عن الشعراء الذين لم «يهبطوا الأمصار» فيقول ببساطة إنّ «أشعارهم قد ذهبت»⁽³⁾. وقد أمدنا صاحب الطبقات وصاحب الأغاني بملاحظات مماثلة ولكنها أكثر دقة. ونذكر مثلاً علي ابن عاصم

(1) انظر جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ص 106.

(2) يقول أبو المطهر الأزدي في (القرن X / IV) «إنّ بغداد جنة الموسر وعذاب المعسر» انظر: حكاية أبي القاسم البغدادى، ص 73.

(3) يقول الجرجاني: «لم يهبطوا الأمصار فذهبت أشعارهم» الوساطة، ص 161.

الأنباري، وهو من الجبل ولم يبق لنا من شعره سوى ستين بيتاً⁽¹⁾ يقول عنه ابن المعتز أنه «لو أقام ببغداد لخضعت له رقاب الشعراء» وأضاف قائلاً إن شعره «أكثر محاسن من شعر مسلم بن الوليد وأبي الشيص وطبقتهما»⁽²⁾ كما نذكر أمثلة عديدة لشعراء عاشوا في خراسان كأبي الهندي⁽³⁾ وفي الكوفة كبكر بن خارجة⁽⁴⁾، والثرواني⁽⁵⁾ وفي البصرة كابن يسير⁽⁶⁾ وابن المعدل⁽⁷⁾ وفي حمص كديك الجن⁽⁸⁾ وفي الرقة كربيعة الرقي⁽⁹⁾. ونعلم من خلال الأخبار التي نقلها الأصفهاني أن العلة في خمول ذكر هؤلاء الشعراء، وفي اقتصار مسالك التدوين على الاحتفاظ بنتف من شعرهم إنما هي بالأساس بُعدهم عن بغداد. وينبغي أن نتظر نهاية القرن IX / III كي نشهد بداية أفول نجم عاصمة بلاد ما بين النهرين لفائدة عواصم الأقاليم.

- 4 -

ملايسات إذاعة الشعر ونشره

لقد كانت كثافة التبادل الذي ساعد عملية انتقال المکتوب وتداول وسائل نشر المعرفة في عصر سيادة بغداد عاملاً رئيسياً من عوامل الالتحام والتأصل في صلب الفضاء الثقافي العربي الإسلامي. وستفضي هذه الكثافة في مستوى الأشخاص إلى بروز إحساس منفتح على هواية الكتاب والبحث عن نوادر مخطوطاته واقتناء أحسن مجلداته. (من ذلك ظاهرة وجود مجموعات المتتقيات من الكتب في الخزائن الخاصة في بلاد الإسلام، مما يبعث على

-
- (1) انظر المدونة، ج 1، ص ص 229 - 233.
 - (2) انظر المدونة، ج 1، ص ص 193 - 218.
 - (3) انظر عبد الله الجبوري، ديوان أبي الهندي وأبياته، بغداد 1970.
 - (4) انظر المدونة، ج 5، ص ص 91 - 101.
 - (5) انظر المدونة، ج 5، ص ص 35 - 45.
 - (6) انظر الأغاني، VIX، ص ص 17 - 50 والمدونة، ص ص 303 - 310.
 - (7) انظر زهير غازي زاهد، شعر عبد الصمد بن المعدل، النجف، 1970، ص 303.
 - (8) انظر مطلوب والجبوري، ديوان ديك الجن، بيروت 1964، ص 218.
 - (9) انظر المدونة، ج II، ص ص 275 - 298.

الدهشة في كثير من الأحيان⁽¹⁾ وستفضي في مستوى الجماعات إلى ظهور سلسلة من المكتبات أو الخزائن العامة أو شبه العامة⁽²⁾ وهي تحتوي على عدد ضخم من الكتب، كتب سيكون الانتفاع بها (المطالعة - النسخ أو الإعارة) مقيداً بشروط تنظيمية تيسر الوقوف عليها وتعين على حفاظها. وسيستمد منها كتاب مثل عمر بن شبة (875/262) وابن النديم (993/358) أهم ما في مصادرهم الببليوغرافية⁽³⁾. وكان النسخ يحاط بالحذر الكبير واليقظة والحرص الشديد على الدقة وذلك حين يتعلّق الأمر بنسخ كتب التفسير والحديث والفقه والمعجمية أو النحو⁽⁴⁾ أما الشعر فقد كان دوماً عرضة لضرب من التغافل أو التساهل يتعاطاه الناسخون من الوراقين في الخفاء وقد عرّضوا مدونة العصر لضروب التغير والتبديل تواطؤاً مع ميول جمهور كبير متعطش للآداب إلاّ أنّه متغير⁽⁵⁾ يستجيب لذوق العصر السائد، لا يشغله شاغل بالقضايا المتصلة بأصالة الدواوين التي توضع بين يديه أو بمدى مطابقتها للنصوص الأصلية⁽⁶⁾. وقد أجاد الصولي وصف هذه الظاهرة في معرض حديثه عن ديوان أبي تمام الذي جمعه، إذ دعا القارئ إلى الاطمئنان لجودة عمله مقارنةً بأعمال غيره فقال إنّ جمهور القراء: «بعد إتمامي هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها»⁽⁷⁾. بل وإنّه يذهب إلى أنّ الجمهور قد وقف نفس الموقف حين أخرج قبل ذلك نسخة ديوان أبي نواس،

(1) يذكر يوسف العش ضمن المكتبات التي يعدها مكتبات منافسة لبيت الحكمة أو خزانة المأمون، خزانة علي بن يحيى المنجم (ت 275هـ/888م) وخزانة الفتح بن خاقان (قتل 247هـ/860م)، انظر المكتبات العربية ص 58.

(2) هي مجموعات خاصة مفتوحة لجمهور محدود ويذكر العش نماذج منها كدار عبد الله الأندلسي وهو معجمي عاش في أواخر القرن الثاني/ أوائل القرن التاسع للميلاد (المرجع المذكور ص 65).

(3) انظر يوسف العش، المرجع المذكور، ص 37.

(4) نفس المرجع، ص ص 274 - 277.

(5) انظر أسفله، الفصل VII، الفقرة 2/أ ص 158 - 160.

(6) انظر المدخل الذي صدر به الأعلام الشتري حماسته (مخطوط) حيث تعرض إلى أحد مظاهر التدوين: الرواية وتصحيحها.

(7) أخبار أبي تمام، ص 55.

فيضيف بأن «النسخة من هذا الديوان في رواية غير روايتي كانت تساوي الدنانير غير أنها اليوم تساوي نفس المقدار لكن من الدراهم، ولعلها لن تساوي بعد اليوم شيئاً ولن يقبل عليها أحد»⁽¹⁾. والراجح أنه يلمح بذلك إلى نسخ لنفس الديوان ناقصة أو لحقتها زيادات ضخمت من حجمها، ولا نستثني من هذه النسخ نسخة السكّري⁽²⁾، وهي اليوم مفقودة. غير أننا نلاحظ أنّ ظاهرة الخلط والفوضى التي طغت على مسالك النسخ في نقل شعر ذلك العصر - وهي ظاهرة حصلت في حياة قائلها هذا الشعر، وأسهمت بقسط كبير في تدهور مدوّنات المقلّين على وجه الخصوص، تلك التي أضحت شبه ركام من الشعر لا يقيد قيد، تباح فيه ألوان الاغتصاب المختلفة ويغرف منه محترفو النسخ ما يحلو لهم، وذلك لسدّ ما نقص من هذا الديوان أو ذاك، أو التزيّد في هذا الأثر أو ذاك استجابة لذوق العصر - قلت إنّ هذه الظاهرة وإن لم تمسّ بعض المجموعات المشهورة التي حرص أصحاب المكتبات الكبار⁽³⁾ على رعايتها، وبقيت رغم ذلك عرضة لعوادي الزمن فلم تلبث أن اندثرت، فقد امتدت إلى صفوة ما أنتج ذلك العصر من شعر تمّ ترويجه بطرق النسخ العادية⁽⁴⁾. غير أننا سنرى أنّ ملابسات النشر لا تقتصر على ما يتعرّض له النسخ من وجوه التبديل والتغيير، بل إنّ هناك عوامل أخرى تنضاف إلى ما ذكرنا، وقد جاءت لتضاعف نسق ظاهرة التحريف التي أشرنا إليها. ونلاحظ أولاً أنّ الآثار قد أصابها منذ زمن مبكّر تشتت كبير في فضاء جغرافي لعلّه أوسع فضاء عرفته اللغات الناقلة للثقافة

(1) نفس المرجع، ص ص 55 - 56.

(2) هي نسخة مفقودة اليوم ويبدو حسب ابن النديم أنّ ثلثيها في ألف ورقة أي حوالي 40.000 بيت حسب المقياس الحسابي لابن النديم نفسه، (انظر ط. طهران ص ص 181 - 182 وأعله ص).

(3) نذكر مكتبتي الحمدانيين في حلب والبويهيين في شيراز فقد انتدبتا في عصرين مختلفين أكبر خطاطي العصر وهما ابن مقلة (ت 338هـ/949م) وابن البوّاب (ت 423/1031) واصطنعتا في علمية التفسير كبار المختصين في هذا المجال (انظر العش، المرجع المذكور، ص 273 - 278).

(4) النسخة الوحيدة التي وصلتنا من ديوان خالد الكاتب وهي نسخة متأخرة شاهد كاف في هذا السياق (انظر، المدونة ج II).

قبل العصور الحديثة. ثم إنَّ البعض ممَّن أجاد قول الشعر في ذلك العصر ولم تتلقَّه بغداد أو المراكز القريبة منها لبعُد الدار خاصَّة، عَدِمَ ذبوع شعره ذبوعاً يليق به⁽¹⁾. بل نضيف إلى هذا أنَّ الافتقار إلى مؤسسة مركزية تجمع المادة الشعرية وتنشرها، ويكون شأنها مع الشعر شأن بيت الحكمة مع العلوم المستحدثة، لم يكن سوى عامل ضاعف حالة التشتت. وسيكون أصحاب المختارات والنقول في القرنين III و IV أوَّل من يحسُّ بتأثير هذا العامل إحساساً حاداً. وذلك أنَّهم حين أرادوا جمع المادة اللازمة لإنجاز مصنفاتهم الأدبية (تقييد التراث وإقراره في أشكال جديدة) على غرار ما فعل أبو الفرج وجدوا أنفسهم أمام «ركام» من الأخبار اكتضت مسالكة إلاَّ أنَّه لا يخلو من فجوات، ومرتد ذلك إلى تشتت المصادر وتفرُّقها في أصقاع الامبراطورية المتناثية شرقاً وغرباً ممَّا قد يتعذَّر معه مراقبتها وتصحيحها أو اقتناء النادر أو المفقود منها، وقد أشار هؤلاء المؤلفون هم أنفسهم إلى هذه الظاهرة⁽²⁾. كما نلاحظ أنَّ ترحال الشعراء الذين أكثروا من التنقل طلباً لرعاية السُّلطان لم يكن ليساعد هذه المدونة على الاستقرار. فلقد أدخل تعدد الروايات (رواية الدواوين الشعرية) على بعض الآثار اضطراباً كبيراً من جرَّاء تلاحق هذه الروايات وتراكُمها وتقاطع بعضها ببعض، وهي روايات نرجح أن تكون ناقصة وأن يكون الشعراء أنفسهم قد مكَّنوا منها من وفَدوا عليه من ذوي الجاه في رحلاتهم الطويلة نزولاً عند رغبتهم، فنقلها وراقون لا ذمَّة لهم أو لا دراية لهم بصناعة النسخ. وقد تمَّ ذلك في بعض المراكز الحضريَّة وانطوى على كلِّ ما يمكن أن نتصوره من تعسُّف وإسراف في استعمال المکتوب (الخطأ في نسبة النصوص - الانتحال). وإذا لم يكن ذلك كذلك فكيف نفَسِّر عدم وجود نسخة نهائية من ديوان أبي تمام إلى حوالي سنة 987/377 تاريخ تأليف الفهرست، وكيف أن شعر الشاعر «لم يزل غير مؤلف» حسب عبارة ابن النديم إلى حدود هذا التاريخ أي بعد وفاة

(1) نجد مثال أبي الهندي (ت نحو 140) وهو خير من سبق أبا نواس في تجديد فنِّ الخمرية، ولكنَّه عاش مغموراً لأنَّه لم يقدم بغداد «وإنَّما أهمل ذكره مقامه بسجستان» كما يقول أبو الفرج - الأغاني 329/320.

(2) انظر أبو الفرج، مقاتل الطالبيين، ص 5.

أبي تمام بقرن ونصف؟ وبالتالي كيف أن جمهور القراء من الأدباء والنقاد لم تتوفر لهم حتى القرن الرابع سوى مجاميع لديوان الشاعر يتأرجح حجمها بين 200 و 300 ورقة مع ما نعلمه من نباهة الشاعر (تطوافه بالأمصار: دمشق - الفسطاط - حمص - بغداد) ومنزلته بين شعراء عصره؟ ولعل ابن المعتز قبل هذا التاريخ بقرن لم يكن غراً في معرض حديثه عن «غزارة» شعر سلفه إذ قال إنه «لو استقصى ذكر أوائل قصائده الجياد لشغلت قطعة من طبقاته» ثم أضاف مُنبهاً إلى أنه «يقال إنه له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة» مؤكداً بذلك حرصه على التخفيف من هذا الخبر المفرط وإقراره بمصدره المجهول⁽¹⁾. وإذا أضفنا إلى ما ذكرناه أن حركة الجمع التي قام بها جيل أساطين الرواة في العراق مثل ابن المنجم وطيفور والصولي⁽²⁾ عرفت بعض الفتور في أواسط (القرن IV / X). وصاحب الأغاني على ما يبدو شاهد على ذلك⁽³⁾ فإننا ندرك بيسر مدى الشكوك التي تحيط بعلمية إحصاء مدونة الشعر في (القرن IX / III) وتثبيتها. ونلاحظ في هذا المجال أيضاً أن شعراء الفترة التي نهتم بها، بخلاف أسلافهم الجاهليين أو الإسلاميين، لم يجدوا عموماً في رواة الشعر سنداً لضبط شعرهم وتدوينه (والرواة كما نعلم هم بحق الأمناء على الشعر في حياة صاحبه وهم أول من يسهم في إذاعته)، كما أنهم قد غضّ عنهم الطرف كبار اللغويين والعلماء والنحاة والمعجميين في (القرنين II و VIII / III و IX)⁽⁴⁾ الذين اقتصر

(1) الطبقات ص 286.

(2) انظر الفهرست، طهران، ص ص 160 - 168.

(3) انظر أبو الفرج، مقاتل الطالبين، ص 5.

(4) لسنا بحاجة في هذا السياق إلى التذكير بالموقف المشهور الذي اتخذته اثنان من علماء الشعر الكبار في هذا العصر وهما أبو عبيدة (ت 211هـ / 825م) وقد كان يجهر بأنه لا يعجبه في شعر أبي نواس إلا بيتان (انظر القالي، ذيل الأمالي، ص 39)، وابن الأعرابي (ت 231هـ / 845م) وهو أكثر دقة من أبي عبيدة ولكنه لا يختلف عنه في صرامة الحكم وقد كان يزعم أن شعر المحدثين «بمنزلة الريحان يُشَمّ يوماً ويذوي فيرمى في المزبلة، وأشعار القدماء مثلُ المسك والعبير كلما حرّكته ازداد طيباً» (انظر المرزباني، المقتبس، ص 302 - 303). ونعلم من جهة أخرى أن من النتائج الهامة للخصومة بين القدامى والمحدثين أن نزع الذين خلفوا اتباع حركة التجديد في النصف =

جهودهم أو كادت على ضبط مدونة الشعر القديم⁽¹⁾. نفهم إذن كيف أن هؤلاء الشعراء تولوا إذاعة شعرهم بأنفسهم اضطراراً حتى يأمنوا رواج نتائجهم. وقد اصطدموا بعقبتين: أما الأولى فهي قصور الذاكرة⁽²⁾، وأما الثانية فهي ما عليه إنتاجهم من فوضى. وفعلاً فإنه من النادر أن نجد شعراء مثل ابن خفاجة الأندلسي (533/1138) الذي عاش بعد هذه الفترة بثلاثة قرون يزعمون أنهم قادرون على ضبط عملية الرواية بإنجاز ما يقتضيه الاعتناء المنهجي الدقيق بالآثر من ضروب التحكيك والتصحيح⁽³⁾ وإن هذه الحالة التي لا تساعد على المحافظة على المدونة في شكلها الأصلي قد ضاعف خطورتها غياب مفهوم الملكية الأدبية عند القدامى. ولعل هذا المفهوم لو وجد لأسهم في المحافظة على وحدة المدونة بشكل أفضل، وذلك بحمل المؤلفين على إنجاز ما تقتضيه آثارهم من تصحيح أثناء تأليفها وذلك كي يحصلوا على روايات ثابتة تكون مرجعاً للنسخ التي يروجها الوراقون. إن غياب هذه الروايات وما ألقى الشعراء أنفسهم فيه من عجز عن التصدي لما يصيب نقل آثارهم من فساد مختلفة أشكاله

= الثاني من القرن الثاني إلى الاحتفال أكثر فأكثر بشعر القدامى ولعل هذا الاتجاه قد كان له دور رئيسي من جهة أخرى في بداية فتور حركة جمع شعر المحدثين في حياة هؤلاء الشعراء أنفسهم.

(1) نلاحظ على سبيل المثال أن صاحب لسان العرب وهو الذي نقل أهم ما ورد في مدونة الشواهد القديمة لا يذكر من مدونة الشعراء العباسيين إلا القليل (5%) من المدونة الجمالية) ونحن نعلم أن مجموع الوارد في معجمه يبلغ 32000 بيت منها 21000 منسوبة إلى 300 شاعر معروف (انظر الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب ص ص 23 - 24).

(2) نحيل القارئ في هذا السياق على خالد الكاتب وقد سأل بعض صحبته عن شعره بعد غيبة فقال: «ما حفظه الناس وأنسيته» (الأغاني ج 20، ص 283).

(3) انظر ديوان ابن خفاجة، مقدمة الشاعر نفسه، ص 8، 9 ونشير في هذا الصدد أيضاً إلى ابن الرومي إذ يبدو أنه كان يقيد شعره يوماً بيوم (جمع الجواهر ص 292) وكان يستعين بغلامين له كانا راويين وهما مثقال وابن حاجب. أما رؤوس المحدثين كيشار وأبي نواس وأبي العتاهية بل وأبي تمام فيبدو أنهم رغم بعض الملاحظات المقتضبة المبنوثة في كتب الأدب والتي يعسر التأكد من صحتها، لم يدخل في مشاغلهم قط أن يضمّنوا لأنفسهم رواة منقطعين لهم، وذلك على غرار أسلافهم الجاهليين.

(فإنّ أياً كان من المولعين بالشعر، سواء أكان أدبياً أريباً أم متأدّباً يستطيع وهو يعدّ نسخة من ديوان ما أن يبيع لنفسه تغيير ما يحلو له تغييره في الهامش أو في المتن. وتكون التصويبات في كثير من الأحيان نتيجة قراءة فاسدة بل تبلغ درجة العبث بوحدة النص⁽¹⁾، قلت إنّ هذين الأمرين يمثلان في نهاية التحليل أحد العوامل الرئيسيّة التي أدّت بالمدوّنَة إلى التشتّت والتلاشي، ونعني بصورة أوضح:

● التشتّت الذي أورثته وجوه استعمال قنوات نقل الآثار وقد انجرّ عن هذه الظاهرة تعدّد الروايات التي لا فضل لواحدة منها على الأخرى لانعدام البرهان، وهكذا فإنّها تزجّ بالمدوّنَة في لجج الغموض حيث نجد أحياناً للقصيدة الواحدة روايات متعدّدة⁽²⁾ وقد نتج عن تعدّد طرق الرواية أن تعدّدت روايات الدواوين في حياة أصحابها ممّا حمل ابن المعتزّ على القول في كتابه الطبقات إنّّه أدرج ضمن مختاراته مقطوعات لا توجد في دواوين الشعراء الذين اختارهم⁽³⁾.

● التشتّت الذي أورثه الوهم في نسبة الأشعار أو إهمال نسبتها. ألم نر الثعالبي في اليتيمة يقرّ في شأن ابن جليات الشاعر المعاصر له بأنّه أخطأ أوّل مرّة في رواية أشعاره، وأنّه استدرك ذلك وصحّح الخطأ في آخر رواية لمختاراته⁽⁴⁾؟ ألم نر كذلك أن مقاطع من بائيّة ابن الدمينّة الشهيرة (ت 180هـ/ 976م) (وهي غزليّة نوردها في الجزء الثاني من مدونتنا) نسبت إلى عشرين شاعراً⁽⁵⁾؟

● التشتّت الذي أورثه طمس الآثار وهو بحقّ ضرب من «الاعتساف»

(1) من الشواهد الدّالة على مثل هذا التصرف مخطوطة ديوان خالد الكاتب وهي النسخة الوحيدة التي اعتمدها في تحقيق النصّ، ففيها لا يجد الناسخ حرجاً في أن يذكر أنّه وضع بعض الأبيات لترميم ما سقط من الشعر في بعض القصائد. ويبدو أنّ هذا الناسخ هو نفسه صاحب الجمع (انظر المخطوطات الظاهرية، ورقة 1/37).

(2) ستقدم لذلك نماذج كثيرة في مدونتنا (انظر مثلاً المدونة ج 1).

(3) ابن المعتزّ، الطبقات، ص 19 وانظر كذلك المدوّنَة، ج II، ص 61، الهامش 5 حيث نسجل نفس الظاهرة بالنسبة إلى خالد الكاتب، وانظر في خصوص الأشعار غير المنسوبة ج II ص 64 الهامش 2.

(4) اليتيمة، ج 3 ص 99.

(5) انظر ديوان ابن الدمينّة ط النفاخ ص ص 230 - 243، والقصيدة في 120 بيت.

على المدونة نتج عنه مباشرة بروز طائفة من المتحليين والمزورين الذين كانوا في كثير من الأحيان شعراء مجيدين تمكّنوا من تحديد شكل المدونة النهائي بما دأبوا عليه من تغيير وتبديل قدروا عليهما بواسطة المادة التي سرقوها من ركام المدونة. ونسوق شاهداً على هذه الظاهرة سلم الخاسر (ت 186هـ/ 802م) فقد استعجله الخليفة الرشيد في مسائل فأقرّ بأنه استأثر دون رواة عصره بـ 9000 بيت لبشار، ولعلّه استقى منها ما ألهمه بل وألف به بعض قصائده⁽¹⁾. ونذكر كذلك أبا نواس فقد صرح بأنه يحفظ 700⁽²⁾ أرجوزة «عزيزة في أيدي الناس». وقد ترك للذين جاؤوا بعده أن يتصوروا كيف استقى من هذا الرصيد المحفوظ ما به صنع أراجيزه في الطرديات، بل وفي رواية ذكرها صاحب الأغاني على وجه الخصوص ولها دلالة متميزة نجد أنّ أبا نواس نفسه لا يجد حرجاً في التصريح بأن بعض ما ينسبه إلى نفسه من القصائد إنّما هو من شعر معلّمه والبة⁽³⁾، كما أننا نراه - بدافع الغيرة أو لوثوقه من الحصانة التي منحه إياها جمهور المفتونين بشعره، أولئك الذين لا يترددون في الإغضاء عن جميع زلاته - نراه لا يجد حرجاً كذلك في المجاهرة بسرقاته التي قد يكون ضحيّتها أحد أعلام العصر مثل الحسين بن الضحّاك⁽⁴⁾ ومما لا ريب فيه أنّه لا يفوتنا أن نلاحظ في هذين المثالين الأخيرين ما ينم عن منحى فيه إفراط وتندّر. غير أنّ الإنارة التي حصلنا عليها في كلتا الحالتين وإن غلب عليها طابعُ النادرة، تظلُّ ذات دلالة متميزة.

* * *

هذه هي في عجالة ملابسات ذبوع الشعر المولّد أو المحدث خلال هذا العصر المديد الذي نرجح أنّه عرف بدفع من رجال السياسة الذين رعوا الأدب

(1) يقول سلم: «إني لأروي له 8000 بيت ما يعرف أحد منها شيئاً غيري» (مختار الأغاني ج IV، ص 265 وانظر كذلك الأغاني ج III ص 199 - 200).

(2) «إني أحفظ 700 أرجوزة عزيزة في أيدي الناس» طبقات ابن المعتز ص 201.

(3) انظر الأغاني ج XVI ص 134.

(4) المصدر نفسه، VII ص ص 145 - 148، 162. وانظر كذلك المدونة ج V، ص 97 - 115.

انتشاراً للشعر لا نظير له في الفضاء الثقافي العربي على مدى العصور⁽¹⁾ غير أنّه بخلاف مدوّنة الشعر القديم التي وقع تخريجها بشكل نهائيّ وتمّ ضبطها والحفاظ عليها بحرص شديد وفي عصر مبكّر⁽²⁾ فإنّ مدوّنة المحدثين، في معظم جنباتها، قد أصابها اضطراب كبير ولعلّ كثيراً من ذلك تمّ في حياة أصحابها، وهي أيضاً، كسائر التراث الأدبي، سترزح تحت وطء قرون طويلة. وإذا تخطّت سقوط بغداد فإنّها ستتفرّق شذر مذر حين تحطّ الرحال في الأمصار الثلاثة الكبرى التي تلقفت الأصول الأمهات للتراث المكتوب ابتداءً من القرن السابع وهي القاهرة ودمشق واسطنبول. أمّا الأولى والثانية فبفضل مدونيهما من أصحاب النقول⁽³⁾ وأمّا الثالثة فبفضل خزائن المخطوطات التي حرصت كلّ الحرص على الاحتفاظ بها إلى يوم الناس هذا⁽⁴⁾. ويكفي كي نقف على هذه الحالة من التشتت أن نتصفح في خصوص الفترة التي نهتم بها الدواوين الستين الصغيرة التي طبعت في العقود الأخيرة. وستولّي تقديمها تقديماً نقدياً في شكل ملحق⁽⁵⁾.

(1) انظر أعلاه ص ص 86، 90.

(2) نذكر على سبيل المقارنة أنّه كان يوجد في (القرن IX / III) نسخ عديدة من ديوان امرئ القيس منها نسخة السكري وهي تمثّل خلاصة روايات أربع كانت متداولة في ذلك العصر، وهي رواية الشيباني والأصمعي وخالد بن كلثوم وابن حبيب (انظر الفهرست ص 177).

(3) نذكر مثلاً البغداديّ (ت 1682/1091م) ومكتبته التي يقدّم لنا عنها لمحة عامة في ديباجة الخزانة. وقد كانت تتضمّن فيما تتضمّنه مجموعات شعرية هي اليوم في عداد المفقود (ويذكر المحبّي في خلاصة الآثار، ج II ص 452 أنّ البغداديّ كان يملك في مكتبته ألف ديوان بشهادة من عاين ذلك من معاصريه).

(4) انظر أعلاه ص 103 - 106.

(5) لعلّه من المفيد أن ننظر في إطار مقارنة مقارنة كيف تمّ نشر مدوّنة الشعر في ثقافات أخرى (مشاكل صناعة الكتاب وترويجه، دور المكتبات المركزيّة في أثينا «bibliopoles» والنسخ في روما «scriptoria»).

الفصل السادس

مدونة الشعراء المقلين وحدودها
العوامل العامة التي أدت إلى تشتتها وبعثرتها

— 2 —

العوامل الخارجية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنطلقات التمهيديّة

نتعرّض بالحديث الآن إلى سلسلة من العوامل الداخلية تنضاف إلى العوامل التي تحدثنا عنها في الفصل السابق فتلقي مزيداً من الأضواء على ظاهرة تشتت المدوّنة، وتساعد - من ثم - على إدراك اتجاهات العصر الكبرى إدراكاً أشمل وسيتوخى تحليلنا مستويين، ملائمةً لمقتضيات العرض وسعيّاً منا إلى الإحاطة بهذه العوامل من مختلف جوانبها:

- نتعرّض في المستوى الأوّل لمختلف الأسباب التي دفعت بالشعراء إلى أن «يهمشوا» أنفسهم بأيديهم.

- ونتحدث في المستوى الثاني عن المشاكل الخاصة بالخطاب الشعري نفسه: حركيته الداخلية، وملاءمته للنظام الثقافي الجديد.

وسنرى كيف أن تفاعل هذه العوامل التي تحليلنا على النظام العام للشعر العربي نفسه في أحصن مميّزاته، قد مثل القطب الذي يدور عليه كلّ تطوّر لاحق للمدوّنة، فضبط حدودها وشروط المحافظة عليها.

- 1 -

الشعراء المقلون ودواعي الرفض

لقد أدت بنا عشرتنا الطويلة لما تبقى من مدوّنة الشعراء المغمورين في العصر الذي تتعلّق همتنا بدراسته إلى ملاحظة الحيّز الضيق الذي تحتله الأغراض المطروقة بإسهاب في الشعر الرسمي من دواوينهم بوجه عام⁽¹⁾، ونخصّ بالذكر

(1) تنطبق هذه الملاحظة، طبعاً، على القسم الذي تقدّمه في الأجزاء الخمسة من مدوّنتنا.

منها ما اتصل بالمديح⁽¹⁾، غير أنه لا يسعنا إلا الإقرار بأن شعراء العصر الذين شهد شعرهم سيورة واسعة النطاق، وكان لهم أكبر صدى لدى النقاد هم شعراء البلاط، وهم خير المتملقين. ولم يخطئ ابن رشيقي في حديثه عن الشعراء المجدودين، فذكر - من بين من ذكر - على سبيل المثال أعظم شاعرين مداحين في ذلك العصر وقد برّأ غيرهما من الشعراء وكان لهما عليهم سلطان، وهما أبو تمام والبحري⁽²⁾، ونحن نعلم أنّ غرض المديح يحتل نسبة 45٪ من شعر الأول ونسبة 51٪ من شعر الثاني⁽³⁾ ومن ثم تبدو لنا أهمية هذا العامل في نشر الدواوين والمحافظة عليها.

وبذلك، فمن اليسير أن ندرك كيف أنّ شعراء (ومعظمهم من المغمورين) قد رغبوا عن الأغراض التقليدية مدفوعين في ذلك بما كان لهم من اقتناع بحرمة الشعر أو بدواع رهينة الظرف الخاص أو بسبب ما تعرضوا له من إخفاق، فتركوا المدينة، وتنكروا لرعايتها ورفضوا أن يكونوا في خدمة الرؤساء، قال الأمر بشعرهم إلى أن يحتلّ مناطق هامشية من المدونة الشعرية لذلك العصر، وأن يشتت ويتفتت ليضيع في متاهات ألف سنة من التاريخ الأدبي. وتبرز الملاحظات المتعلقة بعدد كبير من الشعراء المغمورين، وهي ملاحظات تعترضنا في مجاميع الأدب، إبرازاً جلياً هذه الظاهرة المتعددة الوجوه⁽⁴⁾، ونسوق بعضها في ما يلي:

(أ) يتحدث أبو الفرج عن شاعر يدعى التويت، عاش زمن الرشيد،

(1) على أنه لا بدّ من الإشارة إلى سمة تميّز أشعار المديح - وهي قليلة - التي نظمها هؤلاء الشعراء المقلون وهو مديح غالباً ما اعتمد مسالك تعبيرية وتنظيمية شكلياً للقصيدة تختلف عن النماذج التي حددتها السنة الأدبية (انظر القصائد المدحية القليلة في مدوّنتنا، وخاصة قصيدة ابن جدير، ج 3 ص 343 - 344، وقصيدة أبي الشيص، ج 1 ص 211 - 215، وقصائد أبي دلالة، ج 3، ص 317 - 330).

(2) العمدة - ج 2، ص 181 - 185.

(3) جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ص 106 - 107.

(4) لقد أوردنا شواهد لذلك عند تقديمنا شعراء مدوّنتنا وكذلك ضمن الدراسات التي خصّصناها لبعض أشعارهم.

ويبدو أنه قصر شعره على الغزل، فيقول بأنه شاعر من طبقة ابن أبي حفصة (ت 182هـ/798م) وبأنه لم ينشد شعره أمام الخلفاء، وبأنه لا يعرف له البتة شعراً قاله في أعيان عصره، «فأهمل ذلك ذكره»⁽¹⁾ وكذلك هو شأن معاصره إسماعيل بن عمار وهو شاعر خرج عن دائرة شعراء عصره لاستقلال طبعه ورفضه العمل في كنف السلطان⁽²⁾.

(ب) ويقول أبو الفرج نفسه أيضاً في حديثه عن محمد بن حازم الذي عاش زمن المأمون «أنه لم يتصل بواحد منهم [الخلفاء] فيكون له نباهة طبقته»⁽³⁾. ونجد إشارة مماثلة لدى صاحب الأغاني تتعلق بعكاشة العمي فيقول: «هو شاعر عاش زمن المهدي، وليس ممّن شهر وشاع شعره في أيدي الناس ولا ممن خدم الخلفاء ومدحهم» وإن كنا نعلم أنّ شعره كان ذا منزلة ورواج لدى المغنّين في عصره من أمثال عريب، وجحظة والدفاف⁽⁴⁾.

(ج) ونقع، في مواطن أخرى على إشارات تتعلق بمواقف رافضة لسلطان المشاهير ورعاية الرؤساء، كتلك التي تتعلق بابن منذر (ت 199هـ/814م) «أحد حذاق المحدثين ومذكوريهم وفحولهم» وقد اشتهر بمرثيته الدالية التي تعدّ من عيون هذا الباب في الشعر العربي، غير أنه استنكف من أن يقاس بالشعراء المحدثين وأن ينضوي تحت لواء مدرستهم، داعياً معاصريه خلف الأحمر وأبا العتاهية بإلحاح إلى مقارنة شعره بشعر القدامى⁽⁵⁾، وكانت تلك أيضاً حال ديك الجن (ت 235هـ/849م) الذي تذكر كتب الأدب أنه كان واحداً من رؤوس مذهب أهل الشام، قبل أبي تمام الذي سرعان ما حجب، لأنّ ديك الجن فضل الإقامة بحمص، مسقط رأسه،

(1) الأغاني ج 23 ص 69.

(2) انظر الأغاني ج 3 ص 369 - 370 وكذلك الجزء 3 من مدونتنا ص 195، 201 - 202.

(3) الأغاني، ج 14، ص 92، وانظر أيضاً: البقاعي، ديواني الباهلي، محمد بن حازم، دمشق، 1982.

(4) الأغاني، ج 3 ص 257 - 265.

(5) الموشح ص 453 وطبقات ابن المعتز ص 125 وانظر أيضاً مدونتنا، ج 1 ص 18 - 19.

على بغداد وما كان يمارسه الأعلام فيها من سلطان⁽¹⁾.

د - وتعرضنا إشارات مماثلة في الأغاني أيضاً، وفيها أن بعض الشعراء أعرضوا عن الأغراض التقليدية واختاروا النظم في سياق أشكال تعبيرية متحررة خرجت بهم عن الأنماط المألوفة، وهو ما فعله خالد الكاتب، (ونذكر هذا الشاعر على سبيل التمثيل لا الحصر إذ تقتصر هنا على مدونتنا)، وقد علق هو نفسه على شعره بقوله: «أقول في شجون نفسي، لا أكاد أمدح ولا أهجو»⁽²⁾، وهو ما فعله ماني الموسوس، وقد قال عنه أبو الفرج إنه لم ينظم إلا في الغزل⁽³⁾. وهو كذلك مثال ثلاثة شعراء من جيل أوائل المحدثين ومنهم إسماعيل بن يوسف، ذكر ابن المعتز «أنهم كانوا خلعاء مجاناً فقالوا: نتفق على أن نقول في صفة الخمر لا نتعدى ذلك إلى غيره، فبقوا على ذلك إلى أن ماتوا»⁽⁴⁾.

تلك هي بعض الأمثلة لدواعي الرفض لدى ثلة من الشعراء المغمورين في الفترة التي تعيننا وقد خرجوا بالشعر كما نرى عن مقاصده كما مثلها من شعراء العصر من انخرط في سلك المدّاحين من مشاهير الأعلام أو انقاد لرعاية السلطان. وقد كان لاختيار هؤلاء جميعاً كما سبق أن ذكرنا تبعات نعلم ما كان أثرها في طمس آثارهم.

— 2 —

الخطاب الشعري

أ - الشعر والنظام الثقافي:

شهد الخطاب الشعري انزياحاً في المصطلحات أي في مفاتيح الرؤيا

-
- (1) العمدة، ج 1 ص 101، والأغاني ج 14 ص 51.
 - (2) الأغاني، ج 20 ص 278، وانظر أيضاً المدونة ج 2 ص 45.
 - (3) الأغاني، ج 23، ص 181، وانظر أيضاً التقديم الذي كتبنا، لهذا الشاعر ولما تبقى من شعره، ج 2، ص ص 229 - 262.
 - (4) طبقات الشعراء ص 339: أخبار إسماعيل بن يوسف البصري.

الشعرية وفي أنماط التعبير وذلك عند ظهور طفرة «الشعر الجديد» الناشء عن حركة المحدثين (بشار، أبو نواس...)، وقد حصل في شرائح المجتمع المدني آنذاك تحول عميق نلمس أثره جلياً في التصور الجديد لشبكة القيم التي تشكلت بها مراسم الحياة في مدلولها الثقافي لدى مختلف الطبقات في العواصم الجديدة، مما جرّ إلى مبادعة كادت تُفضي إلى ما يشبه القطيعة بين الموروث ومرجعه صحراء الجزيرة وحضارة البادية والجديد ومداره بغداد وحضارة المدينة. فبعد أن كان الشعر أداة ترسي نظاماً ثقافياً مصوناً بكلّ غير واعتزاز وقد تجسم هذا النظام بطريقة مثالية في مختارات المفضل الضبي (ت 178هـ/794م) وجمهرة القرشي (توفي أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد) ومختارات الأصمعي (ت 216هـ/831م)، وقد نشأ هذا النظام من تضافر متين بين الحاجة إلى مدافعة الدخيل والحاجة إلى إبراز الإنسان العربي في صورته المثلى والمفاخرة به والاحتجاج له، تحول الشعر في جانب كبير منه، مع نهاية القرن الثاني، إلى أداة تبطن نظاماً ثقافياً جديداً دون النظام السابق انحصاراً في عالم الصفوة، ونعني به نظام الحياة الحضرية، إذ قد انفتح ذلك الشعر على العصر فتهافت على كلّ جديد وخرج في كثير من مسالكة عن السنن، فتماجن وتعاثت وفسح المجال لكل ضروب الانزياح والعدول وداخلته مواضيع كانت محرّمة⁽¹⁾، وتحول على مدى عقود طويلة من الزمن، إلى منتج استهلاكي خاضع لقوانين السوق، وابتدلت التغيرات الطارئة على الأذواق، وصار عرضة لكل الطوارق وأضحى قابلاً للتبدّد قانياً فناء كلّ بضاعة. وقد كان في ذلك نموذجاً قليل النظائر، إذ أنّه وإن كان خطاباً مجدداً، خارجاً عن الشرعية الثقافية، في كثير من معارضة غير أنّه كان مسموحاً به من جانب السلطة السياسية والدينية، مقبولاً لدى الجمهور إن لم نقل إنّ جمهوراً عريضاً، مختلف المشارب متنوعها كان يتطلّبه⁽²⁾.

(1) انظر نماذج من ذلك بمدوّنتنا، وخاصة ج 4 ص 23 - 84 وج 5 ص 103 - 117، 119 - 127.

(2) انظر الصفحات التي قدمنا بها الجزء الخامس من المدونة.

ونشير هنا - عرضاً - إلى أنّ بعض الدراسات والبحوث الحديثة، المنطلقة من رؤية أخلاقية للأدب، قد اتخذت في تحليل بعض جوانب هذه الظاهرة سبلاً لا تتقاطع دوماً وسبل البحث التي وجهنا إليها مشروع بحثنا، وهي بحوث توحى بأن تشتت مدونة ذلك العصر وبعثرتها أمر قد يعزى إلى ضرب من المهانة أصاب هذا الشعر ففقد حظوته وخسر تلك الهالة التي كان محاطاً بها، كما أصاب شعراء غدوا من أهل التسوّل والكدية في نظر النخبة⁽¹⁾، وهي نخبة قد كانت مع ذلك تترصد هذرهم وهزلهم وسماجاتهم⁽²⁾، كما أصاب أيضاً مهنة الشاعر وقد غدت موضع هزاء واحتقار. ولا شك في أنّ هذا الموقف النقدي يلتقي بموقف المدافعين على «أدب فاضل صالح مترمّ» من بين الباحثين من الجيل الحالي، وهم يرون وجوب تصفية التراث الشعري «من كلّ غث» حتّى لا يُحفظ منه إلّا «بالتراث النافع»⁽³⁾ وفي ذلك ما فيه من الخطأ المنهجي الملازم للخلط بين عمليّة مَنْ همّة تهذيب الأخلاق وعمل المؤرخ⁽⁴⁾ وهو خلط في هذه الحالة بين الوظيفة التي يقوم بها الشعر والشاعر ومهنة الشاعر وما يطرأ على هذه الوظيفة من تغيّر يستوجب عملية تطور، وتقييم أوضاع جديدة تتمثل في أشكال من السلوك والمواقف مدارها الأخلاق قابلة للحكم لها أو عليها.

ب - الشعر واتساع مدى المدونة :

يبدو أنّ وفرة المدونة وفرة تفوق الحدّ وكثرة الشعراء كثرة لا يحصرها العد قد كانتا سمة أساسية من سمات الشعر العربي في الفترات الكلاسيكية، وهي الفترات التي توافقت - كما نعلم - مع منعرجات خلق النماذج ونحتها،

(1) سليم البستاني: ابن الرومي، حياته وشعره ص ص 311 - 314، وقد نقده جمال الدين ابن الشيخ: الشعرية العربية ص 33.

(2) قدمنا على ذلك بعض الأمثلة في المدونة، الجزء الثالث.

(3) قيس العاني: منهج تحقيق النصوص ص 23.

(4) نذكر هنا بأن الشعراء الذين نظموا في الهزل والفحش والتحاقق، وقد ذكرنا عدداً منهم في مدوّنتنا هم أولئك الذين نعثر لديهم على أوفر حظ من محاولات التجديد (انظر خاصة الجزئين الثالث والرابع).

وتولدت عنها ما سميناه بالوالدتين المؤسستين اللتين ضبطتا لما يناهز الألف عام حدود الكون الشعري العربي⁽¹⁾ وقد أشرنا إلى هذا المظهر الكمي عند سعيينا إلى إعداد جرد تقويمي تقريبي لما أنتج في ذلك العصر من شعر، فأدّى بنا ذلك إلى تقديم أرقام تبدو خيالية لفرط مداها⁽²⁾. وقد أشار القدماء أنفسهم إلى هذه الظاهرة، ولم يتردّد ابن قتيبة في مقدمة كتابه عن الشعر والشعراء فقال، في سياق إبرازه لما بدا له ضرباً من الحضور المستديم للشعر، باعتباره سمة ملازمة للفضاء الثقافي العربي، إنّ أي محاولة لإحصاء ذلك العدد الهائل من الشعراء «القدامى والمحدثين» محاولة مآلها الفشل⁽³⁾.

ولئن ألحنا على التعرض إلى هذه الإشكالية المتصلة بهذه النقطة المخصوصة من القضية، فإنما ذاك لنشير إلى الأهمية التي نوليها لهذه الظاهرة التي تبدو لنا دونما شك عنصراً كان له دور مساعد إلى حدّ بعيد على إصابة المدونة بما أصيبت به من صروف الدهر، فالحجم الضخم الذي يعود إلى وفرة المادة الواجب تدوينها وفرة تفوق الحدّ، وكذلك ضخامة ورق الكتابة (الرق خاصة) المستعمل لذلك الغرض وثقل وزنه⁽⁴⁾ يضاف إليهما اعتبارات تتصل بـ «القدرة الشرائية» (فالنسخ قد كان دوماً باهظ الثمن)⁽⁵⁾، كلّ ذلك بلغ درجة من ثقل المؤونة أصبح معها تدخّل عملية تشذيب لا تصل إلى القضاء على تلك

(1) انظر أعلاه، الفصل الأوّل، ص 55 - 58.

(2) انظر أعلاه، الفصل الرابع، الفقرة 3.

(3) انظر: الشعر والشعراء، ج 1 ص 4.

(4) يبدو أنّ صناعة الورق، في مطلع (القرن 3هـ/9م)، كانت في بداياتها الأولى، إذا ما اعتمدنا الصفحات الرائقة التي خصصها الجاحظ (ت 255هـ/800م) للزوج: «الرق/الورق»، وفيها إشارات تبين جدّة تلك الصناعة (كتاب الجد والهزل، ضمن: رسائل الجاحظ، ج 1 ص ص 246 - 254) وانظر أيضاً الصفحات المفيدة التي يخصّصها حسن حسني عبد الوهاب لاستعمال البردي والكاغظ والرق في أفريقية (ورقات ج 2، ص ص 153 - 168) وهي معلومات يمكن استكمال القول فيها بالإشارات الدقيقة التي يقدمها لومبار (Lombard): الإسلام... ص ص 190 - 192.

(5) نجد إشارات عن الأسعار المتداولة مطلع (القرن 4هـ/10م)، في معجم الأدباء، ج 13 ص 126، وانظر أيضاً: العش: المكتبات العربية ص 65.

المدونة قضاءً مبرماً بفعل الزمن أمراً لا مناص منه⁽¹⁾. وقد أمكن ذلك، كما نعلم بفضل الأجيال المتعاقبة من العلماء والأدباء أصحاب الاختيار والجمع على مدى ألف عام. وقد كانت عملية التشذيب الضخمة هذه، تصحبها رغبة ملحة في إنقاذ الأهم، فمكنت، بفضل الطرق المتبعة (اختصار الآثار، انتخاب المؤلفين، توزيع الأغراض توزيعاً وظيفياً، تتبّع ما كان ذا دلالة وجدوى، استعمال الشواهد القصار استعمالاً شاملاً) من تخفيف المدونة وتيسير تنقلها في روايتها المشدبة تلك تنقلاً أكثر حركية، وأعانت على سيرورتها وقد أضحت أكثر وظيفية لدى دراسيها، وأقلّ كلفة لدى مقتنيها وأسهل ترحالاً من بلد إلى بلد، وأيسر استعمالاً لدى المتعلمين. ومن المفارقة - كما سنشير إلى ذلك بعد حين - أنّ ما كان يبدو في المنطلق ضرباً من تشتت المدونة وتفتيتها وضياعها وقد عظم حجمها فثقل ثقلًا زائداً، قد انقلب وأصبح، بخلاف ما هو متظر، الوسيلة التي ساعدت على بقائها وتواصلها، وإن كان ذلك البقاء قد انحسر، ولم يشمل إلا الكفاف دون شك، ولكنه جزء توفّر فيه من المقادير المتعادلة ما يمكنه من أن يصبح الهيكل أو السدى واللحمة بالنسبة إلى عدد لا متناه من مجاميع الأدب التي تكاد تجمع بين دفتيها كل الأشكال التعبيرية التي تبرز فيها حساسية العرب ومسالك تفكيرهم، وتمثّل الطابع الذي ميّز آدابهم⁽²⁾. غير أنّه علينا، قبل أن نختم هذه الفقرة، أن نتوقّف لحظة عند هذا المفهوم، مفهوم حضور الشعر في كل مجال من مجالات الفضاء الثقافي العربي الذي أشرنا إليه بإيجاز في بداية تحليلنا. ونكتفي بأن نقول: إذا كان ميل العرب الطبيعي لقول الشعر، وهو ما جعل ابن قتيبة يقول ما مؤداه أنّ الشعر لدى العرب، «هو الشيء الوحيد في

(1) نعلم أنّ آلاف الكتب التي كانت متداولة في المدن الإسلامية الكبرى في القرنين الثالث والرابع هجري/ 9 - 10م، لم تصمد أمام ضربات الزمن فضاعت.

(2) إلى جانب كتاب الأغاني وسلسلة كتب الطبقات والحماسة وأصول القرنين الثالث والرابع عموماً، ينبغي أن نذكر سلسلة كتب الأدب الطويلة المتجددة على الدوام، وهي مجموعات ثرية متنوعة يغلب عليها طابع الاختيار ويندرجُ في ثناياها أهم ما تبقى من مدونة العصر (انظر قائمة المصادر التي عدنا إليها في تخريج المدونة، وقد أثبتناها في الملحق).

العالم المشترك حقاً بينهم»⁽¹⁾ على حدّ عبارة ديكرارت في غير هذا السياق، إذا كان هذا الميل - كما قلنا - قد تولّدت عنه مدوّنّة شهدت من طوارق الزمن ما قد سبق أن ذكرنا، فإنه لا بدّ أن نذكر أنّ هذا الميل نفسه (الذي نعتبره من أهمّ السمات التي طبعت الخصوصية الثقافية العربية) قد ساعد بفضل هذا الفيض من الدواوين الشعرية على ترسيخ قواعد الثقافة وعلى تأكيد هوية كانت مهذّدة بالانفجار والتلاشي أمام نزعة فارسيّة زاحفة⁽²⁾. فنحن نعلم أن الشعر في هذا العصر الذي يعتبر منعرجاً في الثقافة العربية، قد فرض حضوره باعتباره «ديوان العرب الجديد» الناطق بلغتهم الباقية، هذه اللغة التي وقف على أسرارها الحضري المتحرر من الشعراء أنصار الجديد كأبي نواس (ت 193هـ) أو البدوي المحافظ من أنصار القديم كابن ثومة (ت. حوالى 220هـ)⁽³⁾ على السواء، والتي أصبحت في ملفوظها الشعري الأداة المثلى التي استبدّت بالتعبير عن أخصّ خصوصيات الهوية العربيّة دون غيرها من الخصوصيات العرقية أو الإيديولوجية، فاضطلعت بدور المعدّل المتميّز في المعارك الثقافية التي شهدتها ذلك العصر؛ ولم يخطئ الجاحظ، وكان شاهداً واضح الرؤية على عصره، حين تحدث عن الشعر العربي فاحتجّ بأن خصوصيته وألويته إنّما تعود إلى تقدّم اللفظ (أو الدالّ) على المعنى (أو المدلول)⁽⁴⁾، ومن ثمّ كان ما نلاحظه من عدم

-
- (1) انظر: الشعر والشعراء، ج 1 ص 6؛ ونشير إلى أنّ الشعراء الحرفيين كالخبز أرزي (المدونة ج 2 ص ص 355 - 404) أو الخباز البلدي (ت 380هـ/990م) وقد ذكر الثعالبي أنّهما كانا أمينين، يمثلون بجلاء، فيما يبدو دعماً لكلام ابن قتيبة.
- (2) نمتنع هنا عن استعمال لفظة «شعوبية»، لأنها لفظة كانت - فيما يبدو - علامة لخصوصية طبقية أكثر مما كانت تعبّر عن خصوصية أيديولوجية (انظر: لوكونت: ابن قتيبة... ص 346، ذكره ابن الشيخ في: الشعرية العربية... ص 48).
- (3) انظر ما جمعناه من شعره في الجزء الأول ص 165 - 192.
- (4) نشير إلى أنّ أولوية اللفظ الدال في الشعر التي نذكرها في سياق حديثنا عن الجاحظ تذكّرنا بتحليل زمتور (ZUMTHOR) المفيدة، وقد كتب عند دراسته لشعر القرون الوسطى في الغرب المسيحي زمن الشعراء المتجولين، كلاماً قريباً من كلام أدينا البغدادي، فقال: «إنّ الخطاب الشعري يحدّده تركيبه اللفظي والإيقاعي أكثر مما تحدّده مادّته الفكرية أو العاطفية (دراسة في شعر القرون الوسطى ص 109)، ونلاحظ نفس =

تعرضه - في حديثه - إلى الاعتبارات الإيديولوجية. ومن هذا المنطلق، فإننا نرى أنّ بعض الأحكام التي أبداها القدماء بشأن بعض شعراء ذلك العصر، فاتهموهم بالشعبوية (نذكر منهم: بشاراً وأبانواس، وغيرهما ممّن كانوا أقلّ شهرة منهما مثل علي بن خليل ومخلد بن بكار... وقد ذكرناهم في مدوّنتنا)⁽¹⁾ أحكام ينبغي أن يعاد فيها النظر. فنحن نعلم أنّ هؤلاء الشعراء قد كانوا، من حيث أنّهم استطاعوا حذق اللغة الشعرية وتقنياتها، أحسن من مثلوا، إن لم يكونوا أحسن من دافعوا عن العروبة، وإن أبدوا في بعض قصائدهم (والغالب أنّهم مدفوعون في ذلك بدوافع الصنعة الشعرية أكثر مما كان ذلك عن اقتناع لديهم) مشاعر معادية للعرب.

كل هذا يبيّن - مرّة أخرى - طبيعة المشاكل المعقدة المتداخلة التي تثيرها المدونة.

ج - الشعر وضُغُوطُ الحركيّة الداخليّة للخطاب الشعري :

«الأدب [ونقول نحن الشعر] ضرب من التوسع في اللغة وفي تطبيق بعض خصائصها أو لا يكون».

فاليري - ألوان، ج 5 ص 289

يبدو أنّ مجموعة من الضغوط الشكلية الخاصّة بِشِعْرِ - شعر العرب - انبثق في فضاء ثقافي ذي سنة شفوية عميقة، ومنها ضغوط متصلة بطبيعة العناصر المكونة للخطاب الشعري نفسها، قد كانت - في جزء كبير منها - السبب الأصلي للتفكك الذي سهّل بدوره تشتّت جانب كبير من مدونة المغمورين وتفتّتها وضياع قسم كبير منها. وسنسعى في الصفحات التالية إلى تسليط بعض الأضواء

= الإشارات المتعلقة بضعف الوظيفة المرجعية لِلُّغَةِ التي سبق أن تحدث عنها جاكسون (JAKOBSON) فيّين أنّها من خصائص الشعر، وذلك في أعمال ريفاتير (RIFFATERRE) (دراسات في الأسلوبية البنيوية) وجون كوهين (COHEN) (بنية اللغة الشعرية).
(1) كتاب الحيوان، ج 3 ص 132 - 133.

على هذا الجانب من القضية، مع حصر الحديث في نطاق علاقة الشعر بالرواية وبالتنظيم الداخلي للخطاب.

قال ريمون كينو (Raymond Queneau): «لا أتصور شعراً قد نظم فقط ليكتب، أي شعراً لا يقرأ بصوت مجهور، أو بعبارة أخرى ليست له البتة خصائص سمعية، ولا إيقاع له مهما كان»⁽¹⁾ ولا يسعنا نحن إلا الإقرار بما يقوله هذا الشاعر الناقد، دون أن ننكر - فيما يتعلق بموضوعنا - أي قيمة رمزية لطريقة كتابة الشعر العربي على مصراعين وفي خطه المتميز، الخط العربي القابل لأفانين التشكيل والزخرفة - فالقاعدة في الإبلاغ الشعري تكمن في تلك الخصيصة السمعية قبل أي شيء، ويظل الشعر طريقة في التعبير شفوية أساساً، وقد أدرك فاليري (VALERY) ذلك، وهو الذي كتب «مقالاً عن إلقاء الشعر»، فقال إن «القصيدة تقوم على التجريد، وهي كتابة انتظار وتوقع وقانون لا يحيا إلا على فم البشر»⁽²⁾ ولا يشذ الشعر العربي عن هذه القاعدة، ومن البديهي أن لا نهمل هذا العامل الشفوي في دراسة مختلف عمليات جمع الآثار والمحافظة عليها، خاصة فيما يتعلق بالمدونة التي تعيننا هنا بوجه خاص.

فلسنا ننكر أن الإنتاج الشعري في ذلك العصر، وهو إنتاج قيل في الأصل لينشد⁽³⁾ (ومن ثم ليسير ويتنشر شفوياً) قد كان قبل عمليات جمعه الأولى التي

(1) ذكره فيليب منجاي (Minguet) تقديماً لبحثه: «أنواع الكتابة والأنظمة الأيديوخطية والممارسات التعبيرية» ص ١١٩ (أعمال الندوة الدولية التي عقدتها جامعة باريس، VII، 1980).

(2) فاليري - قطع مختارة - ط: ن - ر - ف - 1942، ص 182.

(3) نشير إلى أن فنّ الإنشاد وحذقه قد كان دوماً لدى العرب - ماضياً وحاضراً - مرتبطاً ببعض مظاهر التمثيل المسرحي. ولذلك لم يُغتفر للبحثري، وهو شاعر بارع، أن لم يكن في إنشاده الشعر ممثلاً بارعاً أيضاً (انظر ما جاء في «الأغاني» ج 11 ص ص 49 - 50، وقد نقلنا ذلك في مدوّنتنا ج 3 ص ص 377 - 379)، ونحن نعلم أن لفظتي «إنشاد» و «غناء» كثيراً ما تلتبس، وأن الصوت الحسن عند الإنشاد له من التأثير ما للصوت الحسن عند الغناء، والأمثلة كثيرة في كتاب الأغاني، نذكر منها مثال الراوية البيدق وقد قال عنه أبو الفرج: «كان إنشاد محمد الراوية يطرب كما يطرب الغناء» (الأغاني ج 13، ص 147) أو مثال المعكوك الشاعر (ت 213هـ/828م) الذي «كان أحسن خلق الله =

تمت بعد فترة إنتاجه، عرضة لأهواء الجمهور وآفات الصدف وطوارق الزمن. فالشعر العربي في هذا - والأمر لا يحتاج منا إلى تأكيد - يُمثّل أمام الباحث كالنموذج الأعلى: هو شعر نظم للإنشاد كما أشرنا إلى ذلك - ولا فرق لدينا - في هذا المستوى وبخلاف ما ذهب إليه بعد الدارسين - بين الشعر المرتجل والشعر المصنوع الناتج عن طول نظر وإجالة فكر⁽¹⁾، فاحتفظ من بنيته الأصلية بهذا المنزع إلى الشفوية الملابس له حتى كأنه جزء منه^(*)، وهو منزع تبدو فيه بقايا فترة كان الشعر والإنشاد فيها أمرين مرتبطين ارتباطاً وثيقاً⁽²⁾.

ونشير أيضاً إلى أن هذا النزوع إلى «الشفوية» الذي دَعَمه ميلٌ، ساد عصرًا كان متميِّزاً بمنزع حضري أساساً، إلى قول الشعر والتشجيع عليه واستعماله في كلِّ باب⁽³⁾، قد أضفى على هذا الشعر المتقل من سامع إلى آخر حركية ومرونة بلغتا درجة أصبح معها كلٌّ خلل يطرأ على الذاكرة عند رواية ذلك الشعر، سرعان ما تُسدُّ ثغراته بعفو الخاطر والبديهة⁽⁴⁾، ومن ثم ظهرت تلك الروايات المختلفة التي أصابت جانباً عظيماً من المدونة نتج عنها نسيج متداخل لا فكّ

= إنشاداً (مختار الأغاني ج 8 ص 424) أو مثال بشار وما لقيه مجلسه من شغف به ومن نجاح، وهو نجاح يعود إلى جودة شعر بشار كما يعود إلى صوته الحسن (وقد قال عنه ابن المعتز: «كان صاحب صوت حسن» الطبقات ص 21).

(1) بلاشير (تاريخ الأدب العربي ج 2 ص 376) وأكد ذلك الشاذلي بويحيى (الحياة الأدبية في أفريقية... ص ص 317 - 324) وقد ذهب جميعاً إلى تأكيد الفرق بينهما.

(2) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج 2، ص ص 357 - 358.

(3) نعلم أن تطوّر التحضر المدني في القرن الأول من الخلافة العباسية قد كان أصل هذه الكثرة الكثيرة من المجالس والمنتديات وحلقات المذاكرة التي عرفت المدن الإسلامية الكبرى، والتي نجد لها صدى عريضاً في كتاب الأغاني مثلاً، وقد تواصلت سنة هذه المجالس (الشعرية منها خصوصاً) إلى يومنا في العواصم العربية في شكل أمسيات شعرية ينظمها الشعراء الشبان عامة، وقد قدمنا شهادة شخصية عن القيروان حيث «ما يزال الشعر بضاعة يطلبها الناس بشغف»، وما زال جمهور الشعر فيها من الهواة والعارفين به غفيراً (انظر: المدونة ج 2 ص 361 هامش 5).

(4) لم تفت القدامى ملاحظة هذه الظاهرة ولم يفتهم وصفها (الجاحظ: الحيوان، ج 1 ص 41) وقد قدّم ابن طباطبا مثلاً جيداً على ذلك في عيار الشعر، ص 125.

* انظر المستدرك ص 148 (الهامش).

لعراه من القراءات المتنوعة للنص الشعري الواحد، قراءات لا يفضل بعضها بعضاً من حيث القيمة الأدبية، مردّها جميعاً إلى ظاهرة الانزياح والتعويض، والإبدال، وإكمال الخلل، وهي ظاهرة كما رأينا تختص بها الآثار التي ظلت زمناً - مهما يكن قصيراً - رهينة السيورة الشفوية وحدها، ولم يكن تدوينها بقادر على استعادة الرواية الأصلية.

غير أننا نبادر إلى القول إن عيوب الرواية - في هذا المستوى الذي نحن فيه - ومهما بدا ذلك غريباً - لم تكن في ذلك العصر تبدو للعارف بالشعر أو المتخصص فيه أو حتى السامع المقبل على الشعر بفعل الهواية، عائقاً قد يفسد ملامح المدونة العامة. فما كان ينتظره سامع القرون الوسطى من النص الشعري، كما يشير إلى ذلك بول زمثور (PAUL ZUMTHOR) (ونحن لا نفرق في هذا بين سامع من أكسيتانيا⁽¹⁾ وسامع من بغداد) إنما هو إيقاع نغمي يقرع السمع أكثر ممّا هو خطاب يتلقاه الذهن⁽²⁾. وبذلك، فمهما كانت وجوه التغيير اللفظي المتنوعة التي تطرأ على النص عند تلقّيه أو إنشاده أو روايته، وما لم يُدخِل ذلك تشويشاً على بنيته العامة، فإنّ مقاطع الاستماع (أو البنية الإيقاعية) تظلّ سليمة بفضل ما تسمح به اللغة من «بدائل» اشتقاقية، وما فيها من طاقات بلاغية جبارة تعتمد نظاماً صرفياً وعروضياً مرناً ممّا يجعل هذه اللغة أداة تحويل وإبدال طيبة لدى المتلقّي أو المنشد أو الراوية من المتأدّبين وما أكثرهم في الفضاء الثقافي العربي! ولكن علينا ألاّ نُخطئ الصواب هنا أيضاً. فنحن نعلم أنّ هذا الوضع قد أثر تأثيراً مباشراً في عملية تدوين المدونة، فجعلها متعددة الأشكال بل فوضوية أحياناً، وتلك سمة الآثار التي نقلت نقلاً ملائماً لأهواء الروايات الشفوية أو نسخت نسخاً لا ضابط له حتى غدت تبدو للنّاظر فيها أول

(1) من منشؤه «أكسيتانيا» إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية وقد عرفت في العصر الوسيط بشعرائها الجوالين TROUBADOURS المتأثرين بالموشحات والأزجال الأندلسية، والباحث الجامعي ZUMTHOR ممن درسوا جانباً من شعر هؤلاء في دراسته المذكورة أعلاه.

(2) انظر دراسة في شعرية القرون الوسطى، ص 140.

وهلة، آثاراً نكاد لا نجد في أسانيدنا ما يردنا إلى رواية أصلية تأسيسية قارة.

الشعر والتنظيم الداخلي للخطاب:

قد أفضى بنا البحث في بعض التمهيدات والمقدمات التي وضعناها للمدونة⁽¹⁾ إلى فتح باب للنقاش يتعلّق بنظام مختلف العناصر المكوّنة لنسيج النص الشعري على المستوى البلاغي، في علاقتها بما بدا لنا ملائماً للفضاء الرمزي الذي تنتقل فيه رؤى الشعراء الذين نهتم بهم. وقد قصدنا أيضاً، من خلال أمثلة دقيقة، أن نبرز المقتضيات الشكلية الصرف التي حددت - في جزء كبير منها - مصير المدونة. ونسعى هنا أن نعود بالحديث إلى أهم النقاط التي أثرناها، ولكن بطريقة تأليفية.

ونشير في البداية - وهذه سمة ميّزت ذلك العصر - إلى أن معظم الشعراء المغمورين في القرن الأول من الخلافة العباسية ومن سار على نهجهم من الجيل اللاحق، قد عملوا - في جانب كبير من آثارهم - على استعمال لغة شعرية سهلة لا أثر فيها عموماً لغريب اللفظ ونادر التراكيب وحوشي الصور، دون أن يقعوا في الشعبية ولا الإسفاف⁽²⁾ فينقطعوا - بذلك - عن نهج الأقدمين، كما ألحّ على ذلك شوقي ضيف⁽³⁾، غير أننا لا نذهب إلى ما أشار إليه الشاذلي بويحيى⁽⁴⁾ من أنّ هذا الميل إلى تخطي السنة الكلاسيكية ذات الطابع الثقافي بالأساس، من خلال أغراض تستلهم الواقع اليومي فتستعمل فنون القول المتحرّرة، قد كان السبب الأصلي في بعض التهميش الذي عرفته مدونتنا. فهذا الميل إلى جعل

(1) انظر الدّراسات التي خصصنا بها خالد الكاتب وريعة الرقي خاصة، ج 2 ص ص 47 - 102 ثم ص ص 274 - 283.

(2) حاولنا في المقدمة التي خصصناها لشاعر من أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. وهو الخبز أرزي أن نبين من خلال أمثلة دقيقة بطلان بعض الأطروحات التي تقول بـ «الشعبية» في الشعر (المدونة ج 2 ص ص 360 - 362).

(3) انظر، كتابه «الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور» وتعالقنا على هذا الكتاب في الجزء الأول ص 31 - 32 والجزء الثاني: ص 455 - 463.

(4) الحياة الأدبية في أفريقية زمن بني زيري، ص ص 309 - 310.

الخطاب الشعري مألوفاً، سهلاً، يعود إلى متزج عام فشا في ذلك العصر ولم يسلم منه حتى الشعراء الكبار أنفسهم (أبو نواس، أبو العتاهية، ثم ابن الرومي بعد ذلك). ويكفي أن نتصفح دواوينهم لنقتنع بهذا الذي نقول، ونذكر أنهم قد كانوا في ذلك نماذج متبعة.

* * *

يبدو إذن أنه علينا أن نوجه بحثنا في معالجة القضايا المتعلقة بالخطاب الشعري وحركيته الداخلية إلى مستوى اللغة وما فيها من طاقات على الأداء لا تنضب، وهي مجال التقاء الشعراء على اختلاف طبقاتهم (بما فيهم المشاهير ورواتهم⁽¹⁾)، حتى ندرك كيف استغل هؤلاء وأولئك تلك الطاقات التي قلَّ أن نجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى فكان استغلالهم لها السبب الأصلي - إلى حد ما - في ما أصاب المدونة من انخرام. ولكننا نلج على التذكير بأننا إذا ما شمل تحليلنا كلَّ الشعراء دون تمييز بين طبقاتهم، فلأننا نعتبر أن عمل الرواة في المدونة - مهما كان صنفهم ومهما كانت دوافعهم - قد كان شاملاً لها جميعاً، وأن الناسخين والقراء والجامعين وأصحاب المنتخب سواء أكانوا متبحرين في العلم أم صناع مهرة قادرين على التلاعب بالنصوص تلاعباً حاذقاً، أو كانوا أدباء من ذوي المواهب، فإنهم قد توصلوا، من خلال ما مارسوه من تغيير أو تعويض أو إبدال أو انتحال أو تعديل أو حتى من محض تحويل للنصوص، إلى تشويش ملامح المدونة بلا رجعة، ونزداد يقيناً من هذا إذا ما رأينا أن دواوين بعض الشعراء الأعلام قد يتضاعف حجمها عند جمعها بنسبة واحد إلى ثلاثة⁽²⁾، بينما يتضاعف حجم ديوان شاعر مقل عند جمعه حتى

(1) نعني هنا «الرواية» في معناها الواسع، كما سنرى ذلك لاحقاً، أي تلك السلسلة من الوسائط بين الشعراء وقرائهم (بمن فيهم بعض القراء هواة الشعر الذين قد لا يكتفون بقراءة الآثار، بل يعمدون إلى تعديل نصوصها المخطوطة من حيث لا يشعرون، بما تلهمهم من بدائل تتعلق بالكلم والصيغ).

(2) ذلك هو شأن ديوان أبي نواس، تمثيلاً لا حصراً، وقد شهد تحقيقات عدّة (انظر أعلاه، ص 96)، وانظر أيضاً في هذا ما يذكره أبو الفرج عن أبي نواس الذي كان يغير على شعر غيره ويتحلله (المدونة، ج 5 ص 79 - 80 ثم ص 82).

يغدو إلى الحد الأدنى أو الكفاف أقرب⁽¹⁾.

ونحيل، في كل هذه الملاحظات التي نبديها بشأن الطاقات على الأداء الكامنة في اللغة وتصريفها في مستوى الخطاب الشعري، على الدراسة التي خصصناها لخالد الكاتب (ت حوالي 260هـ/868م) بوجه خاص، وإن كانت منقوصة. فالأمر عندنا أن نلاحظ، من خلال نموذج مخصوص يمكن سحبه على غيره، أن مستويات الخطاب الثلاثة:

● المستوى العروضي: (ونعني وجوه التلاعب التي لا حصر لها للأبنية الصوتية الدلالية التي تتيحها القافية الموحدة والبحر الثابت والتجنيس على اختلاف وجوهه وما يتولد عن ذلك من أشكال متنوعة للصور الصوتية يأتيها الشاعر الحاذق عفواً من غير كد واستكراه وهي صور يأتلف فيها الحضور الفيزيائي للصوت المردد أبداً بصداه⁽²⁾ بما يستشف من مستر المعاني المستثارة⁽³⁾ ويلتحم هذا بذاك التحاماً يتضح معه الحجم التعبيري للأثر⁽⁴⁾).

(1) الأمثلة عديدة من بين الشعراء الذين ذكرناهم في مدونتنا.

(2) انظر: باشلار (BACHELARD): «الماء والأحلام»، باريس 1942 ص 259 حيث يتحدث الفيلسوف الشاعر عن الموسيقى عموماً وكيف أنها تجد اقتضاءها في الأصدا.

(3) انظر: فاليري: قطع مختارة، ص 184.

(4) تحسن الإشارة - في سياق ما قد تجرى مستقبلاً من بحوث تتعلق بمعالجة الشعر العربي معالجة صوتية (ومن ثم سمعية) وهي بحوث لا نشك في أنها ستلقي أضواء جديده على بعض جوانب الإشكالية التي تثيرها الإحنا المنجرة عن النقل الشفوي خاصة - تحسن الإشارة إلى الفائدة الكبرى التي نجنيها من الأعمال التي درست الجوانب النفسية الصوتية في العروض، ورمزية الأصوات (انظر خاصة بحث إيفان فوناجي IVAN FONAGY): «الصوت الحي»، بايو (ED. PAYOT) 1983 ص ص 57 - 106) أما دراسة الإيقاع، فيمكن فيها استلهاً التحليلات المفيدة التي قدمها: ب. كروشي (B. CROCE): «الشعر...» (المطابع الجامعية الفرنسية 1951 ص ص 176 - 177 ثم ص ص 240 - 242) ورومان جاكسون (JAKOBSON): «الهيكل الصوتي للغة»، كتبه بالإشتراك مع فونغ، باريس 1980 (ص ص 217 - 282) وهنري ميشونيك (MESCHONNIC): «نقد الإيقاع» باريس 1982 (ص ص 70 - 74) و«من أجل الشعرية» ج 3، ص ص 328 - 333، وجمال الدين بن الشيخ: «الشعرية العربية» الفصول 8 - 9 - 10.

● المستوى الصرفي: (ونعني ما تتيحه أفانين التصرف في المادة اللغوية وأبنيتها من هندسة توليدية تساعد عليها إمكانات نظام الاشتقاق، ممّا ينشأ عنه نسيج نصي مطبوع بنظام مرآوي تتقابل فيه العناصر تقابلاً انعكاسياً ويكون فيه الازدواج - الذي قلّمَا يكون تكراراً محضاً - بدوره مولداً للمعنى فيضيف إلى حجم النصّ التعبيري ما أضافه المستوى العروضي).

● المستوى النحوي: (ونعني تواتر عدد من البنى الكفيلة بمفعولها النحوي وحده بأن توحى بلهجة أو طابع أو بأن تسم الخطاب وتوجهه وجهة ما)⁽¹⁾.

فالأمر عندنا أن نلاحظ، كما قلنا، أنّ هذه المستويات الثلاثة تتقاطع لتساهم بدورها في إنشاء إمكانات لا حدّ لها من التقابل، والتناظر، والقلب، والتقديم أو التأخير، والمراوحة، والتناسب⁽²⁾، وهي جميعاً عوامل تسهم، بما ينتج من تكرارها والجمع بينها، في تأسيس خطاب تكون كلّ عناصره، سواء أكانت تنتمي إلى البنية العميقة (الثوابت التي تحيل على الموروث) أم كانت تنتمي إلى البنية الثانوية (إضافات الشاعر الصانع)، متضافرة لتخلق بين النصّ ومستعمله ضرباً من التواصل⁽³⁾ تصعب مراقبته، وتكون فيه كلّ أشكال الإغراء

(1) نشير، فيما يتعلّق بخالد الكاتب بالذات، إلى أنّنا لاحظنا تواتراً غالباً للتراكيب الإنشائية التي تضفي على الخطاب طابعاً غنائياً محضاً ومنها النداء والأمر والنهي والاستفهام والتمني والقسم والتعجب... (ونذكر هنا، تمثيلاً، بما قاله فاليري (Valéry) في تعريف «الغنائية إنما هي ضرب من التعجب والتبسّط فيه» انظر: قطع مختارة، ص 171.

(2) يصوّر شعر خالد الكاتب الذي تقدّم منه نماذج كثيرة في الجزء الثاني من المدوّنة الامتزاج التقاطعيّ للمستويات الثلاثة في الخطاب (انظر خاصة القطع: رقم 65، 97، 110، 119، 137، 182 وانظر أيضاً قصيدة ربعة الرقي الحائية الطويلة، المدوّنة ج 2 ص ص 288 - 289.

(3) نشير هنا إلى أنّ هذه الظاهرة نفسها - ظاهرة التواصل - نجدها قائمة في النصّ ذاته بين البنى العميقة (محور اللازميّة) والبنى الثانوية (محور الزمنية)، فإذا بهما متلاحمان مختلطان في ضرب من انعدام الزمن، كما يقول بلانشو (BLANCHOT) الكتاب الآتي «Le livre à venir» ص 290 أو من «انسحاق المعطيات» كما يقول زمتور (ZUMTHOR) نقلاً عن فرايب (FRAPPIER) (دراسة في شعرية القرون الوسطى ص 34) وقد أدّى بنا ذلك، كما قلنا في التمهيد، إلى الاحتراز - في دراسة الشعر العربي من الأخذ بالتقسيم =

وكلّ أنواع التواطؤ، وفي عبارة واحدة كلّ أشكال التعسف والسطو، سائغة: فيختلف ذلك من التعديل البسيط الذي يمس القطب المعجمي أو القطب الصرفي - النحوي - التركيبي، إلى التغيير الذي يمس بنية الخطاب نفسها فيعاد ترتيب المقاطع أو يختصر حجم النص، أو تنقل عناصر النص على أساس استبدال بعضها ببعض، أو يتمّ إصلاح بعض أجزائه⁽¹⁾ ممّا قد يفضي أحياناً إلى صياغة جديدة، ويكفي أن ننظر في التعليقات والهوامش المصاحبة لمدوّنتنا حتّى نتبيّن وفرة البدائل والروايات المختلفة التي تعود بطبيعة الحال إلى الوسائط من رواة ونسخة وجامعين وقراء...، وإن كانت قد ساعدت عليها إن لم نقل حددتها جوهرياً - على ما نعتقد - تلك الحركة الداخلية الخاصة بالخطاب الشعري العربي كما بيّنا ذلك منذ حين⁽²⁾.

= الصارم بين الآني والزمني، إذ أنّ الباحث المهتمّ بهذا الشعر على اختلاف مناحيه يجد نفسه دوماً مدعوّاً إلى النظر فيه من الوجهتين معاً، كما يجد نفسه مدعوّاً إلى دراسة الخطاب في تواصله غير المنقطع منذ أن وجد ذلك الخطاب (انظر دراستنا للقصيدة البيتمية، ج 2 ص ص 13 - 42) ونونية أبي الشيص التي تمثل في رأينا هذا التواصل أو دمج الماضي في الحاضر أحسن تمثيل (المدوّنة ج 1، ص ص 211 - 215) وانظر حديثنا في هذه القضية، وقد مرّ ص ص 55 - 59.

(1) يقول خلف الأحمر: «كان الرواة يصلحون شعر القدماء»، انظر المرزباني: «نور القبس...» ص 73.

(2) نجد أمثلة كثيرة لتشكل النصّ الواحد في صيغ متعددة في قصائد عديدة من شعر: - خالد الكاتب (انظر القطع رقم: 8، 26، 28، 66، 92، المدوّنة ج 2 ص ص 112 - 149).

- أبي فرعون الساسي (انظر المدوّنة ج 3 ص ص 81 - 82).
- ماني الموسوس (انظر القطعتين رقم 27 و 28، المدونة، ج 2 ص ص 247 - 248).

- ابن الدمينه في طبعة ديوانه الممتازة التي أعدها راتب النفاخ (انظر اختلاف الروايات التي يثبتها المحقق في الملحق، بالنسبة إلى القصائد رقم 4 و 12 و 49، والغزلية رقم 50 وقد ذكرنا نصّها كاملاً في مدوّنتنا ج 2 ص ص 431 - 440).

- البهذلي (انظر روايتي أرجوزته، ج 1 ص ص 156 - 157).
- أبي الشيص: ج 1، ص 205 (البيت 5) ص 202 (البيت 34).

كل هذا يحملنا - في خاتمة هذا التحليل المسهب - على التسليم بأن النص الشعري، (القصيدة) - إذا ما استعرنا كلام موريس بلانشو (MAURICE BLANCHOT) وهو يدرس نظرية الأدب - إنما هو، من حيث ترتيب عناصره ترتيباً مخصوصاً، ضرب من «الكلام التائه»⁽¹⁾، فهو خطاب مطروح أمام الناس، قابل للتشكل ما شاؤوا له ذلك (على شرط أن تعالجه أيد مهرة)، فكأنه قد عدم مركز دائرته فهو لا يبتدىء ولا ينتهي، وكلّ وحدة فيه (وهي البيت عموماً) تحمل في ذاتها بدايتها ونهايتها؛ فالنصّ الشعري مؤسس على الصدى والتوازي كما أشرنا إلى ذلك، وهو يعتمد سنناً لغوياً يسوده التجنيس⁽²⁾، ويكون فيه الشكل متأثراً بشكله ومكثفاً في صياغته به⁽³⁾، وتكون فيه اللغة موافقة لمعدن اللغة خاضعة لنسقها قبل أن تكون ملائمة لمقتضيات الخطاب، لكانه في نحته وسبكه مجرد تلاعب باللفظ من صنف ما تتيحه المرايا المتجاورة من تلاعب لا نهاية له بالمنظورات، فلا يحدث في النصّ بذلك البتة شيء لم نتوقعه⁽⁴⁾ بل يُستشَفّ في ثناياه ما استتر من مساحات دلالية كامنة هي ضرب من «أفق انتظار»⁽⁵⁾ ينفصح بين النصّ (وإن تخلّلت ثغرات) وقرآته المتواطئين (وبوجه خاص أصحاب الاختيار والجمع منهم)⁽⁶⁾، ونقصد بذلك مجالاً تلتقي فيه المعاني المصاحبة يُمكنُ فيه كلّ عنصر من العناصر المكونة لشكل الخطاب من التعرف - عن طريق العدوى - على العناصر الأخرى القريبة أو البعيدة، الحاضرة أو الغائبة، أي إنّ كلّ عنصر يكون قادراً على إحياء ذكرى شيء قائم بعد في النفس، فيطفو من جديد على صفحة الذاكرة حسب ما تجريه الطبيعة والخاطر

(1) انظر: «Le livre à venir» ص 308.

(2) انظر: جاكسون: دراسات في اللسانيات العامة.

(3) فون قروبنوم: تقارب السنن الثقافية في البحر المتوسط، مجلة: ديوجين، عدد 71، 1970، ص 9.

(4) انظر: بول زمتور (P. ZUMTHOR)، المرجع المذكور، ص 34.

(5) نستعير هذه العبارة من: H.R. JAUSS، وقد ذكره زمتور ZUMTHOR في مرجعه السابق، ص 35.

(6) انظر الجزء الثاني ص 65 - 66.

مما يسمح بسدّ خلل مآتاه النسيان عند المذاكرة والإنشاد، أو تدارك خلل في رواية ضعيفة عند النسخ⁽¹⁾ أو لمجرد الاستجابة لرغبة المتأدّبين من القراء في المساهمة في إنشاء النصّ بتعويض مجموعات من الألفاظ أو أشكال إيقاعية تركيبيّة بأخرى مبتدعة ابتداءً⁽²⁾.

وهكذا نتبيّن، من خلال كل ما سبق، أنّ الخطاب الشعري في ذلك العصر قد كان حاملاً في ذاته، من حيث وفرته ومن حيث الضغوط المسلطة على حركيته الداخلية بذور تشبته وتبعثره.

* * *

مستدرك التعليق ص 140 (الهامش *)

هذا المنزع إلى «الشفويّة» لم يبقَ الشعرُ الحديث (والحرّ منه على الخصوص) بمعزل عنه، وخذ مثلاً حيّاً لذلك محمود درويش: فأنت تقرأ في بعض خلواتك قصيدة «شتاء ريتاً الطويل» بعد أن استمعتَ إليها يُلقِيها الشاعر بإحدى كبريات قاعات مدينة باريس (فيفري 1993)⁽³⁾ فتأخذك الدهشة لما تلمسه من مبالغة تكاد تكون القطيعة بين قراءتك الصامتة ولا «انتظار» ولا «توقّع» كما يقول فاليري (Valéry) وإنشاد الشاعر ما يُضفيهِ الجمرُ الحيّ على الأثر من تدقّق يتضخّم معه الحجمُ التعبيريّ ممّا يتهاوَى بك في أبعد أغوار الخلق الشعريّ.

(1) نجد مثلاً يوضح بجلاء هذه الظاهرة في ما كتبه محقق ديوان خالد الكاتب في إحدى صفحات مخطوطة الظاهرة، إذ لم يتورّع في التصريح بأنّه أضاف - من إنشائه - بعض الأبيات الناقصة في بعض القطع (انظر التفاصيل في مدوّنتنا، ج 2 ص 56، الهامش 3).

(2) أثبتنا في ملحق ديوان خالد الكاتب (وهو عمل معدّ للنشر) جملة من المقطعات في روايات مختلفة، تبين هذه الظاهرة بوضوح. ولقد أدرجنا بعد في مدوّنتنا هذه بعض هذه المقطعات التي تبين من خلال البدائل واختلاف الروايات التي قدمناها لكلّ منها، إمكانيات هذا الاستبدال (انظر الجزء الثاني خاصة القطع رقم 26، 28، 66، 92... ص 112 - 149).

(3) نُشرت هذه القصيدة بجريدة «الصباح» التونسية (23 فيفري 1993) وهي تعدّ 187 مقطعاً، وطالها: «ريتا تُرْتَبُ لَيْلَ غُرْفَتِنَا: قَلِيلٌ...» وقلّلتها: «وَمَضَتْ إِلَى الْمَجْهُولِ حَافِيَةً، وَأَذْرَكَنِي الرَّحِيلُ».

الفصل السابع

مدونة الشعراء المقلّين وحدودها
العوامل العامّة التي أدت إلى بعثتها وضياعها

— 3 —

العامل التأليفي

أو

توجه الفضاء الأدبي إلى مسالك الاختيار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنطلقات التمهيدية

يقوم النظر في الكمية الضخمة من كتب الأدب المطبوعة أو المخطوطة - وهي مصادر بحثنا الأساسية في المدونة⁽¹⁾ - شاهداً على التوجه الأساسي إلى المختارات في الأدب العربي⁽²⁾. فاستعمال الشاهد استعمالاً يكاد يكون قاراً، مهما كان شكل ذلك الشاهد (من الجملة الموجزة إلى الفقرة الطويلة) ومهما كان نمط الخطاب الذي ينتمي إليه (القرآن، الحديث، المثل السائر، الأخبار، الشعر) يمثل بعداً من الأبعاد الأساسية في الفضاء الأدبي. فالشعر ونخصّ بالذكر مدوّنتنا يحتل منزلة فضلى في هذا الفضاء ويبدو - وقد انضافت إليه سائر الشروح والأخبار والنوادر المعقودة به - أحد الأهداف الأساسية من نشاط أصحاب الجمع والاختيار. ونتبين بجلاء من خلال تصفّح حوالي عشرة قرون من تاريخ آثار العرب المدوّنة - والأدب على اختلاف مسالكه يستأثر بأحد أقسامها الكبرى - أنه ما من مجال من مجالات الكتابة التي تدور على مواضيع تتصل من بعيد أو قريب بهذا الأدب إلّا استعمل الشاهد الشعري خلفية للخطاب⁽³⁾. وسنسعى في الصفحات التالية إلى تبين كيف مثل هذا التوجه

(1) انظر في الملحق (الجزء السادس من المدونة) القائمة الكاملة للمصادر المعتمدة.

(2) دون أن ننحصر في نظرية قرونباوم (GRUNEBAUM) الانتقائية ذات الجذور الإيديولوجية، يمكن الحديث هنا عن ما يسميه المستشرق بحق «بامتلاك العرب من خلال المختارات لناصية التعبير الأدبي»: مجلة ديوجين (DIOGENE) عدد 71، 1971، ص 10.

(3) فحتى كتب التاريخ (مثل مروج الذهب للمسعودي) وكتب الجغرافيا (مثل معجم البلدان لياقوت) وكتب طبقات الأطباء والعلماء (مثل طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة أو مثل طبقات علماء القيروان للمالكي) قد خصصت مكاناً على درجة من الأهمية للشعر =

- وهو السمة المميّزة لهذا الأدب - عنصراً من العناصر المحددة التي كانت أصل تشتت المدونة. وستعرض في تحليلنا - ملاءمة لمقتضيات الحديث - إلى مجموعتين من العوامل التي تبدو لنا قد لعبت دوراً حاسماً في هذا التوجه: أما الأولى فهي داخلية، مردّها إلى طبيعة المدونة نفسها، وأما الأخرى فخارجية، تتصل بالسياق الثقافي لعصرها. ولكن في الحالتين وكما يدلّ على ذلك عنوان هذا الفصل التأليفي فإنّ ترتيب هذه العوامل على اختلافها ترتيباً متوازياً، لن يكتسي أي طابع تمييزي صرف، إذ أن التفاعل الذي يجمع مختلف عناصر الفضاء الأدبي لذلك العصر سيلعب دوراً مستمراً وعلى الأصعدة جميعاً.

العوامل الداخلية

أ - الشعر وضغوط أشكال التعبير:

تنضاف إلى الضغوط التي يفرضها مدى المدونة واتساعها المتزايدان - وهو مدى يزداد اتساعاً بما يخضع له التنظيم الداخلي للخطاب الشعري من ضروب التوافق والتأليفات كما بيّنا، تنضاف ضغوط أخرى شكلية محض يفرضها إطار تعبيرى وحيد، هو القصيدة في شكلها الشمولي كما تحدّد مع القدماء، وقد تبيّن أن هذا القيد الأخير - قيد الإطار الموحد - قد كان حافزاً حاسماً في تفتيت المدونة⁽¹⁾، فتعدّد الأغراض في القصيدة الواحدة، وهو تعدّد

= (انظر، بالنسبة إلى الكتابين الأولين، المدونة ج 3 وج 5 خاصة، وفيهما يُذكران باعتبارهما مصدرين أساسيين، أما بالنسبة إلى الكتابين الآخرين، فانظر الصفحات المخصصة في الأول منهما ص ص 614 - 627 للباهلي الأندلسي، وفي ثانيهما ما خُصّ به ص ص 404 - 406 يحيى بن عمر). مع الملاحظة أنّ سَنَة الجمع والانتقاء ستتواصل حتى القرن الحادي عشر الهجري مع البغدادي صاحب الخزائن، والخفاجي، وشاب آشوب. (1) من المفارقات أن طول قصائد ابن الرومي قد ساعد كثيراً - على ما يبدو - على حفظ ديوانه الضخم من التشتت، وقد تخطى أصحاب الاختيارات والنقاد، هذه القصائد، وقد يكون ما رغبهم عنها طولها (التي تتجاوز أحياناً 300 بيت) فأعرضوا عنها نسبياً؛ وقد ظلّ ديوان الشاعر نسبياً منسياً طوال ما يزيد عن ألف سنة وهو من جملة آثار القرن الثالث الشعرية، آخر ديوان طبع كاملاً (1973 - 1979) ويحسن التذكير في هذا السياق بأن =

كثيراً ما يتمثل في مجرّد تراكم تنضاف فيه المقاطع بعضها إلى بعض مستقلة أو تكاد، قد سهّل عمل أصحاب المختارات وغيرهم من المصنفين والجامعين الذين كانوا لا يخشون القطع والبت والثلم في تخريج ما ينتقون من العيون، شفيعهم في ذلك أنهم بما يفعلون لا يدخلون ضيماً على الآثار تلك التي قاعدتها القصيدة وصفتها كما ذكرنا⁽¹⁾.

والحق أنّ انفجار إطار القصيدة التقليدي الذي انهار لثقله واتساع أركانه فترك المجال للمقطعة القصيرة الخفيفة قد تمّ بعد قبل أن يبدأ عمل القطع والتشذيب الذي تولاه أصحاب الاختيار، وذلك بالنسبة إلى جانب كبير من الإنتاج الشعري الذي أنجز في ذلك العصر وخاصة ما كان منه بعيداً عن الدوران في فلك السلطان، وقدمنا منه نماذج كثيرة في أجزاء مدوّنتنا الخمسة. فشبكة التوافيق والتأليفات التي تشدّ أغراض الشعر بعضها إلى بعض والتي يجريها الخطاب الشعري التقليدي⁽²⁾ قد غدت عاجزة عن أن تتقبّل في نسيجها الذي ضبط ضبطاً نهائياً، تلك الإبداعات والطرائف التي لا يحصرها العدّ ممّا أفرزته في المدن الكبرى حياة أدبية تعدّدت أشكالها وتعقّدت، فأضحت زعزعة الأطر والأنواع أمراً حتمياً، ومن ثمّ اتسعت سجلات القول⁽³⁾ وأشكال الإيقاع⁽⁴⁾، وصار ذلك الطابع المميّز لهذا العصر.

= الجرجاني في وساطته قد اتخذ نموذجاً لعيار الشعر والشعراء أبا نواس وأبا تمام والبحري، فذكر الأوّل 97 مرة، والثاني 273 مرّة والثالث 102 مرّة ولكنه أعرض عن ابن الرومي وتجاهله ولم يذكره إلّا زهاء 12 مرّة أي أقلّ ممّا ذكر شاعرين مغمورين هما أشجع السلمي والعكوك. ولعلّ هذا النسيان ممّا ساعد على الحفاظ على ديوانه.

(1) يقوم دليلاً على هذه الظاهرة ما تبقى من ديوان أبي الشيص الذي تقدّم منه نماذج في الجزء الأوّل من المدوّنة، (انظر خاصة التعليقات والحواشي المصاحبة للقصائد المثبتة فيه ص 193 - 218).

(2) انظر ابن طباطبا في: عيار الشعر (ص ص 12 - 14)، وانظر أيضاً: الحاتمي - حلية المحاضرة، بغداد، 1977 ص ص 27 - 29.

(3) انظر خاصة الأجزاء، 3 و 4 و 5 من المدوّنة.

(4) تفضيل البحور القصيرة أو المجزوءة والمشطورة والمنهوكة التي قلّما تجري عليها قصائد الجاهليين والإسلاميين.

ب - الشعر والنسق اللاشخصي في التعبير :

«إن ما نعرفه عن الشاعر الإغريقي هوميروس قليل، ولكن جمال «الأوديسة» المشبع برؤى البحر لا يضيره ذلك. وكذا شكسبير، بل لسنا نعرف إن كان اسمه هو فعلاً ما ينبغي أن نضعه في صدر مسرحيته: «الملك لير»، إذ لا ينبغي أن نفهم تاريخ الأدب الذي يسعى إلى تعمق الأمور على أنه تاريخ المؤلفين وما تعلق بحياتهم الأدبية أو آثارهم من أحداث، بل على أنه تاريخ الفكر فيما هو ينتج أو يستهلك الأدب، فيغدو تاريخ الأدب وقتها ممكناً حتى وإن لم نذكر اسم أي أديب» [ونضيف نحن: ولا اسم أي شاعر].

فاليري (Valery) - ألوان ج 5 ص ص 287 - 288

يَمَثُلُ معظمُ ما سَمِيَ بالشعر المحدث أو المولّد أماناً، رغم ما قد أتى به من مظاهر مجدّدة حقاً (منها التنوّع والثراء في مسالك الإيحاء) كما لو كان خطاباً لا علاقة له بتاريخ قائله، تحيل كل وحدة فيه وكل مستوى من مستوياته على واقع اللغة وحركيتها الداخلية قبل كل شيء، فيما هو يثبت ذاته - غالباً - على أنه نتاج فن غنائي بالأساس، تطبعه الصنعة، قلّما يكون المقول فيه متصلاً بهوية أو بحالة مدنية أو بملامح شخصية⁽¹⁾، وأكثر ما تظّل مضامين الأغراض فيه لا شخصية (بمعزل عن الذات)⁽²⁾، وإن خرجت عمّا درج وشاع بين الناس لتتخذ مسالك

(1) لن نظفر من البحث الذي نتولاه من خلال كل واحدة من الخمسين ترجمة التي قدمنا بها نصوص المدونة ومن خلال الآثار نفسها، إلا بملامح غائمة عن حياة الشعراء (فلنّا نرى تكرر نفس الصورة التي تغلب عليها سمة الخبر الطريف، وإن اختلفت الجزئيات أحياناً)، ومن ثمّ يمكن الإقرار بما قاله زمتور (ZUMTHOR) (اللغة والتقنيات... ص 195) من «قصور البحوث الرامية إلى ربط أناشيد الشاعر الغنائي بترجمته»، ومن ثمّ أيضاً، نقرّ بما جاء في ملاحظات جاكبسون (JAKOBSON) الدقيقة، المتعلقة بالعلاقة بين الشعر والحقيقة، وهي ملاحظات تسير في نفس اتجاه ملاحظات زمتور (مسائل في الشعرية ص 117).

(2) قصائد راشد بن إسحاق يرثي أيره الهرم، تقوم شاهداً على هذا الطابع اللاشخصي في =

بحث عن إمتاع فني متصل في الحقيقة بجمال التفاصيل⁽¹⁾ أكثر من اتصالها بال تلقائية والعفوية.

ويمكننا القول، نتيجة ما سبق، أن أي قطعة غزلية، حضرية كانت أو غير حضرية، أو أي قصيدة تتغنى بأطايب الحياة أو تشتكي أوصابها، باستثناء ما قل وندر، إنما تحمل تاريخ خطابها هي، وهو خطاب يعرف الواقفون على أسرارهِ تصاريفه وأحكامه⁽²⁾، قبل أن تكون حاملة لتاريخ محدّد، تاريخ صاحبها.

إنه التمرين عوداً على بدء لا تنقطع حلقاته، الملتحم بالشاعر الصانع وبما تتيحه هندسة الكلم وأساليب المجاز من وجوه التوافق والتأليفات⁽³⁾ أكثر من التحامه بالإنسان، ممّا يفضي بالآثار الشعرية إلى التشابه فيما بينها في ضرب من إعادة الصوغ أو الإنشاء المستمر، وكأنها أشباه ونظائر يعكس بعضها بعضاً في هذا «النظام» المشترك بينها، نظام فن الشعر الخاص بالثقافة العربية⁽⁴⁾، وهو ما يشير إليه ذلك الانطباع بلا زمنية هذا الشعر، وبجريانه في فضاء لا تميّزه حدودٌ، والانطباع بأن ذلك الشعر مشاع يكاد لا يُغزى إلى شاعر دون شاعر، وهو انطباع

= الشعر (انظر: طبقات ابن المعتز ص 309).

(1) يقول فاليري (ألوان، ج 3 ص 13): «لقد أحسن فولتار (VOLTAIRE) وبلغ الغاية حين قال: «ما صنع الشعر إلا دقائقه الجميلة».

(2) ويمكن أن نعتّم هذا ليشمل كبار شعراء هذا القرن: فمدائح أبي تمام والبحري وهي تمثل الجزء الأكبر من ديوان كل واحد منهما، تحليل بوجه عامٍ على أشكال فنية لشخصيات منحوتة نحتاً ومطروقة طرّقاً، ولكن قلّما تحليل على ذوات قدّت من لحم ودم.

(3) يقول موريس بلانشو (M. BLANCHOT) في سياق حديثه عن فاليري، بأن آثار الكاتب الكبير كلها «ليست إلا تمريناً» (انظر: «الكتاب الآتي». Le livre à venir ص 291). وكان فاليري نفسه يقول: «لو كنت أساير إحساسي، لأغراني بأن أدفع الشعراء والزمهم بأن ينتجوا - كالموسيقيين - أنواعاً مختلفة من التنويعات [ونقول: التمارين] أو الحلول لنفس الموضوع، ولا شيء يبدو لي أكثر مطابقة من هذا، للصورة الذي أحب أن يكون عليه الشاعر والشعر» («ألوان» Variété ج 3 ص 61).

(4) انظر: المدوّنة - الجزء 2 ص 315 - 316، وفيها نضع على بساط البحث بعض المعالم المتصلة بهذه الإشكالية.

يبعثه فينا جزء كبير من مدونة ذلك العصر⁽¹⁾.

وإنه لمن اليسير أن ندرك كيف أن ذلك الخطاب (الغنائي دون شك إلا أنه خطاب دون تاريخ كما رأينا وصلته بلحمته البلاغية أشد من صلته بلحمته العلامة)، إن تداولته أيدٍ ماهرة ممن تولّوا اختيار نصوص منه، وكانوا في الغالب من الشعراء⁽²⁾، كيف أن ذلك الخطاب كان عرضة ومن أقرب سبيل لضروب النهب والاعتصاب. ألم نر مثلاً كيف أن تساهل ابن داود «البري» أنساه غالباً ذكر أسماء الشعراء في كتابه «الزهرة» للأسباب التي ذكرنا⁽³⁾، ولكن ما من شك في أن ذلك أيضاً كان له ذريعة لإيراد الشاهد من شعره دون أن يتسمّى، فإذا به قد ساعد إلى حد كبير، على خلط الآثار التي نقلها، وعلى تشتيتها وتفتيتها⁽⁴⁾.

(1) تمثل القصيدة الغزلية في شكلها البدوي أو الحضري أو المقطعة مما يتغزل به الطرفاء - وقد خصصنا لذلك أكبر قسط من الجزء الثاني من المدونة - النموذج الأمثل لذلك (قارن في هذا الصدد شعر خالد الكاتب وشعر ماني الموسوس بتلك القطع الغزلية القصيرة (بيتان إلى 4 أبيات) التي يناهز عددها المئة، والتي استخلصناها من ديوان أبي تمام. وقارن أيضاً المقتطفات التي أوردناها من شعر العباس بن الأحنف وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام وابن المعتز، بعضها ببعض (المدونة - ج 2 ص ص 201 - 221). وإننا لو سقنا هذه القطع التي تنتمي إلى مصدر إلهام واحد، تباعاً، لكان من العسير علينا التعرف على قائل كل واحدة منها، لفرط الشبه بينها جميعاً. ويمكن أن نسحب هذا الرأي على أكثر من خمرة من خمرات أبي نواس إذا ما قارناها ببعض قطع أبي الهندي أو حسين الخليل.

(2) بالإضافة إلى أبي تمام والبحري في حماسيتهما، نذكر داود الأصفهاني (كتاب الزهرة)، وابن عبد ربه (العقد الفريد)، والعسكري (ديوان المعاني)، والسراج (مصارع العشاق)، وأسامة بن منقذ (المنازل والديار)، والعمرى (مسالك الأبصار) وجميعهم قال الشعر.

(3) لا نظن أن معظم ما ورد في كتاب «الزهرة» من أشعار كان من الشهرة والذيع بحيث لم يكن ليضيرها أن ترد بدون ذكر لأسماء قائلها.

(4) إن النظر في فهارس كتاب داود الأصفهاني (نشر: نيكل وطوقان) مفيد جداً في هذا الصدد.

ج - الشعر ومفهوم الملكية الأدبية :

إن انعدام مفهوم الملكية أو حقوق التأليف المرتبط بالإنتاج الأدبي والضامن لسلامة الآثار، انعدامه من دائرة المبادلات، قد ضغط بكل ثقله على سيورة هذا الإنتاج والمحافظة عليه. ففي حين نجد نظام السوق، في البلاد الإسلامية خاضعاً لأحكام دقيقة تتصل بكافة قطاعات الحياة الاقتصادية تقريباً⁽¹⁾، ظلت الآثار الأدبية تنتشر وتروج بحرية ولا تخضع لأي رقابة مهما كانت، فما أن يُلقى شاعر قصيدة فتدوّن أو تنشر بين الناس، حتى تصبح ملكاً مشاعاً، وتكون عرضة للاستنزاف والتلف لا حامي لها من ذلك سوى حزم الشاعر نفسه، وما يُبديه الرواة والناقلون من حرص على جمع ديوانه. ولئن كانت مدونة علوم الدين واللغة قد ضببطت تقنيات جمعها وروايتها ونسخها منذ عهد بعيد، في كتابات متخصصة هي كتب أدب العلماء⁽²⁾، فإن أعظم نصيب من الإنتاج الشعري في ذلك العصر، وخاصة منه إنتاج الشعراء المقلين قد ظل، على العكس، من ذلك، ورغم الجهود التي بذلها أساطين التدوين في ذلك العصر أو بعيده (من أمثال الأخوين: المنجّم، وطيفور والصولي)، نهياً لجمهور عريض من أصحاب المختارات، والناسخين المحترفين، ومعظمهم ممن لا يكترون للدقة والصرامة في تعاملهم مع الآثار، فأدى بهم تساهلهم إلى اتباع ما تمليه عليهم ميولهم وما تقتضيه أذواق القراء ممّا فتح باب الانتحال⁽³⁾ والسرقة والقطع وجعل من الشعر في بعض وجوهه شبه بضاعة تخضع لما يخضع له السوق، عرضة لكلّ فساد.

(1) انظر كتب الحسبة وخاصة أحكام السوق ليحيى بن عمر، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري.

(2) عمدت بعض الكتب ذات الطابع المدرسي إلى تلخيص هذا الأدب (انظر خاصة: تذكرة السامع... لابن جماعة، والمعيد في أدب المفيد للعلموي، وقد قدمنا بعض النماذج منهما في كتابنا: الفكر التربوي عند العرب (بالاشتراك مع الزريبي، تونس 1985).

(3) انظر: كتاب فصل ما بين العداوة والحسد للجاحظ، حيث يخصص المؤلف فقرة مطولة للسرقات التي كان هو ضحيتها، وأوهم أنه يفعل ذلك أيضاً، ليختلط الأمر على من انتحلوه (رسائل الجاحظ - ج 1 ص ص 351 - 352).

العوامل الخارجية

أ - الشعر ومسالك الانتقاء، أو الشعر وذوق العصر:

لقد كان لذوق العصر بعيد الأثر في التوجه العام الذي اتخذته عملية إنشاء الآثار الشعرية وجمعها وتدوينها. فقد اغتذى هذا الذوق من منابع حساسية جديدة أفرزها نظام ثقافي جديد⁽¹⁾ مثله «النموذجُ البغدادي»، فغدا ذوقاً متغيّراً لا يقيده قيد، يستهويه كل جديد⁽²⁾، سمته الغالبة تنوع المسالك وحسن الانتقاء.

وإذا بعامة الشعراء، وهو الصنف الذي نهتم به في عملنا هذا - قد قطع الصلة التي تربطه بأشكال النظم التقليدية التي تميّز شعر المناسبات والمحافل السلطانية ليأتلّف مع ذوق العصر، فوجد في القطعة القصيرة⁽³⁾ التي سيعمّم بعضهم استعمالها، الوسيلة الأكثر ملاءمة لهذا التوجه الانتقائي الذي وسم العصر، ونعني به «الأخذ من كل شيء بطرف» على حد قول الجاحظ، والبحث عن وجوه الإمتاع ودفع الثقل والإملال من كل سبيل⁽⁴⁾ وقد أشار ابن قتيبة، وهو المدافع عن المثل الأعلى الذي كانت تمثله السلطة السياسية والسلطة الدينية آنذاك، إلى هذه الظاهرة، وانبرى يحطّ من هذا الصنف من شعراء جيله الذين صارت «أعلى منازل [أدبائه] أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس»⁽⁵⁾.

ولن يسلم الرواة أنفسهم، كما يبيّن الجاحظ ذلك، من مزالِق هذا الانتقاء في جمعهم لتلك الآثار ونشرها، مسaire لذوق معاصريهم⁽⁶⁾. أما

(1) انظر: الفصل الرابع، الفقرة 2، أ.

(2) انظر في ما يتصل بتغيّر ذوق العصر، ما كتبه الجاحظ عن ذلك، في البيان ج 4 ص 23.

(3) تكون القطع القصيرة (أو: المقطعات) عادة في مجموعات تتألف من 3 أو 4 أبيات.

(4) يبيّن الجزء الثاني والثالث خاصة بما فيهما من نصوص، هذا التوجه.

(5) انظر: أدب الكاتب - ص 2.

(6) انظر: البيان... ج 4 ص 23.

أصحاب الاختيارات من الجيل الجديد (البحتري ومن سار على نهجه في القرن IVهـ/Xم من مؤلفي كتب المعاني⁽¹⁾) فقد قطعوا ما استقرّ مع المفضل الضبي (ت 178هـ/794م) في مفضلياته والأصمعي (ت 216هـ/831م) في أصمعياته من سنن يقتضي نقل قطع وقصائد قليلة العدد ولكنها كاملة غير منقوصة⁽²⁾، واستجابوا لذوق العصر فساروا بالمدونة في طريق التجزئة⁽³⁾، بوضع منتخبات شعرية تكون مادتها التي تفتتت في الغالب، منتظمة على أساس توزيع جديد يعتمد الأغراض أو حتى مجرد فروع المعاني⁽⁴⁾.

ونضيف أخيراً أن التوجه التعليمي الذي يبدو من خلال كتب ابن قتيبة (ت 276هـ/889م)، والذي ستسير عليه سنة الاستيعاب والإلمام التقليديين⁽⁵⁾ طوال قرون، لن يزيد هذا المنزع الانتقائي في الإنتاج الأدبي في جملته، إلا اتضاحاً وبياناً. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن الكتب التي ألفت خلال هذه الفترة، مهما اختلفت وتباينت، من الكامل للمبرد (ت 286هـ/900م) إلى مروج المسعودي (ت 346هـ/956م)، أو عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن

- (1) مثل العسكري، مؤلف: «ديوان المعاني» أو مجموعة المعاني لمجهول.
- (2) نذكر بأن المفضليات تحوي 130 قصيدة، وأن الأصمعيات تشتمل على 92 قصيدة.
- (3) تشتمل مختارات البحتري على ما لا يقل عن 174 غرضاً ولكل غرض فصل، لمجموع 1454 قطعة. أما المجموع المجهول المؤلف (القرن IVهـ/Xم): مجموعة المعاني، فيحتوي 100 غرض، وفيها ما يقارب عدد القطع الواردة عند البحتري. ونشير أيضاً إلى أن التذكرة السعدية (القرن VIIهـ/XIVم) تحوي 1710 قطعة موزعة على 1175 شاعر حسب إحصائية أعدها الجبوري ناشر القسم الأول من هذا الكتاب (بغداد 1972). ونشير أخيراً إلى أن كتاب الحداثق لأحمد بن فرج الجياني الأندلسي (ت 366هـ/976م) وقد ضاع، كان يحوي 52000 بيتاً تقريباً موزعة على 260 غرضاً ولكل غرض فصل.
- (4) يبين كتاب: «مجموعة المعاني» المذكور آنفاً، بياناً جلياً هذا التوجه (انظر خاصة ص ص 189 - 191).
- (5) الإستيعاب والإلمام والتبحر صفات ملازمة للأجيال المتتالية من اللغويين والنحويين، والمعجميين والنقاد وكتاب التراجم، وأصحاب الأخبار، والشارحين والمحشّين، الذين تمثل آثارهم محطات لولاها لاندثر قسم كبير من مدوّنتنا إلى الأبد (انظر: البيان، ج 4 - ص 24).

أبي أصيبعة (ت 668هـ/1296م) إلى مسالك الأبصار للعمري (ت 749هـ/1348م) قلّ أن نجد بينها كتاباً لم يستعمل الشاهد الشعري للتمثيل إن لم يكن لترصيع الخطاب، ممّا يؤكد طابع التفتت الذي يميّز المدوّنة⁽¹⁾.

ب - الشعر وفضاء المجالس :

يبدو أن أبرز مظاهر النشاط الشعري، حسب المصادر المعاصرة للفترة التي نتحدث عنها أو التي كتبت بعيدها⁽²⁾، قد كان إطارها المفضل ذلك العدد الكبير من المجالس على اختلاف أنواعها (حلقات، مجامع، منتديات الخ...) وهي التي ستطبع الإنتاج الشعري الذي أضحي في هذه الفترة حضرياً أساساً، بطابعها الخاص⁽³⁾.

فقد كانت هذه المجالس - وهي امتداد لما استتبّ في مدن الحجاز من تقاليد ثقافية ذات طابع حضري - فرصة سانحة للمذاكرة ولكن أيضاً للإنشاد والغناء وذلك في جوّ من الاستمتاع الجماعي حيث تقترن مشاغل الفكر بطربات الحسّ، وكان يجتمع فيها جمهور غفير، لا اعتبار في اجتماعه للفروق الاجتماعية ولا للمنازل والمراتب، وهو جمهور خبير بكل جديد، مختلف المشارب والآفاق ولكنه جمهور يجتمع على التعلّق بالأدب وحبّه.

وقد كانت هذه المجالس التي ستعلّق من خلالها في الذاكرة الجماعية تلك الصورة الباقية لبغداد على ممرّ العصور، مسرحاً سيتحدّد فيه - جزئياً - مصير مدوّنة ذلك العصر الشعرية. وقد اتخذت هذه المجالس - كما أسلفنا

(1) نشير هنا على سبيل المثال إلى أن الفضل يعود إلى مروج الذهب للمسعودي في حفظ أهم ما وصلنا من شعر علي بن بسّام (المدونة - الجزء 3 - ص ص 153 - 186).

(2) إلى جانب المعلومات المهمة التي استقيناها من ابن الجراح (الورقة) وابن المعتز (الطبقات) وطيفور (ما بقي من كتبه) والجاحظ (الرسائل) والوشاء (الموشى)، ومن جامعي الأخبار كالصولي والجهشياري والمسعودي والطبري، فإن كتاب الأغاني يظل مرجعاً أساسياً بالنسبة إلى كامل الفترة التي تهمننا.

(3) نلاحظ نفس الظاهرة بعد قرنين، في عواصم المغرب الإسلامي: القيروان وقرطبة مثلاً، (انظر: الشاذلي بويحيى، الحياة الأدبية... ص ص 301 - 303).

القول - أشكالاً من اللقاء والاجتماع مختلفة :

● مجالس يعقدها الخلفاء والأمراء ورجال الدولة في خلواتهم وتلّم النديم والخلصاء الأقربين، ويُذعى إليها صفوة الشعراء والأدباء، (ومجالس الرشيد والأمين والمتوكل والبرامكة معروفة في هذا الباب)، وستواصل سنتها في القرن الرابع مع الحمدانيين والبويهيين ووزرائهم، وفي القرن الخامس مع الصنهاجيين وملوك الطوائف بالغرب الإسلامي. وهي مجالس، تختلف عن أخواتها مجالس الغناء والشراب، تعقد للمذاكرة وتناشد ما جدّ في سوق الشعر من طرائف الأشعار، وتطرح ما نقله جديد الرواية من نوادر الأخبار⁽¹⁾.

● حلقات شعرية تتسع حيناً وتضيق آخر، مثل: «طاق أسماء»⁽²⁾، زمن الرشيد وكان يأتيه شعراء تجمعهم ميول مشتركة، ليتكلموا في الشعر، أو ليلقوا قصائدهم أو ليتعاطوا المساجلات الشعرية حيث يفسح المجال لـ «الإجازة» والارتجال⁽³⁾، يتخلّل كل ذلك طرف ونوادر تتعلّق بهذه الحادثة أو تلك أو بهذا الشاعر أو ذاك، من القدماء والمحدثين.

● حلقات شعرية أسبوعية مفتوحة، يؤمها جمهور هواة الشعر، وتكون في بعض المساجد (والأفضل أن يكون ذلك في مسجد جامع)، فتختصّ منه بفضاء مستقلّ هو إيوان أو قبة⁽⁴⁾، فيجتمع الشعراء في ساعات معلومة من يوم معلوم من الأسبوع، كما كان شأن الحلقة التي كانت تنعقد كلّ جمعة بمسجد الرصافة في شرق بغداد⁽⁵⁾، وهي الحلقة التي كان يختلف إليها نخبة من الشعراء هم ابن الجهم ودعبل وأبو الشيص وأبو تمام وابن أبي فتن، وقد كانوا يجدون فيها الإطار المساعد على نشر آخر ما نظموا أو آخر ما توفّقوا إليه من صور

(1) انظر ما ورد في طبقات ابن المعتز (ص 209 - 210، 214 - 217) من أوصاف حضارية لمجلس الأمين ومجلس الفضل بن يحيى البرمكي.

(2) انظر: معجم البلدان - ط - لبيزيج، ج 3 ص 489.

(3) نقدم نموذجاً مفيداً عن الإجازة في مدوّنتنا، ج 2 ص 255 - 259.

(4) جناح من المسجد تعلوه قبة يفتح عبر قوس عريض على الصحن.

(5) انظر معجم البلدان: فصل: رصافة.

البديع على جمهور المترددين على هذه المتدييات من هواة الشعر، وقد كان مثل هذا النشاط مساعداً على شحذ الهواية أو بروز بعض المواهب الشابة⁽¹⁾. ونذكر هنا أيضاً تلك الحلقة التي كانت تنعقد ليلاً ولعلها كانت ليلة كل يوم في ذلك المسجد نفسه، «حيث يجلس الشعراء ينشدون ويتحدثون»⁽²⁾ ومن بينهم بشار رأس المحدثين.

● المجالس التي كان يقيمها كبار علماء ذلك العصر⁽³⁾، وهي كثيراً ما كانت تلتئم برعاية الخلفاء⁽⁴⁾ أو كبار الأعيان⁽⁵⁾، وهي مجالس كان النقاش فيها يدور دون ما قيد حول المعارك الكبرى القائمة في الساحة الأدبية (معركة القدماء والمحدثين، المعارك حول أبي تمام والبحري، المعارك المتصلة بالسراقات).

● مجالس خاصة يقيمها مغنون من مشاهير العصر هم أنفسهم شعراء - مثل إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة، وآل الموصلي، وأبي حشيشة، وجحظة البرمكي⁽⁶⁾.

(1) انظر ما كتبه الخطيب البغدادي في وصف إحدى هذه الحلقات في تاريخه، ج 13 ص 227. انظر كذلك خبر مروان بن أبي حفصة يعرض شعره في مدح المهدي على إحدى حلقات المسجد بالبصرة حيث يجلس خلف الأحمر (العقد الفريد: ج 5 ص 306).

(2) انظر: الأغاني، ج 3 ص 179.

(3) نذكر منهم: الأصمعي (انظر الهامش التالي) والعتبي (انظر المدونة ج 1 ص 111 / 112 والمبرّد (أخبار البحري ص ص 49 - 50) وثعلب (المجالس) والزجاجي (مجالس).

(4) يعطينا المسعودي ملخصاً على بعض التفصيل للمساجلات والمذاكرت الأدبية التي كانت تجري بمجلس الخليفة المعتمد (256 - 279هـ / 870 - 892م): مروج الذهب، ط. بلاً، ج 5 ص 132، ونجد حديثاً آخر عن مجلس انعقد في بلاط الرشيد، كان يديره الأصمعي، يذكره الخاتمي في حلية المحاضرة ص ص 66 - 77، وانظر أيضاً: جمال الدين بن الشيخ: مجلس الخليفة المتوكل (ت 247هـ / 861م) في «المجموعة المهداة إلى هنري لاووست» (Mélanges Henri Laoust) ص ص 33 - 52.

(5) نذكر هنا بدور البراميكة الذين كانوا يرعون الأدب وأهله، وبدور بني وهب وابن الزيات، وآل المنجم، وبني طاهر...

(6) وقد ذكرناهم جميعاً في مدونتنا، فانظر مختلف الفهارس.

● متتديات يقيمها أبرز ممثلي مجموعات الظرفاء من بغداد، من أمثال القينات الشاعرات: عنان⁽¹⁾، وفضل⁽²⁾، والذلفاء⁽³⁾.

● مجالس مغلقة شبيهة بمجلس ابن رامين بالكوفة⁽⁴⁾، وهي مجالس تجتمع فيها القيان المغنيات المطربات، وفيها يتناشدن الشعر إلى جانب الغلمان. ألم يذكر الجاحظ أن الحاذقة منهن كانت تروي أربعة آلاف صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت⁽⁵⁾؟ ونحن نعلم أن سنة هذه المجالس المغلقة ستتواصل حتى القرن الرابع: ألم يُخصّ التوحيدي ببغداد / الكرخ «أربعمئة وستين جارية في الجانبين ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيات البدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة»⁽⁶⁾؟

● مجالس خاصّة مضيقّة، يجتمع فيها حسب الصدف، عدد من الشعراء وأصفيائهم ومريديهم لدى أحدهم، ونجد في كتب الأدب وخاصة منها كتاب

(1) ابن الجراح: الورقة ص ص 42 - 45: الرقيق: قطب السرور ص ص 178 - 181 (ونشير هنا إلى أن بيت «عنان» كان ملتقى عدد من الشعراء مثل أبي نواس، وحسين الخليل، وعمرو الوراق، وداود بن رزين...).

(2) انظر: ابن المعتز: طبقات الشعراء ص 424، وفيه إشارة إلى أن فضل كانت مثل عنان - «يجتمع عندها الأدباء»، انظر أيضاً فريد غازي، «دراسة فئة اجتماعية: الظرفاء» في: دراسات إسلامية (Studia islamica) الجزء 11، ص ص 39 - 71.

(3) انظر: الإمام من شواعر النساء، مؤلفه مجهول (ظهر قسم منه في مجلة: «البلاغ» - بغداد عدد 7، 1976، ص ص 37 - 54) وفيه أن الذلفاء وكانت تعشق المؤمل الشاعر (ت 190هـ/ 850م) وكان الشعراء يأتونها ويطارحونها.

(4) كانت دار ابن رامين ضرباً من الماخور المغلق، يتردد عليها جماعة مطيع بن إياس، إسماعيل بن عمار، وقد اشتهرت فيها سلامة الزرقاء (انظر المدونة ج 5 ص ص 165 - 168) أما عن مشاركة القيان في الحياة الثقافية داخل المدن الكبرى فانظر، كتاب القيان للجاحظ، والمستطرف من أخبار الجوّاري للسيوطي.

(5) الرسائل... ج 2 ص 176.

(6) الامتاع والمؤانسة ج 11 ص 183.

الأغاني⁽¹⁾ أخباراً كثيرة تصوّر لنا هذا الصنف من المجالس، ونذكر في هامش الصفحة - تمثيلاً - نموذجاً لمقدمة بعض الأخبار⁽²⁾:

● حلقات هواة الأدب، وكانت تنعقد في بعض دكاكين أعيان التجار في المدن، ويشارك فيها جماعة من أصحاب الدكاكين والحرفيين (ممن كانوا بالظرفاء أشبه: من الوراقين، والصائغين، والنحاسين، والسدائين والبرّازين والخياطين) وهم في الغالب عصاميون، مولعون بالأدب وقد يقرضون الشعر أحياناً والمثال الذي ذكرناه في مدوّنتنا، عن الشاعر الحلواني: الخبز أرزي، يصوّر بجلاء هذه السمة الحضارية⁽³⁾.

(1) يبدو أن عقد المجالس الأدبية في دور الخواص، حيث يكون من يعقدها ينتمي إلى دنيا الأدب (الشعر والموسيقى خاصة) قد كان - منذ ساعة مبكرة - سمة مميزة للحياة الحضرية في العواصم الإسلامية مثل: المدينة المنورة والكوفة، والبصرة وبغداد، ثم فيما بعد القيروان وقرطبة... فقد كان لبشار - على قول أبي الفرج - في داره مجلسان: واحد في الصباح ويسمى البردان، وواحد بعد الظهر ويسمى الرقيق (الأغاني، ج 3 ص 169)، ونشير أيضاً إلى المجلس البصري الشهير (وهو الذي يذكر غالباً في سياق بيان التسامح الذي كان عليه الخلفاء العباسيون الأول) وكان يجتمع فيه شعراء وعلماء ومفكرون (حوالي العشرة) مختلفو المشارب والمذاهب، منهم الخليل بن أحمد، والسيد الحميري، وصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحمام عجرد، وابن رأس الجالوت، وابن سنان الحراني... فيتذكرون الشعر ويتطرحونه (انظر ابن تغريبردي: النجوم الزاهرة، ط. ليدن، ج 1 ص 420)، وبعد أترانا في حاجة إلى التذكير بأن هذه السنة الثقافية ما زالت متواصلة إلى اليوم في مدن مثل تونس والقيروان - ونحن نعرفهما جيداً - وفيهما تعقد مثل هذه المجالس في بعض دور الخواص في «السقيفة» وهي غرفة تفتح على الشارع وتقوم مقام غرفة الاستقبال.

(2) يقول أبو الفرج: «حدّث أشجع السلمي (ت 195 - 811م) قال: «كنت ذات يوم في مجلس بعض إخواني أتحدث وأنشد إذ دخل علينا...» الأغاني، ج 18 ص 218 (ط: دار الكتب) ونشير أيضاً هنا إلى المجالس التي كانت تُعقد في الخفاء، يعقدها فريق الشعراء الذين أطلق عليهم وقتها الزنادقة، ومنهم مجموعة الخلصاء التي كانت ينتمي إليها الحمّادون الثلاثة (عجرد والراوية وابن الزبرقان)، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، وعلي بن الخليل، وقد ذكر الجاحظ ذلك في الحيوان - ج 4 ص ص 447 - 448.

(3) انظر: المدوّنة. ج 1 ص ص 355 - 406، وفيها نقدم حديثاً ضافياً عن هذا الشاعر =

● المجالس المضاحك، وهي ضرب من مجالس العبث والهزل تُعرضُ فيها مشاهد السخف والرقاعة والسماجة، وكانت تقام في بلاط الخلفاء (وخاصة زمن خلافة المتوكل⁽¹⁾) أو في الأماكن الخاصة (مثل مجلس أبي العبر الذي وصفه السبكي⁽²⁾)، وقد كان منشطو هذه المجالس من بين:

- التدامي (وقد يجمع الواحد منهم بين صفات الأنيس والمؤاكل والأمين)، وهم من أهل الأدب عموماً، ذوو فطنة وذكاء، يقرضون الشعر أحياناً، كما كانوا من العارفين الحاذقين بال نوادر ومنهم أبو العيناء (ت 283هـ/ 896م)، وقد كان في وقته معتاداً مجلس المتوكل⁽³⁾.

- الشعراء المتماجنين أصحاب المزح والفكاهات من أمثال أبي العنبر الصيمري⁽⁴⁾، وأبي الشبل عاصم بن وهب البرجمي⁽⁵⁾ وأبي دلامة⁽⁶⁾، وهم شعراء تقوم التفت التي وصلتنا من شعرهم وذكرنا بعضها في مدوّنتنا، شاهداً على مهارة في صنعة الشعر لا سبيل إلى الشك فيها.

= الحرفي وشعره. ونشير أيضاً إلى أنّ هذه السنة الثقافية التي يمثلها الحرفيون المتأدبون العصاميون قد تواصلت إلى اليوم في القيروان مثلاً، إذ نجد من شعرائها - في عهد غير بعيد - وراقاً (صالح السويسي)، وتاجر أقمشة (إلشاذلي عطاء الله)، وفلاحاً (الناصر صدام)، نُشر بعض شعرهم (ونذكر في هذا الصدد أنّ الأمور لعلّها لم تتغير منذ ما يناهز الألف سنة، وأن المترددين على هذه المجالس، وهم غالباً من الطبقة الثرية أو طبقة البلديين الظرفاء، لا يزالون يجتمعون كل يوم عند نفس الساعة: بين صلاة العصر وصلاة المغرب).

(1) انظر مدوّنتنا، ج 3 ص 4 ثم ص ص 391 - 392 (وصف لأحد هذه المجالس يرد بكتاب الديارات). وكذلك هذا الجزء ص 343 - 375.

(2) أبو العبر (ت 250هـ/ 859م)، كان مجلسه في بيته ببغداد، يرتاده جمهور اصطفاه من بين الشبان الذين ينتمون إلى أوساط مرفهة، انظر: طبقات الشافعية، ج 2 ص ص 208 - 209.

(3) انظر: دراسة جمال الدين بن الشيخ عن هذا المجلس، وقد مرّ ذكرها - ص 45 - 46.

(4) انظر: مدوّنتنا ج 3، ص ص 377 - 381.

(5) انظر: مدوّنتنا ج 4، ص ص 107 - 115.

(6) انظر: مدوّنتنا ج 3، ص ص 267 - 271، 317 - 330.

- الشعراء المضحكون المهزّجون (من الذين يتحامقون وكثيراً ما يصفون أنفسهم بضدّ ما هم عليه) من أمثال أبي العبر وقد مرّ ذكره⁽¹⁾، وأبي العجل⁽²⁾. وهنا نشير إلى أن الأمر يتعلّق بمجالس تعقد للترويح عن النفس حقّاً، يكون المجال فيها سانحاً لجميل الكلام مختاره (من الشعر والنثر)، والنكتة اللاذعة: فالخطاب هنا خطاب إغراب وإضحاك، وغباء مهرّج، فيه ميل إلى المعجون دون احتراز في الغالب، تختلط فيه سجلات القول اختلاطاً، وتستغلّ فيه كل مصادر الاضحاك، فينتقل فيه الحديث من التورية والمجاز الساخر المتّصل بالجانب الاجتماعي إلى التعريض الساخر المتّصل بالجانب السياسي، ومن الهجاء الكاريكاتوري إلى المدح الساخر أو الغزل المفحش⁽³⁾، ويشترك في تلك الأحاديث كلّ من حضر ذلك المجلس (مقيموه والساھرون عليه والذين يشهدونه، دون تفرقة طبقية، من الخليفة إلى الزائر عابر سبيل) دونما احتراز ضاربين صفحاً - إلى حين ينتهي المجلس - عن تحفظهم في ضرب من التحرّر ممّا يكبح عن النفوس خفي أشواقها⁽⁴⁾ وذلك عبر اللذة المشتركة الناشئة عن سماع تلك الطرائف من الملع ونوادر الكلم.

لقد كانت هذه المجالس التي كثيراً ما كانت تلتحم فيها الثقافة⁽⁵⁾، ثقافة

(1) انظر: مدوّنتنا ج 3، ص ص 383 - 387.

(2) انظر: مدوّنتنا ج 3، ص ص 331 - 339.

(3) يصفّر الجزء الثالث من مدوّنتنا ص 368 تصويراً جلياً هذه السجلات كلّها.

(4) قد تتساءل هنا عن سرّ تعايش الأخلاق الإسلامية وهذه الأنماط من السلوك المتحرّر التي غلبت على بعض المجالس ومن يرتادها من المتماجنين الهازلين، وقد أدرك القدماء ما في الجمع بين الصيانة وما قد يبدو انتهاكاً للآداب (قولاً وسلوكاً) من ازدواجية يأبأها الضمير الأخلاقي فوجدوا لها مخرجاً فيما نحلوه المأمون عندما تدبر الأمر وقال مستشهداً:

«إنما مجلس التّدامى بساط للمروءات بينهم وضعوه
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا من حديث ولذة رفعوه»

وقد أشرنا إلى هذه القضية في معرض حديثنا عن عليّة بنت المهديّ (ج 2 ص 317 - 331)، وانظر أيضاً المدخل الذي صدرنا به الجزء الخامس من المدونة، وخصصناه لشعر البطالة.

(5) انظر بالنسبة إلى مفهوم الثقافة في علاقتها بالدرجات الاجتماعية في القرن IIIهـ / IXم، =

العصر، في وجهها الحضري بالبطالة وما تتيحه للمؤثرين لها من ضروب الاستمتاع التحاماً وثيقاً، كانت هذه المجالس مجالاً مفضلاً لممارسة فن «المناشدة» و «المذاكرة»⁽¹⁾ فيما تتيحه هذه وتلك من «صريح منادرة» و «مليح مهاترة» و «غريب مراجعة» و «عجيب منازعة»⁽²⁾، وهو فن يعتمد من أشكال التعبير أطوعها وأقربها مدخلاً، ونعني الحوار، وهو حوار كان المساهمون فيه (من الشعراء والأعيان هواة الأدب ورعائه والعلماء والمغنين والندامى) يتبارون في مواضيع هي بنات ساعتها، فيجيب بعضهم بعضاً أو يجيزه في جو من التبادل والتنافس الذي قل أن يتخلله صخب متعنت أو شغب مراوغ أو وراء لجوج⁽³⁾ وستكون فنون هذا الحديث وقواعده التي يسير عليها - وهي قواعد تقوم على مسايرة ذوق العصر - عاملاً مساعداً على ممارسة شفوية لخطاب مزدوج:

● خطاب شعري، يرد في شكل شواهد موجزة مقتطعة من آثار متكاملة، تنتمي إلى «فنون الشعر الكبرى» (من مديح مختار وهجاء رصين ووصف بليغ وغزل مصون)، كما ترد في شكل مقطعات قصيرة⁽⁴⁾، من وحي فنون الشعر

= مقدمة: أدب الكاتب لابن قتيبة، والحديث المطول الذي خص به الجاحظ مفهومي: «العامة والخاصة»، في رسالته عن العثمانية ص 250 وما بعدها.

(1) من المفاهيم الواردة عند الجمحي (طبقات فحول الشعراء ص 203، أما الرقيق القيرواني فإنه يفضل استعمال صيغتي «تذاكر» و «تناشد» (قطب السرور» ص 176).

(2) انظر الحصري، جمع الجواهر، ص 63.

(3) ليس من باب الصدفة إن كانت اللغة العربية تقدم لمستعملها مجموعة من الألفاظ المتجاوزة للتعبير عن هذه المفاهيم، فالجاحظ يذكر لنا «المناسمة» و «المثاقفة» (الرسائل ج 11 ص 168) والحصري يقدم من ذلك أمثلة هي: المبادهة، المودعة، المسايرة، المحاضرة، المواجهة، المناظرة، المعارضة، المناقضة، المنافرة (جمع الجواهر ص 70، 125، 260، 267).

(4) تشهد عدة ملاحظات وقعنا عليها في كتاب الأغاني (ج X ص 43، ج XII ص 145 - 146، ج XIV ص 98 - 99، ج XVIII ص 280 و ج XX ص 259) على إقبال أهل ذلك العصر (من الخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء...) على «المقطعة». لاحظ كذلك أن ابن حازم الباهلي (ت 216هـ/831م) سينظم قصيدة بائية (مكسورة) يشيد فيها بشكل القطعة القصيرة، مؤكداً بذلك واحداً من أهم اتجاهات مدرسة المحدثين (انظرها في ج 2 ص 67 الهامش 7) ويسمى ابن رشيق بعد ذلك (العمدة، ج 1 =

الرّوافد، مقطعات تفتّن الشاعر فيما تجريه من مبالغات في ذكر الحب وتصاريفه، وصور للهجاء صاخبة هازلة لا تأنف من بذيء اللفظ وفاحش الكلام، ومضاحك تقوم على مسالك التمثيل (المحاكاة) الساخر، وما تتخلّله هذه وتلك من أفانين القول المبتدعة⁽¹⁾. وتحسن في هذا السياق الإشارة إلى الغناء في علاقته بشعر المقطّعات، فقد شهد، هو الآخر انتشاراً في العواصم لم يعرفه من قبل، وهو نشاط متصل بهذه المجالس نفسها، وستقيّد الأغنية بنفس تلك الأشكال من الخطاب الشعري⁽²⁾، وهو ما سيزيد حدّة في نسق عملية تشتيت المدوّنة ويعجّل تفتيتها الذي تحدثنا عنه آنفاً⁽³⁾.

● خطاب نثري على صلة وثيقة بالخطاب السابق، يتداخل فيه نسيج شديد الاختلاط من القصص والنوادر والأخبار، علاقته بالمدونة الشعرية مباشرة، وهي علاقة تكاد تكون جدلية، إذ أنّ هذه النوادر والأخبار المختلفة لا ترد لتوضيح ما قيل شعراً بل ولتوضيح ظروفه، أي أنها تجعل المقول غير منفصل عن ظروف القول تلك التي تضيحي حيويّة على المدونة الشعرية، وتمسرحها⁽⁴⁾، (أي تقحمها في إطار حركيّة مشهد له أبطاله والمجلسُ مسرحه)

= ص 186 - 189) إلى تحديد إطار هذا التعبير الشعري.

(1) يقدم الجزء الثالث من مدونتنا عيّناً مطولة من أفانين هذا الشعر. ونشير هنا إلى بعض الشبه بين هذا الشعر والشعر «الباروكي» الفرنسي في (القرن 18)، وهو شعر تحرّر من قيود الكلاسيكية وغلبت عليه أفانين الصنعة، كما نشير إلى بعض الشبه بين هذا الشعر وشكل المقطعة الهجائية كما مارسها الشعر البيزنطي وهو الشكل الوحيد الذي ظلّت سوقه قائمة في التقاليد الشعرية البيزنطية طوال هذا العهد (انظر دائرة المعارف العالمية ج 3 ص 1725).

(2) لا يقل عدد المغنين والمغنيات المشهورين الذين لفتوا نظر أبي الفرج في كتاب الأغاني، عن الخمسين، بالنسبة إلى الفترة التي ندرسها وحدها (ومنهم الموصليان وابن صدقة وابن جامع وأبو حشيشة ومخارق والمسدد - ودنانير، وسلامة الزرقاء، وعريب وعلية بنت المهدي: وقد ورد ذكرهم في مدونتنا، فانظر الفهارس).

(3) انظر أعلاه ص 163 ما ذكرناه في شأن القيان المغنيات وحفظهن للمقطعات الشعرية.

(4) قدمنا بعض الأمثلة من هذه البنية المزدوجة: شعر/ خبر، في المدونة - انظر خاصة:

ج 2 ص ص 269 - 273. و ج 3 ص ص 86 - 88.

وهي مدونة، كما سبق أن ذكرنا، كثيراً ما لا نقف فيها على أثر واضح لحياة الأفراد، وكأنها أشباه ونظائر لا تستقل بما يميزها عن غيرها إلا إذا صدع بها منشد في مجلس، يسوق لجلساته النظارة نادرة أو خبراً، وهم له في طرب يهشون⁽¹⁾.

ويجتمع هذان الصنفان من الخطاب في النصّ الواحد ليتولد عنهما - كما لا يخفى - نوع من الكتب، يختلط فيها الشعر بالنثر اختلاطاً يهر الناظرين، ويظل هذا الصنف من الكتب المميّزة التي تطبع الأدب العربي: كتاب الأدب. فليس من محض الصدفة أن كان كتاب الأغاني - وهو خير معلم ممثّل لهذا الأدب - ديواناً رحباً مرصعاً ترصيعاً بارعاً بقصص وأخبار من كلّ صنف⁽²⁾، مرتبطة ارتباطاً عضوياً بجانب لا يستهان به من الإنتاج الشعري في ذلك العصر⁽³⁾.

ج - الشعر وأدب الاختيار:

يبدو أن توجه الفضاء الأدبي نحو مسالك الاختيار أو «الأخذ من كلّ شيء بطرف»، وهو توجه نراه مسؤولاً جزئياً عن تجزئة المدونة الشعرية، قد أملت - كما رأينا ذلك منذ حين - شبكة من الضغوط رأينا من المفيد تأكيد أهميتها. غير أن السبب الأول في هذا التوجه الحاسم الذي سينوء بكلّك على

(1) انظر أعلاه، الفصل 7 الفقرة ب ص 154 - 156.

(2) إنّ الحكايات التي تتخلّل في كتاب الأغاني المعلومات المتعلقة بتراجم الشعراء الصعاليك أو الشعراء العذريين أو بتراجم المولدين (إذا ما اقتصرنا على هذه الأمثلة الثلاثة) تمثّل أصدق تمثيل لهذا النوع. ونذكر إلى جانب كتاب الأغاني كتب أخبار الشعراء، ويمثلها نخبة من كبار المصنفين في مواضيع مختلفة (الصولي، وطيفور والزبير بن بكار، والمزرباني...) وإن لم تصلنا من آثارهم إلا نماذج قليلة (الفهرست، ص ص 146 - 149، 163، 167 - 169).

(3) لا ننسّ كذلك كتاب ألف ليلة وليلة - وإن لم يدخل بعد هذا الأثر الفريد ضمن برامج التدريس بالجامعات العربية - وهو كتاب تتخلّل حكاياته ما يناهز 1500 قصيدة ومقطعة يلمس القارئ في مادتها التخيلية ومعارض صورها ونسق لغتها ما يذكر بشعر المحدثين، وبشعرنا المقلين على وجه الخصوص.

مصير البناء أو الهيكل النصي للأدب برزته، هو ذلك الهاجس الملح لدى من اشتغلوا بتدوين الآثار الداعية إلى الأخذ بقانون الاقتصاد والتوازن في نقل تراث غزير غزارة أثقلت كاهله وحتمت غربلته وانتقاء شواهد ذلك لضمان بقاءه⁽¹⁾. هو هاجس لم يفارق أساطين الرواية والجمع والمشتغلين بمختلف العلوم، وقد أدركوا قبلنا بزمان طويل الخطر المحدق بمدونة أدبية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بسنة دامت ثوابتها قائمة منذ قرون، وهي مدونة تحيل مادتها دوماً على تلك السنة (المرتبطة هي نفسها جوهرياً بنص تأسيسي هو القرآن) وتزداد يوماً بعد آخر فيتضخم حجمها حتى تغدو بعيدة المنال بالنسبة إلى غير العلماء المتبحرين. ولنذكر المرزباني مثلاً (ت 384هـ/984م) فقد اهتم بعلوم مختلفة وكان عليه أن يعتمر لقرائه إراثاً أدبياً عمره خمسة قرون، يُعدُّ في باب الإنتاج الشعري وحده ما يناهز خمسة آلاف شاعر⁽²⁾. لذلك كان لا بدّ من الاختصار حتى يمكن تداول هذا التراث والسير في شعبه وبلوغ مختلف أجزائه، أو، بإيجاز، حتى يكون في متناول الذين عليهم حفظه وتواصله، ونعني تلك النخبة المتزايدة العدد من الموسرين المتأدبين، الذين ألفوا تلك المجالس، وهم الذين عناهم العسكري (ت 395هـ/1004م) في مقدمة كتابه: ديوان المعاني⁽³⁾، وقد سارت على هذا النهج أجيال مؤلفي كتب الأدب المتعاقبة طوال ما يقارب الألف سنة، إلى «البغدادى»، مؤلف خزانة الأدب الشهيرة، وحتى بعده⁽⁴⁾. ومهما اختلف

(1) تصوّر المصنفات المتأخرة (من القرن السادس إلى الحادي عشر الهجري) بجلاء تواصل هذا الهاجس (انظر العباسي (ت 963هـ) صاحب «معاهد التنصيص» والبغدادى (ت 1073هـ) صاحب «خزانة الأدب»).

(2) نعرف من خلال ما قاله ابن النديم في الفهرست (طهران - ص 147) أن كتاب التراجم الذي أعده المرزباني، كان يحوي، في شكله الأصلي، قرابة خمسة آلاف شاعر.

(3) ديوان المعاني ص 7.

(4) انظر: أنوار الربيع...، لابن معصوم (ت 1120هـ/1707م) خاصة، وهو آخر كتاب مختارات قبل مختارات البارودي (ت 1322هـ/1904م)، ومجاني الأدب لشيخو (ت 1346هـ/1927م) ومختارات جميل صدقي الزهاوي (ط 1972، ص 275، 144 شاعراً) وديوان الشعر العربي لأدونيس (جزءان 1964 حوالي 350 شاعراً، بالنسبة إلى الفترة الممتدة من بداية الشعر العربي إلى أبي العلاء المعري، ت 449هـ/1057م).

منهج أولئك المؤلفين أو تباينت مواقفهم الإيديولوجية فإنهم لم يكتفوا بتخفيف المدونة بدرجات مختلفة، وبالتالي باختصارها⁽¹⁾، بل عمدوا إلى غربلتها وتشذيبها، وجمع بعض أجزائها إلى بعض، ومقارنتها، ووضع بدائل لها مما أفضى إلى ضبط التراث الشعري سوى الدواوين في ما يمكن أن نسميه «كتباً جوامع» وهي ضرب من الكتب تُقْتَضَبُ فيها المعارف اقتضاباً يفي بحاجة المريدن، فتولَّفُ بالنسبة إلى كل فن من فنون الأدب الزاد الأدنى الضروري للإلمام بذلك الفن، وتختلف طبعاً المعلومات من فن إلى آخر، وقد تتقاطع وتتراب وتنازع، إلا أنها تظل خاضعة لبنية واحدة، إذ أن مادة الاختيار القائمة على المرواحة بين الشعر والنثر في الأثر الواحد تظل الركيزة الأساسية الثابتة (أو اللبنة الأم) التي تقوم عليها هذه المؤلفات.

إن هذه «الكتب الجوامع» التي تبدو لنا دون نظير في الأدب العالمي⁽²⁾ من حيث أغراضها ومن حيث شكل تأليفها، (ولا يعنيها هنا إلا ما ورد فيه شعر) لا تخضع للتصنيفات التقليدية، وكفيها أن نتصفح قائمة المصادر والمراجع التي استندنا إليها في جمع مدونتنا، وإن كانت محدودة ووقية، دليلاً يقنعنا بما ذهبنا إليه، وقد أثبتنا هذه القائمة في ملاحق المدونة. يبقى تصنيف هذه الآثار تصنيفاً نمطياً باعتبار الوظيفة والهيكل ما دامت - كما مر - لا تخضع لقاعدة الأجناس أو الأشكال الأدبية ذات المعالم المميزة الواضحة، وهو عمل

(1) نشير هنا إلى أن لفظتي «مختار» و«مختصر» شهدتا، لأسباب لا يتسع المجال لبسط الحديث فيها، انتشاراً لم يسبق له نظير في العصور المتأخرة، وامتدتا إلى مختلف فروع المعرفة (ونذكر هنا أبا بكر الرازي في مختصر الصحاح، واليغمري في مختصر مقتبس المرزباني، وابن منظور في مختار الأغاني وسائر مختصراته كالعقد الفريد وبتيمة الدهر، وزهر الآداب، والذخيرة).

(2) يبدو أن الأثر الوحيد القائم على المختارات من تراث الثقافة الغربية الكلاسيكية هو - على حد علمنا - المختارات اليونانية أو المختارات البلاطية (*Anthologie palatine*) التي يعود تاريخها إلى الفترة الهيلينية، وهو كتاب مختارات بالمعنى الكامل، يحوي ما يقارب 3700 قصيدة، يعود بعضها إلى القرن السادس قبل الميلاد، بينما كتب البعض الآخر في فترة متأخرة (إلى القرن XI م) (انظر: دائرة المعارف العالمية المجلد 19 ص 90).

ينبغي إنجازُه لإبراز الأطر العامة لهذه الآثار، ويكون هدفه أساساً إبراز النصوص التأسيسية التي مثلت قاعدتها الأم، وانطلق منها بناء معلم «الأدب»، كما يُمكن هذا العمل - إلى جانب ذلك - من تتبّع مختلف أوجه تسلسل الآثار واندرج بعضها عن بعض وتبيّن مدى طرافتها، وإذا ما تعلق الأمر بالمدونة الشعرية التي تعيننا هنا، فإن ذلك العمل يُمكن أخيراً، من توجيه الجهود في البحث عن النصوص وجمعها وتحقيقها إلى مسالك تفضي إلى اقتصاد في الجهد وتضمن صرامة أشد ومردوداً أوفر. وقد سعينا - في انتظار ذلك العمل - إلى إعداد جدول لما بدا لنا السمات الكبرى التي تسم هذا التراث، حتى تتمكن من وضع مدونتنا موضعها الأمثل من نسق هذه الآثار وانسجامها العام. وقد بدا لنا مفهوم «المجموعة» (حيث تأتلف العناصر المكوّنة لها حسب الظاهرة الغالبة) المفهوم الأكثر ملاءمة للإحاطة بهذه السمات الكبرى⁽¹⁾، والسبيل الأقرب لتصنيف هذه الآثار.

● مجموعة: كتب الأدب التأسيسية: وهي آثار الرواد الأوائل: الجاحظ (البيان والتبيين)، ابن قتيبة (عيون الأخبار)، ابن المعتز (طبقات الشعراء)، طيفور (المنظوم والمنثور)، ابن الجراح (الورقة)، المبرد (الكامل)، ابن عبد ربه (العقد الفريد)، الفالي (الأمالي وذيلها)، ابن النديم (الفهرست).

● مجموعة: كتب الاختيار والمعاني، وهي كتب تُرتّب فيها المادة حسب الأنواع [النموذج: حماسة أبي تمام⁽²⁾] والأغراض [النموذج: حماسة البحري، وكتب المعاني] والمنوال: القديم ونظائره لدى المحدثين [النموذج: حماسة الخالدين] وبعض أصناف الخطاب [النموذج: التشبيهات لابن أبي عون] والترتيب الألفبائي [النموذج: الطريف: الدرّ الفريد لإيدمر⁽³⁾].

(1) سنذكر هذه المجموعات مرتبة حسب أهميتها (بكثير من التقريب) ولا يمكن البت في شأن القيمة الحقيقية لكل مجموعة في إطار النسق الذي عليه المدونة الشعرية للقرن الأول من الخلافة العباسية إلا بضبط سلم المقاييس الملائم لذلك، وهو عمل ينتظر الإنجاز.

(2) انظر الملاحظات القيمة التي يقدّمها الأمدي (الموازنة، ج 1 ص 55) بخصوص منحى أبي تمام في الاختيار.

(3) يتعلق الترتيب الألفبائي بأوائل الحروف من البيت لا بالرويّ (مخطوطة: اسطنبول، مكتبة =

والتوزيع التاريخي للشعراء [النموذج: الشعر والشعراء لابن قتيبة] والتوزيع الجغرافي [النموذج: يتيمة الدهر للشعالبي].

● مجموعة: كتب أخبار الشعراء [النموذج: أخبار أبي تمام للصولي، أو كتاب الأغاني]. والرواد في هذا الباب آل المنجم (القرن الثالث) وآثارهم مفقودة وكذلك المرزباني (القرن الرابع) وكتابه «المستنير» في ستين مجلداً ولم يصلنا⁽¹⁾.

● مجموعة: كتب الأدب المفردة، وهي كتب تكون فيها مواد الخطاب المتعلقة بموضوع ما معروضة عرضاً نسقياً، والنماذج هنا مختلفة جداً، نذكر منها كتاب الزهرة [موضوعه: الحب وتصاريفه] لداود الأصفهاني، وكتاب التحف والهدايا للخالدين، والفرج بعد الشدة للتوحي، وكتاب الموشى [موضوعه: الظرفاء باعتبارهم فئة اجتماعية] للوشاء، وكتاب الصداقة والصدى للتوحيد، وكتاب الديارات [موضوعه: الأديرة] للشابستي، وكتاب المحاسن والمساوي للبيهقي⁽²⁾، وكتاب قطب السرور [موضوعه: الخمر] للريق وأخيراً كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ...

● مجموعة: أدب - مقامات، (مثل: مقامات الهمذاني، مقامات الحريري).

● مجموعة: كتب التراجم (مثل: معجم الشعراء للمرزباني، والمؤلف والمختلف للآمدي، والمحمدون للقفطي، ومعجم ياقوت...).

● مجموعة: أدب الشروح؛ النماذج: بالنسبة إلى نصوص النشر الأصول: شرح المقامات للشريشي، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، أما

= الفاتح، عدد 3761، وقد تصفحناها وهي على حالة حسنة).

(1) انظر الفهرست (ط طهران) ص 160 - 161 و 146 - 149.

(2) نشير إلى أن هذا الكتاب هو الوحيد الذي احتفظ لنا بقصيدة أبي فرعون الساسي الطويلة

كاملة (48 بيتاً، من بحر الرجز، روي الميم وقد أثبتناها في مدونتنا ج 3، ص ص 76

- 79)، ومن ثم تكتسب مثل هذه الكتب أهميتها في المحافظة على بعض الآثار.

بالنسبة إلى الشعر، فنذكر الشروح التي من صنف شرح الحماسة للتبريزي، وشرح لامية العجم للصفدي، وأما بالنسبة إلى نوع الشواهد، فنذكر معاهد التنصيص للعباسي، وخزانة الأدب للبغدادي.

● مجموعة: أدب - نقد (النماذج: كتاب الصناعتين للعسكري، والوساطة للجرجاني، والموشح للمرزباني، والإبانة للآمدي، والعمدة لابن رشيق).

● مجموعة: أدب - بلاغة (النماذج: كتاب البديع لابن المعتز، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني)⁽¹⁾.

● مجموعة: أدب - طبقات: وهي كتب تجمع تراجم أعلام لمعوا في بعض فنون المعرفة، مرتبة حسب الطبقات أو الأصناف أو الأجيال أو المدارس... نذكر منها تمثيلاً، كتاب المقتبس للمرزباني (وفيه ترتيب بحسب المدارس لعلماء اللغة الرواة في الفترة الكلاسيكية)، وكتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (مرتبة بحسب أصل الأطباء) وكتاب طبقات الشافعية للسبكي، وكتاباً في طبقات المالكية أيضاً بالنسبة إلى المغرب الإسلامي وهو كتاب المالكي النفيس (ت 453هـ/ 1161م): رياض النفوس⁽²⁾.

● مجموعة: أدب - نوادر (النماذج: جمع الجواهر للحصري، عقلاء المجانين للنيسابوري، وكتاب التطفيل للبغدادي، ومصارع العشاق للسراج وأخبار الأذكياء لابن الجوزي).

(1) دون أن نهمل الآثار المهمة التي خلفها الباقلاني (إعجاز القرآن) والخفاجي (سرّ الفصاحة) والسكاكي (مفتاح العلوم) وحازم القرطاجني (منهاج البلغاء) وهي كتب تقدّم قراءة غالباً ما تكون مفيدة للمدونة الشعرية في جملتها.

(2) لا تتعلق كتب هذه المجموعة، وهي المصادر الأساسية التي يعتمد عليها دارس تاريخ الثقافة عموماً، بموضوع حديثنا بصفة مباشرة طبعاً، غير أن بعض الإشارات ذات الطابع الأدبي أو الاجتماعي الثقافي التي يمكن التقاطها من حين لآخر من خلال هذه الكتب، قد تكون - كما بيّن ذلك البحث الحديث - مصدر معلومات ثمينة تضيء هذا الجانب أو ذاك من مدونتنا (انظر أعلاه، ص 165، الهامش 2).

- مجموعة: أدب - كشاكيل، وهي كتب مختارات تلازم صاحبها وتكون عمدة المثقف، فهي كالخلاصة من ثقافة تعتمد التبسيط وتبغى الانتشار (النماذج: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، والمستطرف للابشيبي).
- مجموعة: أدب - موسوعات (النماذج: نهاية الأرب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري...).
- مجموعة: أدب - جغرافيا (النماذج: معجم البكري، معجم البلدان لياقوت...).
- مجموعة: أدب - تاريخ (النماذج: مروج الذهب للمسعودي بالنسبة إلى التاريخ العام، تاريخ بغداد للبغدادى أو تاريخ دمشق لابن عساكر بالنسبة إلى تاريخ المدن).
- مجموعة: أدب - معجمية (النموذج: لسان العرب لابن منظور)(*) .

* * *

لئن حرصنا على ضبط هذا الإطار الوقتي وعلى إبراز هذه المجموعات الكبرى، فما ذاك إلا لتأكيد ما في المصادر التي لا بد لكل بحث جاد في المدونة أن يراعيها من اتساع ووفرة وتنوع. غير أننا نرى من المفيد - قبل ختم هذا الفصل الأخير - أن نذكر بأن مترعين يتواصل تقابلهما في مستوى التعليم والبحث الجامعي، فيما يتعلق بقيمة هذه المدونة التي وصلتنا على حالة من التفتيت نعلمها عن طريق المختارات.

فكثيرون هم الذين يذهبون إلى أن «التاريخ»، وهو الحكم العَدْل، إن لم يحتفظ لنا إلا بشذرات من مدونة الشعراء المغمورين، فما ذاك إلا لأن هذه الآثار التي ذهبت شظايا وضاع أكثرها، إذا أنت وازنتها بـ «المنارات» أو «المعالم

(*) ما من أثر من هذه الآثار التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر في هذا الجدول إلا ورد مصدراً من مصادر تخريج مدونتنا، مما يؤكد أن مفهوم «الأدب» عند العرب يستوعب إلى أبعد حدّ المفاهيم الأصول التي تحدتت بها وجوه الثقافة العربية في أوسع معانيها، وهو ما تتضح به، في رأينا، إحدى خصائص هذا الأدب النوعية التي تميّزه في أشكاله ومضامينه عن سائر الآداب العالمية كما لمّحنا إلى ذلك آنفاً.

الجليلة» التي تُمثلها دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحري الخ...، أدركت أنها لم تكن البتة حقيقة بأن تصل إلى الأجيال اللاحقة. وقد ظل هذا الموقف الرافضُ لمدونة همشها التاريخ - لأسباب لا تمت بصلة في الغالب لخصائص تلك المدونة وميزاتها في حد ذاتها - موقف أولئك المحافظين على مثل كلاسيكي أعلى للشعر، ونبادر إلى القول إنه مثل أعلى نشأ في فلك السلطة وهو مرتبط برُعاة الأدب وأهله من رجال الدولة، وقد حافظت عليه وتناقلته أجيال الأدباء (منذ المفضل الضبي وابن قتيبة في العصور المتقدمة إلى سامي البارودي في العصر الحديث)، وقد كان معظمهم من خدمة ركاب النظام القائم.

بينما يرى غيرهم - ونحن منهم - عكس ذلك، ويذهبون إلى أن مدونة الشعراء المقلين لئن لم تسلم من الآفات التي دهمتها على مدى ألف سنة ونيف فإنما ذلك يعود - وهو ما حاولنا استقصاء تحليله في هذا البحث - إلى وضع خاص تتميز به هذه المدونة: فهي بوفرته، وبابتعاد أطرها التعبيرية غالباً عن الأشكال التقليدية التي تمثلها فنون الشعر الكبرى، وبتحركها في مجموعها ومن حيث مطامحها الأغراضية، خارج النظام الثقافي القائم الذي حدّد معالمه أساطين العصر مثل ابن قتيبة، قد كانت عرضة - حتماً - لكل أشكال الإغارة والاعتصاب⁽¹⁾،

(1) قد تعرضنا إلى هذه القضية بشيء من الإستقصاء في الجزء الثاني من المدونة (ص 62 - 66)، كما أشرنا إلى بعض جوانبها في غضون هذه الدراسة (ص 124 - 125). ونذكر هنا بأن من بين أشكال «الإغارة» أو «الاعتصاب»: القطع والبتر ممّا يُقضي إلى تفتيت المدونة والقضاء على تماسك أجزائها، والإغفال بالتسلط على بعض أقسام منها والتفرد به وعدم إذاعته كما فعل سلم الخاسر ببعض شعر بشار، ثم إسقاط العزو عمداً، ونسبة الشعر الواحد إلى أكثر من شاعر إمّا لهوى أو عن خطأ...

على أننا هنا نؤكد بوجه خاص شكلين من أشكال «الاعتصاب»، نراهما أكثر من غيرهما دلالة: أولهما: معروف مألوف، يكاد يعمّ الالتجاء إليه واستعماله، وهو استعمال الشاهد الشعري عارياً، دون ذكر صاحبه (نذكر من بين أمثلة كثيرة جداً، مثال التوحيد الذي، لم يذكر إلا قليلاً أصحاب الشواهد التي تعدّ بالمشات في كتاب الصداقة والصدق. ولا نظنه أتى ذلك استهانة أو تجنّياً، وإنما هو، في رأينا، الشعر العربي يقطعه الكاتب الحاذق من أصوله ويورده شاهداً لتوشية الخطاب، فينصهر في صلبه انصهاراً ينسبك =

ومن ثمّ كان مآلها التشتت⁽¹⁾. ولكن أعني هذا أن ما بقي من هذه المدونة - وهي نف متفرقة من آثار لعلها فقدت إلى الأبد - لا يعطي صورة من الأصل متكاملة كافية تمكننا من النظر في هذه المدونة ودراستها وإبداء الرأي فيها؟ لا نظن ذلك، وقد أكدنا شرعية عملنا هذا في المقدمات المختلفة ومحاولات التحليل والتقييم والمقابلة التي صدّرنا بها كل قسم من أقسام المدونة. بل إننا نزعم - وهي كلمة الختام لهذا الفصل - أنه لولا تلك المهارة الفائقة التي برّهن عليها أساطين الجمع والاختيار في السيطرة على مادة الأدب - وقد ذكرنا بعضهم آنفاً - لما وصلتنا تلك الشذرات من آثار لمغمورين اندثرت اليوم، لا تقل قيمة عن آثار «الفحول»، ونذكر خاصة وجهين كبيرين من وجوه الشعر في ذلك

- = قائله، وبذلك يستتر الشاعر ولا تبقى إلّا يد الكاتب الصانع الوشاء شاهدة على الأثر).
أما الشكل الثاني: فقد أدى بأصحاب الجمع والاختيار إلى:
- التصفية والتطهير (حذف ما في النصوص من فحش، كما يقرّ ابن المعتز نفسه بذلك في طبقات الشعراء، ص 366).
- تشذيب النصوص بطرح ما يبدو غير موافق لذوق الجمهور أو للمثل الأعلى الكلاسيكي (مثل ذلك عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب، وهو شاعر من القرن 3هـ/9م. الذي اقترح على المبرد نسخة مهذبة من ديوان أبي تمام قال: «قرأت عليه أشعار أبي تمام وأسقطت خواطئه وكل ما ذم منه وأفردت جيده»، مروج الذهب - ج 4، ص 368، أو مثل محمد صبري، في العصر الحديث، وقد نشر الشوقيات المجهولة 1961، 1962: انظر المدونة ج 2، ص 61 هامش 5).
- أو مجرد توجيه الاختيار (قصر العناية على شعراء الحضر، وهو ما فعله ابن الجراح في «الورقة» أو ابن المعتز في «الطبقات».)
(1) نجد إشارات متفرقة عثرنا عليها في أهم آثار (القرنين III - IVهـ / IX - Xم)، تمثل منذ وقت مبكر هذا التشتت، نذكر بعضها:
- يقرّ الصولي في حديثه عن أبي العبر (المدونة ج 3، ص 387) بأنه لم يجد معنى لذكر بعض أشعاره في التحامق «لا سيما وقد شهّرت في الناس».
- ويقول ابن المعتز أيضاً في حديثه عن أبي نواس أنه لن يذكر في مختاراته من شعر الشاعر إلّا «ما لم يشتهر عند العوام» (طبقات، ص 211).
- وردت مثل هذه الملاحظة عند الخالدين (الأشياء والنظائر، ج 1، ص 2).
- أما ابن قتيبة، فإنه على عكس من ذكرنا، وقد قال صراحة في مقدمة مختاراته أن حديثه سيقصر أساساً على الشعراء المشهورين.

العصر: «أبو الشيص [وقد عدّه ابن رشيق من طبقة أبي نواس ممن يمثلون أحسن تمثيل مدرسة المحدثين⁽¹⁾]، وربيعه الرقي [وقد ذكره ابن المعتز باعتباره أحسن الشعراء الغزليين في جيله⁽²⁾]، ونضيف إليهما ثالثاً، هو أبو عيينة وقد ذكره الجاحظ ضمن الشعراء الذين فاقوا شعراء جيلهم والجيل السابق⁽³⁾، ثم إنه بفضل هذه المهارة نفسها أيضاً وصلتنا آثار أساسية في معرفة بعض فترات التاريخ الأدبي ضاعت أصولها، ونقصد هنا خاصة الأنموذج لابن رشيق (ت 463هـ/971م)، وقد وصلنا الجزء الأكبر منه بفضل مختارات العمري (ت 748هـ/1347م) والصفدي (ت 764هـ/1362م)⁽⁴⁾ وما قولك في هذه «المجاميع الباهرة» على حدّ عبارة فون قرونباوم المتقدم ذكرها، من أمثال كتاب الزهرة لابن داود، والتحف والهدايا للخالدين، والموشى للوشاء، والمصون في الأدب للعسكري وغيرها من الآثار الطريفة التي لولا ما رصّعت به نصوصها من الشعر في سياق الاختيارات، ما كانت تصلنا تلك الأشعار.

وبعد، أيمن أن نجد اعترافاً بالفضل لأولئك الذين اختاروا وانتخبوا واقتطعوا من الآثار ما اقتطعوا، خيراً من عبارة التبريزي الشهيرة (ت 502هـ/1109م) في أبي تمام، مؤلف «الحماسة» حين قال: «إن أبا تمام كان في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره»⁽⁵⁾.

(1) العمدة، ج 1، ص 101، وانظر أيضاً: المدوّنة ج 1 ص ص 193 - 218.

(2) الطبقات، ص 159، وانظر أيضاً: المدوّنة ج 2، ص ص 275 - 298.

(3) البيان والتبيين، ج 1 ص 50، وانظر أيضاً: ديوان ابن أبي عيينة: بقلم: عامر غديرة، مجلة الدراسات الشرقية (B.E.O) المجلد 19، 1965 - 1966.

(4) انظر: الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية... ص XXIV.

(5) انظر: شرح ديوان الحماسة، ج 1 ص 4.

الخاتمة وآفاق البحث

ها نحن في خاتمة هذا المطاف، مطافٍ لِجِئِن. وقد أشرنا في مقدمات هذا البحث إلى أن العمل الجامع الذي أقدمنا عليه له حدوده، وقد كانت همتنا، في جانب أول منه أن نساهم - بقدر ما تسعه النفس - في الجهود المبذولة منذ بضعة عقود بهدف جمع شامل لمدونة الشعراء المغمورين في الفترات الكلاسيكية، وهو عمل طموح يقتضي - إذا ما استثنينا بعض الدواوين القليلة التي وصلتنا - أن نبتعث هذه المدونة المفقودة، أي أن نعيد تكوين ملامحها العامة انطلاقاً من القليل الذي بقي منها. ثم إننا سعينا في مرحلة ثانية من عملنا إلى أن نفتتح باب النظر وإعمال الرأي في المادة التي جمعنا، بهدف إعداد جرد وصفي عام تبيّن من خلاله السمات العامة التي تميّز هذه المدونة عبر مسارها في ألف سنة ونيف: حركيتها الداخلية، والحالة التي وصلتنا عليها، ومختلف العوامل التي أدّت إلى تشتتها، ومن ثمّ فإننا تنزّلنا بعملنا - منذ الوهلة الأولى - في سياق ما درج الدارسون على تسميته بالأعمال التمهيدية. وهو عمل تقني يذكر بعمل عالم الآثار (التنقيب وجمع المادة) ويعمل عالم طبقات (الأرض محاولة استعادة المسار التكويني)⁽¹⁾ ولكنه - بإزاء ذلك - عمل بحث وتتبّع لمستور الظواهر يُسند

(1) وجد جان بولاك (Jean BOLLACK) نفسه في عمله المتعلق بنصوص «أمبيدوكل» (EMPEDOCLE) و«أبيقور» (EPICURE) المطوية (تحقيق ما تبقى من آثارهما وتأويله) مدفوعاً إلى تأكيد اقتناعه بجذوى ما أسماه «علم الآثار الفكري وما في مقولاته من صرامة»، معتبراً أنّ «ترميم الآثار وتحقيقها هو ترياق ما في التاريخ من جور عليها» (انظر: حوار... المذكور ص 39).

للمشكّلية منزلة مرموقة. ذاك كانا المسلكين اللذين اتخذناهما بالتداول طوال مسارنا في البحث. فما كانت نتائج هذا المسار المزدوج؟

- 1 -

المدوّنة

سعيّنا في هذه المرحلة الأولى إلى جمع أكثر ما يمكن جمعه من المادة، وتحدّد مجال النظر بخمسين شاعراً جمعنا وحقّقنا لهم ما يناهز ثمانية آلاف بيت، جزء منها غير منشور⁽¹⁾، غير أنّنا تجاوزنا، لأسباب منهجية عمّلنا على تبريرها، الفترة الزمنية المحددة، من طرفيها، فمكّنتنا ذلك من أن نضيف إلى المدوّنة الأساسيّة عينات من آثار سابقة لها أو لاحقة وهو ما يساعد - في إطار آفاق تحليل مُقارَبي تفرضه طبيعة المدوّنة كما سعيّنا إلى بيان ذلك في بحثنا - على تقويم أحسن، يشمل كامل إنتاج ذلك العصر.

أمّا ترتيب المادة التي جمعناها وتبويبها فقد أثار أماننا مشكل الاختيار، ولمّا لم يكن همّنا متّجهاً إلى عمل يتناول الآثار بالتحليل، وهو عمل يستوجب قبل القيام به توزيعاً وظيفيّاً صارماً لمادة المدوّنة، فإنّه لم يبق لنا إلا تناول النصوص في إطار مقارنة وقتيّة، غير أنّنا جهدنا غايّتنا في تجنّب إدراج الشعراء وآثارهم في الجداول المتعارف عليها من التقسيمات الآلية من صنف تلك المتبعة في جلّ كتب تاريخ الأدب والنقد⁽²⁾، ونحن على علم - ونكتفي بأن

(1) يتعلق القسم غير المنشور من المدوّنة، بديواني خالد الكاتب وراشد بن إسحاق أبي حكيمة خاصة. أمّا قائمة الشعراء الذين ذكرناهم، فيمكن العودة إليها في الجدول المثبت في الجزء السادس.

(2) نذكر هنا الجداول التي يقدمها الجوّاري، ويحدّد فيها ثلاث طبقات من الشعراء: (انظر كتابه «الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري»):

أ - المجددون «وهي طائفة غلب عليها الهزل والمجون... وعلى رأسها بشار بن برد».

ب - المتفننون (وهم وسط بين التقليد والتجديد).

ج - المقلدون «وهي طائفة جرت في مضمار الأقدمين من دون أن تتأثر بالحضارة في قليل أو كثير».

نسوق هنا مثلاً واحداً - أن أغلب الأعمال المتعلقة بهذه الفترة منذ الوقت الذي كان فيه طه حسين وبعض المستشرقين يضعون اللبنة الأولى لمقاربة نقدية للشعر العربي في العصور الكلاسيكية - قد عملت على تركيز توزيع الشعر المحدث في الفترة التي تخصنا من حيث خصائصه التجديدية، على قطبين يناسبان تيارين متميزين، وطابعين اجتماعيين، تيار الخلاعة والمجون، وتيار الزهد، غير أن دراسة الآثار تكشف بوضوح أن هذا التوزيع، وهذا الحصر لا يناسبان بدقة لا حقيقة العصر ولا حقيقة الآثار، كما تكشف أن مختلف طرائق التعبير لدى هؤلاء الشعراء بعيدة عن أن تفضي إلى مثل هذا التقسيم القائم على أساس أشكال قطعية لمصادر الإيحاء، بل هي متجاوزة لا ينفي بعضها بعضاً في مستوى الآثار: بل إننا - إلى ذلك - نعلم أنه في مستوى آخر، مستوى الصنعة والاختراع، تتراشح في هذه الآثار نفسها مسالك التقليد والتجديد⁽¹⁾ وهو ما يجعل غير ذي موضوع تقسيماً آخر لطبقات الشعراء سارت عليه أجيال النقاد في العصر الحديث جِزياً على سَنَن الأقدمين، وهو تقسيمهم بل حشرهم في تيارين

= كما نذكر جدول شوقي ضيف، وقد اختار فيها توزيعاً شكلياً محضاً موزعاً على ثلاث مجموعات: (انظر كتابه «العصر العباسي الأول»):

- أ - أعلام الشعر (وهم بشار، أبو نواس، أبو العتاهية، مسلم بن الوليد وأبو تمام).
- ب - شعراء السياسة والمدح والهجاء (وهم شعراء الدعوة العباسية، وشعراء الشيعة، وشعراء البرامكة، وشعراء الوزراء والولاة والقواد، وشعراء الهجاء).
- ج - شعراء مختلفون (حسب التصنيف التالي: الغزل - المعجون والزندقة - الزهد - الاعتزال - النزعات الشعبية).

ونذكر أخيراً جداول البهيتي، وقد اختار فيها توزيعاً حسب المدارس: (انظر: «تاريخ الشعر العربي»).

- أ - المدرسة الشعبية العامة (وعلى رأسها أبو العتاهية والعباس بن الأحنف).
 - ب - المدرسة الشعبية الخاصة (وأشهر أصحابها: مسلم بن الوليد - أبو نواس).
 - ج - مدرسة أنصار مذهب الأوائل (ودعائهما: مروان بن أبي حفصة - العتابي - منصور النمري).
- انظر، فيما يتعلق بهؤلاء المؤلفين الثلاثة قائمة مراجعنا، وفيها ذكر لمؤلفاتهم المشار إليها هنا.

(1) انظر أعلاه، الفصل الثاني ص 55 - 59.

متناقضين: تيار المجدّدين وتيار المقلّدين⁽¹⁾.

ولذلك ترانا قد اخترنا توزيعاً آخر مرناً، يبرز أهمّ الخصائص التي تسمّ أوفر جزء ممّا تجمّع لدينا من شتات الآثار التي يُعنى بها بحثنا. ولقد أفضى بنا ذلك إلى إقرار إطار للنظر يشمل خمس مجموعات من الشعراء متميّزة وخصّصنا لكلّ واحدة منها جزءاً من المدوّنة، وقد أدّت بنا النصوص التي أثبتناها وحققناها وضبطنا حواشيها وحللنا بعضها أحياناً في كلّ جزء إلى إبداء جملة من الأفكار يحسن التذكير هنا بخطوطها العريضة.

● فقد أثّرنا في الجزء الأوّل من المدوّنة، وانطلاقاً من مثال مخصوص - ونعني خاصة خلفاً الأحمر - إحدى المسائل الشائكة القائمة منذ القديم في صلب إشكالية الشعر والخلق الفنّي، ألا وهي مسألة الانتحال في معناه الواسع (تقليد نموذج، اقتباس أو تضمين قد يشار إليه أو يسكت عنه، نسبة نصوص إلى غير أصحابها، الوضع، السرقة). وتساءلنا عن موقف العلماء والنقاد القدامى من هذا الشعر الذي يبغي أن يكون عودة إلى الأصول، أو ضرباً من الدفاع عن الثقافة البدوية والتمثيل لها وقلنا: أينبغي أن نفتحي الأقدمين ومن تبعهم من المعاصرين⁽²⁾، وذلك بالرجوع دوماً إلى نماذج قد ضبطت ضبطاً نهائياً (هي نماذج الفترة الأولى أو العهود التأسيسية) لكي نستطيع فكّ رموز هذا الشعر، أم علينا أن نسعى إلى أن نتبيّن من خلال ما يقوله خلف أو البهذلي أو أبو شراعة⁽³⁾، مساراً تاريخياً طبع مرحلة من مراحل تطور الشعر العربي في القرن الثاني نعمل على إدراك دلالتها العميقة؟

● أمّا في الجزء الثاني فقد حاولنا تجريد مفهوم «الغزل» من ذلك المنظور الثنائي الذي قيّده به القدماء حين صنّفوه إلى «عفيف» و«ماجن»⁽⁴⁾

(1) انظر المدوّنة، ج 1، تصدير عام.

(2) نقصد المستشرقين أهلواردت (AHLWARDT) وبلاشير (BLACHERE) وطه حسين (انظر: الجزء الأول ص 54).

(3) انظر: المدوّنة، ج 1: «ثقافة البادية ومسالكها لدى ثلّة من شعراء العصر».

(4) «العفة» هنا تقترن بمنحى العذريين، و«المجون» بمنحى عمر بن أبي ربيعة مع الملاحظة =

(انظر الشعر والشعراء وكتاب الأغاني)، وما تفرّع عن هذا المنظور، في الدراسات الحديثة، من مصطلحات أقيمت على هذه الإزدواجية في تصنيف هذا الفن⁽¹⁾: من غزل أفلاطوني إلى غزل واقعي، ومن رمزي إلى تحقيقي، ومن عذري إلى إباحي، ومن عفيف إلى ماجن، ومن عاطفي إلى حسّي، ومن بدويّ إلى حضريّ... دون ما تحديد واضح دقيق لما تُجرّبه هذه المصطلحات من مفاهيم كثيراً ما تجمع في آن واحد لدى الدارسين بين الدلالة الفنية والدلالة السلوكية والدلالة الاجتماعية - خرجنا إذن بمفهوم الغزل عن هذا التصوّر الثنائي - ومنحاه السهولة والتبسيط كما نرى - وأدرجناه في سلك إشكالية تتخطى الأضداد (أو ما يبدو كذلك) وتوحد بين ما تقابل من الأطراف. وقد أدّى بنا ذلك إلى التساؤل عن طبيعة هذا الشعر نفسها: أتدفعه حركة داخلية هي حركة تقاليد موروثة تُعتبر ثقافة في حدّ ذاتها ليس قبلها ولا بعدها غيرها، أم إنها تعبير عن دوافع عميقة (وقد تكون غير واعية أحياناً) تعتمل في نفوس الأفراد⁽²⁾؟ لقد

= أن هذه الرؤية القائمة على الاشتراك حسب أزواج محسوم فيها تجعل مفهوم الغزل غير ثابت، فقد يتزاح، قليلاً قليلاً وبمقادير لا ضابط لها، من التعبير عن الحب في دقيق لطائفه وخفائيه إلى وصف الشهوة العارية في أقبح صورها.

(1) انظر: نلينو (NALLINO): الأدب العربي... طه حسين: حديث الأربعماء - البهيتي: تاريخ الشعر العربي... شوقي ضيف: العصر العباسي الأول - شكري فيصل: تطور الغزل... بنت الشاطئ: قيم جديدة... هذارة: اتجاهات الشعر... يوسف حسين بكار: اتجاهات الغزل... أدونيس: ديوان الشعر العربي... دائرة المعارف الإسلامية: مادتي «غزل» و «عذرة».

(2) ألا يمكن أن نضيف هنا - فتحاً لآفاق البحث والنقاش - أنّ الغزل في مختلف أشكاله [كما بيّن ذلك جورج دوبي Georges DUBY («الأنظمة الثلاثة»، ص ص 405 - 425) بالنسبة إلى المجتمعات الغربية في العهد الوسيط]، قد كان في البلاد الإسلامية مبدأ من المبادئ التعديلية للوضع الاجتماعي؟ ولتذكر هنا الدور الثقافي بالدرجة الأولى الذي كانت تقوم به القيان في المدن، زمن العباسيين (انظر فهارسنا ونجد صدى ذلك واضحاً في كتب الجاحظ (انظر: كتاب القيان - ضمن: رسائل الجاحظ ج 2 ص ص 143 - 182، وكذلك الليلة الثامنة والعشرين من كتاب الامتاع والمؤانسة للتوحيد). ودور القيان هذا يذكّرنا في بعض وجوهه بدور الجوّاري، «بنات الهوى» المثقّقات في التقاليد البابلية القديمة من اللواتي قمن بتعليم «أنكيدو» الإنسان المتوحش ابن الصحراء، =

استندنا في معالجة هذه القضية من بعض زواياها إلى قصيدة مطوّلة لشاعر مجهول، وهي «القصيدة اليتيمة»، الموسومة بالدّعدية (وهي في 70 بيتاً من الكامل، رويها دال مضمومة) فانطلقنا منها لولوج إشكالية الشعر الغزلي عموماً، وافتتحنا بهذا هذا الجزء الثاني، واعتبرناها ممثلة لهذا الفنّ، لبنائها المتميّز ولما يجري فيها من أغراض على عدّة مستويات، فمكّنتنا ذلك من اتّخاذ موقف من هذه المسألة التي طال الجدل بشأنها ومن استخلاص أنّ هذه القصيدة النموذجية من حيث بنائها الثنائي، ومن حيث أساليب الكلام المستعملة فيها، وطبقات الدلالة التي تتراكب فيها تمثل جانباً كبيراً من شعر الغزل⁽¹⁾ إذ هي تقدّم رؤية موحّدة للرجل العاشق في علاقاته بالمرأة المعشوقة، يلتقي فيها - من خلال كوكبة من الرموز ممثلة جميعها في القصيدة - كائنات، ليسا متناقضين كما يوحي بذلك ظاهر بنية القصيدة، بل هما كائنات في توافق وتراشح كليين: أولهما «ثقافي» وهو مستودع لمكارم الأخلاق وجميع الخصال المتّصلة بنبل الروح وكمالها (وهي الخصال التي يتغنّى بها الشاعر في الأبيات 41 إلى 70)⁽²⁾، أمّا الآخر، «فطبيعي»، يسعى - من خلال دعد، وهي الحبيبة التي يرد وصفها (الأبيات 12 - 40) في تمام عريها الحسي، بما في ذلك الأجزاء المستورة من جسدها - إلى تحقيق منزلة حسية للكيان يمكن بلوغها عبر الشهوات جميعها: وفي ذلك ما فيه - إذا نظرنا إليه من زاوية مخصوصة - من الإشارة والتلميح إلى الرؤية القرآنية للإنسان. وهي رؤية قائمة على مزاجية الأضداد، يجتمع فيها طرفا جدلية تسعى إلى التوحيد بين مسالك الحس ومسالك الروح⁽³⁾.

= ودربته على الحياة الحضرية بالمدينة (انظر في هذا دراسات «جان بوتيرو» (Jean BOTTERO)) حول «المعتقدات والتقاليد البابلية».

- (1) انظر تحليلنا هذه القصيدة والحديث الذي صدرناها به - ج 2 ص ص 13 - 36.
- (2) انظر عيار الشعر (ص ص 12 - 13) حيث يذكر ابن طباطبا الأخلاق التي تمدّحت بها العرب وجماعها الفتوة والمروءة وما تفرّع عنهما من خلال ومعظمها يذكر بالفتى كما تصوّره «الدّعدية». انظر كذلك في نفس السياق: «حلية المحاضرة...» للحاتمي.
- (3) نحيل هنا، تعميقاً للنظر في هذه الإشكالية، على التحاليل الموحية إلى حدّ بعيد، التي يقدمها عبد الوهاب بوحدية في دراسته: «الجنسانية في الإسلام»:

(La sexualite en Islam, Presses Universitaires de France, 1957).

● ويحتلّ الجزء الثالث مكاناً خاصاً من المدوّنة لتنوّع الأغراض المقدّمة فيه، وقد سعيّا فيه - من خلال النصوص - إلى وضع الخطوط العريضة الإشكاليّة الضحك والإضحاك، وإلى بيان أنّ العرب - في جانب كبير من شعرهم دون استثناء الأغراض الكبرى من غزل وهجاء ورثاء ومدح - كانوا مولعين بفنون التعبير الهزلي في مختلف أشكاله: من الدعابة إلى التهزّل إلى التفتّن في مسالك السخف والرقاعة والسماجة والتحامق⁽¹⁾، فأثى شعرهم في هذا الباب حافلاً بلطائف الفكاهات وأفانين المضاحك، شأنه في ذلك شأن «الألّهية» يُقصدُ بها إلى الترفيه والإمتاع، إلّا أنها قد لا تخلو من لاذع سخريّة وصريح نقد. وقد كانت هذه الأشكال من الخطاب الشعري رائجة في مجالس بغداد، تُعقد لها المنتديات (على نحو ما ذكرنا من مجالس المتوكل وأبي العبر)⁽²⁾ ويُشجّع عليها الخلفاء أنفسهم.

● أمّا في الجزء الرابع، فقد عملنا على أن نبين من خلال شعر راشد بن إسحاق أبي حكيمة خاصة، انزلاق بعض أشكال الخطاب الرثائي، ونعني هنا الشكوى، من الجدّ، وهو طابع هذا الغرض، إلى الهزل. وقد مكنتنا بعض المقاطع من هذا الجزء أن نلاحظ عند بعض كبار الشعراء انزلاق غرض الشكوى والتفجّع، من بكاء الموتى إلى بكاء المدن.

● وقد مكّنتنا الجزء الخامس - انطلاقاً من إشكاليّة اللذة (دواعيها، أسبابها، الإشادة بها، الدعوة لها) - من التساؤل عن علاقة الشعر بالضمير الديني⁽³⁾،

(1) نشير هنا، بالنسبة إلى أفانين السخف والرقاعة والتحامق، إلى أنّ هذه الأشكال التعبيرية قد كان يتعاطاها لا فقط الشعراء المهزّجون المضحكون من أمثال أبي دلّامة وأبي العبر وأبي العجل، بل وأيضاً العلماء والأعيان (انظر المدوّنة، ج 1 ص 17 ثمّ ص 63 - 65 وج 3 ص ص 203 - 210).

(2) انظر: المدوّنة ج 3 ص 15، ثمّ ص ص 375 - 392.

(3) انظر، بالنسبة إلى العلاقة بين الأخلاقيات والجماليات، ما كتبه ميشونيك (MESCHONNIC) من أفكار على غاية من الإيحاء، في كتابه: «من أجل الشعرية»

(Pour la poetique III, p. 129 Sq.)

فقادنا ذلك إلى استخلاص ما قد يبدو في الأخلاقية الإسلامية، في علاقتها بسلوك فئات «المستهترين» من الشعراء، من لبس وليس بلبس، وإلى تبين الدور الذي اضطلع به الشعر دون النثر عموماً⁽¹⁾ في التعبير المباشر - دون ما قيد ولا رقابة - عن الحرية في مجال الرؤية ومجال السلوك، وقلنا: «إن الازدواجية في السلوك التي أثرت لجمع غفير من شعراء العصر (إثم يعقبه ندم) لم تكن، من الوجهة العقائدية، على ما يبدو، لتدخل ضيقاً على الدين، فتأرجح هؤلاء بين الأضداد من ظاهر يجاهر بالإباحة، وباطن سائر في طريق الندم، حالة تكاد تكون مألوفة لديهم، وكلهم كسعيد بن وهب (وكان شاعراً مطبوعاً مشغوباً بالغلمان والشراب) «يموتون على توبة وإقلاع ومذهب جميل» كما يقول أبو الفرج، ولم يخفَ أمرُ هذه الازدواجية عن القدماء، فوجدوا مخرجاً لها في ما نحلوه المأمونَ عندما تدبر الأمر وقال: «إن الشراب بساط يطوى ما عليه». ثم إنه لا يبعدُ عندنا أن يكون معظم أهل الخلاعة من عامة الشعراء الذين ذكرناهم قد جاهرُوا بما جاهرُوا «تماجناً لا اعتقاداً»، وأنهم كانوا كذلك في بعض أحوالهم لا جميعها، وأنهم لم يختلفوا عموماً في هذا كله عما كان عليه مشاهير الشعراء أمثال أبي تمام في خلواتهم وأوقات لهوهم»⁽²⁾.

- 2 -

بحثنا هذا

عملنا - في هذا المستوى الثاني، وانطلاقاً من بحوث حاولنا استقصاء الغرض فيها - على استخلاص تقويم وصفي شامل للمدونة، يتسع لكل الشعراء المقلين الذين عاشوا في الفترة التي تهمنا، فأفضى بنا ذلك إلى إبراز ما بدا لنا الميزة الكبرى التي تطبع المدونة، وهي حالة التشتت التي وصلتنا عليها، كما أفضى بنا - من الناحية المنهجية - تحليل العوامل المختلفة التي أدت إلى ذلك التشتت (وهي عوامل اضطرتنا إلى ولوج مجالات نظر متقاطعة، مما جعل

(1) نستثني «حكاية أبي القاسم البغدادي» لأبي المظفر الأزدي.

(2) انظر الجزء الخامس: الدراسة التمهيدية، ص 19 - 21.

عناصر الاستدلال تنتشر على مستويات عدّة طوال بحثنا) -، أفضى بنا تحليل هذه العوامل إلى تنزيل المدونة في إطار إشكاليّ عام، وتمحيص مغلفاتها، ومحاولة الكشف عن مكوناتها، وإدراجها في سياق ثقافي له خصائصه المميزة، مما جرّنا إلى إبداء جملة من الآراء النقدية أجريناها في سياق ما نرومه من كشف عن سبل جديدة في استقراء مدونة الشعر العربي القديم، كما جرّنا ذلك إلى اقتراح ضرب من التقويم الوقي للقصايا التي يطرحها الشعر العربي في الفترات الكلاسيكية أمام البحث المعاصر، ويمثّل جدول المفاهيم الذي أثبتناه في الملحق، ضرباً من الإطار العام لهذه المشكلية، وهو يُبرز ثلاث سمات كبرى:

أ - المركزية البغدادية والسلطان السياسي باعتبارهما عاملين حاسمين في استقطاب الحركة الشعرية وإدماجها في صلب النشاط الثقافي العام، وأثر ذلك في تصنيف طوائف الشعراء (المشاهير الدائرون في فلك السلطان بالعاصمة، والآخرين غير المشاهير الذين استقرّوا بالآفاق) وتحديد مسالك التجديد لدى المحدثين (اتسام غالب شعرهم بالطابع الحضري أساساً)، وما كان من استئثار فنّ المديح (مدح الأشراف) لدى المشاهير كأبي تمام والبحري⁽¹⁾ بالقسم المرموق من أشعارهم، ممّا يفسّر من بعض الوجوه مشروع التنظير للقصيد هيكلية ومضموناً الذي عرضه ابن قتيبة في بيانه الفاتح لكتاب الشعر والشعراء، والذي سيسير على نهجه، على مدى ألف سنة ونيف، شعراء العربية شرقاً وغرباً.

ب - النظام الداخلي للخطاب الشعري باعتباره أيضاً عاملاً من العوامل الحاسمة التي ساهمت في انفجار المدونة وتشيتها (فنحن نعلم كيف أن ائتلاف عناصر الخطاب الشعري داخل هذا النظام حسب أنساق يشدّ بعضها بعضاً وتعمل فيما بينها، لا يقوم على قاعدة الابتداع المحض بل على قاعدة الاحتذاء والتوليد انطلاقاً من أشكال مثلى موروثة⁽²⁾)، وكيف أن ذلك سيُضفي على الشعر

(1) يدلنا الإحصاء على أن غرض المديح يحتلّ نسبة 45% من شعر الأول ونسبة 51% من شعر الثاني (انظر: الشعرية العربية، ص 106 - 107).

(2) انظر دراسة: Paul Zumthor, *Langue et techniques poétiques à l'époque romaine* (XI-XIIIe s).

طابعاً من الدوران والتكرار⁽¹⁾ وسهولة المأخذ، ممّا سيساعد عند قوله أو إنشاده أو روايته ونسخه على تطويعه والخروج به أحياناً من مسالك التصرف الذي قد لا يدخل كبير ضيم على الآثار إلى مجرد الوضع والانتحال. كلّ ذلك قد عجل في عملية تشتيت المدونة وإدخال الخلل على هياكلها الأولى، كما يتّنا.

ج - حجم المدونة الضخم (ما تعلّق بها من أخبار) ومبدأ «الأخذ من كلّ شيء بطرف» الذي شرعته ثقافة العصر⁽²⁾ باعتبارهما أيضاً من العوامل الحاسمة التي تولّدت عنهما مشاريع «الاختيار» و «الانتقاء» و «الاختصار»، وهي مشاريع توجّتها، كما نعلم، الموسوعة الفخمة لمجموعات الآثار التي ذكرنا بعض نماذجها في الفصل السابع من هذه الدراسة، والتي تحدّدت بها الصورة الثابتة لـ «كتاب الأدب» على مرّ العصور - كتاب الأدب في غزارة مادته وتنوّع أشكاله، كتاب الأدب مصباً في بعض مجاريه لشتات المدونة ومستودعاً لما تبقى من شظاياها.

* * *

تلك هي إذن النتائج التي توصلنا إليها، وهي هزيلة حقّاً وما زال الطريق طويلاً على درب اكتشاف الشعراء المقلّين: فبعض المشاكل لم نتناولها بالدرس إلّا لمأماً، ولنذكر منها على سبيل الاختصار أنّ جزءاً غير قليل من المدونة لا يزال مهملاً في ما لم يُنشر من نفيس المخطوطات، أو مطوّياً لم يُهتَدَ إليه في ثنايا ما لم يفهرس من المطبوعات، ولا بد أن تتوفر يوماً أسباب جمعه، ولنذكر توزيع فئات الشعراء على «المدارس» والعصور والأقطار، وهو توزيع تضاربت في شأنه أنظار الدارسين لانعدام وصف دقيق للمدونة يستوعب جميع مجاريها ويتدبّر خفيّ دلالاتها⁽³⁾، ولنذكر أنساق الشعر وما طرأ عليها من تطوّر طبع

(1) التكرار: ونعني به أفانين الأشباه والنظائر من الشعر القائمة على التنويع لا مجرد الترداد وإعادة القول.

(2) خيرٌ من يمثل هذه الثقافة أصناف العلماء والمتأدّبين الذين كانوا يرتادون حلقات الأدب ومختلف المجالس للمذاكرة وتناشد الشعر وتطرح الأخبار، وهم - كما نعلم - الذين ستوا للعصر اختياراته الفنيّة الكبرى بحكم ارتباطهم بالسلطان.

(3) نقول ذلك حتى لا نحشر وهماً - مثلاً - (وإن تجاوز المثال الذي نضربه حدود دراستنا) الأفاقة في عهد بني زيري كالحصري وابن شرف وابن رشيق، في ما أسماه بعضهم =

مختلف مستوياتها، وهو تطوّر لا يمكن لنا تبين تأثيره بصفة موضوعية ما لم ندرك ما كان عليه حقاً ذلك التحوّل الطارئ على العقلية وعلى الوعي في المجتمعات الإسلامية الجديدة حتّى أدّى إلى تلك النتائج، ولنذكر كذلك منزلة الخطاب الشعري نفسه في فترات التحوّل تلك وهو يحمل بذور التجديد والقطيعة - منزلته بالنسبة إلى الشرعية الثقافية الممثلة في أشكال فنية مثلى موروثية: أفهذا الخطاب واحدٌ فردٌ باعتبار الثوابت التي تشد أركانه أم هو يجري في صيغة الجمع باعتبار تعدّد مستوياته وتراكب دلالاته؟ وما هو مدى مساهمته في التراث الثقافي المشترك من حيث أصوله العميقة؟ وما مدى شهادته على عصر بكلّ ما فيه من اختلاف وتنوّع؟ وإلى أي مدى يطرح قضية الإنسان في الوجود (وإن كنا نعلم أن ذلك لا يخرج غالباً عن تقليد النماذج الموروثة)؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار شعر أبي الشمقمق أو شعر أبي دلالة أو شعر راشد بن إسحاق⁽¹⁾ مختلفاً عن شعر أبي تمام أو البحتري، في ما يسعى إليه من معرفة بالإنسان أشدّ التحاماً بعميق أشواقه ودفن نزواته، أكثر مما يسعى إلى إن يكون شاهداً على نموذج بشري أمثل أو إلى فرض ذلك النموذج. وقد بقيت مشاكل أخرى اكتفينا بمجرّد الإشارة إليها، ونذكر منها فقط هذا الجانب من المدوّنة الذي اكتنفه النسيان لعدم احتفاظ مجاميع الأدب بأسماء قائله فظلّ غفلاً بعيداً عن مشاغل البحث المعاصر، فمتى سنبعث هذا الشعر اليتيم الأعزل من طي الإهمال، وفيه ما فيه من فرائد (مقطعات وقصائد) حقيق بأن تحتلّ مكاناً متميّزاً من منتخب عام لعيون الشعر العربي؟⁽²⁾. أفلا ينبغي أن نأخذ برأي فاليري (PAUL VALERY) فنقرّ بأنّ «تاريخاً يتعمّق الأدب لا ينبغي أن يفهم على أنّه تاريخ المؤلفين وما يلحق حياتهم الأدبية أو آثارهم من أعراض، بقدر ما هو تاريخ الفكر فيما ينتج أو يستهلك من الأدب، وأنّه يمكننا أن نؤرّخ للأدب دون

= بـ «الزمن الأندلسي» باعتبار «أن الثقافة السائدة، ما بين 422 و 488هـ. كانت أندلسية النشأة أندلسية الطابع» (انظر عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج 4 ص 395).

(1) انظر فهرس المدونة.

(2) انظر نماذج من هذا الشعر الغفل في المدوّنة (انظر الفهارس).

ذكر اسم أي مؤلف⁽¹⁾، ولنذكر أيضاً تلك «المدونات الصغرى الموازية» (أو الروايات المختلفة للأثر الشعري الواحد) التي تذيّل عادة النشرات العلمية لنصوص التراث - إن هي وُجدت - فتتألف منها أشكال من التنويعات والبدائل للمدونة الأم، وهي نصوص لم تستغلّ إلى الآن في محاولة قراءة جادة تكون خير دليل للباحث في تعقب مسيرة الآثار والوقوف على مدى التغيرات التي لحقت بها على أيدي «مستهلكيها» من الرواة والنسخة ومختلف القراء والنقاد، ولا شكّ في أنّ هذا العمل هو من صنف أعمال التبخر والتعمق والإلمام، ولكنّه عمل قد يفضي من خلال الإشارة إلى ما تفرع عن النصوص الأصلية من مختلف القراءات، إلى ضرب من شعريّة البدائل والتنويعات⁽²⁾.

تلك إذن - في الخاتمة - بعض تساؤلات ستسعى البحوث في المستقبل إلى الإجابة عنها، غير أنّنا نرى أن الوقفة في هذه المرحلة من بحوثنا ضرورية لأنّه ينبغي أولاً أن ندفع بأعمال جمع المدونة وتحقيقها ونشرها إلى الأمام. ولا يمكن - في اعتقادنا - أن ننجز عملاً تقويمياً وتنظيرياً يشمل الآثار دون هذه الأعمال التمهيدية التي ما زالت في جزء كبير منها معدومة. فإذا كانت مدوّنتنا على الحالة التي هي عليها - كما أشرنا في التمهيد - وكانت المعلومات والأفكار المصاحبة لها بالإضافة إلى مؤشرات البحث التي تتخلّل هذا البحث التألفي، قادرة كلّها على مساعدتنا على التقدّم بهذه الأعمال قصد إنجاز المشروع الضخم، مشروع مدونة عامة للشعر العربي الكلاسيكي، فإنّ عملنا الذي تجسّمناه يكون قد حقّق هدفاً من أهدافه.

تونس قرطاج - مارس 1984

مراجعة بباريس - ماي 1994

(1) بول فاليري - ألوان - ج 5 - 288 (Paul Valéry: Variétés V, p. 288)

(2) انظر: ج بلامين - نوال (J. BELLEMIN-NOEL): النص وما قبل النص ص ص 131 - 132 (Le Texte et l'avant texte)، حيث يخلص المؤلف إلى تعقّب «شعريّة الآثار حتى في مسودّاتها».

ذيل

نصوص مختارة من
أمهات الآثار النقدية القديمة

أو

مداخل لقراءة النص الشعري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى القارىء

نورد في هذا الذيل مجموعة من النصوص أحلنا على كثير منها في تضاعيف هذه الدراسة وفي المداخل التي تفتح أجزاء المدونة الخمسة والدراسات الجزئية التي تتخللها. وما كنا لنقطع هذه النصوص عن أصولها لولا ما التزمناه من منحنى في تقديم هذا العمل الذي نريده أن يكون حصيلة مشاغل مزدوجة: البحث والتدريس. فمثل هذه النصوص (*) إن توقرت للقارىء مجموعة في ذيل دون أن يُكَلِّفَ نَفْسَهُ مَوْثَنَ الرجوع إلى مَصَادِرِها - وقل ما يفعل إذا كان من غير ذوي الاختصاص - لهي خير ما تلتئم به آتيا وفي رؤية موحدة الآثار المدروسة وما ألهمته من تراث نقدي ثر آثاره باقية حتى اليوم في أعمال الدارسين. وللقارىء أن يعمل عمله فيها، من أي جهة أراد، علماً منه أنها ملازمة لهذه الآثار، وأن النظر فيها عن كُتُب لا غنى عنه، وبذلك لا يبقى بمعزل عن مادة أساسية سوف تبقى خير سند لكل قراءة تروم الكشف عن سبل جديدة في تقييم الشعر العربي.

ولقد جعلنا هذه النصوص موزعة على سبعة محاور عامة قد تتقاطع أحياناً نظراً لوحدية المادة ونوعية المظان التي رجعنا إليها، إلا أنها تظل قائمة في جوهرها على قضايا نوعية هي مما غلب على اهتمامنا طوال هذا العمل وهي:

المحور الأول: الشعر: حقيقته. صناعته.

المحور الثاني: الشعراء.

المحور الثالث: الشعر بين «الطبع» و«التكلف».

المحور الرابع: مدونة المغمورين وانفلاقها شظايا في مجاميع الأدب.

المحور الخامس: نقد الشعر والشعراء ومسالكه لدى القدماء.

المحور السادس: المجالس ودورها في الحفاظ على جانب من مدونة المغمورين.

المحور السابع: مدونة الشعراء المغمورين ومسالك التدوين (مداخل عامة).

(*) شرعنا في جمعها في فواتح السبعينات انطلاقة من نماذج كنا وزعناها على طلبتنا بكلية الآداب بتونس آنذاك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحور الأول: الشعر حقيقته . صناعته

- 1 - في المخیل الشعري والحال الشعرية: ابن سینا 205
- 2 - متى يكون القول الشعري مخیلاً: ابن سینا 206
- 3 - في المحاكاة أو في أن «القول الشعري هو التمثيل»: الفارابي 206
- 4 - في المحاكاة أو إشكالية الصدق والكذب في الشعر: ابن سینا 207
- 5 - بين من يرى أن «خير الشعر أصدقه» ومن يرى أن «خير الشعر أكذبه»
أو مسالك الإبداع في الشعر: عبد القاهر الجرجاني 208
- 6 - الشعراء ومنازلهم من الطبع والصنعة والتقليد: الفارابي 209
- 7 - في ملكة الشعر: ابن خلدون 210
- 8 - في الأسلوب والصناعة الشعرية: ابن خلدون 211
- 9 - في حد الشعر وكيفية عمله: ابن خلدون 212
- 10 - معيار الشعر الجيد: ابن خلدون 214
- 11 - عمود الشعر: المرزوقي 214
- 12 - في قواعد الصناعة النظمية: حازم القرطاجني 218
- 13 - الشعر و «سحره» أو الحال الشعرية وهزة الطرب: ابن طباطبا 219
- 14 - الشاعر وبناء القصيدة: ابن طباطبا 221
- 15 - حد القصيد الأنموذج: ابن قتيبة 221
- 16 - أصناف الشعر: ابن رشيق 222
- 17 - جامع المعاني التي تجري عليها أشعار المديح والهجاء عند العرب:
ابن طباطبا 223
- 18 - الشعر والشعراء في نظر المعري: المعري 225
- 19 - في تعلم صناعة الشعر أو ثلاثة نصوص نقدية لابن شهيد 226

المحور الثاني: الشعراء

- 20 - في الشعر وطبقات الشعراء: ابن رشيقي 231
- 21 - في القديم والمحدث (أ) ابن قتيبة 233
- 22 - في القديم والمحدث (ب): القاضي الجرجاني 233
- 23 - غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر (أ) ابن قتيبة 235
- 24 - غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر (ب): الباقلاني 236
- 25 - غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر (ج): ابن رشيقي 237
- 26 - في تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء: 237
- أ - الجاحظ: 237
- ب - المرزوقي: 238
- 27 - مراتب النظم والنثر في نظر التوحيدي: التوحيدي 239
- 28 - الكتاب الشعراء: ابن رشيقي 242
- 29 - الشعراء بين النباهة والخموم 243
- أ - ابن المعتز 243
- ب - أبو الفرج الأصبهاني 244
- 30 - وصية أبي تمام للبحثري: ابن رشيقي 244

المحور الثالث: الشعر بين «الطبع» و «التكلف» أو في المعنى واللفظ

- 31 - الشعر وجدلية المعنى واللفظ: الجاحظ 249
- 32 - أقسام الشعر أو الشعر بين اللفظ والمعنى: ابن قتيبة 249
- 33 - في الرد على ابن قتيبة في تدبره لبعض أشعار العرب: ابن جني 252
- 34 - فيما «حسن لفظه وحلا» من الشعر: رأي عبد القاهر الجرجاني: 255
- الجرجاني 255
- 35 - في المطبوع والمصنوع: ابن رشيقي 257

- 36 - «البديع» في نظر ابن المعتز: ابن المعتز 258
- 37 - مدرسة البديع (أ): ابن رشيق 259
- (ب): ابن شهيد 259
- 38 - في المعنى ومعنى المعنى: عبد القاهر الجرجاني 260
- 39 - في التشبيه: عبد القاهر الجرجاني 261
- 40 - في التصنع: أبو تمام نموذجاً: الباقلاني 262
- 41 - في البديع والإبداع (نموذج تحليلي): النويري 263
- 42 - رأي الجاحظ في السرقات الشعرية: الجاحظ 265
- 43 - السرقات وما شاكلها عند ابن رشيق 265
- 44 - في المحمود والمذموم من السرقات: ابن وكيع 266
- 45 - السرقات أو الأشباه والنظائر في الشعر: الشريف المرتضى 269
- 46 - هل السرقة سلخ أم مسخ أم نسخ؟: الحريري 269
- 47 - أبو تمام بين أبي نواس ومسلم أو اعتراف بدين: ابن المعتز 270

المحور الرابع: مدونة الشعراء المغمورين وانفلاقها شظايا في مجاميع الأدب

- 48 - من قضايا الرواية والنحل: الجمحي 275
- 49 - ذوق العصر ومسالك الرواية في تحديد حقول مدونة الشعر:
الجاحظ 276
- 50 - أدب الاختيار: أبو تمام نموذجاً أو في اختيار شاعر: المرزوقي .. 277
- 51 - أدب الاختيار: ابن قتيبة نموذجاً أو تغليب المشهورين الذين يُحتجُّ
بأشعارهم في تدوين الشعر: ابن قتيبة 278
- 52 - أدب الاختيار: الثعالبي نموذجاً أو منحى الدقة والضبط في تدوين
الشعر 280
- 53 - أدب الاختيار: الحصري نموذجاً أو منحى الاستطراف في انتقاء
الأشعار والأخذ من كل شيء بطرف 281

- 54 - أدب الاختيار: ابن بسام نموذجاً أو في توضيح منهج 283
- 55 - أدب الاختيار: أبو هلال العسكري نموذجاً أو في أدب المجالس .. 285
- 56 - أدب الاختيار: ابن أبي عون نموذجاً أو في أبيات المعاني وتغليب مشاهير المحدثين عليها 286
- 57 - أدب الشروح: الأعلام الشتمري نموذجاً 288
- 58 - أدب المنادمة والمباهلة أو في «رعاية الشعر» وسلطان مشاهير الشعراء على «الأصاغر»: ابن المعتز 289
- 60/59 - مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا من مدونة المغمورين والأغفال: أبو الفرج نموذجاً أو في تداخل الأخبار والأشعار: 292
- أ - عكاشة العمي أنموذج الشاعر المغمور 292
- ب - ابن أبي الزوائد أو بين القديم والحديث 299
- 61 - مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا من مدونة المغمورين والأغفال: النيسابوري نموذجاً أو في تداخل الأخبار والأشعار 303
- 62 - مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا من مدونة المغمورين والأغفال: المرزباني نموذجاً أو في تداخل الأخبار والأشعار 305

المحور الخامس: نقد الشعر والشعراء ومسالكه لدى القدماء

- 63 - في «أشعر الناس» و «أحسن بيت» أو في الأحكام النقدية الانطباعية: أبو الفرج الأصفهاني 309
- 64 - في طبقات الشعراء المحدثين أو بين بشار مروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد: الشريف المرتضى 310
- 65 - «إنما يعرف الشعر من يضطرّ إلى أن يقول مثله» أو الشاعر الناقد: الباقلاني 311
- 66 - من جوامع الكلم في نقد الشعر ورؤاه (أ، ب، ج): المرزباني ... 312
- 67 - من جوامع الكلم في نقد الشعر: الهمداني نموذجاً 313
- 68 - من جوامع الكلم في نقد الشعر: ابن شرف نموذجاً 314

- 69 - نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير الشعراء له عبر كتب الموازنة والوساطة والسرقات: الآمدي نموذجاً 317
- 70 - نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير الشعراء له عبر كتب الموازنة والوساطة والسرقات: القاضي الجرجاني نموذجاً 318
- 71 - أدب الشروح ومنحى الموازنة أو في تعقب المعنى الواحد في الأشعار المختلفة: التجيبي 320
- 72 - نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير الشعراء له عبر كتب الموازنة والوساطة والسرقات: ابن الأثير نموذجاً 322
- 73 - الشعر وقضية الإعجاز أو الباقلاني يُحلّل معلقة امرئ القيس: الباقلاني 324
- 74 - الباقلاني ينظر في شعر المحدثين: البحتري نموذجاً 329
- 75 - في نقد النقد أو الباقلاني يرّد على ناquديه 337
- 76 - من النوادر: شاعر متماجن من متأدي القرن السادس يجاهر في ضرب من التحدي الصارخ بتحرره من «سلطان» الأعلام المشتهرين: ياقوت الحموي 340

المحور السادس: المجالس ودورها في الحفاظ على جانب من مدونة المغمورين

- 77 - في الآداب والمجالس: إبراهيم الحصري 345
- 78 - مجالس الخليفة الأمين أو بين الشراب والمذاكرة والنشيد والسماع: ابن المعتز 345
- 79 - مجالس الخليفة المعتمد وتدوين ماجرى فيها من مذكرات: المسعودي 347
- 80 - مجالس الرؤساء ومذكرات العلماء (أ): مجلس المنصور: المرزباني 348
- 81 - مجالس الرؤساء ومذكرات العلماء (ب): مجلس الرشيد: ابن عبد ربه 349

- 82 - مجالس الرؤساء ومذاكرات العلماء (ج): مجلس أحد البرامكة: ابن المعتز 352 .
- 83 - مجالس الرؤساء ومبادهات الشعراء: التواجي 354 .
- 84 - مجالس الشعراء فيما بينهم أو في المساجلات: ابن عبد ربه 356 .
- 85 - مجلس شاعر: أبو الفرج الأصفهاني 357 .
- 86 - مجلس جارية شاعرة: فضل: ابن المعتز 358 .
- 87 - مجلس جارية شاعرة: عنان: الرقيق 359 .
- 88 - مجالس القيان والغناء ورواية الشعر (أ): الجاحظ 361 .
- 362 (ب) التوحيدي
- 89 - إبراهيم بن المهدي نديما أو من أخبار مجالس المنادمة في دور ذوي اليسار: ابن عبد ربه 362 .
- 90 - مجلس وشاعر ومغنّ أو من أخبار الشعراء: الأصفهاني 366 .
- 91 - مجالس العبث والهزل والمضاحك: الثعالبي 368 .
- 92 - إبراهيم الموصلي في إحدى خلواته بمجلسه الخاص أو أشعار وألحان: الأصفهاني 369 .
- 93 - مجالس الأنس بالأندلس في القرن الرابع: التّجيني 372 .
- 94 - ديوان الشعراء أو الشعر في كنف السلطان في عهد بني مرين بفاس: الحسن الوزان 374 .
- 95 - مآيروه التوحيدي من نوادر تتعلق بالصاحب بن عباد في كتابه «مثالب لوزيرين» أو الشاعر في علاقته بالسلطان: وجهه المريب: ياقوت . 375

المحور السابع: مدونة الشعراء المغمورين ومسالك التدوين (مداخل عامة)

- 96 - الشعر ومناهج التعليم بالأندلس في القرن الرابع: ابن حزم 379 .
- 97 - محتويات التعليم بالأندلس في القرن الخامس ونصيب فن الشعر منها: ابن العربي 381 .

- 98 - تدوين التراث أو في التأليف والإملاء والوراقة: الخطيب البغدادي . 382
- 99 - تدوين التراث أو من وظائف الحافظ في اللغة الإملاء: جلال الدين السيوطي 383
- 100 - التحري في ضبط التراث العلمي أو من طرق التدريس والتأليف في القرن الثالث: إملاء كتاب الياقوتة في اللغة: ابن النديم 384
- 101 - النسخ بين الرق والورق أو الجاحظ ومن عابه بتفضيل الورق على الجلود: الجاحظ 385
- 102 - النسخ وأدواته أو في صناعة القلم الذي اخترعه المعز الفاطمي: القاضي النعمان 387
- 103 - صناعة الوراقة ودورها في الحفاظ على جانب من التراث باقتناء ما تفرّق من نوادر المخطوطات بالخزائن الخاصة: ابن النديم 388
- 104 - من دور الحكمة في المعهد الفاطمي أو في نسخ التراث وتدوينه: المقرئ 389
- 105 - في الخزائن السلطانية أو اهتمام أولي الأمر بالكتب: المقرئ 390
- 106 - الخطوط وشأنها في تدوين التراث أو في خزائن الكتب السلطانية في عهد البويهيين ومن كان عليها من رؤوس خطاطي العصر: ياقوت 392
- 107 - إقامة ياقوت الحموي بمَرْو في بداية القرن السادس وخبر استفادته من خزائن كتبها: ياقوت 394
- 108 - من النوادر أو الحفظ وشأنه في تدوين نصوص التراث: المراكشي 395
- 109 - ضبط دواوين الشعر في حياة أصحابها: ابن خفاجة نموذجاً نادراً . 397

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحور الأول

الشعر: حقيقته. صناعته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[في المخيّل الشعري والحال الشعرية]

[...] إن الشعر هو كلام مُخَيَّل مؤلف من أقول موزونة متساوية، وعند العرب مُقَفَّاة. ومعنى كونها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعي. ومعنى كونها متساوية هو أن يكون كل قول منها مؤلفاً من أقوال إيقاعية، فإن عدد زمانه مساوٍ لعدد زمان الآخر. ومعنى كونها مقفأة هو أن يكون الحرف الذي يختم به كل قول منها واحداً. ولا نظر للمنطقي في شيء من ذلك إلا في كونه كلاماً مخيلاً: فإن الوزن ينظر فيه: إما بالتحقيق والكلية فصاحب علم الموسيقى، وإما بالتجزئة وبحسب المستعمل عند أمة أمة فصاحب علم العروض، والتقفية ينظر فيها صاحب علم القوافي. وإنما ينظر المنطقي في الشعر من حيث هو مخيل. والمخيّل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملّة تنفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكري، سواء كان المقول مصدّقاً به أو غير مصدّق. فإن كونه مصدّقاً به غير كونه مخيلاً أو غير مخيل: فإنه قد يصدّق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه؛ فإن قيل مرة أخرى وعلى هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخيّل لا للتصديق. فكثيراً ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقاً، وربما كان المتيقن كذبه مخيلاً⁽¹⁾.

ابن سينا

«فن الشعر» من كتاب «الشفاء» ص 161

(1) إثر هذا يستطرد ابن سينا إلى ذكر أصناف الأشعار اليونانية فيقول: «... والشعر قد يقال للتعجيب وحده. وقد يقال للأغراض المدنية. وعلى ذلك كانت الأشعار اليونانية. والأغراض المدنية هي في أحد أجناس الأمور الثلاثة. أعني: المشورية والمنافرية والمشاجرية. وتشترك الخطابة والشعر في ذلك، لكن الخطابة تستعمل التصديق، والشعر يستعمل التخيّل. والتصديقات المظنونة محصورة متناهية يمكن أن توضع أنواعاً ومواضع. وأما التخييلات والمحاكيات فلا تحصر ولا تحد...».

[متى يكون القول الشعري مخيلاً]

والأمور التي تجعل القول مخيلاً: منها أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه، وهو الوزن؛ ومنها أمور تتعلق بالمسموع من القول؛ ومنها أمور تتعلق بالمفهوم من القول؛ ومنها أمور تتردد بين المسموع والمفهوم. - وكل واحد من المعجب بالمسموع أو المفهوم على وجهين: لأنه إما أن يكون من غير حيلة بل يكون نفس اللفظ فصيحاً من غير صنعة فيه، أو يكون نفس المعنى غريباً من غير صنعة إلا غرابة المحاكاة والتخييل الذي فيه، وإما أن يكون التعجب منه صادراً عن حيلة في اللفظ أو المعنى: إما بحسب البساطة أو بحسب التركيب. والحيلة التركيبية في اللفظ مثل التسجيع ومشاكلة الوزن والترصيع والقلب وأشياء قيلت في «الخطابة». وكل حيلة فإنما تحدث بنسبة ما بين الأجزاء: إما بمشاكلة، وإما بمخالفة. والمشاكلة إما تامة، وإما ناقصة؛ وكذلك المخالفة: إما تامة، وإما ناقصة. وجميع ذلك إما بحسب اللفظ، وإما بحسب المعنى. والذي بحسب اللفظ: فإما في الألفاظ الناقصة الدلالات، أو العديمة الدلالات كالأدوات والحروف التي هي مقاطع القول؛ وإما في الألفاظ الدالة البسيطة؛ وإما في الألفاظ المركبة. والذي بحسب المعنى. فإما أن يكون بحسب بسائط المعاني، وإما أن يكون بحسب مركبات المعاني.

ابن سينا

«فن الشعر» من كتاب «الشفاء» ص 163

[في المحاكاة أو في أن «القول الشعري هو التمثيل»]

[...] الأقاويل: منها ما هي جازمة، ومنها ما هي غير جازمة. والجازمة: منها ما هي صادقة، ومنها ما هي كاذبة. والكاذبة: منها ما يوقع في ذهن السامعين الشيء المعبر عنه بدل القول، ومنها ما يوقع فيه المحاكى للشيء، وهذه هي الأقاويل الشعرية.

ومن هذه المحاكاة ما هو أتم محاكاةً، ومنها ما هو أنقص محاكاةً. والاستقصاء في الأتم منها والأنقص إنما يليق بالشعراء وأهل المعرفة بأشعار لسان لسان ولغة لغة، ولا يظنُّ ظانًّا أن المغلط والمحاكي قولٌ واحد، وذلك أنهما مختلفان بوجوه: منها أن غرض المغلط غير غرض المحاكي، إذ المغلط هو الذي يغلط السامع إلى نقيض الشيء حتى يوهمه أن الموجود غير موجود وأن غير الموجود موجود. فأما المحاكي للشيء فليس يوهم النقيض، لكن الشبيه. ويوجد نظير ذلك في الحس، وذلك أن الحال التي توجب إيهام الساكن أنه متحرك، مثل ما يعرض لراكب السفينة عند نظره إلى الأشخاص التي هي على الشطوط، أو لمن على الأرض في وقت الربيع عند نظره إلى القمر والكواكب من وراء الغيوم السريعة السير - هي الحال المغلطة للحس؛ فأما الحال التي تعرض للناظر في المرآتي والأجسام الصقيلة فهي الحال الموهمة شبيهة الشيء.

وقد يمكن أن تقسم الأقاويل بقسمة أخرى وهي أن نقول: القول لا يخلو من أن يكون: إما جازماً، وإما غير جازم. والجازم: منه ما يكون قياساً، ومنه ما يكون غير قياس. والقياس: منه ما هو بالقوة، ومنه ما هو بالفعل. وما هو بالقوة: إما أن يكون استقراءً، وإما أن يكون تمثيلاً. والتمثيل أكثر ما يستعمل إنما يستعمل في صناعة الشعر. فقد تبين أن القول الشعري هو التمثيل.

الفارابي

قوانين صناعة الشعر، ص 150 - 151

— 4 —

[في المحاكاة أو إشكالية الصدق والكذب في الشعر]

إذا كانت محاكاة الشيء بغيره تحرك النفس وهو كاذب. فلا عجب أن تكون صفة الشيء على ما هو عليه تحرك النفس وهو صادق. بل ذلك أوجب. لكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق. وكثير منهم إذا سمع التصديقات استكرهها وهرب منها. وللمحاكاة شيء من التعجيب ليس للصدق. لأن الصدق

المشهور كالمفروغ منه ولا طراوة له، والصدق المجهول غير ملتفت إليه. والقول الصادق إذا حُرِّف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس. فربما أفاد التصديق والتخييل معاً، وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به. والتخييل إذعان، والتصديق إذعان، لكن التخييل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول، والتصديق إذعان لقبول أن الشيء على ما قيل فيه. فالتخييل يفعل القول لما هو عليه، والتصديق يفعل القول بما المقول فيه عليه، أي يلتفت فيه إلى جانب حال المقول فيه.

ابن سينا

«فن الشعر» من «كتاب الشفاء»، 162

— 5 —

[بين من يرى أن «خير الشعر أصدقه»

ومن يرى أن «خير الشعر أكذبه»]

أو

[مسالك الإبداع في الشعر]

فمن قال «خير الشعر أصدقه» كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحب إليه وأثر عنده، إذ كان ثمره أحلى، وأثره أبقي، وفائده أظهر، وحاصله أكثر، ومن قال: «أكذبه» ذهب إلى أن الصنعة إنما تمُدُّ باعها، وتنشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يُقصد التلطف والتأويل، ويُذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والنعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يُبدع ويزيد، ويبدى في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً، ومدداً من المعاني متتابعاً. ويكون كالمغترف من عِدٍّ لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي.

وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصود المداني قيده، والذي لا تتسع كيف

شاء يده، ثم هو الأكثر يسرد على السامعين معاني معروفةً وصوراً مشهورة، ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تُحفظ أعدادها، ولا يُرجى ازديادها، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد، ولا تربح ولا تُفقد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الرائقة لا تُمتع بجنى كريم.

عبد القاهر الجرجاني

أسرار البلاغة، ص 250 - 251

- 6 -

[الشعراء ومنازلهم من الطبع والصناعة والتقليد]

إن الشعراء إما أن يكونوا ذوي جبلّة وطبيعة متهيئة لحكاية الشعر وقوله ولهم تأتّ جيد للتشبيه والتمثيل: إما لأكثر أنواع الشعر، وإما لنوع واحد من أنواعه، ولا يكونوا عارفين بصناعة الشعر على ما ينبغي، بل هم مقتصرون على جودة طباعهم وتأتيهم لما هم مُيسّرون نحوه [...].

وإما أن يكونوا عارفين بصناعة الشعراء حق المعرفة حتى لا يندّ عنهم خاصة من خواصها ولا قانون من قوانينها في أي نوع شرعوا فيه، ويجودون التمثيلات والتشبيهات بالصناعة [...].

وإما أن يكونوا أصحاب تقليد لهاتين الطبقتين ولأفعالهما: يحفظون عنهما أفاعيلهما ويحتذون حذويهما في التمثيلات والتشبيهات من غير أن تكون لهم طباع شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة [...].

وجودة التشبيه تختلف: فمن ذلك ما يكون من جهة الأمر نفسه بأن تكون المشابهة قريبة ملائمة، وربما كان من جهة الحذق بالصناعة حتى يجعل المتباينين في صورة المتلائمين بزيادات في الأقاويل مما لا يخفى على الشعراء: فمن ذلك أن يشبهوا «أب» و«بج» لأجل أنه يوجد بين أ و ب مشابهة قريبة ملائمة معروفة، ويوجد بين ب و ج مشابهة قريبة ملائمة معروفة، فيدرّجوا الكلام في ذلك حتى يخطروا ببال السامعين والمنشدين مشابهة ما بين «أب» و «بج» وإن كانت في الأصل بعيدة.

وللإخطار بالبال في هذه الصناعة غناءً عظيم، وذلك مثل ما يفعل بعض الشعراء في زماننا هذا من أنهم إذا أرادوا أن يضعوا كلمة في قافية البيت ذكروا لازماً من لوازمها أو وصفاً من أوصافها في أول البيت، فيكون لذلك رونق عجيب. - ونقول أيضاً إن بين أهل هذه الصناعة وبين أهل صناعة التزيق مناسبة، وكأنهما مختلفان في مادة الصناعة ومتفقان في صورتها وفي أفعالها وأغراضها؛ أو نقول: إن بين الفاعلين والصورتين والغرضين تشابهاً، وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ، وإن بين كليهما فرقاً، إلا أن فعليهما جميعاً التشبيه وغرضيهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم (*).

الفارابي

قوانين صناعة الشعر ص 155 - 158

- 7 -

[في ملكة الشعر]

[...] اعلم أنّ فنَّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب، ولذلك

(*) يرد هذا النص في معرض حديث المؤلف عن «أشعار اليونانيين ومعانيها» حيث يقول: «... ونحن نعدد أصناف أشعار اليونانيين على ما عدّه الحكيم في أقاويله في صناعة الشعر ونومىء إلى كل نوع منها إيماءً فنقول: إن أشعار اليونانيين كانت مقصورة على هذه الأنواع التي أعدها وهي: «طراغوديا» [وهو ما يُسمّى في الآداب الغربية بـ «TRAGEDIE» أي المسرحية المأساة أو الفاجعة]، و «ديشرمبي» [أو DITHYRAMBE أي المديح]، و «قوموديا» [أو COMEDIE أي الملهاة أو المسرحية الهازلة] [إيامبو] [أو IAMBE أي الهجاء]... و «افيقى» [أو EPOPEE أي الشعر الملحمي] و «ريطوري» [أو RHETORIQUE أي الشعر ذو المنحى الخطابي]...».

قوانين صناعة الشعر ص 152 - 153

ملاحظة:

اكتفينا بذكر أهم الأجناس الأدبية الواردة في نص الفارابي، وهي من ثوابت الآداب الغربية على مدى العصور، مع التنبيه إلى أن الفارابي في شرحه لهذه المصطلحات قد أجمل إلى حدّ الإبهام والخلط بينها.

جعلوه ديوانَ علومهم واخبارهم وشاهدَ صوابهم وخطتهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة، والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة، حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب، ويبرزه مستقلاً بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك، ثم بيت، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. ولصعوبة منحاه وغبابة فنه كان محكاً للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه. ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها...

ابن خلدون

«المقدمة» ط. داغر ص 1068

— 8 —

[في الأسلوب والصناعة الشعرية]

[...] لنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم فأعلم أنها عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإغراب ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة

الْعَرُوضِ فَهَذِهِ الْعُلُومُ الثَّلَاثَةُ خَارِجَةٌ عَنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشُّعْرِيَّةِ وَإِنَّمَا يُرْجَعُ إِلَى صُورَةٍ ذَهْنِيَّةٍ لِلتَّرَاكِبِ الْمُنْتَظَمَةِ كُلِّيَّةٍ بِاعْتِبَارِ انْطِبَاقِهَا عَلَى تَرْكِيبٍ خَاصٍّ وَتِلْكَ الصُّورَةُ يَنْتَرَعُهَا الذَّهْنُ مِنْ أَغْيَانِ التَّرَاكِبِ وَأَشْخَاصِهَا وَيُصَيِّرُهَا فِي الْخَيَالِ كَالْقَالِبِ أَوْ الْمِنْوَالِ ثُمَّ يَنْتَقِي التَّرَاكِبِ الصَّحِيحَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ بِاعْتِبَارِ الْإِغْرَابِ وَالْبَيَانِ فَيَرُصُّهَا فِيهِ رَصًّا كَمَا يَفْعَلُهُ الْبَنَاءُ فِي الْقَالِبِ أَوْ النَّسَاجُ فِي الْمِنْوَالِ حَتَّى يَتَّسِعَ الْقَالِبُ بِحُصُولِ التَّرَاكِبِ الْوَافِيَةِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ وَيَقَعَ عَلَى الصُّورَةِ الصَّحِيحَةِ بِاعْتِبَارِ مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ فَإِنَّ لِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الْكَلَامِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ وَتُوجَدُ فِيهِ عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ فَسُؤَالُ الطُّلُولِ فِي الشَّعْرِ يَكُونُ بِخَطَابِ الطُّلُولِ كَقَوْلِهِ يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالْسَّنَدِ وَيَكُونُ بِاسْتِنْدَاعِ الصَّحْبِ لِلْوُقُوفِ وَالسُّؤَالِ كَقَوْلِهِ: قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا. أَوْ بِاسْتِجَاءِ الصَّحْبِ عَلَى الطَّلَلِ كَقَوْلِهِ: قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ. أَوْ بِالْإِسْتِفْهَامِ عَنِ الْجَوَابِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ كَقَوْلِهِ: أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الرُّسُومُ. وَمِثْلَ تَحِيَّةِ الطُّلُولِ بِالْأَمْرِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ بِتَحِيَّتِهَا كَقَوْلِهِ: حَيَّ الدِّيَارِ بِجَانِبِ الْغَزَلِ [...]

ابن خلدون

المقدمة، ط. صادر ص 1069

— 9 —

[في حد الشعر وكيفية عمله]

[...] وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ⁽¹⁾ مَا هُوَ فَلَنَذْكُرَ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَفْهَمُ حَقِيقَتَهُ عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْغَرَضُ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ وَقَوْلُ الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى لَيْسَ بِحَدٍّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدْدِهِ وَلَا رَسْمٌ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِغْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوُزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَةِ فَلَا جَرَمَ إِنَّ

(1) انظر النص رقم 8.

حَدَّثَهُمْ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ
فَنَقُولُ الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِيغُ الْمُنْبِئِيُّ عَلَى الْاسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمُفْصَّلِ
بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصَدِهِ عَمَّا
قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ [. . .] .

وَإِذَا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّعْرِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ
عَمَلِهِ فَنَقُولُ: إِنْ لَعَلَّ لِعَمَلِ الشَّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوَّلَهَا الْحِفْظُ مِنْ
جَنْسِهِ أَيْ مِنْ جَنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهَا
وَيُتَخَيَّرُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْحُرِّ النَّفْسِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيبِ وَهَذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقْلُ
مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرٌ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلُ ابْنِ أَبِي رِبْعَةَ وَكَثِيرٍ وَذِي
الرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَّاسٍ وَحَبِيبٍ وَابْنِ خُثَيْمٍ وَالرَّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَكَثْرُهُ شِعْرٌ
كِتَابِ الْأَغَانِي لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ
الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْنَقُ
وَالْحَلَاوَةُ إِلَّا كَثَرَةُ الْمَحْفُوظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ
سَاقِطٌ وَاجْتِنَابُ الشَّعْرِ أَوَّلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ
وَشَحْذِ الْقَرِيحَةِ لِلنَّسْجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالْإِكْتِنَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ
مَلَكَتُهُ وَتَرْسُخُ وَرَبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نَسْيَانُ ذَلِكَ الْمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ
الْحَرْفِيَّةُ الظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ
بِهَا انْتَقَشَ الْأَسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى
ضَرُورَةٌ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخُلُوعِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ
وَكَذَا الْمَسْمُوعِ لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمِلَاحِ السَّرُورِ ثُمَّ مَعَ هَذَا
كُلُّهُ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعُ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ
بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَنَوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبَكْرِ عِنْدَ
الْهُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ الْجَمَامِ وَرَبَّمَا قَالُوا إِنَّ

مِنْ بَوَاعِيهِ الْعِشْقَ وَالْإِنْتِشَاءَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ
الَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِعْطَاءُ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلُهُ
[...]

ابن خلدون

المقدمة (ط. داغر ص 1073 - 1076)

— 10 —

[معيَار الشعر الجيد]

[...] إِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنَ [الشعر] مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طَبَقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى
فَإِنْ كَانَتْ أَلْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَ حَشْوًا وَاسْتُعْمِلَ الذَّهْنُ بِالْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنْعَ الذَّوْقَ
عَنِ اسْتِيفَاءِ مُذْرَكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَلَا يَكُونُ الشَّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ
أَلْفَاظُهُ إِلَى الذَّهْنِ وَلِهَذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ
خَفَاجَةَ شَاعِرِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَأَزْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا
يَعِيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيِّ وَالْمَعْرِيِّ بِعَدَمِ النَّسْجِ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ
شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنِ طَبَقَةِ الشَّعْرِ وَالْحَاكِمِ بِذَلِكَ هُوَ الذَّوْقُ.

ابن خلدون

المقدمة (ط. داغر، ص 1077)

— 11 —

[عمود الشعر]

[...] فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُبَيِّنَ مَا هُوَ عَمُودُ الشَّعْرِ
المَعْرُوفُ عِنْدَ الْعَرَبِ، لِيَتِمَّزَّ تَلِيدُ الصَّنْعَةِ مِنَ الطَّرِيفِ، وَقَدِيمُ نِظَامِ الْقَرِيضِ مِنَ
الْحَدِيثِ، وَلِتُعْرَفَ مَوَاطِئُ أَقْدَامِ الْمُخْتَارِينَ فِيمَا اخْتَارُوهُ، وَمَرَاسِمُ أَقْدَامِ
الْمُزَيَّفِينَ عَلَى مَا زَيَّفُوهُ، وَيُعْلَمَ أَيْضًا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْمَصْنُوعِ وَالْمَطْبُوعِ، وَفَضِيلَةُ
الْأَتِيِّ السَّنَحِ عَلَى الْأَبْيِّ الصَّعْبِ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ:

إنهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحَّته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشواردُ الأبيات - والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتشامها على تخييرٍ من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعارِ منه للمستعارِ له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هي عمودُ الشعر، ولكل باب منها مغيار.

● فَعِيَارُ المعنى أن يُعَرَّضَ على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنَّبْنَا القَبُولَ والاصطفاء، مستأنساً بقرائنه، خرج وافياً، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووخشته.

● وعيار اللفظ الطبعُ والرّواية والاستعمال، فما سلِمَ مما يُهَجُّهُ عند العَرَضِ عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مُفرداته وجملته مُراعَى، لأنّ اللفظة تُستكرم بانفرادها، فإذا ضامَّها ما لا يوافقها عادت الجملة هَجِيئاً.

● وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز، فما وجداه صادقاً في العلوق مما زجاً في اللُصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة فيه. ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في زهير: «كان لا يمدحُ الرجلَ إلا بما يكون للرجال». فتأمل هذا الكلام فإن تفسيره ما ذكرناه.

● وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير، فأصدقه ما لا يتنقض عند العكس، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفردهما لبيّن وجه التشبيه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبّه به وأملكها له، لأنه حينئذ يدلُّ على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس. وقد قيل: «أقسام الشعر ثلاثة: مثلٌ سائرٌ، وتشبيهٌ نادرٌ، واستعارةٌ قريبة».

● وعيار التحام أجزاء النظم والتشامه على تخييرٍ من لذيذ الوزن، الطبعُ واللسان، فما لم يتعثر الطبعُ بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسانُ في فصوله ووصوله، بل استمرَّ فيه واستسهلاه، بلا ملالٍ ولا كلالٍ، فذاك يُوشِكُ أن يكون

القصيدة منه كالبيت، والبيتُ كالكلمةِ تسألماً لأجزائه وتقارُناً [. . .]
 وإنّما قلنا «على تخيّر من لذيذ الوزن» لأنّ لذيذه يطربُ الطَّبْعُ لإيقاعه، ويُمازجُه
 بصفائِه، كما يطربُ الفهمُ لصوابِ تركيبه، واعتدالِ نظومِه. ولذلك قال حَسَنانُ:
 تَغْنَى في كل شعر أنت قائلُهُ إِنَّ الغِنَاءَ لهذا الشعرِ مِضمّارُ

● وعيار الاستعارة الذَّهْنُ والفطنة. ومِلَّاكُ الأمرِ تقريب التشبيه في
 الأصل حتى يتناسبَ المشبَّه والمشبَّه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المُستعارِ لأنّه
 المنقولُ عَمَّا كان له في الوضع إلى المستعار له.

● وعيارُ مشاكلة اللفظ للمعنى وشِدَّةُ اقتضائهما للقافية، طول الدُّرْبَةِ
 ودوامُ المدارس، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض، لا جفاء في خِلالها
 ولا نُبو، ولا زيادة فيها ولا قُصور، وكان اللفظ مقسوماً على رُتَبِ المعاني: قد
 جُعِلَ الأخصُّ للأخصِّ، والأخصُّ للأخصِّ، فهو البريء من العيب. وأما القافيةُ
 فيجبُ أن تكون كالموعودِ به المنتظر، يتشوّفُها المعنى بحقِّه واللفظ بِقِسْطِهِ،
 وإلا كانت قَلَقَةً في مَقَرِّها، مُجْتَلَبَةً لمستغنٍ عنها.

فهذه الخصال عَمُودُ الشُّعر عند العرب، فمن لَزِمَها بحقِّها وبَنَى شِعْرَه
 عليها، فهو عندهم المُفْلِقُ المعظَّم، والمُحْسِنُ المُقَدَّم. ومن لم يجمعها كُلُّها
 فبقدر سُهْمَتِهِ منها يكون نصيبه من التقدُّم والإحسان، وهذا إجماعٌ مأخوذٌ به
 ومُتَّبَعٌ نَهَجُهُ حتّى الآن.

واعلم أنّ لهذه الخِصالِ وسائلَ وأُطرافاً، فيها ظَهَرَ صدقُ الواصف، وغُلُوّ
 الغالي، واقتصادُ المقتصد. وقد افْتَقَرُها اختيارُ الناقدين، فمنهم من قال:
 «أحسنُ الشعرِ أصدقُه» قال: لأنّ تجويد قائله فيه مع كونه في إِسارِ الصدقِ يدلُّ
 على الاقتدارِ والحِذْق. ومنهم من اختارَ الغُلُوَّ حتّى قيل «أحسن الشعرِ أكذبه»؛
 لأنّ قائله إذا أسقط عن نفسه تقابُلَ الوصفِ والموصوفِ امتدَّ فيما يأتيه إلى أعلى
 الرُّتَبَةِ، وظهر قوَّتُه في الصياغة وتمهُّرُه في الصناعة، واتَّسعت مخارجُه
 وموارجُه، فتصرَّف في الوصف كيف شاء، لأنّ العَمَلَ عنده على المبالغة
 والتمثيل، لا المصادقة والتحقيق. وعلى هذا أكثرُ العلماء بالشعر والقائلين له.

وبعضهم قال: «أحسنُ الشعر أقصده»؛ لأنَّ على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعراً فقطً، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جُلَّها، من غير غُلُوٍّ في القول ولا إحالة في المعنى، ولم يُخرج الموصوف إلى أن لا يؤمَّنَ لشيءٍ من أوصافه، لظهور السرف في آياته، وشمول التزيُّد لأقواله، كان بالإيثار والانتخاب أولى.

ويتَّبَع هذا الاختلاف مِثْلُ بعضهم إلى المطبوع وبعضهم إلى المصنوع. والفرق بينهما أن الدواعي إذا قامت في النفوس، وحرَّكت القرائح، أعملت القلوب. وإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها، وتظاهرت مكتسباتُ العلوم وضرورياتها، نبعت المعاني ودرَّت أخلاقُها، وافتقرت خفيات الخواطر إلى جليات الألفاظ، فمتى رُفِضَ التكلُّف والتعمُّل، وخُلِّيَ الطبع المهذب بالرواية، المدرَّب في الدراسة، لاختياره، فاسترسل غيرَ محمولٍ عليه، ولا ممنوعٍ مما يميل إليه، أدَّى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفواً بلا كدرٍ، وعفواً بلا جهدٍ، وذلك هو الذي يسمَّى «المطبوع». ومتى جُعِلَ زمامُ الاختيار بيدَ التعمُّل والتكلُّف، عاد الطبع مستخدماً متمكِّناً، وأقبلت الأفكار تستحمله أثقالها، وتردَّده في قبول ما يؤدِّيه إليها، مُطالَبَةً له بالإغراب في الصنعة، وتجاوز المألوف إلى البدعة، فجاء مؤداه وأثرُ التكلُّف يُلَوِّحُ على صفحاته، وذلك هو «المصنوع».

وقد كان يتفق في أبيات قصائدهم - من غير قصيدٍ منهم إليه - اليسيرُ التَّزُّرُّ، فلما انتهى قَرَضُ الشعر إلى المُحدِّثين، ورأوا استغرابَ الناس للبديع على افتنانهم فيه، أولعوا بتورِّده إظهاراً للاقتدار، وذهاباً إلى الإغراب. فمن مُفْرِط ومُقْتَصِد، ومحمودٍ فيما يأتيه ومذموم، وذلك على حسب نُهوض الطبع بما يُحْمَلُ، ومدى قُوَّاه فيما يطلب منه ويكَلَّفُ. فمن مال إلى الأولِ فلائِه أشبه بطرائق الإغراب، لسلامته في السَّبَك، واستوائه عند الفحص. ومن مال إلى الثاني فلدلَّالته على كمال البراعة، والالتذاذ بالغرابة (*).

المرزوقي [شرح ديوان الحماسة ص 9 - 14]

(*) انظر «شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام» لمحمد الطاهر بن عاشور، وهو شرح ثري مفيد يندرج في سياق عام متكامل للتفكير البلاغي عند العرب.

[في قواعد الصناعة النظمية]

[...] النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو استكمال للتقس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علماً قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً، وكان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنمّا يكونان بقوى فكرية واهتدأت خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء.

فأول: تلك القوى وهي عشر: القوة على التشبيه فيما لا يجري على السجية ولا يصدر عن قريحة بما يجري على السجية ويصدر عن قريحة.

الثانية: القوة على تصوّر كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني الواقعة في تلك المقاصد ليتوصل بهذا إلى اختيار ما يجب لها من القوافي ولبناء فصول القصائد على ما يجب نحو ما أشرنا وما نشير إليه.

الثالثة: القوة على تصوّر صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمها إن كانت محتاجة إلى شيء معين في ذلك.

الرابعة: القوة على تخيل المعاني بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها.

الخامسة: القوة على ملاحظة الوجوه التي بها يقع التناسب بين المعاني وإيقاع تلك النسب بينها.

السادسة: القوة على التهذي إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعاني.

السابعة: القوة على التحيل في تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مبادئها على نهاياتها ونهاياتها على مبادئها.

الثامنة: القوة على الالتفات من حيز إلى حيز والخروج منه إليه والتوصل به إليه.

التاسعة: القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات بعضها ببعض وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تجد النفوس عنها نبوة.

العاشرة: القوة المائزة حسن الكلام من قبيحه بالنظر إلى نفس الكلام وبالنسبة إلى الموضع الموقَّع فيه الكلام. فقد يتفق للشاعر أن ينظم بيتين قافيتهما واحدة فيكون أحدهما أحسن في نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى المحلّ الذي / يوقعه فيه جهة لفظ أو معنى أو نظام أو أسلوب. ففي مثل هذا الموضع يصير المرجوح راجحاً والمفضول فاضلاً. وكثير ممّن ليست له هذه القوة يُسقط أحسن ممّا يثبت بالنسبة إلى المحلّ.

حازم القرطاجنيّ

منهاج البلغاء، وسراج الأدباء ص 199 - 201

— 13 —

[الشعر و «سحره»]

أو

[الحال الشعرية وهزّة الطرب]

العلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبیح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرهه لما ينفیه، أن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة معها [...]

وعلة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب. والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها؛ فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب؛ فإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت.

وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه

واعتدال أجزائه. فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تم قبوله له، واشتماله عليه؛ وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي: اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ، كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه، ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه. فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فنقص الطرب. وهذه حال الفهم فيما يرد عليه من الشعر الموزون مفهوماً أو مجهولاً، وللأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تحد كقيمتها؛ كمواقع الطعوم المركبة الخفية التركيب اللذيذة المذاق؛ وكالأرايح الفاتحة المختلفة الطيب والنسيم؛ وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ، وكالإيقاع المطرب المختلف التأليف؛ وكالملاسم اللذيذة الشهية الحس؛ فهي ثلاثه إذا وردت عليه - أعني الأشعار الحسنة للفهم -، فيلتذها ويقبلها، ويرتشفها كارتشاف الصديان للبارد الزلال؛ لأن الحكمة غذاء الروح؛ فأنجع الأغذية ألطفها. وقد قال النبي ﷺ: «إن من الشعر حكمة» وقال عليه السلام: «ما خرج من القلب وقع في القلب، وما خرج من اللسان لم يتعد الأذان». فإذا صدق ورود القول نثراً ونظماً أثلج صدره. وقال بعض الفلاسفة:

«إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها». وجعل ذلك برهاناً على نفع الرقي ونجعها فيما تستعمل له.

فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ، التام البيان، المعتدل الوزن، مازج الروح ولأم الفهم، وكان أنفذ من نفث السحر، وأخفى ديباً من الرقي، وأشد إطراباً من الغناء؛ فسلّ السخائم، وحلل العقد، وسخى الشحيح، وشجع الجبان، وكان كالخمر في لطف ديبه وإلهائه؛ وهزه وإثارته، وقد قال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

ابن طباطبا

عيار الشعر، ص 14 - 16

[الشاعر وبناء القصيدة]

إذا أراد الشاعر بناء قصيدةٍ مَخْصَصَ المعنى الذي يريد بناءَ الشعرِ عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسُهُ إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلسُ له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومُه أثبتَه، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه؛ بل يعلق كلَّ بيتٍ يتفق له نظمُهُ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإذا كُمِلَتْ له المعاني، وكثُرَتِ الأبياتُ وفَقَّ بينهما بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته، يستقصي انتقاده، ويرمُ ما وَهَى منه، ويبدلُ بكل لفظٍ مستكرهه لفظاً سهلاً نقيّةً، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافيةً تشاكله، ويكون كالنَسَاجِ الحاذق الذي يفوّف وشبه بأحسن التفويت ويسدّيه وينيره ولا يهلهلُ شيئاً منه فيشينه، وكالنفّاثِ الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبعُ كلَّ صبيغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكنّاظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والشمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاتر بين جواهرها في نظمها وتنسيقها.

ابن طباطبا

عيار الشعر، ص 5 - 6

[حدّ القصيد الأنموذج]

قال أبو محمّد: وسمعتُ بعضَ أهل الأدب يذكرُ أن مُقَصِّدَ القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديارِ والدّمَنِ والآثارِ، فبِكَيِّ وشكّا، وخاطبَ الرّبيعَ، واستوقفَ

الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلا، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصباية والشوق، ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَبَ بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسَّهَر، وسُرَى الليل وحرَّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا عَلِمَ أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء، وذمَّامة التأميل، وقَرَّرَ عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزَّه للسَّماح وفضله على الأشباه، وصَغَّرَ في قَدْرِهِ الجزيل.

فالشاعرُ المُجيدُ مَنْ سَلَكَ هذه الأساليب، وعدَّلَ بين هذه الأقسام. فلم يجعل واحداً منها أَغْلَبَ على الشعر، ولم يُطِلْ فيمِلَّ السامعين، ولم يَقْطَعْ وبالنفس ظمأً إلى المزيد.

ابن قتيبة

الشعر والشعراء ص 20 - 21

— 16 —

[أصناف الشعر]

وقال عبد الكريم⁽¹⁾: يجمع أصناف الشعر أربعة: المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون؛ فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء،

(1) عبد الكريم النهشلي: من أعلام الأدب بأفريقية في عهد الدولة الصنهاجية و«شيخ جماعة» منهم ابن رشيق (ت 405هـ).

ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللهو الغزل والطرده وصفة الخمر والمخمور.

وقال قوم: الشعر كله نوعان: مدحٌ، وهجاءٌ؛ فإلى المدح يرجع الرثاء، والافتخار، والتشبيب، وما تعلق بذلك من محمود الوصف: كصفات الطلول والآثار، والتشبيهات الحسان، وكذلك تحسين الأخلاق: كالأمثال، والحكم، والمواعظ، والزهد في الدنيا، والقناعة، والهجاء ضدُّ ذلك كله، غير أن العتاب حالٌ بين حالين؛ فهو طرف لكل واحد منهما، وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء؛ لأنك لا تغري بإنسان فتقول: إنه حقير ولا ذليل، إلا كان عليك وعلى المُغري الدركُ، ولا تقصد أيضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه.

والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدُّرْبة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخِي والأوتاد للأخبية، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغني عنها.

ابن رشيق

العمدة، ج 1 ص 121

— 17 —

[جامع المعاني التي تجرى عليها أشعار المديح والهجاء عند العرب]

وأما ما وجدته في أخلاقها وتمدَّحت به ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخُلُق الجمال والبسطة، ومنها في الخُلُق السخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء، والعفاف، والبر، والعقل، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشكر والمداراة، والعفو، والعدل والإحسان، وصلة الرحم، وكرم السر، والمواتاة، وأصالة الرأي، والأنفة، والدهاء، وعلو الهمة، والتواضع،

والبيان، والبشر، والجلد، والتجارب، والنقض والإبرام، وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قرى الأضياف، وإعطاء العفاة، وحمل المغارم، وقمع الأعداء، وكظم الغيظ، وفهم الأمور، ورعاية العهد، والفكرة في العواقب، والجِد، والتشمير، وقمع الشهوات، والإيثار على النفس، وحفظ الودائع، والمجازاة، ووضع الأشياء مواضعها، والذب عن الحريم، واجتلاب المحبة، والتنزه عن الكذب، وإطراح الحرص، وإدخار المحامد والأجر، والاحتراز من العدو، وسيادة العشيرة، واجتناب الحسد والنكاية في الأعداء، وبلوغ الغايات، والاستكثار من الصدق، والقيام بالحجة، وكبت الحساد، والإسراف في الخير، واستدامة النعمة، وإصلاح كل فاسد، واعتقاد المنز، واستعباد الأحرار بها، وإيناس النافر، والإقدام على بصيرة، وحفظ الجار.

وأضداد هذه الخلال: البخل، والجبن، والطيش، والجهل، والغدر، والاعتزاز، والفشل، والفجور، والعقوق، والخيانة، والحرص، والمهانة، والكذب، والهلع، وسوء الخلق ولؤم الظفر والجود، والإساءة، وقطيعة الرحم، والنميمة، والخلاف، والدناءة، والغفلة، والحسد، والبغي، والكبر، والعبوس، والإضاعة، والقبح والدمامة، والقماءة، والاستحلال، والخور، والعجز، والعي.

ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكد لها، وتضاعف حسناتها، وتزيد في جلاله المتمسك بها، كما أن لأضدادها أيضاً حالات تزيد في الحط ممن وسم بشيء منها ونسب إلى استشعار مذمومها، والتمسك بفاضلها، كالجود في حال العسر موقعه فوق موقعه في حال الجِد، وفي حال الصحو أحمد منه في حال السكر، كما أن البخل من الواجد القادر أشنع منه من المضطر العاجز، والعفو في حال المقدرة أجل موقعاً منه في حال العجز، والشجاعة في حال مبارزة الأقران أحمد منها في حال الإحراج ووقوع الضرورة، والعفة في حال اعتراض الشهوات والتمكن من الهوى أفضل منها في حال فقدان اللذات، واليأس من نيلها؛ والقناعة في حال تبرز الدنيا ومطامعها أحسن منها في حال اليأس وانقطاع الرجاء منها.

وعلى هذا التمثيل جميع الخصال التي ذكرناها. فاستعملت العرب هذه

الخلال وأضدادها، ووصفت بها في حالي المدح والهجاء مع وصف ما يستعد به لها وتهيأ لاستعماله فيها، وشعبت منها فنوناً من القول وضروباً من الأمثال، وصنوفاً من التشبيهات ستجدها على تفننها واختلاف وجوهاها في الاختيار الذي جمعناه فتسلك في ذلك منهاجهم وتحتذي على مثالهم إن شاء الله تعالى.

ابن طاطبا

عيار الشعر، ص 12 - 13

- 18 -

[الشعر والشعراء في نظر المعري]

فيقول⁽¹⁾: أخبرني عن أشعار الجن، فقد جمعت منها المعروف بالمرزباني قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ⁽²⁾: إنما ذلك هذيان لا مُعْتَمَدَ عليه، وهل يعرف البشر من التنظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس، وإنما كانت تخطرُ بهم أطيالاً منا عارمون، فتنتف إلىهم مقدار الضوارة من أراك نَعْمَان ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم بكور أو كوزين. وقد بلغني أنكم معشر الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس:

فَقَانَبِكِ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَتَحْفَظُونَهَا الْحَزَاوِرَةَ فِي الْمَكَاتِبِ، وَإِنْ شِئْتَ أَمْلَيْتُكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ عَلَى مِثْلِ: مَنَزِلٍ وَحَوْمَلٍ، وَالْفَاءُ عَلَى ذَلِكَ الْقَرِي يَجِيءُ عَلَى: مَنَزِلٍ وَحَوْمَلٍ، وَالْفَاءُ عَلَى: مَنَزِلًا وَحَوْمَلًا، وَالْفَاءُ عَلَى: مَنَزِلَةً وَحَوْمَلَةً، وَالْفَاءُ عَلَى: مَنَزِلَةً وَحَوْمَلَةً، وَالْفَاءُ عَلَى: مَنَزِلَةً وَحَوْمَلَةً. وكل ذلك لشاعرٍ منا هَلَكَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ الْآنَ يَشْتَعِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ. فيقول، وَصَلَ اللَّهُ أَوَقَاتَهُ بِالسَّعَادَةِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ! فيقول: لَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ يَغْلِبُ عَلَيْنَا النَّسِيَانُ وَالرُّطُوبَةُ، لِأَنكُمْ خَلَقْتُمْ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ، وَخَلَقْنَا مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ. فَتَحْمِلُهُ

(1) ابن القارح بجنة المفاريت المؤمنين في حوار مع «شيخ» حول «أشعار الجن».

الرَّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لَذَلِكَ الشَّيْخُ: أَفْتَمِلَ عَلَيَّ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ؟
فَيَقُولُ الشَّيْخُ: فَإِذَا شِئْتَ أَمْلَلْتُكَ مَا لَا تَسِقُهُ الرِّكَابُ، وَلَا تَسَعُهُ صَحْفُ دُنْيَاكَ.

فِيهِمُ الشَّيْخُ، لَا زَالَتْ هِمَّتُهُ عَالِيَةً، بَأَنْ يَكْتَتِبَ مِنْهُ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ شَقِيتُ فِي
الدَّارِ الْعَاجِلَةَ بِجَمْعِ الْأَدَبِ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِطَائِلٍ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الرُّؤْسَاءِ،
فَأَخْتَلِبُ مِنْهُمْ دَرَّ بَكِيٍّ وَأَجْهَدُ أَخْلَافَ مَصُورٍ، وَلَسْتُ بِمُوقِفٍ إِنْ تَرَكْتُ لَذَاتِ الْجَنَّةِ
وَأَقْبَلْتُ أُنْتَسَخَ آدَابِ الْجَنِّ، وَمَعِيَ مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ، لَا سَيِّمًا وَقَدْ شَاعَ النِّسْيَانُ
فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ، فَصَرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رَوَايَةً وَأَوْسَعِهِمْ حِفْظًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

المعري

(رسالة الغفران، ص 142 - 144)

— 19 —

[في تعلّم صناعة الشعر]

أو

[ثلاثة نصوص نقدية لابن شهيد]

— أ —

جلس إليّ يوماً يوسف بن إسحاق الإسرائيلي، وكان أفهم تلميذ مرّ بي.
وأنا أوصي رجلاً عزيزاً عليّ من أهل قرطبة، وأقول له: إِنَّ لِلْحُرُوفِ أَنْسَاباً
وقرابات تبدو في الكلمات. فإذا جاورَ النسيبُ النسيبَ، ومازَجَ القريبُ
القريبَ، طابت الألفة، وحسنت الصّحبة؛ وإذا رُكِبَتِ صُورُ الكلام من تلك،
حسنت المناظر، وطابت المخابر، أفهمت؟ قال لي: إي والله؛ قلتُ له:
وللعذوبة إذا طُلبت، والفصاحة إذا التُمِسَتْ، قوانينٌ من الكلام، من طلبَ بها
أدرك، ومن نكَبَ عنها قصر، أفهمت؟ قال: نعم، قلت: وكما تختارُ مليحَ
اللفظ، ورشيقَ الكلام، فكذلك يجبُ أن تختارَ مليحَ النحو، وفصيحَ الغريب،
وتهرّبَ عن قبيحه، قال: أجل، قلت: أفنَهمُ شيئاً من عُيُونِ كلامِ القائل:

لعمركُ إني يومَ بانُوا فلم أُمْتُ خفّاتاً على آثارهم لصبورُ
غداة التقينا إذ رميتَ بنظرةٍ ونحن على متن الطريق نسير

فلا يكادُ البائسُ يستتمُّ ذلكَ حتى يأتينا فيكَبَّ على أيدينا يُقْبَلُها، وأطرافنا يَلْطَعُها، راجباً في أن نكشِفَ له السرَّ الذي حرَّكَ العامَّةَ فبذلِكَ ما عندها له، وبإدْرثَ بَدْرُها إليه. وتعلِّمُهُ ذلكَ التَّحوُّنَ من أنحاءِ السَّحرِ لا نستطيعُهُ، لأنَّ هذا الذي يُريدُهُ مِنَّا هو تعلِّمُهُ البيانَ، وبينَ فكرِهِ وبينه حجابٌ؛ ولكلِّ ضَرْبٍ من الناسِ ضَرْبٌ من الكلامِ، ووجهٌ من البيانِ؛ والمرءُ لا يُفَجِّرُ صَفَاةَ غَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يُوفِيَ على معرفة ذلكَ بفَهْمِهِ التَّبَيُّنَ والتَّبَيُّنَ، ويكونَ من المستَبْطِينَ بوجوهِ الحِيلِ على قوانينَ قائمة، وأصولٍ ثابتة، فتكونُ النَتِيجَةُ ما سمعت.

الذخيرة... القسم 1 المجلد 1 ص 236

- ج -

[...] مرزُت بشيخٍ يُعلِّمُ بُنيًّا له صناعةَ الشعر وهو يقولُ له: إذا اعتمدتَ معنىً قد سبقَكَ إليه غيرُكَ فأحسنَ تركيبه، وأرقَّ حاشيتهَ فاضربْ عنه جُملة. وإن لم يكنْ بُدٌّ ففي غيرِ العروضِ التي تقدِّمُ إليها ذلكَ المُحْسِنُ، لتَنَشَّطَ طبيعتُكَ، وتقوى مُنتَك. فتذكرُ قولَ الشاعر وقد كنتُ أنسيتهُ:

لَمَّا تَسَامَى النَجْمُ فِي أَفْقِهِ	وَلَا حَتَّ الْجَوَازِءُ وَالْمِرْزَمُ
أَقْبَلْتُ وَالْوِطَاءُ خَفِيفٌ كَمَا	يَنْسَابُ مِنْ مَكَمْنِهِ الْأَرْقَمُ

[...] فقلتُ أنا في ذلك:

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ	فَنَامَ، وَنَامَتِ عُيُونُ الْعَسَنِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ، عَلَى بُعْدِهِ،	دُنُو رَفِيقِي دَرَى مَا التَّمَسَنِ
أَدْبْتُ إِلَيْهِ دَبِيبَ الْكَرَى،	وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
وَبِئْتُ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا،	إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْغَلَسَنِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطُّلَا،	وَأَرَشُفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسَنِ

فَقَمْتُ وَقَبَلْتُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَلْتُ: لَهْ دَرُّ أَبِيكَ! (*)

الذخيرة... القسم 1 المجلد 1 ص 286

* في نفس السياق انظر الجزء الأول ص 109: خلف والشعر.

المحور الثاني

الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[في الشعر وطبقات الشعراء]

ولإنما سمي الشاعر شاعراً؛ لأنه يَشْعُرُ بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدٌ معنًى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صَرَفَ معنًى إلى وجه عن وجه آخر؛ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير...

ولقي رجل آخر فقال له: إن الشعراء ثلاثة: شاعر، وشويعر، وماصّ بظَرِّ أمه، فأيهم أنت؟ قال: أما أنا فشويعر، واختَصِمْتُ أنت وامرؤ القيس في الباقي [...]

وقالت طائفة من المتعقبين: الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز. وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر.

وطائفة أخرى تقول: بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نُوَّاس. وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف.

وقال قوم: بل الثلاثة مهلهل وابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف، وهذا قول من يؤثر الأنفة، وسهولة الكلام، والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس. لكن أبا العتاهية تصرف.

وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نُوَّاس، ثم حبيب والبحري، ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالْحَسَنِ في المولدين وامرء القيس في القُدَمَاء؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.

والاشتهار بالشعر أقسام وحدود، ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد
الخبززي أشهر من منصور النمري وكلثوم العتابي وأبي يعقوب الخريمي
وأبي سعيد المخزومي.

وفوق هؤلاء كلهم طبقة في السن أشهرهم وأشعرهم بشار بن برد، وليس
يفضل على الحسن مولد سواه، وكذا روى الجاحظ وغيره من العلماء . . . ومن
طبقة بشار مروان بن أبي حفصة، وأبو دلامة زبد بن الجون الأعرابي، وقيل:
زبد، بالباء معجمة بواحدة ساكنة ومتحركة حكاه المرزباني، والسيد الحميري،
وسلم الخاسر، وأبو العتاهية، وجماعة يطول بهم الشرح فيهم مثله.

ومن طبقة أبي نواس العباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد صريع
الغواني، والفضل الرقاشي، وأبان اللاحقي، وأبو الشيص، والحسين بن
الضحاك الخليع، ودعبل، ونظراء هؤلاء ساقتهم دعبل ليس فيهم نظير أبي
نواس.

وأما طبقة حبيب والبحثري وابن المعتز وابن الرومي فطبقة متدركة قد
تلاحقوا، وغطوا على من سواهم، حتى نسي معهم بقية من أدرك أبا نواس كابن
المعذل، وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين، غمره حبيب ذكراً
واشتهاراً، وكأبي هفان أيضاً، أدرك أبا نواس، ولحق البحثري فستره، وكذلك
الجماز وديك الجن، وهو شاعر الشام، لم يذكر مع أبي تمام إلا مجازاً، وهو
أقدم منه، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلة من شعره يحتذى عليها فسرقتها،
ودعبل ما أصاب مع أبي تمام طريقاً على تقدمه في السن والشهرة، ولم يذكر
من أصحاب ابن الرومي وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما في مكاتبة أو مناقضة،
وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده، ولولا مكانه من
السلطان لأخفاه، وكان الصنوبري والخبززي مقدمين عليه للسن، ثم سقطا
عنه، على أن الصنوبري يسمى حبيباً الأصغر لجودة شعره.

ابن رشيق

العمدة ج 1 ص 100 - 101، 116

[في القديم والمحدث]

— أ —

لم أقصِّد، فيما ذكرته من شعر كلِّ شاعر، مختاراً له سبيلَ من قلَّد، أو استحسنَ باستحسانٍ غيره، ولا نظرتُ إلى المُتقدِّم منهم بعينِ الجلالةِ لتقدُّمِهِ، ولا إلى المُتأخِّر بعينِ الاحتقارِ لتأخُّره؛ بل نظرتُ بعينِ العدلِ إلى القَريقَينِ، وأعطيتُ كلَّاً حقَّه، ووفَّرتُ عليه حظَّه. فإني رأيتُ من علمائنا من يستجيدُ الشعرَ السَّخيفَ لتقدُّمِ قائله، ويضعُه موضعَ مُتخَيِّره، ويرذلُ الشعرَ الرِّصينَ، ولا عيبَ له عنده إلاَّ أنَّه قيلَ في زمانه ورأى قائله. ولم يقصُرَ الله الشعرَ والعلمَ والبلاغةَ على زمنٍ دونَ زمنٍ، ولا خصَّ به قوماً دونَ قومٍ؛ بل جعلَ ذلك مُشترَكاً مقسوماً بينَ عبادِهِ، وجعلَ كلَّ قديمٍ حديثاً في عصره، وكلَّ شريفٍ خارجياً في أوَّلِهِ. فقد كانَ جريراً، والفرزدقُ والأخطلُ يُعدُّونَ مُحدثينَ؛ وكان أبو عمرو بنُ العلاءِ يقولُ: قد نبغَ هذا المُحدثُ وحسُنَ، حتَّى لقد همَّمتُ بروايته؛ ثم صارَ هؤلاء قُدِّماءَ عندنا ببُعدِ العهدِ منهم؛ وكذلك يكونُ من بعدهم لمن بعدنا: كالحُزيمِيِّ، والعُتَّابِيِّ، والحُسينِ بنِ هانئٍ. فكلُّ من أتى بحسَنٍ، من قولٍ أو فعلٍ، ذكرناه له، وأثنينا عليه به، ولم يَضَعُه عندنا تأخُّرُ قائله، ولا حدائِةُ سنِّه؛ كما أنَّ الرِّديَّءَ، إذا وردَ علينا للمُتقدِّم أو الشَّريفِ، لم يرفَعه عندنا شَرَفُ صاحبه ولا تقدُّمُهُ.

ابن قتيبة

الشعر والشعراء ص 5 - 6

[في القديم والمحدث]

— ب —

إن الشعر علمٌ من علوم العرب يشترك فيه الطَّبْعُ والرِّواية والذكاء، ثم تكون الذُّربةُ مادةً له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فَمَن اجتمعت له هذه الخصال

فهو المحسن المبرّز؛ وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث⁽¹⁾، والجاهلي والمُخَضَّرِ، والأعرابي والمولّد؛ إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أَمَسَّ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر؛ فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية؛ ولا طريق للرواية إلا السمع؛ وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويُعرف بعضها برواية شعر بعض؛ كما قيل: إن زهيراً كان رواية أوس، وإن الحطيئة رواية زهير، وإن أبا ذؤيب رواية ساعدة بن جويرية؛ فبلغ هؤلاء في الشعر حيث تراهم [...].

فإن قلت: فما بال المتقدمين خُصُّوا بمتانة الكلام وجزالة المنطق وفخامة الشعر، حتى إن أَعْلَمْنَا باللغة وأكثرنا روايةً للغريب لو حفظ كل ما ضَمَّت الدواوين المروية، والكتب المصنفة من شعر فحل، وخبر فصيح، ولفظ رائع — ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروئي، وجُلُّ الغريب محفوظ منقول — ثم أعانه الله بأصح طبع وأثقب ذهن وأنفذ قريحة، ثم حاول أن يقول قصيدة، أو يقرض بيتاً يُقارب شعر امرئ القيس وزهير، في فخامته وقوة أسره، وصلابة معجمه لوجده أبعد من العيوق مُتَنَاولاً، وأصعب من الكبريت الأحمر مطلباً؟ قلت: أحلتك على ما قالت العلماء في حمّاد⁽²⁾ وخلف⁽³⁾ وابن دأب⁽⁴⁾

(1) يقول: ابن رشيق في نفس السياق:

كل قديم من الشعراء فهو مُخَدِّثٌ في زمانه بالإضافة إلى مَنْ كان قبله، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول؛ لقد أحسن هذا المولد حتى هممتُ أن أمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين للمتقدمين.

العمدة، ج 1 ص 90

(2) هو حماد الراوية، توفي 155.

(3) هو خلف الأحمر، توفي 180 (انظر ما جمعناه ودرستاه من شعره بالجزء الأول من هذا العمل).

(4) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، من رواة الأخبار في القرن الثاني، توفي نحو 171 (انظر «نور القبس» ص 310 - 311).

وأضرابهم، ممن نَحَلَ القدماء شعرَه فاندماج في أثناء شعرهم، وغاب في أضعافه، وصَعِبَ على أهل العناية إفراده وتعرُّس، مع شدة الصعوبة حتى تكَلَّفَ فُلِّي الدواوين واستقراء القصائد فَنَقِيَ منها ما لعلَّه أمتن وأفخم، وأجمع لوجوه الجَوْدَةِ وأسباب الاختيار مما أثبت وقُبِلَ. وهؤلاء مُحدثون حضريُّون، وفي العصر الذي فسد فيه اللسان، واختلطت اللغة وحُظِرَ الاحتجاجُ بالشعر، وانقضى مَنْ جعله الرواة ساقَة الشعراء.

فإن قلت: فما بالُ هذا التَّمُط والطريقة، وهذه المَنَقَبَةُ والفضيلة ينفردُ بها الواحد في العصر وهو مشحون بالشعر، وكان فيما مضى يشمل الذَّهْماء ويعم الكافة؟ قلت لك: كانت العرب وَمَنْ تبعها من السَّلَف تجري على عادةٍ في تفخيم اللفظ وجمال المنطق لم تَأَلَفَ غيره، ولا أُنسأ سواه، وكان الشعرُ أحدَ أقسام منطقها، ومن حقِّه أن يُخْتَصَّ بفضل تهذيب، ويُفَرَّدَ بزيادة عناية، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة، وانضاف إليها التعمُّل والصنعة خرج كما تراه فخمًا جزلاً قوياً متيناً.

القاضي الجرجاني

الوساطة بين المتنبي وخصومه ص 15 - 17

— 23 —

[غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر]

— أ —

[...] والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم مَنْ يَسْهَلُ عليه المديحُ وَيَعْسُرُ عليه الهجاء. ومنهم من يَتَيَسَّرُ له المراثي ويتعذَّرُ عليه الغزلُ،

وقيل للعجاج: إنك لا تحسنُ الهجاء؟ فقال: إنَّ لنا أحلاماً تمنعنا من أن نُظْلِمَ، وأحساباً تمنعنا من أن نُظْلَمَ، وهل رأيتَ بانياً لا يُحْسِنُ أن يَهْدِمَ؟

وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثلُ الذي ضربه للهجاء والمديح بشكلٍ، لأنَّ المديحَ بناءٌ والهجاءُ بناءٌ، وليس كلُّ بَانٍ بضربٍ بانياً بغيره. ونحن نجدُ هذا بعينه في أشعارهم كثيراً. فهذا ذو الرُّمَّة، أحسنُ الناسِ تشبيهاً،

وأجودهم تشبيهاً، وأوصفهم لرملٍ وهاجرة وفلاة وماءٍ وقرادٍ وحيةٍ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خائنه الطبعُ. وذلك أخره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعادٌ غزلانٍ ونقطةٌ عروس! وكان الفرزدقُ زيرَ نساءٍ وصاحبَ غزلٍ، وكان مع ذلك لا يُجيدُ التشبيبَ. وكان جريرٌ عفيفاً عزهاةً عن النساءِ، وهو مع ذلك أحسنُ الناس تشبيهاً. وكان الفرزدقُ يقول: ما أحوجه مع عفتِهِ إلى صلابَةِ شعري، وما أحوجني إلى رقةِ شعره! لِمَا تَرَوْنَ.

ابن قتيبة

الشعر والشعراء، ص 13 - 14

— 24 —

[غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر]

— ب —

ألا ترى أن من الشعراء مَنْ يجودُ في المدح دون الهجو، ومنهم مَنْ يجود في الهجو وحده، ومنهم مَنْ يجود في المدح والسخف، ومنهم مَنْ يجود في الأوصاف، والعالم لا يشدُّ عنه مراتب هؤلاء، ولا يذهب عليه أقدارهم، حتى أنه إذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة، فأنشد غيرها من شعره، لم يشكَّ أن ذلك من نسجه، ولم يَرْتَبْ في أنه من نظمه، كما أنه إذا عرف خط رجلٍ لم يشبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة. وحتى يميّز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره، وكذلك أمر الخطب، فإن اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقتين، وتماثل الصورتين، كما قد يشبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنع. ويقصد فيه التسهّل، ويسلك الطريقة الكتابية، ويتوجه في تقريب الألفاظ، وترك تعويض المعاني، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه.

ولا يخفى على أحد يميّز هذه الصنعة سبك أبي نواس، ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري، وينبّه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه فيشبهه بشعر ابن الرومي ويحركه ما لشعر

أبي نواس من الحلاوة والرقّة والرشاقة والسلاسة، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم. وكذلك يميّز بين شعر الأعشى في التصرف، وبين شعر امرئ القيس، وبين شعر النابغة وزهير، وبين شعر جرير والأخطل، والبعيث والفرزدق. وكلُّ له منهج معروف، وطريق مألوف [...].

وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتنادى رسائل كتاب دهر، حتى تشبه اشتباهاً شديداً، وتتماثل تماثلاً قريباً، فيغضض الفصل.

الباقلاني

إعجاز القرآن / ط صقر، ص 120 - 121

— 25 —

[غلبة طريقة وطريقة على شاعر وشاعر]

— ج —

إنه لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه، ويسهل عليه تناولها: كأبي نواس في الخمر، وأبي تمام في التصنيع، والبحترى في الطيف، وابن المعتز في التشبيه، وديك الجن في المراثي، والصنوبري في ذكر النور والطير، وأبي الطيب في الأمثال وذم الزمان وأهله. وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر؛ لكثرة اختراعه، وحسن افتنانه، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به؛ فصار يقال: أهجى من ابن الرومي، ومن أكثر من شيء عُرف به، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر. ولكن قليل الشر كثير.

ابن رشيق

العمدة، ج 1 ص 286

— 26 —

[في تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء]

— أ —

وقال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب،

لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعرٌ غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبةً ورحلوا إلى الشؤقة، وتسرّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيبُ عندهم فوق الشاعر.

الجاحظ

البيان والتبيين ج 1 ص 241

— ب —

اعلم أن تأخّر الشعراء عن رتبة البلغاء، مُوجِبُهُ تأخّر المنظوم عن رتبة المتنور عند العرب لأمرين:

أحدهما أن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجّحون بالخطابة والافتنان فيها، ويعدّونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة. فإذا وقف أحدهم بين السّماطين لحصول تنافرٍ أو تضاعفٍ أو تظالم أو تشاجر، فأحسن الاقتضاب عند البُداهة، وأنجّع في الإسهاب وقت الإطالة، أو اعتلى في ذروة منبرٍ فتصرف في ضروبٍ من تخشين القول وتليينه، داعياً إلى طاعةٍ، أو مُستصليحاً لرعيةٍ، أو غير ذلك مما تدعو الحاجةُ إليه، كان ذلك أبلغ عندهم من إنفاق مالٍ عظيم، وتجهيز جيشٍ كبير. وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر، ويعدّونه ملوكهم دناءة. وقد كان لامرئ القيس في الجاهلية مع أبيه حُجر بن عَمْرٍو، حين تعاطى قول الشعر فنهاء عنه وقتاً بعد وقت، وحالاً بعد حال، ما أخرجه إلى أن أمر بقتله. وقصّته مشهورة، فهذا واحد.

والثاني أنهم اتخذوا الشعر مكسبةً وتجارة، وتوصّلوا به إلى الشوق كما توصّلوا به إلى العلية، وتعرّضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللثيم عند الطمع فيه بصفة الكريم، والكريم عند تأخّر صلته بصفة اللثيم، حتى قيل: «الشعر أدنى مروءة السريّ، وأسرى مروءة الدنيّ». وهذا الباب أمره ظاهر. وإذا كان شرف الصانع بمقدار شرف صناعته، وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر، وجب أن

يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البليغ⁽¹⁾.

المرزوقي

شرح ديوان الحماسة ص 16 - 17

- 27 -

[مراتب النظم والنثر في نظر التوحيدي]

وقال⁽²⁾ - أدام الله دَوْلته - ليلة: أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ كلاماً في مَرَاتِبِ النِّظْمِ والنَّثْرِ، وإلى أَيِّ حَدٍّ يَنْتَهِيانِ، وعلى أَيِّ شَكْلِ يَتَّفِقَانِ، وأَيُّهُمَا أَجْمَعُ لِلْفائدة، وأَزْجَعُ بِالْعائدة، وأَدْخُلُ فِي الصَّنَاعَةِ، وأَوَّلِي بِالْبَرَاةِ؟؟.

فكان الجواب: إِنَّ الكلامَ على الكلامِ صَغْبٌ. قال: ولم؟ قلتُ: لأنَّ الكلامَ على الأمور المعتمد فيها على صُورِ الأمور وشُكُولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحِسِّ مُمكن، وفَضَاءُ هَذَا مَتَّسِع، والمجالُ فيه مختلف. فأما الكلامُ على الكلامِ فَإِنَّهُ يَدُورُ على نَفْسِهِ، وَيَلْتَبَسُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ؛ ولهذا شَقَّ النَّحْوُ وما أَشْبَهَ النَّحْوَ مِنَ الْمَنْطِقِ، وكذلك النَّثْرُ والشَّعْرُ وعلى ذَلِكَ.

وقد قال الناس في هَذايْنِ الفَنَيْنِ ضروباً من أَلْقَوْلٍ لم يَبْعِدُوا فيها من الوَصْفِ الحَسَنِ، والإنصافِ المحمود، والتَّنَافُسِ المقبول، إلا ما خَالَطَهُ من التعصُّبِ والمَحَكِ [...].

قال شيخنا أبو سليمان: الكلامُ يَنْبَغُ في أَوَّلِ مبادئِهِ إمَّا مِنْ عَفْوِ البَدِيهَةِ، وإمَّا مِنْ كَدِّ الرُّويَّةِ، وإمَّا أَنْ يَكُونَ مَرْكَباً مِنْهُمَا، وفيهِ قُوَاهُمَا بِالْأَكْثَرِ وَالْأَقَلِّ؛ فَفَضِيلَةُ عَفْوِ البَدِيهَةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَصْفَى، وَفَضِيلَةُ كَدِّ الرُّويَّةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَشْفَى، وَفَضِيلَةُ المَرْكَبِ مِنْهُمَا أَنَّهُ يَكُونُ أَوْفَى؛ وَعَيْنُ عَفْوِ البَدِيهَةِ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ العَقْلِ فِيهِ أَقَلِّ؛ وَعَيْنُ كَدِّ الرُّويَّةِ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الحِسِّ فِيهِ أَقَلِّ، وَعَيْنُ المَرْكَبِ

(1) انظر «شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام» للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار العربية للكتاب تونس.

(2) الحوار يدور بين ابن سعدان الوزير البويهى وأبي حيان التوحيدي، والنص مقتطفات من الليلة الخامسة والشعرين من كتاب الإمتاع والمؤانسة.

منهما بقَدْرٍ قَسَطَهُ مِنْهُمَا: الْأَغْلَبُ وَالْأَضْعَفُ؛ عَلَى أَنَّهُ إِنْ خَلَصَ هَذَا الْمَرْكَبُ مِنْ شَوَائِبِ التَّكَلُّفِ، وَشَوَائِبِ التَّعَسُّفِ، كَانَ بَلِيغاً مَقْبُولاً، رَائِعاً حُلُوءاً، تَخْتَصُّهُ الصُّدُورُ، وَتَخْتَلِسُهُ الْأَذَانُ، وَتَنْتَهِيهِ الْمَجَالِسُ، وَيَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُ بَعْدَ الْمُتَنَافِسِ، وَالتَّفَاضُلُ الْوَاقِعُ بَيْنَ الْبُلْغَاءِ فِي النَّظْمِ وَالتَّنْثِيرِ، إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا الْمَرْكَبِ الَّذِي يُسَمَّى تَأْلِيفاً وَرَضْفاً؛ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْعَقْلِ فِي [الْبَدِيَةِ أَوْضَحَ، وَأَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْحِسِّ فِي الرُّوْيَةِ] أَلَوْحَ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَرَائِبِ آثَارِ النَّفْسِ وَنَوَادِرِ أَعْمَالِ الطَّبِيعَةِ، وَالْمَدَارُّ عَلَى الْعَمُودِ الَّذِي سَلَفَ نَعْتُهُ، وَرَسَا أَصْلُهُ.

وَسَمِعْتُ أَبَا عَائِذٍ الْكَرْخِيَّ صَالِحَ بْنِ عَلِيٍّ يَقُولُ: التَّنْثِيرُ أَصْلُ الْكَلَامِ، وَالنَّظْمُ فَرْعُهُ؛ وَالْأَصْلُ أَشْرَفُ مِنَ الْفَرْعِ، وَالْفَرْعُ أَنْقَصُ مِنَ الْأَصْلِ؛ لَكِنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَائِنَاتٌ وَشَائِنَاتٌ، فَأَمَّا زَائِنَاتُ التَّنْثِيرِ فَهِيَ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِمْ يَقْصِدُونَ التَّنْثِيرَ، وَإِنَّمَا يَتَعَرَّضُونَ لِلنَّظْمِ فِي الثَّانِي بِدَاعِيَةِ عَارِضَةٍ، وَسَبَبِ بَاعَثٍ، وَأَمْرٍ مُعَيَّنٍ [...].

قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: إِنْ النَّظْمُ قَدْ سَبَقَ الْعَرُوضَ بِالذُّوقِ، وَالذُّوقُ طِبَاعِي؛ قِيلَ فِي الْجَوَابِ: الذُّوقُ وَإِنْ كَانَ طِبَاعِيًّا فَإِنَّهُ مَخْدُومُ الْفِكْرِ، وَالْفِكْرُ مِفْتَاحُ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْإِلَهَامَ مُسْتَعْدِمٌ لِلْفِكْرِ، وَالْإِلَهَامُ مِفْتَاحُ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ.

قَالَ: وَمَنْ شَرَفَ التَّنْثِيرَ أَيْضاً أَنَّهُ مُبْرَأٌ مِنَ التَّكَلُّفِ، مُنْزَعٌ عَنِ الضَّرُورَةِ، غَنِيٌّ عَنِ الْاعْتِدَارِ وَالْإِفْتِقَارِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَالْحَذْفِ وَالتَّكْرِيرِ، وَمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا مِمَّا هُوَ مَدُونٌ فِي كُتُبِ الْقَوَافِي وَالْعَرُوضِ لِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ أَسْتَنْفَذُوا غَايَتَهُمْ فِيهَا.

وَقَالَ عَيْسَى الْوَزِيرُ: التَّنْثِيرُ مِنْ قِبَلِ الْعَقْلِ، وَالنَّظْمُ مِنْ قِبَلِ الْحِسِّ، وَلِدُخُولِ النَّظْمِ فِي طَيِّبِ الْحِسِّ دَخَلَتْ إِلَيْهِ الْآفَةُ، وَغَلِبَتْ عَلَيْهِ الضَّرُورَةُ، وَأَحْتِيجَ إِلَى الْإِغْضَاءِ عَمَّا لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ التَّنْثِيرُ [...].

وَقَالَ ابْنُ هِنْدُو الْكَاتِبُ: إِذَا نَظَرَ فِي النَّظْمِ وَالتَّنْثِيرِ عَلَى اسْتِعْيَابِ أَحْوَالِهِمَا وَشَرَائِطِهِمَا، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى هَوَادِيهِمَا وَتَوَالِيهِمَا كَانَ أَنَّ الْمَنْظُومَ فِيهِ نَثْرٌ مِنْ

وَجْه، والمنثورَ فيه نَظْمٌ مِنْ وَجْه، ولولا أَنَّهُمَا يَسْتَهْمَانِ هَذَا النَّعْتَ لَمَا ائْتَلَفَا وَلَا اُخْتَلَفَا [...] .

قال السلافي: من فضائل النظم أَنَّ صَارَ [لَنَا] صناعةً برأسها، وتكَلَّمَ الناسُ في قوافيها، وتَوَسَّعُوا فِي تَصَاريفِهَا وَأَعَارِضِهَا، وَتَصَرَّفُوا فِي بَحُورِهَا، وَأَطْلَعُوا عَلَى عَجَائِبِ مَا أَسْتُخْزَنَ فِيهَا مِنْ آثَارِ الطَّبِيعَةِ الشَّرِيفَةِ، وَشَوَاهِدِ الْقُدْرَةِ الصَادِقَةِ؛ وَمَا هَكَذَا النَّثْرُ، فَإِنَّهُ قَصَّرَ عَنْ هَذِهِ الذَّرْوَةِ الشَّامِخَةِ، وَالْقَلَّةِ الْعَالِيَةِ، فَصَارَ بِذَلِكَ بِذِلَّةٍ لِكَافَةِ الْأَطَافِقِينَ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَالنِّسَاءِ وَالصُّبْيَانِ .

وقال أيضاً: من فضائل النظم أَنَّهُ لَا يُغْنَى وَلَا يُخَدَى [إِلَّا بِجَيِّدِهِ] وَلَا يُوْهَلُ لِلْخَنِ الطَّنْطَنَةِ، وَلَا يُحْلَى بِالِإِيقَاعِ الصَّحِيحِ غَيْرُهُ، لِأَنَّ الطَّنْطَنَاتِ وَالنَّقَرَاتِ، وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ لَا تَتَنَاسَبُ إِلَّا بَعْدَ اشْتِمَالِ الْوِزْنِ وَالنَّظْمِ عَلَيْهَا، وَلَوْ [كَانَ] فَعِلَ [هَذَا] بِالنَّثْرِ كَانَ مَقْصُوصاً، كَمَا لَوْ لَمْ يُفَعَّلْ هَذَا بِالنَّظْمِ لَكَانَ مُحْسُوساً؛ وَالْغِنَاءُ مَعْرُوفُ الشَّرَفِ، عَجِيبُ الْأَثَرِ، عَزِيزُ [الْقَدْرِ] ظَاهِرُ النِّفَعِ فِي مَعَايِنَةِ الرُّوحِ، وَمُنَاغَاةِ الْعَقْلِ، وَتَنْبِيهِ النَّفْسِ، وَأَجْتِلَابِ [الطَّرَبِ] وَتَفْرِيجِ الْكُرْبِ؛ وَإِثَارَةُ الْهَيْزَةِ، وَإِعَادَةُ الْعِزَّةِ، وَإِذْكَارُ الْعَهْدِ، وَإِظْهَارُ النَّجْدَةِ، وَاِكْتِسَابُ السَّلَوةِ؛ وَمَا لَا يُحْصَى عَدُّهُ .

ويقال: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لَوْ كَانَ بَيْتٌ مِنَ الشُّعْرِ، وَلَا يَقَالُ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الشُّعْرَ لَوْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ النَّثْرِ، لِأَنَّ صُورَةَ الْمَنْظُومِ مَحْفُوظَةٌ، وَصُورَةُ الْمُنْثُورِ ضَائِعَةٌ .

وقال أَبْنُ ثُبَاتَةَ: مِنْ فَضْلِ النَّظْمِ أَنَّ الشَّوَاهِدَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِيهِ، وَالْحُجَجَ لَا تُؤْخَذُ إِلَّا مِنْهُ، أَعْنِي [أَنَّ] الْعُلَمَاءَ وَالْحُكَمَاءَ وَالْفُقَهَاءَ وَالنَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ يَقُولُونَ: قَالَ «الشاعر»؛ وَ«هَذَا كَثِيرٌ فِي الشُّعْرِ»، وَ«الشُّعْرُ قَدْ أَتَى بِهِ»، فَعَلَى هَذَا الشَّاعِرُ هُوَ صَاحِبُ الْحِجَّةِ، وَالشُّعْرُ هُوَ الْحِجَّةُ .

وقال الخالغ: لِلشُّعْرَاءِ حَلْبَةٌ، وَلَيْسَ لِلْبُلْغَاءِ حَلْبَةٌ، وَإِذَا تَبَعَّتْ جَوَائِزَ الشُّعْرَاءِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَوُلَاةِ الْعُهُودِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْوُلَاةِ فِي مَقَامَاتِهِمْ الْمُؤَرَّخَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْفَاخِرَةِ، وَأَنْدِيَتِهِمُ الْمَشْهُورَةِ، وَجَدْنَهَا خَارِجَةً

عن الحضر، بعيدة من الإحصاء؛ وإذا تَبَعَتْ هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئاً من ذلك؛ والناس يقولون: ما أكمل هذا البليغ لو قرَضَ الشعر! ولا يقولون: ما أشعرَ هذا الشاعر لو قَدَّرَ على النثر! وهذا لِيَغْنَى الناظم عن النَّاثِر، وفَقَرَ النَّاثِر إلى الناظم؛ وقد قَدَّمَ النَّاسُ أبا عليّ البصيرَ على أبي العَيناء، لأنَّ أبا عليّ جَمَعَ بين الفُضيلتين، وضربَ بالسَّيْفَيْنِ في الحومتين، وفاز بالقذحين المُعَلَّيْنِ في المكانين.

وَأين مَنْ يَفْتَحِرُ بالقريض، ويُدِلُّ بالنَّظْم، ويُباهى بالبديهة، من وزير الخليفة، ومن صاحب السَّرِّ، وممن ليس بين لسانه ولسان صاحبه واسطة، ولا بين أُذُنِهِ وأُذُنِهِ حجاب؟! ومتى كانت الحاجةُ إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء؟! ومتى قامَ وزير لشاعر للخدمة أو للتَّكْرمة؟! ومتى قعدَ شاعرٌ لوزير على رَجاءٍ وتأميل؟! بل لا تَرَى شاعراً إلا قائماً بين يدي خليفة أو وزيرٍ أو أميرٍ باسطَ اليَدَ، ممدودَ الكَفِّ، يَسْتَعِظُ طالباً، وَيَسْتَرْحِمُ سائلاً؛ هذا مع الذَّلَّةِ والهوان، والخوفِ من الخِيبةِ وَالْحِرمانِ، وَخَطَرَ الرَّدِّ عليه في لَفْظٍ يَمُرُّ، وإعرابٍ يَجْري، واستعارةٍ تَغْرُضُ، وَكِنَايَةٍ تَعْتَرِضُ، ثم يكون مَقْلَباً مَشِيناً بما يَظُنُّ به من الهجاء الذي ربَّما دلَّاهُ في حَوْمةِ الموت، وقد برَّأ اللّهُ تعالى بإحسانه القديم ومنهُ الجسيم صاحبَ البلاغةِ مِنْ هذا كُلِّهِ، وكفاه مَوْونةَ الغَدْرِ به، والضَّرَرَّ فيه.

التوحيدي

(الإمتاع والمؤانسة ج 2 ص 130 - 138)

— 28 —

الكتاب الشعراء

الكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً، وأملحهم تصنيعاً، وأحلاهم ألفاظاً، وألطفهم معاني، وأقدرهم على تصرف، وأبعدهم من تكلف.

وليس يلزم الكاتب أن يجاري الشاعر في إحكام صنعة الشعر؛ لرغبة الكتاب في حلاوة الألفاظ وطيرانها، وقلة الكلفة، والإتيان بما يخف على

النفس منها؛ وأيضاً فإن أكثر أشعارهم إنما يأتي تظرفاً، لا عن رغبة ولا رهبة، فهم مطلقون مُخَلَّوْنَ في شهواتهم، مسامحون في مذهبهم؛ إذ كانوا إنما يصنعون الشعر تخييراً واستظرفاً، كما قال كشاجم الكاتب:

ولئن شعرتُ فما تعمدت الهجاء ولا المديحة
لكن رأيتُ الشعرَ لِأَدَابٍ ترجمةً فصيحة

وعلى هذا النمط يجري الحكم في أشعار الخلفاء، والأمراء، والمترفين من أهل الأقدار: لا يحاسبون فيها محاسبة الشاعر المبرز الذي الشعرُ صناعته، والمديح بضاعته⁽¹⁾.

ابن رشيق

العمدة ج 2 ص 106، 109 - 110

— 29 —

[الشعراء بين النباهة والخمول]

— أ —

وحدثني محمد بن أحمد القصار قال: حدثني يوسف بن الداية قال: قال لي أبو نواس: أحفظ سبعمائة أزجوزة، وهي عزيزة في أيدي الناس، سوى المشهورة عندهم، وكان لزم بعد والبة بن الحباب خلفاً للأحمر، وكان خَلَفَ نسيجَ وَحْدِهِ في الشعر، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والمُلَح، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس، ثم أخذ في قول الشعر، فبرز على أقرانه، وبرع على أهل زمانه. ثم اتصل بالوزراء والأشراف، فجالسهم وعاشرهم، فتعلم منهم الظرف والنظافة. فصار مثلاً في الناس، وأحبه الخاصة والعامة، وكان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده [ويلام] على ذلك فيقول: إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون،

(1) انظر دراسة جمال الدين بن الشيخ:

(1) *Les secrétaires poètes et animateurs de Cénacles aux IIe et IIIe siècles de l'hergire*, Journal Asiatique, 1975 p. 265 - 315.

الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم، واللَّه لكأنِّي على النَّارِ إذا دخلت عليهم، حتى أنصرف إلي إخواني ومن أثارِبه، لأنِّي إذا كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئاً.

ابن المعتز

(طبقات الشعراء، ص 201 - 202)

— ب —

كان [أبو الهندي]⁽¹⁾ شاعراً مطبوعاً، وقد أدرك الدولتين: دولة بني أمية، وأول دولة ولد العباس، وكان جزل الشعر حسن الألفاظ لطيف المعاني، وإنما أخمله وأمات ذكره بعده عن بلاد العرب، ومقامه بسجستان وبخراسان، وشغفه بالشراب ومعاقرة إياه، وفسقه، وما كان يتهم به من فساد الدين، واستفرغ شعره بصفة الخمر، وهو أول من وصفها من شعراء الإسلام فجعل وصفها وكده وقصده [...].

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثني فضل اليزيدي أنه: سمع إسحاق الموصلي يوماً يقول وقد أنشد شعراً لأبي الهندي في وصفه الخمر فاستحسنه وقرظه، فذكر عنده أبو نواس فقال: ومن أين أخذ أبو نواس معانيه إلا من هذه الطبقة.

أبو الفرج الأصبهاني

(كتاب الأغاني ج 20 ص 293 - 299)

— 30 —

[وصية أبي تمام للبحري]

قال أبو عبادة الوليد بن عبيد البحري: كنت في حديثي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طَبْع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضائه،

(1) انظر بعض شعره بالجزء الأول ص: 244، 254.

انظر كذلك «الثبت النقدي العام لما نُشر من شعر المغمورين في العقود الأخيرة» بالجزء السابع من هذا العمل، رقم 33.

حتى قصدت أبا تمام؛ فانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السَّحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصَّباة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، وإذا أخذت في مدح سيد ذي أيد فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبّن معالمه، وشرف مقامه، وتقاصّر المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزَّرية، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرخ نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الدَّريّة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسنته العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله تعالى.

ابن رشيق

(العمدة، ج 2 ص 114 - 115)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحور الثالث

الشعر بين «الطبع» و «التكلف»
أو
في المعنى واللفظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الشعر وجدلية المعنى واللفظ]

«... وأنا رأيتُ أبا عمرو الشيباني وقد بلغَ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلَّفَ رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له، وأنا أزعِم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً وهما قوله:

لا تحسبن الموت موت البلى فلإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أقطع من ذاك لذلّ السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير...».

الجاحظ

(كتاب الحيوان، ج 3 ص 31)

[أقسام الشعر]

أو

[الشعر بين اللفظ والمعنى]

قال أبو محمّد: تدبّرتُ الشعرَ فوجدتُه أربعة أضربٍ:

ضربٌ منه حسنُ لفظه وجادُ معناه، كقول القائل في بعض بني أُميّة:

في كفِّه خيزُرانٌ ريحُه عبقٌ من كفِّ أزوعٍ في عزينيه شممٌ
يُغضِّي حياءً ويُغضّي من مهابته فما يكلمُ إلا حينَ يتبسّمُ

لم يُقَل في الهيبة شيءٌ أحسنُ منه .

وكقولِ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ :

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسنَ من هذا [...] .

وضربٌ منه حَسَنٌ لفظه وحَلَا، فإذا أنت فتشّته لم تَجِدْ هناك فائدة في

المعنى، كقولِ القائلِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

وَشُدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارِي رِحَالُنَا وَلَا يَنْظُرُ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

هذه الألفاظُ كما تَرَى، أحسنُ شيءٍ مَخَارَجَ وَمَطَالَعَ وَمَقَاطِعَ، وإنْ نظرتَ

إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قَطَعْنَا أَيَّامَ مَنَى، واستلمنا الأركانَ،

وعالينا إبلنا الأنضَاءَ، ومضى الناسُ لا ينتظر الغادي الرَّائِحَ، ابتدأنا في

الحديثِ، وسارت المَطِيُّ في الأبطحِ .

ونحوه قولُ المَعْلُوطِ :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلَّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا

غَيْضُنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَلَقِينَا

ونحوه قولُ جرير :

يَا أُخْتُ نَاجِيَةِ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ قَبْلَ الرَّحِيلِ وَقَبْلَ لَوْمِ الْعُدْلِ

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

وقوله :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طَوَّعْتُ مَا بَانَا وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَاهُمْ لَمْ يُخَيِّسْ قَتْلَانَا

يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانًا
 وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة:
 مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ يُضْلِحُّهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ
 هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرواق.
 وكقول النابغة للثعمان:

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدِي إِيَّاكَ نَوَازِعُ
 قال أبو محمد: رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولست أرى ألفاظه جياداً
 ولا مبيّنة لمعناه، لأنه أراد: أنت في قُذرتك عليّ كخطاطيف عُقْفٍ يُمَدُّ بها،
 وأنا كدلو تُمَدُّ بتلك الخطاطيف. وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى جيداً.
 وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأة:

وَفُوهَا كَأَقَاحِيٍّ غَذَاهُ دَائِمُ الْهَظْلِ
 كَمَا شَيْبَ بِرَاحِ بَا رَدِمِنْ عَسَلِ النَّخْلِ
 وكقول الخليل بن أحمد العروضي:

إِنَّ الْخَلِيْطَ تَصَدَّغَ فَطَرِ بِدَائِكَ أَوْ قَنَغَ
 لَوْلَا جَوَارِحِ سَانَ حُورُ الْمَدَامِيعِ أَرْبَغَ
 أُمُّ الْبَيْنِ وَأَسْمَا وَالرَّيَّابُ وَيَوْزَغُ
 لَقُلْتُ لِلرَّاحِلِ أَرْحَلْ إِذَا بَدَا لَكَ أَوْ دَغُ

وهذا الشعر بين التكلف ردى الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها
 شيء جاء عن إسماع وسهولة، ك شعر الأضمعي، وشعر ابن المقفع، وشعر
 الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً.

ابن قتيبة

(الشعر والشعراء، ص 9 - 14)

[في الرد على ابن قتيبة في تدبره]

[لبعض أشعار العرب]

[...] أن العرب كما تُعْنَى بالفاظها فتُصلحها وتهذّبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قذراً في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بالفاظها. فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها، ومراميها، أصلحوها ورتّبوها، وبالغوا في تحجيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد؛ ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه [...].

وكذلك الشعر: النفس له أحفظ، وإليه أسرع؛ ألا ترى أن الشاعر قد يكون راعياً جلفاً، أو عبداً عسيفاً، تنبو صورته، وتُمَجِّجُ جُمْلَتَهُ، فيقول ما يقول من الشعر، فلاجل قبوله، وما يورده عليه من طلاوته، وعذوبة مستمعه ما يصير قوله حُكْماً يرجع إليه، ويُقْتَسَسُ به [...].

فإذا رأيت العرب قد أصلحوها ألفاظها وحسّنها، وحمّوا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيَنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحسينه، وتزكيته، وتقديسه، وإنما المَبْغِيُّ بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يُعْطَرُ بَشَرَهُ، ولا يَعْرُجُ جَوْهَرَهُ، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغضُّ منه كُدْرَةُ لَفْظِهِ، وسوء العبارة عنه. فإن قلت⁽¹⁾: فإننا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه، وزخرفوه، ووشّوه،

(1) لكأن الاعتراض هنا موجه لابن قتيبة الذي سبق أن أبدى رأياً في نفس الغرض (انظر النص رقم 32).

ودَبَّجُوهُ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً، بل لا نجده قَصْداً ولا مقارِياً،
ألا ترى إلى قوله:

ولمَّا قَصَيْنَا مِنْ مَنَى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه، وصِقَالِه وتلامح أنحائه، ومعناه مع
هذا ما تحسُّه وتراه: إنما هو: لمَّا فرغنا من الحجِّ ركَبْنَا الطريق راجعين،
وتحدَّثنا على ظهور الإبل. ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها، مشروفة
المعاني خفيضتها.

قيل: هذا الموضع قد سَبَقَ إلى التعلُّق به مَنْ لم يُنْعَمَ النظر فيه، ولا رأى
ما أراه القومُ منه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق. وذلك
أن في قوله: «كل حاجة» ما يفيد منه أهل النسيب والرِّقَّة، وذوو الأهواء والمِقة
ما لا يفيدُه غيرهم، ولا يشاركونهم فيه مَنْ ليس منهم؛ ألا ترى أن من حوائجِ مَنْى
أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه، والمعتاد فيه سواها؛ لأن منها التلاقي، ومنها
التشاكِّي، ومنها التخلِّي، إلى غير ذلك ممَّا هو تالٍ له، ومعقود الكون به. وكأنه
صانع عن هذا الموضع الذي أوماً إليه، وعقد غرضه عليه، بقوله في آخر
البيت:

ومسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

أي إنما كانت حوائجنا التي قَصَيْنَاهَا، وآرابنا التي أنصَيْنَاهَا، من هذا
النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به، وجارٍ في القُرْبَةِ من الله مَجْرَاهُ؛
أي لم يتعدَّ هذا القَدَرُ المذكور إلى ما يحتمله أوَّلُ البيت من التعريض الجاري
مجري التصريح.

وإمَّا البيت الثاني فَإِنَّ فِيهِ:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا

وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب مَن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أنه لو قال: أخذنا في أحاديثنا، ونحو ذلك لكان فيه معنى يُكبره أهل النسيب، وتعنو له مِنة الماضي الصليب. وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الاليفين، والفكاهة بجمع شمل المتواصلين؛ ألا ترى إلى قول الشاعر:

وحديثها كالغيث يسمعه راعي سنين تتابعث جذبا
فأصاخ يرجو أن يكون حيا ويقول من فرح هيا ربنا
وقال الآخر:

وحَدَّثْتَنِي يا سعدُ عنها فزدتني جنونا فزدني من حديثك يا سعدُ

[...] فإذا كان قدر الحديث — مُرسلا — عندهم هذا، على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله: (بأطراف الأحاديث). وذلك أن في قوله: (أطراف الأحاديث) وخيا خفيا، ورمزا حُلوا؛ ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبُّون، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيِّمون؛ من التعريض، والتلويح، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأدمث، وأغزل وأنسب، من أن يكون مشافهة وكشفا، ومصارحة وجهراً، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم، وأشدُّ تقدُّما في نفوسهم، من لفظهما وإن عذب موقعه، وأنى له مستمعه.

نعم، وفي قوله:

وسالت بأعناق المطي الأباطح

من الفصاحة ما لا خفاء به. والأمر في هذا أسير، وأعرف وأشهر. فكان العرب إنما تحلَّى ألفاظها وتدبجها وتشيها، وتزخرِفها، عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلها بها إلى إدراك مطالبها، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكماً وإن من البيان لسحراً».

ابن جنِّي

(الخصائص ج 1 ص 215 - 221)

[فيما «حُسِّنَ لفظه وحلَّ» من الشعر:]

[رأي عبد القاهر الجرجاني]

[...] فانظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ⁽¹⁾، ووصفوها بالسلاسة، ونسبوها إلى الدمائه، وقالوا: كأنها الماء جريانا، والهواء لُطفاً، والرياضُ حسناً، وكأنها النسيم، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم، وكأنها الديباج الخسرواني في مرامي الأبصار، وشيئُ اليمن منشوراً على أذرع الثَّجَار، كقوله:
[الطويل]

ولما قضينا من منى كُلَّ حاجةٍ ومسح بالأركان من هو ماسح⁽¹⁾
وشدَّت على دُهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الاباطحُ

ثم راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك. وأحسن التأمل ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم، منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها، واصابت غرضها، أو لحسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السَّمع. واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد، وشيءٍ داخل المعاني المقصودة مداخله الطفيلي الذي يستثقل مكانه. والاجنبي الذي يُكره حضوره، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع إلى تطلُّب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدلَّ عليها بلفظها الخاص بها واعتمد دليلَ حالٍ غير مُفصَّح، أو نيابةً مذكورٍ ليس لتلك النيابة بمستصلح. وذلك أن أول ما يتلقَّاك من محاسن هذا الشعر أنه قال: «ولما قضينا من منى كل حاجة» فعبر عن قضاء المناسك باجمعها والخروج من فروضها وسُننها من طريقٍ أمكنه أن يقصِّر معه اللفظ وهو طريقة العموم ثم نبَّه

(1) انظر نص ابن قتيبة الوارد في هذا الملحق تحت عدد 32.

بقوله: «ومسح بالأركان من هو ماسح» على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر، ثم قال: «أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا» فوصل بذكر مسح الأركان ما يليه من زَمَ الركان وركوب الركبان، ثم دلّ بلفظة «الأطراف» على الصفة التي يختصّ بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث أو ما هو عادة المتطوّفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط، وفضل الاعتباط، كما توجهه الفة الأصحاب وأنسُ الأحباب، كما يليق بحال من وُقِّق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حُسن الأياب، وتنشُم روائح الأحبّة والأوطان، واستماع التهاني والتحايا من الخُلان والأخوان، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبّق فيها مفصل التشبيه، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه. فصّرَحَ أولاً بما أوماً إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل، وفي حال التوجّه إلى المنازل، وأخبر بعد بسرعة السير، ووطاءة الظهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح وكان في ذلك ما يؤكّد ما قبله لأن الظهور إذا كانت وطيفة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً. ثم قال: «باعناق المطي» ولم يقل «بالمطي» لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها، ويبين أمرهما من هودايتها وصدورها، وسائرُ أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة، ويعبّر عن المَرَح والنشاط إذا كانا في أنفسها بافاعيل لها خاصّة في العنق والرأس ويدلّ عليهما بشمائل مخصوصة في المقادير - فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها حتى أنّ فضل تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذُكرت على الإنفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه؟

[...] - كلاً! ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ، وإن كان لا يبعد أن يتخيّل من لا ينعم النظر، ولا يتمّ التدبّر [...] .

عبد القاهر الجرجاني

(أسرار البلاغة، ص 21 - 24)

[في المطبوع والمصنوع]

ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً، وعليه المَدَار. والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل، لكن بطباع القوم عفواً، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والثقيف: يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رَصَدَ أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظ، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجَزَالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض [...].

واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل، وصدق حسه، وصفاء خاطره؛ فأما إذا كثُر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع، وإيثار الكلفة، وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد؛ كالذي يأتي من أشعار حبيب والبحري وغيرهما. وقد كانا يطلبان الصنعة ويُولَعَانِ بها: فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ، وما يملأ الأسماع منه، مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً، يأتي للأشياء من بُعد، ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة. وأما البحري فكان أملح صنعة، وأحسن مذهباً في الكلام، يسلك منه دَمَانة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة. وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبد الله بن المعتز؛ فإن صنعته خفيفة لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر، وهو عندي ألطف أصحابه شعراً، وأكثرهم بديعاً وافتناناً، وأقربهم قوافي وأوزاناً، ولا أرى وراءه غاية لطالبيها في

هذا الباب، غير أن لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعاً منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها، ولأنهما طَرَقَا إلى الصنعة ومعرفتها طريقاً سائلاً، وأكثرها منها في أشعارهما تكثريراً سَهَّلَهَا عند الناس، وجسرهم عليها. على أن مسلماً أسهل شعراً من حبيب، وأقل تكلفاً، وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة، وأكثر منها. ولم يكن في الأشعار المحدثه قبل مسلم صريح [الغواني] إلا النبذ اليسيرة، وهو زُهَيْر المولدين: كان يبطئ في صنعته ويجيدها [...].

ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعاً في غاية الجودة ثم وقع في معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه العمل كان المصنوع أفضلهما، إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة أن يكون طبعاً واتفاقاً؛ إذ ليس ذلك في طباع البشر. وسبيل الحاذق بهذه الصناعة - إذا غلب عليه حب التصنيع - أن يترك للطبع مجالاً يتسع فيه [...].

ابن رشيق

(العمدة، ج 1 ص 129 - 131)

— 36 —

[«البديع» في نظر ابن المعتز]

قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا [كتاب البديع] بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ليُعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تَقِيْلَهُمْ وسلك سبيلَهُمْ لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ولكنّه كثر في أشعارهم فَعُرِفَ في زمانهم حتّى سُمِّيَ بهذا الاسم فأعْرَبَ عنه ودلّ عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شَعَفَ به حتّى غلبَ عليه وتفرّع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمره الإسراف وإنّما كان يقول الشاعر من هذا الفنّ البيتَ والبيتين في القصيدة وربّما قرئت من

شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجدَ فيها بيتٌ بديعٌ وكان يُستحسنُ ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوةً بين الكلام المرسل وقد كان بعض العلماء يُشبهُ الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ويقول لو أنَّ صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مَدَّ ميدانه وهذا أغدَلُ كلام سمعته في هذا المعنى.

ابن المعتز

(كتاب البديع، ص 1 - 2)

— 37 —

[مدرسة البديع]

— أ —

[...] أول من فتن البديع من المحدثين بشار بن برد، وابن هرمة، وهو ساقه العرب وآخر من يستشهد بشعره. ثم أتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتّابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. وأتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحيري، وعبد الله بن المعتز؛ فأنتهى علم البديع والصنعة إليه، وختم به. وشبه قوم أبا نواس بالناطقة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة، وحسن الديباجة، والمعرفة بمدح الملوك. وأما بشار فقد شبهوه بامرئ القيس؛ لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه، ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين.

ابن رشيق

(العمدة، ج 1 ص 131)

— ب —

[...] الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه، وتهش له قلوبُ أهله، فكان من صريع الغواني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان، من استعمال أفانيه والزيادة في تفریع فنونه. ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة، وطاب ذلك

منه، وامثله الناس، فكل شِعْرٍ لا يكونُ اليومَ تجنيساً أو ما يُشبهه تَمَجُّه الآذان،
والتوسطُ في الأمرِ أعدلُ، ولذلك فَضَّلَ أهلُ البصرة صرِيحَ الغواني على أبي
تَمَام، لأنه لَبَسَ دِيباجةَ المُحدثين على لَامَةِ العرب، فترَكَّبَ له من الحُسْنِ بينهما
ما تَرَكَّبَ.

ابن شهيد

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

(القسم الأول، المجلد 1 ص 237)

— 38 —

[في المعنى ومعنى المعنى]

الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده
وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد:
وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق: وعلى هذا القياس وضرب آخر أنت
لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي
يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض
ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. وقد مضت الأمثلة فيها
مشروحة مستقصاة، أو لا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت:
طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى: فإنك في جميع ذلك لا تفيد
غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه
ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو
غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل
القامة ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها.
وكذا إذا قال: رأيت أسداً. - وذلك الحال على أنه لم يرد السبع - علمت أنه
أراد التشبيه إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الأسد في شجاعته.
وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى: أنه أراد التردد في
أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه على ما مضى الشرح فيه.

وإذ قد عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك .

عبد القاهر الجرجاني

دلائل الإعجاز، ص 202 - 203

- 39 -

[في التشبيه]

إن لتصوير الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله والتقاط ذلك له من غير محله واجتلابه إليه من النيق البعيد باباً آخر من الظرف واللفظ ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل . وأحضرُ شاهدٍ لك على هذا أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض، فإن التشبيهات - سواء كانت عامية مشتركة أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل - تراها لا يقع بها اعتداد ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقررّاً بين شيئين مختلفين في الجنس، فتشبيه العين بالترجس عاميٌّ مشتركٌ معروف في أجيال الناس جارٍ في جميع العادات وأنت ترى بُعداً ما بين العينين وبينه من حيث الجنس، وتشبيه الثريا بما شُبّهت به من عنقود الكرم المنور واللجام المفضّض والوشاح المفصّل واشباه ذلك خاصيٌّ، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى .

وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشدّ كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تُحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستسحان، ومكان الاستظراف، والمُثير للدفن من الارتياح، والمتألف للنافر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة، أنك ترى بها الشيئين مثليّن متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض،

وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة، وتتبع هذه اللوحة،
ولذلك نجد تشبيه البنفسج في قوله (من البسيط):

ولا زورديّة تزهو بزُرقتها بين الرياض على حُمر اليواقيتِ
كأنّها فوق قاماتٍ ضعفن بها⁽¹⁾ أوائل النار في أطراف كبريتِ

أغرب وأعجب وأحقّ بالولوع وأجدر من تشبيه النرجس «بمداهن دُرّ
حشوهن عقيق»، لأنه أراك شبيهاً لنباتٍ غضّ يرفّ، وأوراقٍ رطبة ترى الماء منها
يشفّ، من لهب نارٍ في جسمٍ مستولٍ عليه اليسر، وبإدٍ فيه الكلف، ومبنى
الطباق وموضوع الجبلّة، على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعهد ظهوره منه،
وخرج من موضِع ليس بمعدن له، كانت صباية النفوس به أكثر، وكان بالشغف
منها أجدر، فسواءٌ في إثارة التعجّب، وإخراجك إلى روعة المستغرب، وجُودك
الشيء من مكانٍ ليس من أمكنته، ووجود شيء لم يوجد ولم يُعرف من أصله
في ذاته وصفته، ولو أنه شبّه البنفسج ببعض النبات، أو صادف له شبيهاً في شيء
من التلوّنات، لم تجد له هذه الغرابة، ولم ينل من الحسن هذا الحظ...

عبد القاهر الجرجاني

(أسرار البلاغة/ تحقيق ريتز) ص 116 - 118

- 40 -

[في التصنع: أبو تمام نموذجاً]

[...] إن كثيراً من المُحدثين قد تصنّع لأبواب الصنعة، حتى حشى
جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع
أبو تمام في لاميّته:

[الطويل]

متى أنتَ عن ذُهلِيتِ الحيّ ذَاهِلُ وصدركَ منها مدّة الدهر آهْلُ

(1) ورد هذا الصدر في «غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات» لعلي بن ظافر الأزدي
(ص 84) كما يلي:
«يحكي البنفسج في أوقات زرقته».

تَطْلُ الطَّلُولُ الدَّمَاعَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَتَمَثِّلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارَ الْمَوَائِلُ
دَوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرِّبْعُ رُبُوعَهَا وَلَا مَرَفِي أَغْفَالِهَا وَهُوَ غَافِلُ
فَقَدْ سَحَبَتْ فِيهَا السَّحَابُ ذُبُولَهَا وَقَدْ أَخَمَلَتْ بِالنُّورِ تِلْكَ الْخُمَائِلُ
تَعَفَّيْنَ مِنْ زَادِ الْعُقَاةِ إِذَا انْتَحَى عَلَى الْحَيِّ صَرْفُ الْأَزْمَةِ الْمُتَمَاخِلُ
لَهُمْ سَلَفٌ سُمِرُ الْعَوَالِي وَسَامِرٌ وَفِيهِمْ جَمَالٌ لَا يَغِيضُ وَجَامِلُ
لِيَالِي أَضَلَّكَ الْعِزَاءُ وَخَزَلَتْ بِعَقْلِكَ آرَامُ الْخُدُورِ الْعُقَائِلُ
مِنْ الْهَيْفِ لَوْ أَنَّ الْخَلَائِلَ صَيَّرَتْ لَهَا وَشُحاً جَالَتْ عَلَيْهِ الْخَلَائِلُ
مَهَا الْوُخْشِ إِلَّا أَنَّ هَاتَا أَوَانِسُ قَبَا الْخَطِّ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ
هُوَ كَانَ خَلْساً إِنَّ مِنْ أَطِيبِ الْهُوَ هُوَ جُلَّتْ فِي أَفْيَائِهِ وَهُوَ خَامِلُ

ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من
البديع، وتعمّل من الصنعة، فقال: قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته،
اشتغلاً بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه.

الباقلائي

(إعجاز القرآن/ ط. صقر ص 108 - 111)

— 41 —

[في البديع والإبداع] (نموذج تحليلي)

وأما الإبداع - فهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر، أو القرينة الواحدة
من النثر بعدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملته، وربما كان في
الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة
فليس بإبداع.

قال ابن أبي الإصيص: وما رأيت فيما استنقيرت من الكلام كآية
استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ

يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ: وهي المناسبة التامة في «أَبْلَعِي»
و«أَقْلَعِي»؛ والمطابقة بذكر الأرض والسماء؛ والمجاز في قوله:
«يَا سَمَاءُ»، فإن المراد - والله أعلم - يا مطر السماء؛ والاستعارة في قوله
تعالى: «أَقْلَعِي»؛ والإشارة في قوله تعالى: «وَغِيضَ الْمَاءِ» فإنه عبر بهاتين
اللفظتين عن معان كثيرة؛ والتمثيل في قوله تعالى: «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» فإنه عبر
عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له؛ والإرداف في
قوله: «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان استقراراً
متمكناً بلفظ قريب من لفظ المعنى؛ والتعليل، لأن غيض الماء علة الاستواء؛
وصحة التقسيم إذ استوعب الله تعالى أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس
إلا احتباس ماء السماء، واختقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء
الحاصل على ظهرها؛ والاحتباس في قوله تعالى: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ» إذ الدعاء عليهم يشعر أنهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعف
العقل يتوهم أن العذاب شمل من يستحق ومن لا يستحق، فتأكد بالدعاء كونهم
مستحقين؛ والإيضاح في قوله: «لِلْقَوْمِ» ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم في
الآية المتقدمة حيث قال: «وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» هم الذين
وصفهم بالظلم ليعلم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لبس في
الكلام؛ والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها؛ وحسن النسق، لأنه
تعالى عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب؛ واتلاف اللفظ مع
المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها؛ والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى
أقتصر القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أقصر عبارة؛
والتسليم، لأن أول الآية إلى قوله: «أَقْلَعِي» يقتضي آخرها؛ والتهديب، لأن
مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن؛ عليها رونق الفصاحة، سليمة من

التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في مكانها؛ والانسجام، وهو تحذّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سُمّي به هذا الباب. فهذه سبع عشرة لفظة تضمّنت أحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما تكرر من أنواعه فيها.

النويري

نهاية الأدب في فنون الأدب

(الجزء 7 ص 175 - 177)

— 42 —

[رأي الجاحظ في السرقات الشعرية]

ولا يعلم في الأرض شاعرٌ تقدّم في تشبيهٍ مُصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديعٍ مُخترع، إلّا وكلُّ مَنْ جاء من الشعراءِ مِنْ بَعْدِهِ أو معه، إنّ هو لم يَعدْ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنّه لا يدعُ أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعهُ الشعراءُ فتختلفُ ألفاظهم، وأعاريضُ أشعارهم، ولا يكونُ أحدٌ منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه. أو لعلّه أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قطّ، وقال إنّهُ خَطَرَ على بالي من غير سماع، كما خَطَرَ على بال الأوّل. هذا إذا قرّعوه به.

الجاحظ

كتاب الحيوان، ج 3 ص 131

— 43 —

[السرقات وما شاكلها عند ابن رشيق]

— أ —

وهذا باب مستع جداً، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدّعي السلامة منه،

وفيه أشياء غامضة، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأختر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل، وقد أتى الحاتمي في «حلية المحاضرة» باللقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت: كالأصطراف، والاجتلاب، والانتحال، والاهتمام، والإغارة، والمرافدة، والاستلحاق، وكلها قريب من قريب، وقد استعمل بعضها في مكان بعض.

ابن رشيق

كتاب العمدة، ج 2 ص 280

— ب —

والذي اعتقده وأقول به أنه لم يخف على حاذق بالصناعة أن الصانع إذا صنع شعراً في وزن ما وقافية ما وكان لمن قبله من الشعراء شعر في ذلك الوزن وذلك الروي وأراد المتأخر معنى بعينه فأخذ في نظمه أن الوزن يحضره والقافية تضطره وسباق الألفاظ يحدوه حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه حتى كأنه سمع وقصد سرقته وإن لم يكن سمعه قط.

ابن رشيق

(قراظة الذهب، ص 86)

— 44 —

[في المحمود والمذموم من السرقات]

— أ —

المحمود من السرقات (وهي عشرة أوجه).

الأول: من ذلك: استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل.

والثاني: نقل اللفظ الرذل إلى الرصين الجزل.

والثالث: نقل ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسن مبناه ومعناه.

والرابع: عكس ما يصير بالعكس ثناءً، بعد أن كان هجاءً .
والخامس: استخراج معنى من معنى احتدي عليه وإن فارق ما قصد به إليه .
والسادس: توليد كلام من كلام لفظهما مُفترق ومعناهما متفق .
والسابع: توليد معانٍ مستحسنات في ألفاظ مختلفات .
والثامن: مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام، وإن كان الأول أحق به لأنه ابتدع والثاني اتبع .
والتاسع: مُماتلة السارق المسروق منه في كلامه بزيادته في المعنى ما هو من تمامه .
والعاشر: رُجحان السارق على المسروق منه، بزيادة لفظه على لفظ مَنْ أخذ عنه . فهذه وجوه تَغْفِرُ ذَنْبَ سِرْقَتِهِ، وتَدُلُّ على فِطْنَتِهِ .
فأما استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل فهو كَقَوْلِ طَرْفَةٍ:
أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ
اختصره ابنُ الزُّبَيْرِي فَقَالَ:
لَعَطِيَّاتُ خِسَاسٍ بَيْنَنَا وَسَوَاءُ قَبْرِ مُثِيرٍ وَمُقِلِّ
فقد شغل صدر البيتَ بمعنى، وجاء بيتُ طَرْفَةٍ في عجز بيتٍ أقصر منه، بمعنى صالح، ولفظ واضح .

— ب —

المذموم من السرقات (وهي عشرة أوجه).

الأول من ذلك: نقلُ اللفظ القصير إلى الطويل الكثير .
والثاني: نقلُ الرّصين الجَزَل إلى المُستَضْعَف الرّذَل .
والثالث: نقلُ ما حَسُن مبناه ومعناه إلى ما قَبُح مبناه ومعناه .
والرابع: عكسُ ما يصيرُ بالعكس هِجاء بعد أن كان ثناء .
والخامس: نقلُ ما حَسُنَتْ أوزانه وقوافيه إلى ما قَبُح وثقل على لسان راويه .
والسادس: حذفُ الشّاعر من كلامه ما هو من تمامه .
والسابع: رُجحان كلام المأخوذ عنه على كلام الآخذ عنه على كلام الآخذ منه .
والثامن: نقلُ العَذْب من القوافي إلى المُستكرَه الجافي .
والتاسع: نقلُ ما يثيرُ على التفتيش والانتقاد إلى تقصيرٍ أو فساد .
والعاشر: أخذُ اللفظ المُدّعي هو ومعناه معاً!

فأما نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير، فكقول مسلم بن الوليد:

أقبلنَ في رَأد الضحَاءِ بها يَسْتُرْنَ وجهَ الشمسِ بالشمسِ

أخذه الثاني، فقال:

وإذا الغزاةُ في السَّماءِ تعرَّضَتْ وبدا النَّهارُ لوقته يترجَّلُ
أبدتْ لعينِ الشمسِ عَيْناً مثلها تلقى السماءُ بمثلٍ ما تستقبلُ

ابن وكيع

المصنف في نقد الشعر وبيان سرقات

المتنبي ومشكل شعره/ ص 9 - 27

[السرقَات أو الأَشْبَاه والنِّظَائِر فِي الشَّعْر]

[...] إنه لا ينبغي لمصنّف أن يقول: هذا البيت مسروق المعنى من فلان؛ لأنه قاطع على ما لا يأمن هذا أن يكون كذباً، فربّما توارداً فيه من غير قصد. والأوّلَى أن يقال: هذا نظيره وشبيهه.

وهكذا يجب أيضاً ألاّ يطلق أحد في معنى من المعاني أنه منفرد به وسابق إليه وإن كان لم يسمع له نظيراً ولا عثر له على شبه، لأنه لا يأمن أن يكون فيما لم يبلغه ولا أتصل به، قد ورد ذلك المعنى؛ فإنّ الخواطر لا تضبط ولا تُحصَر. ومن ذا الذي يحيط علماً بكل ما قيل وسُطر ودُكر؟ والإنصاف أن يقال: في مثل هذا المعنى ينفرد به فلان على ما بلغني، وأتصل بي، وأنتهى إليه تصفّحي وتأثلي.

ومن نظم معنى نتجّه خاطره وسمح له به هاجسه لم يكن يحتذي فيه مثال غيره، فهو في الحقيقة كالسابق إليه. وإن كان قد وجد له نظير ما عرفه ولا بلغه يسلب الأفضيلة من أعتمد على معنى سبق إليه غيره، فنظّمه، وأدخله في كلامه؛ لأنه لم يحظَ بفضيلة السبق التي تقتضيها نتيجة ألفكر وثمرة الخاطر.

ومن أخرج إليه خاطره بعض المعاني من غير أن يكون سمعه، ولا قرأه، ولا أحذاه؛ فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالّين على قوّة الطبع وصحة الفكر. وما عليه بعد ذلك أن يكون قد تقدّمه متقدّم فيه، فوقع التوارد فيه من غير عمد، فإنّ تجويز ذلك لا يسلب مدحاً ولا ينقص فضلاً...

الشریف المرتضى

(طيف الخيال، ص 141 - 142)

[هل السرق سلخ أم مسخ أم نسخ؟]

[...] فَقَالَ لَهُ الْفَتَى⁽¹⁾: عَلَامَ عَثَرْتَ مِنِّي. حَتَّى تَنْشُرَ هَذَا الْخِزْيَ عَنِّي؟

(1) أبو زيد [الشيخ في هذه المقامة] يرفع شكواه إلى الوالي مدّعياً أن غلامه [الفتى] الذي =

فَوَاللَّهِ مَا سَتَرْتُ وَجْهَ بَرِّكَ. وَلَا هَتَكْتُ حِجَابَ سِتْرِكَ. وَلَا شَقَقْتُ عَصَا أَمْرِكَ.
وَلَا الْغَيْثُ تِلَاوَةَ شُكْرِكَ. فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَبِئْسَ رَيْبٌ أَخْزَى مِنْ رَيْبِكَ.
وَهَلْ عَيْبٌ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ؟ وَقَدْ ادَّعَيْتَ سِحْرِي وَاسْتَلْحَقْتُهُ. وَانْتَحَلْتَ شِعْرِي
وَاسْتَرْقَيْتُهُ؟ وَاسْتَرَأَى الشَّعْرَ عِنْدَ الشَّعْرَاءِ. أَفْطَعُ مِنْ سَرَقَةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّفْرَاءِ.
وَعَبَّرْتُهُمْ عَلَى بَنَاتِ الْأَفْكَارِ. كَعَبَّرْتَهُمْ عَلَى الْبَنَاتِ الْأَبْكَارِ. فَقَالَ الْوَالِي لِلشَّيْخِ:
وَهَلْ حِينَ سَرَقَ سَلَخَ أَمْ مَسَخَ. أَمْ نَسَخَ؟ فَقَالَ: وَالَّذِي جَعَلَ الشَّعْرَ دِيوَانَ
الْعَرَبِ. وَتَرْجُمَانِ الْأَدَبِ. مَا أَحَدْتُ سِوَى أَنْ بَتَرَ شَمْلَ شَرْحِهِ. وَأَغَارَ عَلَى ثُلُثِي
سَرْحِهِ.

فَالْتَقَتِ الْوَالِي إِلَى الْغُلَامِ وَقَالَ: تَبَّأَ لَكَ مِنْ خَرْيَجِ مَارِقِي. وَتَلْمِيزِ سَارِقِي!
فَقَالَ الْفَتَى: بَرِئْتُ مِنَ الْأَدَبِ وَبَيْنِي. وَلَحِقْتُ بِمَنْ يُنَاوِيهِ. وَيُقَوِّضُ مَبَانِيهِ. إِنْ
كَانَتْ أَيْبَاتُهُ نَمَتْ إِلَى عِلْمِي. قَبْلَ أَنْ أَلْفُتُ نَظْمِي. وَإِنَّمَا اتَّفَقَ تَوَارُدُ الْخَوَاطِرِ.
كَمَا قَدْ يَقَعُ الْحَافِرُ عَلَى الْحَافِرِ [...].

الحريري
(المقامة الشعرية)

— 47 —

[أبو تمام بين أبي نواس ومسلم]
أو

[اعتراف بدين]

وحدثني أبو الغصن محمد بن قدامة قال: دخلت على حبيب بن أوس
بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى، فوقفت ساعة لا أعلم
بمكاني لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إليّ وسلم عليّ، فقلت له: يا أبا تمام
إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها! فقال: والله ما لي

= «رباه يتيماً» ولم «يأله تعليماً» قد أغار على شعره.

إلف غيرها ولا لذة سواها، وإني لخليق إن أَتَقَقَّذَهَا أَنْ أُحْسِنَ . وإذا بِحُزْمَتَيْنِ :
واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزهما من دون
سائر الكتب ، فقلت : فما هذا الذي أرى من عنايتك به أوكد من غيره؟ قال : أما
التي عن يميني فاللآت ، وأما التي عن يساري فالعزَّى ، أعبدهما منذ عشرين
سنة . فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني ، وعن يساره شعر
أبي نواس .

ابن المعتز

طبقات الشعراء ، ص 284

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحور الرابع

مدونة الشعراء المغمورين وانفلاقها شظايا في مجاميع الأدب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[من قضايا الرواية والنحل]

قال ابن سلام: فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شجر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على السن شعرائهم. ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قلت. وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون؛ وإنما عَصَلَ بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الإشكال.

قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن مُتَمِّم بن نُؤيرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة، فنزل النحيت؛ فأتيته أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناها ضيعته. فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يختذي على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم، والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله.

وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية، وكان غير موثوق به: كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار⁽¹⁾.

الجمحي

طبقات فحول الشعراء

(تحقيق محمود شاكر ص 40 - 41)

(1) انظر ما أوردناه من رأي في هذه القضية في معرض دراستنا لشعر خلف الأحمر بالجزء الأول ص 13 - 24.

[ذوق العصر ومسالك الرواية في

تحديد حقول مدونة الشعر]

وقد أدركتُ رِوَاةَ المسجديّين والمِربديّين ومَن لم يروِ أشعار المجانين
ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابيَّة القصار، وأشعار
اليهود، والأشعار المنصِفة، فإنهم كانوا لا يعدُّونه من الرواة. ثم استُبرِدَ ذلك
كلُّه ووقفوا على قصار الحديث والقصائد، والفقر والثَّنْف من كلِّ شيء ولقد
شهدتهم وما هم على شيءٍ أحرصَ منهم على نسيبِ العباس بن الأحنف فما هو
إلا أن أوردَ عليهم خلفَ الأحمر نسيب الأعراب، فصار زُهدُهم في شعر العباس
بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب. ثم رأيتُهم منذ سُنَيَّاتٍ، ولا يروي عندهم
نسيب الأعراب إلا حدَّث السنَّ قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتَيانيَّ متغزِّل.

وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعيّ، ويحيى بن نُجَيم، وأبي مالك
عمرو بن كِرْكِرَة مع مَن جالست من رِوَاة البغداديين، فما رأيت أحداً منهم قصَّدَ
إلى شعرٍ في النسيب فأنشده. وكان خلفٌ يجمع ذلك كله.

ولم أرَ غاية النحويّين إلا كلَّ شعرٍ فيه إعراب. ولم أرَ غايةَ رِوَاة الأشعار
إلا كلَّ شعرٍ فيه غريبٌ أو معنًى صعبٌ يحتاج إلى الاستخراج. ولم أرَ غايةَ رِوَاة
الأخبار إلا كلَّ شعرٍ فيه الشاهد والمثل. ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي
لهم - لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيِّرة، والمعاني المتخَّبة، وعلى الألفاظ
العذبة، والمخارج السهلة، والذَّيْجَة الكريمة، وعلى الطبع المتمكِّن وعلى
السَّبك الجيِّد، وعلى كلِّ كلامٍ له ماءٌ ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في
الصدور عمَّرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسانٍ بابَ البلاغة،
ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيت البصرَ
بهذا الجوهر من الكلام في رِوَاة الكتاب أعمَّ، وعلى السنة حُذَّاق الشعراء أظهر.
ولقد رأيت أبا عمرو الشَّيْبانيّ يكتب أشعاراً من أفواه جُلَّسائه، ليُدْخِلَهَا في باب
التحفُّظ والتذاكر. وربما خيَّل إليَّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن

يقولوا شعراً جيداً، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء .

ولولا أن أكون عَيَّاباً ثم للعلماء خاصّة، لصوّزْتُ لك في هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبي عبيدة، ومن هو أبعدُ في وهمك من أبي عبيدة! .

الجاحظ

(البيان والتبيين ج 4 ص 23 - 24)

— 50 —

[أدب الاختيار: أبو تمام نموذجاً]

أو

[في اختيار شاعر⁽¹⁾]

[...] وأما تعجُّبك من أبي تمام في اختيار هذا المجموع وخروجه عن مِئدان شعره، ومفارقة ما يهواه لنفسه، وإجماع نُقاد الشعر بَعْدَه على ما صحبه من التوفيق في قصده، فالقولُ فيه أنّ أبا تَمَّام كان يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته. والفرق بين ما يُشْتَهَى وبين ما يُسْتَجَاد ظاهرٌ، بدلالة أنّ العارف بالبرِّ قد يشتهي لُبْس ما لا يستجده، ويستجيد ما لا يشتهي لُبْسَه. وعلى ذلك حالُ جميع أعراض الدُّنيا مع العقلاء العارفين بها، في الاستجادة والاشتواء. وهذا الرُّجُل لم يغمِذ من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال، ولا من الشعر إلى المتردِّد في الأفواه، المجيب لكلِّ داعٍ، فكان أمره أقرب، بل اعتسَف في دواوين الشعراء جاهليَّهم ومخضرميَّهم، وإسلاميَّهم ومولديهم، واختطف منها الأرواحَ دون الأشباح، واخترف الأثمار دون الأكمام، وجَمَعَ ما يوافق نظمه ويخالفه؛ لأن ضروب الاختيار لم تَخَفْ

(1) تحسن الإشارة في هذا السياق - قصد المقارنة - إلى نماذج أخرى من كتب الاختيار

أصحابها شعراء أيضاً نذكر منها:

— طبقات الشعراء لابن المعتز .

— حماسة البحتري .

— حماسة الخالدين أو الأشباه والنظائر .

— المحب والمحبوب . . . للسري الرفاء .

عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستر عنه، حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيضته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده. وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما في اختياره بها ولو أن نقد الشعر كان يدرك بقوله لكان من يقول الشعر من العلماء أشعر الناس. ويكشف هذا أنه قد يميز الشعر من لا يقوله، ويقول الشعر الجيد من لا يعرف نقده. على ذلك كان البُخترى، لأنه فيما حكى عنه كان لا يُعجب من الشعر إلا بما وافق طبعه ومعناه ولفظه.

المرزوقي

(مقدمة شرح حماسة أبي تمام)⁽¹⁾ ص 13 - 14

— 51 —

[أدب الاختيار: ابن قتيبة نموذجاً]

أو

[تغليب المشهورين الذين يُحتجُّ بأشعارهم]

[في تدوين الشعر]

[...] كان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو، وفي كتاب الله عزَّ وجل، وحديث رسول الله ﷺ.

فأما من خفي اسمه، وقلَّ ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقلَّ مَنْ ذكُرْتُ من هذه الطبقة. إذ كنت لا أعرفُ منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً، وإذ كنتُ أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء لا أدلُّ عليها بخبر أو زمان، أو نسبٍ أو نادرة، أو بيتٍ يُستجاد، أو يستغرب.

ولعلك تظن - رحمك الله - أنه يجب على من ألَّف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره ودلَّك عليه، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة

(1) نذكر بالشرح القيم لمقدمة المرزوقي للشيخ الطاهر بن عاشور (ط. تونس).

الحديث والأخبار، والملوك والأشراف، الذين يبلغهم الاحصاء، ويجمعهم العدد.

والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم مُحيطٌ أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال. ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعرٌ إلا عَرَفَهُ، ولا قصيدة إلا رواها [...].

ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل مَنْ قَلَّدَ، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعينِ الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعينِ الاحتقار لتأخره. بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلًّا حظه، ووفرت عليه حقه.

فلإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله.

ولم يقصُر الله العلم والشعر والبلاغة على زمنٍ دون زمن، ولا خصَّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره [...].

وقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدُّون مُحدثين؛ وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثُر هذا المُحدثُ وحَسُنَ حتى لقد هممتُ بروايته.

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعْد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بَعْدَهُمْ لمن بعدنا، كالخُرَيْمِيِّ والعَتَّابِيِّ والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بِحَسَنِ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثينا به عليه، ولم يَضَعْهُ عندنا تأخراً قائله أو فاعله، أو حدائهُ سنه. كما أَنَّ الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعهُ عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدمه.

ابن قتيبة

(الشعر والشعراء ص 7 - 11)

[أدب الاختيار: الشعالي نموذجاً]

أو

[منحى الدقة والضبط في تدوين الشعر]

[...] قد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم، وتدوين كلماتهم، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم، فكم من كتاب فاخر عملوه، وعقد باهر نظموه، لا يشينه الآن إلا نبو العين من إخلال جدته، وبلى برده، ومج السمع لمردداته، وملاة القلب من مكرراته. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة، ولذة الجدة، وحلاوة قرب العهد، وازدياد الجودة على كثرة النقد، غير محصورة بكتاب يضم نشرها، وينظم شذرها، ويشد أزرها، ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها، ويخلد فوائدها. وقد كنت تصديت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلثمائة. والعمر في إقباله، والشباب بمائه، فافتتحت باسم بعض الوزراء مجرياً إياه مجرى ما يتقرب به أهل الأدب إلى ذوي الأخطار والرتب، ومقيماً ثمار الورق، مقام نثار الورق. وكتبته في مدة تقصر عن إعطاء الكتاب حقه، ولا تتسع لتوفيه شرطه. فارتفع كعجالة الراكب، وقبسة العجلان. وقضيت به حاجة في نفسي. وأنا لا أحسب المستعيرين يتعاورونه، والمنتسخين يتداولونه، حتى يصير من أنفس ما تشح عليه أنفس أدباء الإخوان، وتسير به الركبان إلى أقاصي البلدان. فتواترت الأخبار، وشهدت الآثار، بحرص أهل الفضل على غدره وعدهم إياه من فرص العمر وغرره واهتزازهم لزهرة، واقتفارهم لفقره، وحين أعرتة على الأيام بصري، وأعدت فيه نظري، تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب: أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة؟

ورأيتني أحاضر بأخوات كثيرة لما فيه وقعت بأخرة إلي. وزيادات جمة [عليه] حصلت من أفواه الرواة لدي. فقلت: إن كان لهذا الكتاب محلّ من

نفوس الأدباء، وموقع من قلوب الفضلاء، كالعادة فيما لم يقرع من قبل آذانهم، ولم يصفح أذهانهم. فلم لا أبلغ به المبلغ الذي يستحق حسن الإحماد، ويستوجب من الاعتداد أوفر الأعداد؟ ولم لا أسط فيه عنان الكلام. وأرمى في الإشباع والاتمام هدف المرام؟ فجعلت أبنيه وأنقضه، وأزيد وأنقصه، وأمحوه وأثبته، وأنسخه ثم أنسخه. وربما أفتتحة ولا أختتمه، وأنصفه فلا أستتمه، والأيام تحجز، وتعد ولا تنجز. إلى أن أدركت عصر السن والحنكة، وشارفت أوان الثبات والمسكة، فاختلست لمعة من ظلمة الدهر، وانتهزت رقدة من عين الزمان، واغتنمت نبوة من أنياب النوائب، وخفة من زحمة الشوائب، واستمررت في تقرير هذه النسخة الأخيرة، وتحريرها من بين النسخ الكثيرة. بعد أن غيرت ترتيبها، وجددت تبويبها، وأعدت ترصيفها، وأحكمت تأليفها [...].

الثعالبي

(بتيمة الدهر، ج 1 ص 3 - 7)

— 53 —

[أدب الاختيار: الحصري نموذجاً]

أو

[منحى الاستطراف في انتقاء الأشعار والأخذ]

[من كل شيء بطرف]

[...] وهو كتابٌ يتصرف الناظر فيه من نشره إلى شعره، ومطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومناقلته إلى مساجلته، وخطابه المبهت إلى جوابه المُنسكت، وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجده المعجب إلى هزله المُطرب، وجزله الرائع إلى رقيقه البارع.

وقد نزعْتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت، وعن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء من مثله؛ فجعلتُ بعضه مُسلسلاً، وتركتُ بعضه مُرسلاً؛ ليحصل

مَحَرَّرَ النَّقْدَ، مُقَدَّرَ السَّرْدِ؛ وقد أخذ بطَرْفِي التَّأْلِيفِ، واشتمل على حَاشِيَتِي
التَّصْنِيفِ؛ وقد يَعَزُّزُ المعنى، فألحق الشَّكْلَ بنظائره، وأعلّق الأول بآخره، وتبقى
منه بقية أفرقها في سائره ليسلم من التطويل المملّ، والتَّقْصِيرِ المخلّ، وتظهر في
التجميع إفادة الاجتماع؛ وفي التفريق لذّاعة الإمتاع، فيكمل منه ما يُونِقُ القلوبَ
والأسماع؛ إذ كان الخروجُ من جدٍّ إلى هزل، ومن حزنٍ إلى سهل أنقى للكَلَلِ،
وأبعدَ من المللِ.

[...] وليس لي في تأليفه من الافتخار، أكثرُ من حُسن الاختيار؛
واختيارُ المرءِ قطعةً من عقله، تدلُّ على تخلفه أو فضله...

وقد رغبتُ في التجافي عن المشهور، في جميع المذكور، من الأسلوبِ
الذي ذهبْتُ إليه، والنحو الذي عولْتُ عليه؛ لأنَّ أوَّلَ ما يقرع الآذان، أدعى إلى
الاستحسان، مما مجَّته النفوسُ لطول تكراره، ولفظُته العقولُ لكثرة استمراره؛
فوجدت ذلك يتعذَّرُ ولا يتيسر، ويمتنع ولا يتسع؛ ويوجب ترك ما ندر إذا
اشتهر؛ وهذا يوجب في التصنيف دَخْلًا، ويكسب التأليف خَلَلًا؛ فلم أُعرض إلَّا
عما أهانه الاستعمال، وأذَّاله الابتذال [...].

ولعل في كثير مما تركتُ، ما هو أجودُّ من قليل مما أدركت؛ إذا كان
اقتصاراً من كلِّ على بَعْضٍ، ومن فيَضٍ على بَرَضٍ؛ ولكني اجتهدتُ في اختيار
ما وجدت؛ وقد تدخلُ اللفظة في شعاعة اللفظات، ويمرُّ البيت في خِلَالِ
الآيات، وتعرض الحكاية في عرض الحكايات، يتمُّ بها المعنى المراد، وليست
مما يُسْتَجَاد، ويبعث عليها فَرْطُ الضرورة إليها في إصلاح خَلَلٍ؛ فمهما ترَّه من
ذلك في هذا الاختيار، فلا تُعرض عنه بطَرْفِ الإنكار [...].

إبراهيم الحصري القيرواني

(زهر الآداب وثمر الألباب) ج 1 ص 34 - 38

[أدب الاختيار: ابن بسام نموذجاً]

أو

[في توضيح منهج]

[...] وَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَنْصَفُحُهُ سَيَقُولُ: إِنِّي أَغْفَلْتُ كَثِيرًا، وَذَكَرْتُ خَامِلًا وَتَرَكْتُ مَشْهُورًا. وَعَلَى رِسْلِهِ، فَإِنَّمَا جَمَعْتُهُ بَيْنَ صَعْبٍ قَدْ ذَلَّ، وَغَرِبٍ قَدْ فَلَ، وَنَشَاطٍ قَدْ قَلَّ، وَشَبَابٍ وَدَّعَ فَاسْتَقْلَ؛ مِنْ تَفَارِيقِ كَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَتَعَالِيقِ كَالْأَطْلَالِ الْبَالِيَةِ، بِخَطِّ جُهَالٍ كَخَطُوطِ الرَّاحِ، أَوْ مَدَارِجِ النَّمْلِ بَيْنَ مَهَابِ الرِّيحِ؛ ضَبَطْتُهُمْ تَصْغِيفَ، وَوَضَعْتُهُمْ تَبْدِيلَ وَتَحْرِيفَ؛ أَيَّاسُ النَّاسِ مِنْهَا طَالِبُهَا، وَأَشَدُّهُمْ اسْتِرَابَةً بِهَا كَاتِبُهَا؛ فَفَتَحْتُ أَنَا أَقْفَالَهَا، وَفَضَضْتُ قِيودَهَا وَأَغْلَلْتُهَا؛ فَأَضَحْتُ غَايَاتِ تَبْيِينٍ وَبَيَانٍ، وَوَضَحْتُ آيَاتِ حُسْنٍ وَاحْسَانٍ.

على أَنَّ عَامَّةَ مَنْ ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الدِّيْوَانِ، لَمْ أَجِدْ لَهُ أَخْبَارًا مَوْضُوعَةً، وَلَا أَشْعَارًا مَجْمُوعَةً، تَفْسُخُ لِي فِي طَرِيقِ الْاِخْتِيَارِ مِنْهَا، إِنَّمَا انْتَقَدْتُ مَا وَجَدْتُ، وَخَالَسْتُ فِي ذَلِكَ الْخَمُولَ، وَمَارَسْتُ هُنَاكَ الْبَحْثَ الطَّوِيلَ، وَالزَّمَانَ الْمُسْتَحِيلَ، حَتَّى ضَمَنْتُ كِتَابِي هَذَا مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ هَذَا الْأَفْقِ، مَا لَعَلِّي سَأُرْبِي بِهِ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ. وَمَا قَصَدْتُ بِهِ - عِلْمَ اللَّهِ - الطَّغْنَ عَلَى فَاضِلٍ، وَلَا التَّعَصُّبَ لِقَائِلٍ عَلَى قَائِلٍ؛ لِأَنَّ مِنْ طَلَبِ عِيَا وَجْدِهِ، وَكُلِّ يَعْمَلُ بِاِقْتِدَارِهِ، وَبِجَهْدِ اخْتِيَارِهِ؛ وَمَا أَغْفَلَ أَكْثَرَ مِمَّا كُتِبَ وَحُصِّلَ؛ وَالْأَفْكَارُ مُزْنٌ لَا تَنْضَبُ، وَنُجُومٌ لَا تَغْرُبُ؛ وَمَنْ يَحْصُلُ مَا تَثِيرُهُ الْقَرَائِحُ، وَتَتَقَاذَفُ بِهِ الْجَوَانِحُ؟ [...].

وهذا الديوان إنما هو لسان منظوم ومنثور، لا ميدان بيان وتفسير. أوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أَفْكُ مُعَمَّاهَا، فِي شَيْءٍ مِنْ لَفْظِهَا وَلَا مَعْنَاهَا؛ لَكِنْ رُبَّمَا أَلَمْتُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، بَيْنَ ذِكْرِ أَجْرِيهِ، وَوَجْهِ عُدْرِ أُرْيِهِ؛ لَا سَيِّمًا أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ

ذي المحاسن، الذي هو قِيمُ الأشعار وقوامُها، وبه يُعرَفُ تَفَاضُلُها وتَبَايُئُها؛ فلا بد أن نشيرَ إليه، ونُبَيِّنَ عليه؛ وَنَكِلُ الأمرَ في كلِّ ما نُثَبِّتُه، ونُرَدُّ الحَكَمَ في كلِّ ما نُورِدُه، إلى نقدِ النَقْدَةِ المَهْرَةِ، وتمييزِ الكَتَبَةِ الشَّعْرَةِ، الذين هم رؤساءُ الكلام، وصيارفَةُ النَّثَارِ والنِّظام؛ [...].

ولا أقول إنِّي أغرَبْتُ، لكن ربما بَيَّنْتُ وأغرَبْتُ؛ ولا أدَّعي أنَّي اخترَعْتُ، ولكنني لَعَلِّي قد أَحْسَنْتُ حيثُ اتَّبَعْتُ، وأنقَنْتُ ما جمَعْتُ، وتألَّفْتُ عَنَ الشَّارِدِ، وأغْنَيْتُ عَنِ الغَائِبِ بالشَّاهِدِ؛ وَتَغَلَّغْتُ بِقَارِئِهِ بَيْنَ النَّظْمِ والنَّثْرِ، تَغَلُّغُ المَاءِ أَثْنَاءَ التَّوَرِّ والزَّهْرِ؛ وانتَقَلْتُ مِنَ الجَدِّ إِلَى الهَزْلِ، انتَقَالَ الضَّحِيانُ مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظَّلِّ، واستراحةُ البَهِيرِ مِنَ الحَزَنِ إِلَى السَّهْلِ؛ وَتَخَلَّلْتُ مَا ضَمَمْتُهُ مِنَ الرِّسَالِ والأشعار، بما اتَّصَلَتْ بِهِ أَوْ قِيلَتْ فِيهِ مِنَ الْوَقَائِعِ والأخبار.

ومع أن الشَّعْرَ لم أَرَضَهُ مَرْكَبًا، وَلَا اتَّخَذْتُهُ مَكْسَبًا، وَلَا أَلْفَيْتُهُ مَتَوًى وَلَا مُنْقَلَبًا؛ إِنَّمَا زُرْتُهُ لِمَامًا، وَلِمَحْتِهِ تَهَمُّمًا لَا اهْتِمَامًا؛ رَغْبَةً بِعِزِّ نَفْسِي عَنِ ذُلِّهِ، وَتَرْفِيعًا لِمَوَاطِيءِ أَحْمَصِي عَنِ مَحَلِّهِ؛ فَإِذَا شَغَشَعَتْ رَاحُهُ، وَدَابَّتْ أَقْدَاحُهُ، لَمْ أَذُقْهُ إِلَّا شَمِيمًا، وَلَا كُنْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا؛ وَمَا لِي وَلَهُ، وَإِنَّمَا أَكْثَرُهُ خُدْعَةٌ مُخْتَالٌ، وَخُلْعَةٌ مُخْتَالٌ؛ جُدَّةٌ تَمُوءُ وَتَخِيلُ، وَهَزْلُهُ تَدْلِيَةٌ وَتَضْلِيلٌ؛ وَحَقَائِقُ الْعُلُومِ، أُولَى بِنَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْمُنْثَوْرِ وَالْمَنْظُومِ؛ وَعَلَى ذَلِكَ فَقَدْ وَعَدْتُ أَنْ أَلْمَعَ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ، بَلْمَعٍ مِنْ ذِكْرِ الْبَدِيعِ؛ وَأَنْ أُمَهِّدَ جَانِبًا مِنْ أَسْبَابِهِ، وَأُشْرَحَ جُمَلًا مِنْ أَسْمَائِهِ وَالْقَابِهِ؛ وَإِذَا ظَفَرْتُ بِمَعْنَى حَسَنٍ، أَوْ وَقَفْتُ عَلَى لَفْظٍ مُسْتَحْسَنٍ؛ ذَكَرْتُ مِنْ سَبْقِ إِلَيْهِ، وَأَشَرْتُ إِلَى مَنْ نَقَصَ عَنْهُ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ؛ وَلَسْتُ أَقُولُ: أَخَذَ هَذَا مِنْ هَذَا قَوْلًا مُطْلَقًا، فَقَدْ تَتَوَارَدُ الْخَوَاطِرُ، وَيَقَعُ الْحَافِرُ حَيْثُ الْحَافِرُ؛ إِذَا الشَّعْرُ مَيَّدَانُ، وَالشَّعْرَاءُ فَرَسَانُ.

ابن بسام

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

(القسم الأول المجلد الأول ص 15 - 19)

[أدب الاختيار: أبو هلال العسكري نموذجاً]

أو

[في أدب المجالس]

جمعت في هذا الكتاب أبلغ ما جاء في كل فن وأبدع ما روى في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها إلى عواذيتها وشذاذها، وتخيرت من ذلك ما كان جيد النظم محكم الرصف غير مهلهل رخو ولا متجعد فج، وهذا نوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه ومقدار حفظه فإن سبق إليه بالجواب جل قدره وفخم أمره، وإن نكص عن ميدانه وشال في ميزانه قلت الرغبة فيه وانصرفت القلوب عنه.

فحاجة الأديب إلى هذا الفن شديدة وفاقته إليه عتيدة، وأولى ما يصنف ويؤلف ويقرب مأخذه ويسهل ما كانت الحاجة إليه هذه الحاجة فوقعت العناية عليه وانصرفت بالاهتمام إليه حتى تهذب وتثقف وتشذب وتدانث شعبه وتقاربت سبله ولم أبال ما ألقى فيه من زيادة تعب وفضل كد ونصب إذ لم يكن الإنسان يبلغ ما يريد وينال ما يرغب إلا بتكلفة لغوب ومواصلة دؤوب لا سيما إذا كان الغرض الذي ينزع إليه جسيماً يكسبه حسن الذكر ويمنحه طيب النشر من علم يتقنه أو يصنفه ويدونه أو رياسة أرادها فارتادها وسيادة طلب اقتيادها وليس ذلك للمتواني المتهاون ولا المتواكل المتواهن.

والذي حداني على جمع هذا النوع أيضاً إنني لم أجد فيه كتاباً مؤلفاً ولا كلاماً مصنفاً يجمع فنونه ويحوي ضروره، ورأيت ما تفرق منه في أثناء الكتب وتضاعيف الصحف غير مقنع يشفي الراغب ويكفي الطالب فجمعت ههنا وأضفت إلى كل نوع منه ما يقاربه من أمثاله وما يجري معه من أشكاله ليكون مادة للمناقضة وقوة للمفاوضة، وجعلته نظماً ونثراً وخبراً وشعراً لأبعث به نشاط الناظر وأجلي به صداء الخاطر لأن الخروج من ضرب إلى ضرب أنفى للملال وأعدى على الكلال من لزوم نهج لا يتعداه والاقتصار على أمر لا يتوخى سواه.

وجعلته إثني عشر باباً: الباب الأول: في التهاني والمديح والافتخار.
الباب الثاني: في الخصال.

الباب الثالث: في المعاتبات والهجاء والاعتذار.

الباب الرابع: في الغزل وأوصاف الحسان [...].

ابو هلال العسكري

(ديوان المعاني، ص 7 - 14)

- 56 -

[أدب الاختيار: ابن أبي عون نموذجاً]

أو

[في أبيات المعاني وتغليب مشاهير المحدثين عليها]

- 1 -

[...] سألَتني أعزَّكَ اللهُ أن أثبتَ لك أبياتاً من تشبيهات الشعراء الواقعة
وبدائعهم فيها الظريفة وقد تقدَّم الناسُ أعزَّكَ اللهُ في اختيار الشعر وتمييزه غيرَ
أنَّهم لم يصنِّفوه أبواباً وذلك أنَّ الشعر مقسوم على ثلاثة أنحاءٍ منه المثل السائر
كقول الأخطل:

[البسيط]

فأقسَمَ المَجْدُ حقّاً لا يُحالفُهُم حَتَّى يُحالفَ بطنَ الراحةِ الشَّعْرُ

[البسيط]

وكقول الفرزدق

أما العَدُوُّ فإنَّنا لا نلينُ له حَتَّى يَلينَ لِضِرْسِ الماضِغِ الحَجَرُ

[الطويل]

ومنه الاستعارة الغريبة كقول الطرماح

فقلتُ لها يا أُمَّ بَيْضاءِ إِنَّهُ هَرِيقَ شَبابي واستَشَنَّ أديمي

[البسيط]

وكقول الحطَّيئة

قد ناضلوك فابْدؤا من كَنائِهم مَجْداً تليداً وتَبْلاً غيرَ أنْكَاسِ

ومنه التشبيه الواقع النادر كقول امرئ القيس في العُقَاب [الطويل]
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِ

وكقول عدي بن الرُّقَاع في وَصْف الثَّوْرِ الْبَرِّي [الكامل]
تُزْجَى أَغْنَى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وما خَرَجَ من هذه الأقسام الثلاثة فكلّامٌ وَسَطٌ أو دُونَ لا طَائِلَ فيه ولا فائدة معه ورأيتُ أَجَلَ هذه الأنحاءِ وأصعبها على صانعها التشبيه وذلك أنه لا يقع إِلَّا لِمَنْ طَالَ تَأَمُّلُهُ وَلَطْفَ حِشِّهِ وَمَيَّزَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ بِلَطِيفِ فِكْرِهِ وَأَنَا أَثْبِتُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ أُبَيَاتًا مِنَ التَّشْبِيهِ مَخْتَارَةً وَأَتَخَلَّلُ الْمَعَانِي الْمَخْتَلَفَةَ وَالتَّشْبِيهَاتِ الْمَتَدَاوِلَةَ إِلَى الْأُبْيَاتِ الطَّرِيفَةِ النَّادِرَةِ وَأَقْتَصِرُ عَلَى جُمْلَةٍ يَكُونُ لَكَ فِيهَا حَظٌّ وَمُنْعَةٌ وَتَأْدُبٌ وَرِيَاضَةٌ وَأَتَجَبَّبُ الْإِطَالَةَ الَّتِي يَتَلَقَّاها الْمَلَالَةُ وَأَتَّبِعُ ذَلِكَ بَكِتَابٍ فِي الْأَمْثَالِ وَكِتَابٍ فِي الْاسْتِعَارَةِ ...

— ب —

[...] وقد تَكَرَّرَتْ فِي كِتَابِنَا تَشْبِيهَاتٌ لِلْمُخَدَّثِينَ مِثْلَ أَبِي نُوَّاسٍ وَبِشَّارٍ وَمُسْلِمٍ وَالطَّائِي وَالبُخْتَرِيِّ وَابْنِ الرُّومِيِّ وَابْنِ الْمُعْتَزِّ وَأَضْرَابِهِمْ لِأَنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَى إِثْبَاتِ عَيُونِ التَّشْبِيهَاتِ الْمَخْتَارَةِ وَالْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ الْبَعِيدَةِ دُونَ الْمَتَدَاوِلَةِ الْمُخْلِقَةِ وَالْمَتَقَدِّمُونَ وَإِنْ كَانُوا افْتَتَحُوا الْقَوْلَ وَفَتَحُوا لِلْمُخَدَّثِينَ الْبَابَ وَنَهَجُوا لَهُمُ الطَّرِيقَ فَكَانَ لَهُمْ فَضْلُ السَّبْقِ وَاسْتِنَافِ الْمَعَانِي وَصُعُوبَةُ الْإِبْتِدَاءِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَحْسَنُوا التَّأَمُّلَ وَأَصَابُوا التَّشْبِيهَ وَوَلَّدُوا الْمَعَانِي وَزَادُوا عَلَى مَا نَقَلُوا وَأَغْرَبُوا فِي مَا أَبْدَعُوا وَلَوْ أَثْبِتْنَا تَشْبِيهَاتِهِمُ الْقَدِيمَةَ كَتَشْبِيهِهِمُ النَّاقَةَ فِي الضِّخَمِ بِالْقَصْرِ وَالْقَنْطَرَةَ، وَفِي الصَّلَابَةِ بِالْعَلَاةِ وَالصَّخْرَةَ، وَفِي السَّرْعَةِ بِالْجَنْدَلَةِ وَالْأَنْفِيقَةَ، وَسُرْعَةَ الْفَرَسِ بِنَجَاءِ الظَّنِّي، وَتَشْبِيهِ الْجَوَادِ بِالْبَحْرِ وَالسَّيِّدِ بِالْقَرَمِ وَهُوَ فَخْلُ الْإِبِلِ وَالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ وَأَخْدَاجِ النِّسَاءِ بِالنَّخْلِ وَالسُّفُنِ وَالنُّجُومِ بِالمَصَابِيحِ

وَالنِّسَاءَ بَيَّضَ النَّعَامَ، لَطَالَ بِذَلِكَ الْكِتَابُ وَآلَ أَكْثَرُهُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَكَانَ
الْمَحْكِيُّ مِنْهُ مَعْرُوفًا غَيْرَ مُسْتَعْرَبٍ وَزَالَ حُسْنُ الْإِخْتِيَارِ وَتَنَقَّى الْأَلْفَاظِ وَاسْتَعْرَابُ
الْمَعْنَى وَطِلَابُنَا الْجَيِّدُ حَيْثُ وُجِدَ وَقَصْدُنَا الْغَضُّ وَالنَّادِرُ لِمَنْ كَانَ وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ
وَالْقُوَّةُ.

ابن أبي عون

كتاب التشبيهات⁽¹⁾ / ط كمبرج ص 1 - 2، 74

— 57 —

[أدب الشروح: الأعلام الشتمري نموذجاً]

[...] رَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ دِيْوَانًا يُعَيِّنُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي
جُمْلَةِ الْمَنْظُومِ وَالْمَثُورِ، وَأَنْ أَقْتَصِرَ مِنْهَا عَلَى الْقَلِيلِ؛ إِذْ كَانَ شَعْرُ الْعَرَبِ كُلُّهُ
مُتَشَابِهَ الْأَغْرَاضِ، مُتَجَانِسَ الْمَعْنَى وَالْأَلْفَاظِ، وَأَنْ أَوْثَرَ بِذَلِكَ مِنَ الشَّعْرِ مَا
أَجْمَعَ الرُّوَاةَ عَلَى تَفْضِيلِهِ، وَآثَرَ النَّاسُ اسْتِعْمَالَهُ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَجَعَلْتُ الدِّيْوَانَ
مُتَضَمِّنًا لَشَعْرِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ، وَشَعْرِ النَّابِغَةِ زِيَادِ بْنِ عَمْرٍو
الدُّبْيَانِيِّ، وَشَعْرِ عُلُقَمَةَ بْنِ عَبْدَةَ التَّمِيمِيِّ، وَشَعْرِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَى الْمُزَنِيِّ،
وَشَعْرِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ، وَشَعْرِ عَنْتَرَةَ بْنِ شَدَادٍ.

واعتمدتُ فيما جَلَبْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْعَارِ عَلَى أَصَحِّ رَوَايَاتِهَا، وَأَوْضَحِ

(1) انظر في هذا الباب:

— كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني.

— غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدي.

انظر كذلك كتب الشعالي: ثمار القلوب، خاص الخاص، سحر البلاغة، الكناية
والتعريض، اللطائف والظرائف، لطائف الظرفاء، لطائف المعارف - وهي من أرحب
الموسوعات لأبيات المعاني.

تنضاف إلى هذه المجموعات مظان أخرى مما طرقت الموضوع الواحد مثل الزهرة لابن
داود في العشق والعشاق والتحف والهدايا للخالدين وقطب السور للزريق في الخمر.

طرقاتها؛ وهي رواية عبد الملك بن قُريب الأصمعي؛ لتواطؤ الناس عليها، واعتيادهم لها، واتفاق الجمهور على تفضيلها، وأتبع ما صحَّ من رواياته قصائد متخيَّرة من رواية غيره، وشرحتُ جميع ذلك شرحاً يقتضي تفسير جميع غريبه، وتبيين معانيه، وما غمض من إعرابه؛ ولم أطل في ذلك إطالة تُخلُّ بالفائدة، وتُمِلُّ الطالب الملتبس للحقيقة؛ فإنِّي رأيت أكثرَ مَنْ أَلَفَ في شروح هذه الأشعار قد تشاغلوا عن كشف المعاني وتبيين الأغراض بجلب الروايات، والتوقيف على الاختلافات؛ والتقصي لجميع ما حوته اللفظة الغريبة من المعاني المختلفة؛ حتى إنَّ كتبه خالية من أكثر المعاني المحتاج إليها، ومشملة على الألفاظ والرواية المستغنى عنها؛ وفائدة الشُّعر معرفة لغته ومعناه؛ وإلا فالراوي له كالناطق بما لا يفهم، والعامل بما لا يعلم، وهذه صنعة البهائم.

وقد فسرتُ جميع ما ضمَّنته هذا الكتاب تفسيراً لا يسع الطالب جهله، ويتبين الناظر المنصف فضله.

الأعلم الششمري

(ديوان امرئ القيس ص 3 - 4)

— 58 —

[أدب المنادمة والمبادهة]

أو

[في «رعاية الشعر» وسلطان مشاهير الشعراء على «الأصاغر»]

[...] كان عوف بن محلم⁽¹⁾ أحد الأدباء ومعدوداً من الشعراء الظرفاء المحدثين، وكان صاحب أخبار ونوادر ومعرفة بأيام الناس، وكان طاهر بن الحسين بن مُضْعَب⁽²⁾ قد استخضه واختاره لمنادته، فكان لا يفارقه في سفر

(1) هو أبو المنهال عوف بن مُحَلِّم الخزاعي، توفي نحو 220. (انظر فؤاد سزقن، تاريخ... ج 2 ص 630).

(2) من كبار القواد في عهد المأمون ومؤسس الدولة الطاهرية (انظر المنجي الكعبي: «أدب الطاهريين» وبه مجموعة من شعر طاهر وشعر ابنه عبدالله).

ولا حضر، وكان إذا سافر فهو عديله يحادثه ويسامره، وإذا أقام فهو جلسه يذاكره العلم ويدارسه، وكان طاهر أديباً شاعراً يحب الأدب وأهله. وكان لا ينفق عنده شيء من متعة الدنيا كما ينفق الأدب، وكان عوف من أهل حرّان. وقال قوم: من رأس العين. وأقام مع طاهر ثلاثين سنة لا يفارقه، حتى ليسأله كثيراً أن يأذن له في الإلمام بأهله والخروج إلى وطنه، فلا يجيبه إلى ذلك، وكان يعطيه الجزيل حتى كثرت أمواله، فلما مات طاهر ظن أنه قد تخلص، وأنه يلحق بأهله، ويتمتع بما قد اقتناه ببلده. فلوى عبدُ الله بن طاهر عليه يده، وتمسك به، وأنزله فوق المنزل التي كانت من أبيه - وكان من آدب الناس وأعلمهم بأيام العرب وأجودهم قولاً للشعر - فعاد معه عوف إلى حاله التي كان عليها مع أبيه من الملازمة في الحضر والسفر، واجتهد في التخلص فلم يقدر على ذلك، حتى خرج عبد الله بن طاهر من العراق يريد خراسان، وعوف عديله في قبة يسامره ويحادثه. فلما شارفوا الرّي، وقد أدلجوا سُخرة، إذا بقمري يغرد على سرورة، بأشجى صوت وأرق نغمة، فالتفت عبد الله إلى عوف فقال: يا أبا محلم، أما تسمع هذا الصوت؟ ما أرقه وأشجاء! قاتل الله أبا كبير الهذلي حيث يقول:

[الطويل]

ألا يا حمام الأيك فرحك حاضر وغصنك مَيَّادُ فقيم تنوحُ

قال عوف: أحسن والله أبو كبير وأجاد أيها الأمير. كان في هُذيل أربعون شاعراً مذكوراً محسناً سواءً المتوسطين، وكان أبو كبير من أظهرهم وأقدرهم على القول.

قال عبد الله: عزمت عليك إلا أجزت هذا البيت. قال عوف: أصلح الله الأمير، شيخ مُسِنَّ وأَحْمَل على البديهة، وعلى معارضة مثل أبي كبير، وهو من قد علمت! قال عبد الله: عزمت عليك وسألتك بحق طاهر إلا فعلت. فأنشد يقول:

أني كلّ عام غُرْبَة ونزوحُ أما للثوى من وثية فثريح

لقد طَلَحَ الْبَيْنُ الْمُشْتُ رَكَائِبِي فهل أَرَيْنَ الْبَيْنَ وهو طَلِيح
وَأَرَقْنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ فنحت وذو اللَّبِّ الحزين ينوح
على أنها ناحت فلم تُرِ عِبرَةٌ ونُحْتُ وأسرَابُ الدَّمُوعِ سُفُوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفرأخي مهامه فُيَح
ألا يا حمام الأيك فرحك حاضر وغصنك مَيَّاد فقيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتضحى عَصَا التَّشْيَار وهي طريح
فإن الْغِنَى يُدْنِي الْفَتَى من صديقه وعُذْمُ الْغِنَى للمعسرين طروح

فاستعبر عبد الله ورق له لما سمع من تشوِّقه إلى أهله وبلده، فقال: يا ابن محلم ما أحسن ما تلتطفت لحاجتك، واستأذنت في الرجوع إلى أهلك وولدك! وإني والله بك لضنين، وبقربك لشحيح، ولكن والله لا جاوزت مكانك هذا حتى ترجع إلى أهلك وولدك. وأمر له بثلاثين ألف درهم نفقة، وردَّه إلى موضعه ذلك.

[...] وكان عوف بن محلم سخيًّا على الطعام جدًّا، صاحب شراب ولهو وخلاعة، وكان له إخوان يتمتع بهم ومعهم، ويعاشرهم ويُفَضِّلُ عليهم، وكان الشعراء الأصاغر يقصدونه ويمدحونه، فيعطيههم ويصلههم، ويتوسلون به إلى طاهر فيشفع لهم ويُخرج جوائزهم.

وقدم مرة شاعر على عبد الله يقال له رَوْح من البصرة، فامتدح عبد الله بقصيدة ومدح عوفاً بأبيات، وقد أنزله عنده وأحسن إليه، فلما سمع عوف أبياته وجدها ضعيفة جدًّا، قال أنشدني ما قلت في الأمير - واستدل بما سمع على ضعف نمط الرجل - فأنشده. فقال: لا توصلها إليه، فإن الأمير بصير بالشعر، وهو يقول منه الجيد القوي، ومثل هذا الشعر لا يقع منه موقعاً ينفعك، ولكني أقول فيه مدحة، فانتحلها وألقه بها. فأبى، وظن أنه يقول ذلك حسداً، وكان الرجل رقيقاً لا يظن لعب نفسه، فقال له: فشأنك إذن وما تريد. فأنشد رَوْح قصيدته عبد الله، فقال له: بمثل هذا الشعر يُلقَى الأمراء والملوك؟ أيقبل مثل هذا حرّاً؟ وردّها عليه، فصار إلى عوفٍ وشكا إليه، فقال له: ألم أنصحك؟ ألم

أقل لك : إنه لا يقبل مثل هذا الشعر؟ فلما دخل عوف على عبد الله قال : ويحك يا أبا محلم، أما سمعت شعر هذا القادم علينا فينا؟ قال عوف : بلى ، أعز الله الأمير ، قد سمعته ونصحت له فلم يقبل .

ومن شعره في آداب المنادمة :

[المتقارب]

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأوّل الأوّل
إلى أن توافت صلاة العشاء ونحن من الشكر لم نَغْفِلِ
فمن كان يعرف حق النعيم وحق الجليس فلا يَجْهَلِ
وما إن جَرَتْ بيننا مَزْحَةٌ تُهَيِّجُ مِرَاءً على السِّلْسَلِ

ابن المعتز

(طبقات الشعراء ، ص 186 - 192)

— 59 —

[مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا

من مدونة المغمورين والأغفال : أبو الفرج نموذجاً]

أو

[في تداخل الأخبار والأشعار]

— أ —

عُكَّاشَةُ الْعَمِّي (*)

أو

أنموذج الشاعر المغمور

عُكَّاشَةُ شَاعِرٍ مُقِلٍّ مِنْ شِعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، لَيْسَ مِمَّنْ شُهِرَ وَشَاعَ شِعْرُهُ

(*) عُكَّاشَةُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْعَمِّيٍّ مِنْ شِعْرَاءِ الْعُقُودِ الْآخِرَةِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي . يُذَكَّرُ لَهُ ابْنُ =

في أيدي الناس ولا مِمَّنْ خَدم الخلفاء ومدحهم.

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدّثني محمد بن القاسم بن مَهْرُويّة قال حدّثني عليّ بن الحسن عن ابن الأعرابيّ قال حدّثني سعيد بن حُمَيْد الكاتب⁽¹⁾ البصريّ قال قال أبي:

كان عَكاشة بن عبد الصَّمَد العَمِّيّ صديقاً لي وإلفاً، وكنا نتعاشر ولا نكاد نفترق ولا يكتُم أحدنا صاحبه شيئاً، فرأيتُه في بعض أيّامه متغيّر الهيئة عمّا عهدته مقسّم القلب والفكر غيرَ آخِذٍ ما كنّا فيه من الفكاهة والمُزاح، فسألته عن حاله فكأتمّنيها مليّاً، ثم أخبرني أنه يهوى جاريةً لبعض الهاشميين يقال لها نُعَيْم، وأنّ مرّامها عليه مستصعبٌ لا يراها إلّا من جناحٍ لدارهم، تُشرفُ عليه في الفَيْئَةِ بعد الفَيْئَةِ فتكلّمه كلاماً يسيراً ثم تذهب، فعاتبته على ذلك فلم يزدَجِرْ وتمادى في أمره، ثم جاءني يوماً، فقال: قد وعدتني الزيارة لأن شكواي إليها طالت، فقلت له: فهل حقّقْتَ لك الوعدَ على يومٍ بعينه؟ قال: لا، إنما سألتها الزيارة فقال: نعم أفعُلْ، فقلت له: هذا والله أعجبُ من سائرِ ما مضى، وأيّ شيءٍ لك في هذا من الفائدة بلا تحصيلٍ وعدٍ! فقال لي: يا أخي، إنّ لي في قولها: «نعم» فرجاً كبيراً، فقلتُ: أنت أقنعُ الناس؛ ثم جاءني بعدَ يومين وهو كاسفُ البال مهمومٌ، فقلت له: مالك؟ فقال: مضيتُ إلى نُعَيْم فتنجّزتُ وعدّها، فقالت لي: إنّ لي صاحبةً أَسْتَنْصِحُها وأَعْلَمُ أنها تُشفقُ عليّ شَفَقَةً

= النديم (الفهرست / طهران ص 184) ديواناً في 30 ورقة. ما تبقى من شعره - والغالب عليه الغزل - انفرد بمعظمه كتاب الأغاني، ونمطه لا يخرج عن أنماط شعر المُحدّثين (انظر دراستنا لشعر خالد الكاتب بالجزء الثاني من هذا العمل). لم يكن ممن «خدم الخلفاء ومدحهم» كما يقول أبو الفرج، ولعل ذلك ممّا أخمل ذكره. تغنّى بشعره مشاهير العصر ومنهم عريب (انظر الفهرس العام) وجحظة (انظر الجزء الثالث ص 55 - 72 والجزء الخامس ص 61 - 76) انظر فؤاد سزقن: تاريخ... ج 2 ص 524.

(1) سعيد بن حميد الكاتب (توفي 260) - من الكتاب الشعراء في عهد الخليفة المستعين. له أخبار مع فضل الشاعرة وعشقها له (انظر طبقات ابن المعتز، ص 462 - 427، وتاريخ فؤاد سزقن ج 2 ص 583).

الأختِ على أختها والأم على ولدها وقد نهّني عن ذلك، وقالت لي: إن في الرجال غدراً ومكرأً، ولا آمنُ أن تفتضحني ثم لا تحصلي منه على شيء؛ وقد أنقطعت عني ثم أنشدني لنفسه⁽¹⁾:

[المنسرح]

- | | |
|---------------------------------------|--|
| 1 - علامَ جبلُ الصفاءِ منصِرمُ | وفيمَ عني الصدودُ والصَّمَمُ |
| 2 - يا من كئِناً عن أسمه زمناً | تبعُ مرضاتَه ويجترُمُ |
| 3 - قد عيلَ صبري وأنتِ لاهيةٌ | عني وقلبي عليك يَضْطَرُمُ |
| 4 - مَنْ جَدَّ جبلَ الوفاءِ سيّدتي | منكِ ومن سامني له العَدَمُ |
| 5 - فكم أتاني واشٍ يعيبُكمُ | فقلتُ إخساً لأنفك الرِّغَمُ |
| 6 - أنتَ الفِداَ والحِمى لمن عبتَ فار | جِغ صاغِراً راغماً لك النَّدَمُ |
| 7 - يا ربُّ خُذْ لي من الوُشاةِ إذا | قاموا وقمنا إليك نخَصِمُ |
| 8 - دَبُّوا إليها يُوسوسون لها | كي يستزلُّوا حبيتي زعموا |
| 9 - هيهات من ذاك ضلَّ سعيهمُ | ما قلبها المستعارُ يُقْتَسَمُ |
| 10 - يا حاسدينا موتوا بغيظكمُ | حَبْلِي متينٌ بقولها نَعَمُ |
| 11 - بالله لا تُشِمِتي العُداءَ بنا | كوني كقلبي فليستُ أتهمُ ⁽²⁾ |

[...] قال: ثم طال تَرَدادهُ إليها وأستصلاحهُ لها، فلم ألبث أن جاءني رُقعتهُ في يومٍ خميسٍ يُعلمني أنها قد حصلتُ عنده ويستدعيني فحضرتُ، وتوارث عني ساعةً وهو يُخبرُها أنه لا فرقَ بيني وبينه ولا يحتشمُني في حلِّ ألبتهُ إلى أن خرجتُ فاجتمعنا وشربنا وغنَّتُ غناءً حسناً إلى وقتِ العصر ثم أنصرفتُ، وأخذ دواةً ورُقعةً فكتب فيها:

[الكامل]

(1) نورد هنا مجموع شعر عكاشة في الغزل كصلة لما جمعناه وقدمنا له من شعر الغزلين المنسيين في الجزء الثاني من هذا العمل. وسلاحظ القاريء أن هذا الشعر ليس دون شعر الغزلين عموماً قيمةً فنيةً.

(2) الغناء في الأبيات 7 - 11 لعريب المذكورة في ذيل ص 293.

- 1 - سَقِيَا لمجلِسنا الذي كُنَّا به
- 2 - في غُرْفَةٍ مَطَرَتْ سَمَاوُهُ سَقْفَهَا
- 3 - إذْ نَحْنُ نُسْقَاهَا شَمُولًا قَرَقَفًا
- 4 - حَمراءُ مِثْلِ دَمِ الْغَزَالِ وَتَارَةً
- 5 - مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ بَنَانَهَا
- 6 - تَزْدَادُ حَسَنًا كَأْسُهَا مِنْ كَفِّهَا
- 7 - وَإِذَا الْمِزَاجُ عَلَا فَشَجَّ جَبِينَهَا
- 8 - وَتَخَالُ مَا جَمَعَتْ فَأَحْدَقَ سِمْطُهُ
- 9 - كَفَّتِ الْمَنَاصِفَ أَنْ تَذُبَّ أَكْفُهَا
- 10 - وَالْعُودُ مَتَّبِعُ غِنَاءِ خَرِيدَةٍ
- 11 - وَكَأَنَّ يُمْنَاهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ
- 12 - فَهَنَّاكَ خَفَتْ بِنَا النِّعِيمُ وَصَارَ مِنْ
- 13 - أَلَيْتُ لَا أَلْحَى عَلَى طَلَبِ الْهَوَى

قال: ثم قَدِمَ قادم من أهل بغداد فاشترى نَعِيمَ هذه من مولاتها ورحل إلى بغداد، فعَظُمَ أَسْفُ عُكَّاشَةٍ وَحَزْنُهُ عَلَيْهَا وَأَسْتُهِيمَ بِهَا طَوْلَ عَمْرِهِ، فَاسْتَحَالَتْ صَوْرَتُهُ وَطَبَعُهُ وَخُلُقُهُ إِلَى أَنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا، فَكَانَ أَكْثَرَ وَكُدَّهُ وَشُغْلُهُ أَنْ يَقُولَ فِيهَا الشَّعْرَ وَيُنَوِّحَ بِهِ عَلَيْهَا وَيَبْكِي؛ قال: حُمَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ فَأَنْشَدَنِي أَبِي لَهُ فِي ذَلِكَ:

[الطويل]

- 1 - أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودُنْ مَا مَضَى
- 2 - وَهَلْ أَجْلِسُنْ فِي مِثْلِ مَجْلِسِنَا الَّذِي
- 3 - عَشِيَّةً صَبَّتَ لَذَّةُ الْوَصْلِ طَيْبَهَا
- 4 - وَقَدْ دَارَ سَاقِينَا بِكَأْسِ رَوِيَةٍ

كَالسِنَةِ الْحَيَاتِ خَافَتْ مِنَ الْقَتْلِ
لِكُلِّ فَتًى يَهْتَزُّ لِلْمَجْدِ كَالنَّصْلِ
وَبُثُّ تَبَارِيحِ الْفُؤَادِ عَلَى رِسْلِ
رَأَيْتَ لِسَانَ الْعُودِ مِنْ كَفِّهَا يُغْلِي
وَلَا مِثْلَ يَوْمِي ذَاكَ صَادَفَهُ مِثْلِي

[الكامل]

وَالِى الْأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ دَعَانِي
أَلْقَى بَكَيْتٍ مِنَ الَّذِي أَبْكَانِي
نَفْسِي مِنَ الْحَسَرَاتِ وَالْأَحْزَانِ
بَكَتِ الثِّيَابُ أَسَى عَلَى جُثْمَانِي
حَتَّى رَحِمْتُ لِرَحْمَتِي إِخْوَانِي
فَكَأَنَّنِي الْقَاكِ كُلِّ مَكَانٍ
مَعْرُوفَةٌ بِالْقَتْلِ فِي إِنْسَانِي
وَدَوَاؤُهُ بِيَدِيكِ مُقْتَرِنَانِ
بَيْنَ النِّعَمِ وَبَيْنَ عَيْشِ دَانِي
مَعَ ظَبْيَةٍ فِي عَيْشِنَا الْفَيْنَانِ
بَيْنَ الْغِنَاءِ وَعُودِهَا الْحَنَانِ
مَشْدُودَةٌ بِمَثَالَتِ وَمَثَانِي
بِالْعُودِ بَيْنَ الرِّيحِ وَالرَّيْحَانِ
وَسِكْرَتْ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ أَشْجَانِ
وَمَشَى إِلَيَّ اللَّهُوْ فِي الْأَلْوَانِ
مِنْ بَيْنِ عُودٍ مُطَرَّبٍ وَبَنَانِ

5 - وَشَجَّ شَمُولًا بِالْمِزَاجِ فَطِيرَتْ
6 - فَبَيْتُنَا وَعَيْنُ الْكَاسِ سَحَّ دَمُوعُهَا
7 - وَقَبِيتُنَا كَالطَّبِي تَسْمَحُ بِالْهَوَى
8 - إِذَا مَا حَكَّتْ بِالْعُودِ رَجَعَ لِسَانُهَا
9 - فَلَمْ أَرَ كَاللَّذَاتِ أَمْطَرَتْ الْهَوَى
وَمِمَّا قَالَهُ فِيهَا :

1 - أَنْعِمُ حُبِّكَ سَلَّنِي وَيَلَانِي
2 - أَنْعِمُ لَوْ تَجَدِّينَ وَجَدِي وَالَّذِي
3 - أَنْعِمُ سَيِّدَتِي عَلَيْكَ تَقَطَّعْتُ
4 - أَنْعِمُ قَدْ رَحِمَ الْهَوَى قَلْبِي وَقَدْ
5 - أَنْعِمُ وَأَنْحَدَرْتُ مَدَامُ مَقْلَتِي
6 - أَنْعِمُ مِثْلَكَ الْهُيَامُ لِمَقْلَتِي
7 - أَنْعِمُ نَظْرَةً سَحَرِ عَيْنِكَ بِالْهَوَى
8 - أَنْعِمُ أَشْفِي أَوْ دَعِي مَنْ دَاوَهُ
9 - هَذَا وَكَمْ مِنْ مَجْلِسٍ لِي مُؤْنِقِ
10 - نَازَعْتُهُ أَرْدَانَهُ فَلَيْسَتْهَا
11 - تُنْسِي الْحَلِيمَ مِنَ الرِّجَالِ مَعَادَهُ
12 - حَتَّى يَعُودَ كَأَنَّ حَبَّةَ قَلْبِهِ
13 - ظَلَّتْ تُغْنِيْنِي وَتَغْطِفُ كَفِّهَا
14 - فَسَمِعْتُ مَا أَبْكَى وَأَضْحَكَ سَامِعًا
15 - وَمَشَيْتُ فِي لُجَجِ الْهَوَى مُتَبَخَّرًا
16 - فَعَلِمْتُ أَنَّ قَدْ عَادَ قَلْبِي عَائِدًا

ومما قاله أيضاً فيها :

[الوافر]

- 1 - نُعَيْمٌ هَلْ بَكَيْتَ كَمَا بَكَيتُ وهل بعدي وَفَيْتَ كَمَا وَفَيْتُ
- 2 - أَلَا يَالَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ بَعْدِي أَصْ- طَبَارُكَ إِذْ نَأَيْتَ وَإِذْ نَأَيْتُ
- 3 - فَكَمْ مِنْ عَبْرَةٍ ذَرَفْتُ فَلَمَّا خَشِيتُ عَيْونَ أَهْلِي وَاسْتَحَيْتُ
- 4 - نَهَضْتُ بِهَا مُكَاتِمَةً فَلَمَّا خَلَوْتُ ذَرَفْتُهَا حَتَّى أَشْتَفَيْتُ
- 5 - وَقُلْتُ لَصُخْبَتِي لَمَّا رَمَانِي هَوَاكَ بِدَائِهِ حَتَّى أَنْطَوَيْتُ
- 6 - أَرَانِي مِنْ هُمُومِ النَّفْسِ مَيْتاً وَلَمْ أَرْ فِي نُعَيْمٍ مَا نَوَيْتُ
- 7 - فَلَيْتَ الْمَوْتَ عَجَلَ قَبْضَ رُوحِي جَهَاراً فَاسْتَرَحْتُ وَأَيْنَ لَيْتُ

وقال أيضاً في فراقه إياها :

[الكامل]

- 1 - أَنْعَيْمُ فِي قَلْبِي عَلَيْكَ شَرَارُ وَعَلَى الْفؤَادِ مِنَ الصَّبَابَةِ نَارُ
- 2 - وَعَلَى الْجَفُونِ غِشَاوَةٌ وَعَلَى الْهَوَى دَاعٍ دَعَتْهُ لِحَيْنِي الْأَقْدَارُ
- 3 - بِمُضِلَّةٍ لُبِّ الْحَلِيمِ إِذَا رَمْتُ بِالْمَقْلَتَيْنِ كَأَنَّهَا سَحَارُ
- 4 - طَالِبْتُهَا حَوْلَيْنِ لَا لَيْلِي بِهَا لَيْلٌ وَلَا هَذَا النَّهَارُ نَهَارُ
- 5 - حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ يَدَايَ بِكَاعِبٍ كَالشَّمْسِ تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَبْصَارُ
- 6 - وَتَلَجْتُ صَدْرًا بِالْفَتَاةِ وَصَارَتَا كَالنَّفْسِ نَفْسَانَا وَقَرَّ قَرَارُ
- 7 - بَلَغَ الشَّقَاءُ أَشَدَّ مَا يَسْطِيعُهُ فِينَا وَفَرَّقَ بَيْنَنَا الْمِقْدَارُ

ومما يُغْنَى فِيهِ مِنْ شَعْرِ عُكَّاشَةِ الَّذِي قَالَ فِي هَذِهِ الْجَارِيَةِ :

[مجزوء الكامل]

صوت

- 1 - لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ الَّذِي وَلَّى بِهِجْتِهِ الْقَصِيرِ
- 2 - قَدْ كَانَ يُؤْنِقُنِي الْهَوَى وَيَقَرَّ عَيْنِي بِالسَّرُورِ
- 3 - إِذْ نَحْنُ خُلَانُ الْهَوَى رَيْنَحَانُنَا عِبْقُ الْعَيْرِ

4- وغناؤنا وصفُ الهَوَى نلتذُّ بالحبِّ اليسيرِ

الغناء في هذه الأبيات لابن صغير العين من كتاب إبراهيم⁽¹⁾ ولم يذكر طريقته. وفيه لأبي العُبَيْس بن حَمْدُون خفيفُ رمل. وتمام هذه الأبيات:

5- وجهُ التواصُل بيننا في الحسن كالقمر المنيرِ

6- إيماننا يحكي الكلا مَ وسِرُّنا فطنُ المشيرِ

7- وحديثنا بحواجبٍ نطقَتْ بالسنة الضميرِ

8- بل رُسُلنا الكُتُبُ التي تجري بخافية الصُّدُورِ

ومما وجَدْتُ فيه غناءً من شعر عُكَّاشَة قوله: [الطويل]

1- وجاءوا إليه بالتعاويد والرُّقى وصَبَّوا عليه الماء من شدةِ التُّكْسِ

2- وقالوا به من أعين الجنَّ نظرةً ولو صدَّقوا قالوا به أعينُ الإنسِ

الغناء لعَرِيب⁽²⁾. ومنها: [الكامل]

1 - طَرَفِي يذوب وماءُ طَرَفِكَ جامدُ وعليَّ من سِيَمَا هَوَاكِ شواهدُ

2- هذا هَوَاكِ قَسَمْتِهِ بين الوري ومنحِتني أَرْقَا وطَرَفُكَ راقِدُ

3- فعلىَّ منه اليومَ تسعةُ أسْهُمٍ وعلى جميع الناسِ سهمٌ واحدُ

الغناء لَجَحْظَة⁽²⁾. ومنها: [مجزوء الكامل]

غَادِ الهوى بالكأسِ بردًا وأطِغِ إمَارَةً من تَبَدَّى

ومنها: [البسيط]

كما أَشْتَهَتْ خُلِقْتُ حتَّى إذا أَعْتَدْتُ تَمَّتْ قَوَامًا فلا طوْلُ ولا قِصْرُ

(1) «كتاب الغناء» لإبراهيم بن المهدي (توفي 224 وهو أخو علي بن المهدي) (انظر الجزء الثاني ص 317) وكلاهما مَن جَوَّدَا الشعر وصاغوا اللحن وحذقوا العزف والغناء (انظر الفهرست / طهران، ص 129 و تاريخ فؤاد سزقن ج 2 ص 568).

(2) عريب وجحظه مرَّ ذكرهما في ذيل ص 293.

[البسيط]

ومنها:

وزَعْفَرَانِيَّةٌ فِي اللَّوْنِ تَحْسَبُهَا إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي جِسْمِ كَافُورٍ
تَخَالُ أَنَّ سَقِيطَ الطَّلِّ بَيْنَهُمَا دَمْعٌ تَحَيَّرَ فِي أَجْفَانِ مَهْجُورٍ

(كتاب الأغاني، ج 3 ص 257 - 265)

- 60 -

- ب -

ابن أبي الزوائد⁽¹⁾

أو

بين القديم والحديث

[...] شاعرٌ مقلٌّ، من مخضرمي الدولتين،

[...] كان ابن أبي الزوائد يتعشَّقُ جاريةً سوداء مولاة الصُّهَيْيَّيْنِ، وكان

يختلف إليها وهي في النَّخْلِ بحاجة. فلما حان الجداد قال:

[المنسرح]

- 1- حُجِيجُ أَمْسَى جَدَادُ حَاجِزَةٌ فليْتَ أَنَّ الْجَدَادَ لَمْ يَحْنِ
- 2- وَشَتَّ بَيْنَ وَكُنْتُ لِي سَكْنًا فيما مَضَى كَانَ لَيْسَ بِالسَّكَنِ
- 3- قَدْ كَانَ لِي مِنْكَ مَا أُسْرُبُهُ وليْتَ مَا كَانَ مِنْكَ لَمْ يَكُنِ
- 4- نَعَفْتُ فِي لَهْوِنَا وَيَجْمَعُنَا المجلس بين العريش والجرنِ
- 5- يُعْجِبُنَا اللَّهُوُّ وَالْحَدِيثُ وَلَا نَخْلُطُ فِي لَهْوِنَا هَنَاءَ بَهَنِ

(1) سليمان بن يحيى بن أبي الزوائد، من مخضرمي الدولتين. يذكر له ابن النديم (الفهرست / طهران ص 188) ديواناً في خمسين ورقة. يتميز شعره بتعدد الأغراض والإنفراس في مشاغل الذات: من إشادة بالمرأة كائناتاً غزلياً أسمى (الميمية والنونية) إلى هجاء لها هازل هو مصبٌ لكل قبيحة مرذولة (اللامية)، ومن فخر ينهل من مخزون التراث (الرائية) إلى بث الشجن تشوقاً إلى المنبت الأول وقد ضاق به المقام في بغداد (الذالية). من الشعراء المغمورين الذين استقل كتاب الأغاني بذكرهم وإيراد بعض أشعارهم. (انظر فؤاد سزقن: تاريخ... ج 2 ص 449).

6 - لو قد رحلتُ الحمار منكشفاً لم أرها بعدها ولم ترني

فقال له أبو محمد الجمحي: إن الشعراء يذكرون في شعرهم أنهم رحلوا الإبل والنجائب، وأنت تذكر أنك رحلتَ حماراً. فقال: ما قلت إلا حقاً، والله ما كان لي شيء أرحله غيره.

[...] وكانت عنده امرأة أنصارية، فطال لبثها عنده حتى ملأها وأبغضها، فقال يهجوها⁽¹⁾:

[الكامل]

- 1 - يا رملُ أنت الغول بين رمالٍ لم تظفري بتقى ولا بجمالٍ
- 2 - يا رمل لو حَدَّثْتُ أَنَّكَ سلفُ شوهاء كالسَّعلاة بين سَعالي
- 3 - ما جاء يطلبك الرسول بخطبةٍ مِنِّي ولا ضُمَّتْ عليك جبالي
- 4 - ولقد نهى عنكَ النصيح وقال لي: لا تقرننْ بذِيَّةٍ بعيالي
- 5 - لَمَّا هزرتُ مهنَّدي وقذفته فيها وقد أرهفته بصقال
- 6 - رجع المهنَّد ما له من حيلةٍ وهناك تصعبُ حيلة المحتال
- 7 - وكأَنَّمَا أولجته في قُلَّةٍ قد بُردت للصوم أو بوقال
- 8 - ورأيتُ وجهاً كاسفاً متغيراً وحرّاً أشقَّ كمركن الغَسال
- 9 - ما كان أيرُ الفيل بالغِ قعره بتحاملٍ عنه ولا إدخال
- 10 - ولقد طعنت مبالها بسلاحها فوجدت أخبثَ مسلح ومبال

[الكامل]

قال: وقال لها وقد فخرت:

(1) قارن بأخوات لهذه القصيدة ممَّا أوردناه في هذا العمل وحللناه:

الأولى لخلف الأحمر (الجزء 1 ص 50 - 59) والثانية للبهدي (الجزء 1 ص 159 - 256) والثالثة لعمار ذي كنان (الجزء 3 / انظر الفهرس) والقصيدة الرابعة لإسماعيل بن عمار (الجزء 3 / انظر الفهرس).
انظر كذلك: «المرأة في شعر المقلِّين: وجهها الثاني من خلال أربع قصائد نواردة» (الجزء الثاني انظر الفهرس).

- 1 - هَلَّا سَأَلْتَ مَنَازِلًا بِغَرَارٍ
- 2 - أَيْنَ انْتَأَوْنَا وَنَحَاهُمْ صَرَفَ النُّوَى
- 3 - كَرِهَ الْمَقَامَ وَظَنَّ بِي وَبِأَهْلِهَا
- 4 - عُذِّي رَجَالُكَ وَاسْمِعِي يَا هَذِهِ
- 5 - سَأَعِدُّ سَادَاتٍ لَنَا وَمَكَارِمًا
- 6 - قَيْسٌ وَخِنْدَفٌ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا
- 7 - مَن مِّثْلُ فَارَسِنَا دَرِيدٍ فَارِسًا
- 8 - وَبَنُو زِيَادٍ مَّن لِقَوْمِكَ مِثْلَهُمْ
- 9 - وَالْحَيُّ مَن سَعِدَ ذُوَابَةُ قَوْمِهِمْ
- 10 - وَالْمَانِعُونَ مِنَ الْعَدُوِّ ذِمَّارَهُمْ
- 11 - وَالنَّاكِحُونَ بَنَاتَ كُلِّ مَتَوِّجٍ
- 12 - وَبَنُو سُلَيْمٍ نُكُلٌ مَّنْ عَادَاهُمْ
- 13 - لَيْسُوا بِأَنْكَاسٍ إِذَا حَاسَتْهُمْ الْمَوْتُ الْعِدَاءَ وَصَتَمُوا الْمَغَارَ

[...] وكان ابن أبي الزوائد وفد إلى بغداد في أيام المهدي، فاستوخمها، فقال يتشوق إلى المدينة ويخاطب أبا غسان محمد بن يحيى وكان معه نازلاً.

[الخفيف]

- 1 - يَا بَنَ يَحْيَى مَاذَا بَدَا لَكَ مَاذَا
- 2 - فَالْبِرَاغِيثُ قَدْ تَشَوَّرَ مِنْهَا
- 3 - فَنَحْكُ الْجُلُودَ طَوْرًا فَتَدْمَى
- 4 - فَسَقَى اللَّهَ طَبِيبَةَ الْوَبْلِ سَحًا
- 5 - بَلَدُهُ لَا تَرَى بِهَا الْعَيْنَ يَوْمًا
- أَمْقَامُ أُمِّ قَدْ عَزَمْتَ الْخِيَاذَا
- سَامِرٌ مَا نَلُودُ مِنْهَا مَلَاذَا
- وَنَحْكُ الصَّدُورَ وَالْأَفْخَاذَا
- وَسَقَى الْكَرْخَ وَالصَّرَاةَ الرِّذَاذَا
- شَارِبًا لِلنَّبِيذِ أَوْ نَبَاذَا

- 6 - أو فتى ماجناً يرى اللهو والبا
7 - هذه الذال فاسمعوها وهاتوا
8 - قالها شاعرٌ لو أنَّ القوافي

وقال يتغزل

- 1 - يا هندُ يا هندُ نُولِي رجلاً
- 2 - أو تُدركي نفسه فقد هلكت
- 3 - كالشمس في شرقها إذا سمرت
- 4 - ما صوّر الله حين صوّرها
- 5 - كلّ بلاد الإله جئتُ فما
- 6 - أنثى من العالمين تُشبهها
- 7 - فتانةُ المُقلتين مُخطفةُ الأ
- 8 - إذا تعاطتُ شيئاً لتأخذه
- 9 - يا طيبَ فيها وطيبَ قبلتها
- 10 - إنّ من اللذة التي بقيت
- 11 - لا تهجر الخود إن تُغال بها
- 12 - آتني مُعدّاً لها الكلام فما
- 13 - أحبّ والله أن أزوركُم
- 14 - هذا الجمال الذي سمعت به
- 15 - من أبصرت عينه لها شبيهاً

طل مجدداً أو صاحباً لوإذا
شاعراً قال في الروي على ذا
كن صخراً أطارهن جذاذا

[المنسرح]

وكيف تنويلٌ من سفكتِ دمه
أو ترحميه فمثلكم رحمه
عنها ومثل المهاة مُلثمة
في سائر الناس مثلها نسمة
أبصرتُ شبيهاً لها - وقد علمه -
عابسةً هكذا ومُبْتَسِمه
حشاء منها البنان كالعنمه
قلت غزالٌ يعطو إلى برمه
والقرب منها في الليلة الشبمه
غشيانك الخود من بني سلمه
بعد سلو، وقبل ذاك فمه
أنطق من هيبة ولا كلمه
وحدي كذا أو أزوركُم بلّمه
سبحان ذي الكبرياء والعظمه
حلّ عليه العذاب والنقمه

كتاب الأغاني / دار الكتب
(ج 14 ص 115 - 124)

[مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا من مدونة
المغمورين والأغفال: النيسابوري⁽¹⁾ نموذجاً]

أو

في تداخل الأخبار والأشعار

قال اسحق بن إبراهيم الأتلي: رأيت غورك المجنون يوماً خارجاً من
الحمام والصبيان يؤذونه، فقلت: ما خبرك يا أبا محمد؟ قال: قد آذاني هؤلاء
الصبيان، أما يكفيني ما أنا فيه من العشق والجنون؟ قلت: ما أظنك مجنوناً،
قال: بلى والله وببي عشق شديد، قلت: هل قلت في حبك وجنونك شيئاً؟
قال: نعم وأنشد:

[الطويل]

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو فهذا له حد وهذا له حدٌ
هما استوطنا قلبي وجسمي كلاهما فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلدٌ
وقد سكنا تحت الحشا وتحالفا على مهجة ان لا يفارقها الجهدُ
فأي طيب يستطيع بحيلة يعالج من دائين ما منهما بدٌ
قال محمد بن الزراد: قلت لغورك: ما حيرك؟ قال: جنون وعشق قد
بليت بهما: والذي بليت به من هؤلاء الصبيان أشد. وقال:

[الوافر]

جنون ليس يضبطه الحديدُ وحبٌ لا يزول ولا يبيدُ

(1) انظر كذلك:

- البغدادى (الخطيب): البخلاء والتطفيل.
- التنوخي (القاضي): الفرج بعد الشدة، ونشوار المحاضرة.
- السراج: مصارع العشاق. (أوردنا له نصوصاً في نفس السياق: انظر ج 6: الفهرس.
- ابن الجوزي: مجموعة كتبه في أخبار الحمقى والمغفلين، والظراف والمتماجنين، والأذكياء.

فجسمي بين ذاك وذا نحيل وقلبي بين ذاك وذا عميدُ
وقال أيضاً: رأيته يوماً وهو آخذ بيد المتهم به، فقال له المحبوب:
- رجاء الخلاص منه - كيف أصبحت؟ قال:

[الكامل]

أصبحت منك على شفا جرف متعرضاً لموارد التلفِ
وأراك نحوي غير ملتفت متحرفاً عن غير منحرفِ
يا من أطال بهجره أسفي أسفي عليك أشدُّ من تلفي
قال: وقلت لغورك يوماً: أخبرني بأحسن ما قلت في الحب؟ قال:

[الطويل]

كتمت جنوني وهو في القلب كامن فلما استوى والحبُّ أغلبه الحبُّ
وقلبي والجسم الصحيح مذييه فلما أذاب الجسم ذاب له القلبُ
فجسمي نحيل للجنون وللهوى فهذا له نهب وهذا له نهبُ
قال جعفر بن إسماعيل: أتى غورك بطبيب يعالجه، فقال الطبيب: لو
تركتني لعالجتك وأصلحتك، فأنشأ غورك يقول:

[الكامل]

إعلم وأيقن: أيها المتكلم ما بي أجل من الجنون وأعظمُ
أنا عاشق فإن استطعت لعاشق براءً أمنت به فأنت محكمُ
حسبي عذابي في الهوى حسبي به إذ من أهيم به يصدّ ويصرمُ
هيهات! أنت بغير دائي عالم وسواك بالداء الذي به أعلمُ
دائي رسيس قد تضمنه الهوى تحت الجوانح ناره تتضرمُ
وله أيضاً:

[الطويل]

هلموا انظروا ما أورث الحب أهله احذركم شر الهوى وعواقبه

وأغرى بنفسي الشوق والهـم والاسى فأرقتني بالليل أرعى كواكبه
النيسابوري
(عقلاء المجانين، ص 133 - 134)

— 62 —

[مجاميع الأدب واحتفاظها بشظايا من
مدونة المغمورين والأغفال: المرزباني نموذجاً]
أو
[في تداخل الأخبار والأشعار]

دخل العباس بن الأحنف على الرشيد وعنده الأصمعيّ، فقال: أنشدنا من
مُلاحك⁽¹⁾ الغريبة! فأنشده:

[الهج]

إذا ما شئت أن تصنعَ	شيئاً يُعجِبُ الناسا
فصوّز ههنا فوّزاً	وصوّز ثمَّ عبّاسا
ودغ بينهم ما شبراً	وإن زدت فلا باسا
فإن لم يدنّوا حتّى	تَرى رأسيهما راسا
فكذبها وكذبهُ	بما قاست وما قاسى

فلما خرج قال الأصمعيّ: مسترقّ من العرب والعجم! فقال لي: ما كان
من العرب؟ فقلتُ: رجلٌ يقال له عمر هويّ جاريةً يقال لها قمر، فقال:

[الهج]

إذا ما شئت أن تصنعَ	شيئاً يُعجِبُ البشرا
---------------------	----------------------

(1) مثل هذه الملح كثيراً ما يتخلل كتب الطبقات: انظر: طبقات الشافعية للسبكي،
عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، رياض النفوس للمالكي.

فَصَوِّزْ هَهْنَا قَمَرَاً وَصَوِّزْ هَهْنَا عُمَرَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوْا حَتَّى تَرَى بَشْرِيهِمَا بَشْرَا
فَكَذَّبْهَا بِمَا ذَكَرْتُ وَكَذَّبْهُ بِمَا ذَكَرَا

قال: فما كان من العجم؟ قلت: رجلٌ يقال له فُلُقْ هَوِيَّ جارية يقال لها رُوق، فقال:

[الهنج]

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَصْنَعَ شَيْئاً يُعْجِبُ الْخَلْقَا
فَصَوِّزْ هَهْنَا رَوْقَاً وَصَوِّزْ هَهْنَا فُلُقَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوْا حَتَّى تَرَى خَلْقِيَهُمَا خَلْقَا
فَكَذَّبْهَا بِمَا لَاقَتْ وَكَذَّبْهُ بِمَا يَلْقَى

قال: فبينما نحن كذلك إذ دخل الحاجب، فقال: عَبَّاسُ بالباب! فقال: ايدنْ له! فدخل، فقال: يا عَبَّاسُ، تَسْرِقُ معاني الشَّعر وتَدَّعِيه. فقال: ما سبقني إليه أحدٌ. فقال: هذا الأصمعيّ يَحْكِيهِ عن العرب والعجم، ثم قال: يا غلام، ادفعِ الجائزةَ إلى الأصمعيّ! فلمَّا خرجنا قال العباس: كَذَّبْتَنِي وأَبْطَلْتَ جَائِزَتِي! فقلتُ: أتذكرُ يومَ كذا؟ ثم أنشأتُ أقول:

[البسيط]

إِذَا وَتَرْتُ أَمْرَاءَ فَأَخَذَزْ عِدَاوَتَهُ مَنْ يَزِرْعُ الشَّوْكَ لَا يَحْصُذُ بِهِ عِنْبًا⁽¹⁾

المرزباني

نور القبس المختصر من المقتبس

(ص 166 - 167)

(1) ترد هذه الملاحظة ضمن أخبار الأصمعي.

المحور الخامس

نقد الشعر والشعراء
ومسالكه لدى القدماء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[في «أشعر الناس» و «أحسن بيت...»]

أو

[في الأحكام النقدية الانطباعية]

قال عبد الملك لجريز: من أشعرُ الناس؟ فقال: ابن العشرين⁽¹⁾، قال: فما رأيك في ابني⁽²⁾ أبي سُلمى؟ قال: كان شعرهما نيراً يا أمير المؤمنين. قال: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: اتخذ الخبيثُ الشعرَ نعلين، وأقسمُ بالله لو أدركته لرفعتُ ذلّاذله. قال: فما تقول في ذي الرّمة؟ قال: قدَرَ من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد. قال: فما تقول في الأخطل؟ قال: ما أخرج لسانُ ابن النّصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات. قال: فما تقول في الفرزدق؟ قال: في يده والله نَبْعَةٌ من الشعر قد قبض عليها. قال: فما أراك أبقيتَ لنفسك شيئاً، قال: بلى والله يا أمير المؤمنين، إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود، نَسَبْتُ فَأَطْرَبْتُ، وَهَجَوْتُ فَأَزْدَيْتُ، ومدحتُ فَأَسْنَيْتُ، وأرملتُ فأغزرتُ، وزجرتُ فأبحرتُ، فأنا قلتُ ضروبَ الشعرِ كلها، وكلُّ واحدٍ قال نوعاً منها. قال: صدقت!

الأغاني / كتب ج 8 ص 53

(1) طرفة.

(2) زهير وكعب.

[في طبقات الشعراء المحدثين]

أو

[بين بشار ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد⁽¹⁾]

ذاكرني قوم من أهل الأدب بأشعار المحدثين وطبقاتهم وانتهوا إلى مروان بن يحيى بن أبي حفصة؛ فأفرط بعضهم في وصفه وتقريضه، وآخرون في ذمه وتهجينه والإزراء على شعره وطريقته؛ واستخبروا عما أعتقده فيه، فقلت لهم: كان مَرَوَانُ متساويَ الكلام، متشابهَ الألفاظ، غير متصرفٍ في المعاني ولا غواصٍ عليها ولا مدقق لها؛ فلذلك قلتُ النظائر في شعره، ومدائحه مكررة الألفاظ والمعاني، وهو غزير الشعر قليلُ المعنى؛ إلا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحِذْق، وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته، وأشعر شعراء أهله؛ ويجب أن يكون دونَ مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتدقيق المعاني، وحسن الألفاظ، ووقوع التشبيهات، ودون بشار بن برد في الأبيات النادرة السائرة، فكأنه طبقةٌ بينهما؛ وليس بمقصرٍ دونهما شديداً، ولا منحط عنهما بعيداً.

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصليّ يقدّمه على بشار ومسلم، وكذلك أبو عمرو الشيبانيّ وكان الأصمعيّ يقول: مروان مولّد، وليس له علم باللغة. واختلافُ الناس في اختيار الشعر بحسب اختلافهم في التنبيه على معانيه؛ وبحسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقه.

فستلت عند ذلك أن أذكر مُختارَ ما وقع إليّ من شعره وأنبه على سرقاته ونظائر شعره، وأن أمليّ ذلك في خلال المجالس وأثنائها.

الشريف المرتضى

(الأمالي، ج 1 ص 518 - 519)

(1) انظر نماذج من شعر هؤلاء بالجزء الأول ص 234، 238 والجزء السادس: الفهرس.

[«إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله»]

أو

[الشاعر الناقد]

وذكر الحسن بن عبد الله⁽¹⁾ أنه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس⁽²⁾ قال: حضرت مع البحري مجلس عبيد الله بن عبد الله طاهر⁽³⁾: وقد سأل البحري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر، فقال البحري: أبو نواس أشعر. فقال عبيد الله: إن أبا العباس ثعلباً لا يطابقك على قولك ويفضل مسلماً، فقال البحري: ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته. فقال عبيد الله: وريت بك زنادي يا أبا عبادة، وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال: جرير أشعرهما، فقليل له بماذا؟ فقال: لأن جريراً يشتد إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق، لأنه يشتد أبداً، فقليل له: فإن يونس⁽⁴⁾ وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير، فقال: ليس هذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله.

الباقلاني

(عجّاز القرآن، ص 174)

(1) هو أبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين.

(2) علي بن العباس ابن الرّومي.

(3) من أعلام الدولة الطاهرية (توفي 300)، له ديوان شعر في مائة ورقة (انظر «أدب الطاهريين» للمنجي الكعبي ص 227 - 266 حيث ترد له ثمانون قصيدة ومقطعة - انظر

كذلك فؤاد سزغن: تاريخ... ج 2 ص 612).

(4) هو يونس بن حبيب من كبار أعلام اللغة في القرن الثاني.

[من جوامع الكلم في نقد الشعر وزَوَاتِهِ]

- أ -

قال ابن الأعرابي:

أَمَّا أشعارُ هؤلاء المُحدِّثين - مثل أبي نواس وغيره - بمنزلةِ الرِّيحانِ يُشَمُّ يوماً ويَذوي فيُرى على المَزْبَلَةِ، وأشعار القدماء مثل المِسْك والعَبِير كلما حرَّكته ازدادَ طَيِّباً.

المرزباني

(نور القبس... ص 302 - 303)

- ب -

كان أبو نواس يتعلَّم من أبي عبيدة ويصفه ويشنُّ الأُصمعيَّ ويهجوه، فقلَّ له: ما تقول في الأُصمعيَّ؟ قال: بُلْبُلٌ في قفصٍ. قيل: فما تقول في خلف الأحمر؟ قال: جمع عِلَمِ الناس وفهمه. قيل: فما تقول في أبي عبيدة؟ قال: ذاك أديمٌ طُوِيَ على عِلَم.

المرزباني

(نور القبس... ص 109)

- ج -

قال يونس بن حبيب:

إنَّما سُمِّيَ الشاعر شاعراً لأنَّه يشعر من تأليف الكلام ونظمه ما لا يشعر له غيره.

المرزباني

(نور القبس... ص 49)

[من جوامع الكلم في نقد الشعر: الهمداني نموذجاً]

المقامة القريضية: من حوار يدور في مجلس عيسى بن هشام حيث يتذاكر القوم القريض:

[...] فَقُلْنَا⁽¹⁾ مَا تَقُولُ فِي أَمْرِى الْقَيْسِ. قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالْذِّبَارِ وَعَرَصَاتِهَا. وَاعْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا. وَوَصَفَ الْخَيْلَ بِصِفَاتِهَا. وَلَمْ يَقُلِ الشُّعْرَ كَاسِبًا. وَلَمْ يُجِدِ الْقَوْلَ رَاغِبًا. فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ لِلْحِيلَةِ لِسَانُهُ. وَأَنْتَجَعَ لِلرَّغْبَةِ بَنَانُهُ. قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي النَّابِغَةِ قَالَ يَثْلُبُ إِذَا حَنَقَ. وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ. وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهَبَ. وَلَا يَزِمِي إِلَّا صَانِبًا. قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي زُهَيْرٍ. قَالَ: يُدِيبُ الشُّعْرَ وَالشُّعْرُ يُذِيبُهُ. وَيَدْعُو الْقَوْلَ وَالسَّحَرُ يُجِيئُهُ قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي طَرْفَةٍ. قَالَ: هُوَ مَاءُ الْأَشْعَارِ وَطِينَتُهَا. وَكَثْرُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا. مَاتَ وَلَمْ تَظْهَرِ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ. وَلَمْ تَفْتَحْ أَغْلَاقُ خَزَائِنِهِ. قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ وَآيُهُمَا أَسْبَقُ. فَقَالَ: جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْرًا. وَأَغَزَرُ غَزْرًا. وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْرًا. وَأَكْثَرُ فَخْرًا. وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْوًا. وَأَشْرَفُ يَوْمًا. وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْمًا. وَأَكْرَمُ قَوْمًا. وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى. وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى. وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى. وَالْفَرَزْدَقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى. وَإِذَا اخْتَقَرَ أَرْزَى. وَإِذَا وَصَفَ أَوْفَى. قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي الْمُحَدِّثِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ. قَالَ: الْمُتَقَدِّمُونَ أَشْرَفُ لَفْظًا. وَأَكْثَرُ مِنَ الْمَعَانِي حَظًا. وَالْمُتَأَخِّرُونَ أَلْطَفُ صُنْعًا وَأَرَقُّ نَسْجًا. ...

مقامات الهمداني

(ط. محمد عبده)

(1) الحوار يدور بين الحاضرين وأبي الفتح الإسكندري المتنكر.

[من جوامع الكلم في نقد الشعر: ابن شرف نموذجاً]

[...] وأما العبسي⁽¹⁾ فَمُجِيدٌ في أشعاره. ولا كَمَعَلَقَتِهِ. فقد انفرد بها
انفراد سُهَيْل. وغَبِرَ في وجوه الخيل. وَجَمَعَ فيها بين الحلاوة والجزالة، ورقة
الغزل وغِلَظَةُ البسالة. وأطال واستطال، وأمن السامة والكلال.

* * *

وأما الأخطل: فسَعَدَ من سُعودِ بني مروان، صَفَتْ لهم مرآة فكره، وظَفروا
بالبدیع من شعره، وكان باقعة من هاجاه، وصاعقة من حاجاه.

* * *

وأما ابن الخطفي⁽²⁾: فزهد في غزل، وحجّر في جدل، يسبح أولاً في ماء
عذب، ويطيح آخرًا في صخر صلب. كَلَبُ مُنَابَحَةٍ، وكَبَشُ مُنَاطِحَةٍ، لا تفل
غرب لسانه مُطَاوِلَةَ الكفاح، ولا تُدْمِي هامته مُدَاوِمَةُ النطاح، جارِي السوابق
بمطية، وفاخر غالباً بعطية، وبلغته بلاغته إلى المساواة، وحملته جرأته على
المجاراة. والناس فيهما فريقان، وبينهما عند قوم فرقان.

* * *

أما القيسان وطبقتهما: فطَبَقَةُ عَشَقَةٍ تَوْقَةٍ، استحوذت الصبابة على
أفكارهم، واستفرغت دواعي الحب معاني أشعارهم، فكلّهم مشغول بهواه، لا
يتعداه إلى سواه.

* * *

وأما كُثَيِّر: فحَسَنُ النسيبِ فصيحُه، لطيفُ العتابِ مليحُه، شجيُّ
الاغترابِ قريحُه، جامعٌ إلى ذلك رقائق الظرفاء، وجزالة مدح الخلفاء.

* * *

(1) يعني عنترة بن شداد.

(2) يعني جريراً.

وَأَمَّا الْكُمَيْتُ وَالرَّمَّاحُ، وَنَصِيبُ وَالطَّرْمَاحُ، فَشُعْرَاءُ مُعَاَصِرَةٍ، وَمُنَاقِضَاتٍ
وَمُفَاخِرَةٍ، فَنُصِيبُ أَمَدَحُ الْقَوْمِ، وَالطَّرْمَاحُ أَهْجَاهُمْ، وَالرَّمَّاحُ أَنْسِبُهُمْ نَسِيبًا،
وَالْكُمَيْتُ أَشْبَهُهُمْ تَشْبِيهًا.

* * *

وَأَمَّا بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ: فَأَوَّلُ الْمُحَدِّثِينَ؛ وَآخِرُ الْمُخَضَّرَمِينَ؛ وَمَمَّنْ لِحَقِ
الدَّوْلَتَيْنِ، عَاشِقُ سَمْعٍ، وَشَاعِرُ جَمْعٍ، شَعْرُهُ يَنْفُقُ عِنْدَ رِيَّاتِ الْحِجَالِ، وَعِنْدَ
فَحُولِ الرِّجَالِ، فَهُوَ يَلِينُ حَتَّى يَسْتَعْطِفَ، وَيَقْوَى حَتَّى يَسْتَنْكِفَ، وَقَدْ طَالَ
عَمْرُهُ، وَكَثُرَ شَعْرُهُ، وَطَمَا بِحَرِّهِ، وَثَقَبَ فِي الْبِلَادِ ذِكْرُهُ.

* * *

وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ فَمَعْتَزِلُ بِهِوَاهُ، وَبِمَعْزِلِ عَمَّا سِوَاهُ. رَفَعَ نَفْسَهُ عَنِ
الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ، وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ هَوَاهُ مِنَ النَّسَاءِ. قَدْ رَقَّقَ الشَّغْفُ كَلَامَهُ،
وَتَقَفَّتْ قُوَّةُ الطَّبْعِ نِظَامَهُ، فَلَهُ رِقَّةُ الْعِشَاقِ، وَحَوْكُ الْحُدَّاقِ.

* * *

وَأَمَّا الطَّائِيُّ حَبِيبٌ: فَمُتَكَلِّفٌ إِلَّا أَنَّهُ يُصِيبُ، وَمُتَعَبٌّ لَكِنْ لَهُ مِنَ الرَّاحَةِ
نَصِيبٌ. وَشُغْلُهُ الْمُطَابَقَةُ وَالتَّجْنِيسُ، جَيِّدٌ ذَلِكَ أَوْ يَبِيسُ، جَزُلُ الْمَعَانِي،
مَرْصُوصُ الْمَبَانِي، مَذْحُهِ وَرِثَاؤُهُ، لَا غَزْلُهُ وَهَجَاؤُهُ، طَرَفًا نَقِيزُ، وَخُطْنَا سَمَاءِ
وَحَضِيضِ. وَفِي شِعْرِهِ عِلْمٌ جَمِّ مِنَ النَّسَبِ، وَجُمْلَةٌ وَافِرَةٌ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ.
وَطَارَتْ لَهُ أَمْثَالُ، وَحُفِظَتْ لَهُ أَقْوَالُ، وَدِيَوَانُهُ مَقْرُوءٌ، وَشِعْرُهُ مَثْلُوءٌ.

* * *

وَأَمَّا ابْنُ الرُّومِيِّ: فَشَجَرَةُ الْإِخْتِرَاعِ، وَثَمَرَةُ الْإِبْتِدَاعِ. وَلَهُ فِي الْهَجَاءِ، مَا
لَيْسَ لَهُ فِي الْإِطْرَاءِ، فَتَحَّ فِيهِ أَبْوَابًا، وَوَصَلَ فِيهِ أَسْبَابًا، وَخَلَعَ مِنْهُ أَثْوَابًا، وَطَوَّقَ
فِيهِ رِقَابًا، تَبَقَى أَعْمَارًا وَأَحْقَابًا، يَطُولُ عَلَيْهَا حِسَابُهُ، وَيُمَحِّقُ بِهَا ثَوَابُهُ. وَلَقَدْ

كَانَ وَاسِعَ الْعَطَنِ، لَطِيفَ الْفِطَنِ، إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ ضَعْفُ الْمَرِيرَةِ وَقُوَّةُ
الْمَرَّةِ.

* * *

وَأَمَّا الْبُحْتَرِيُّ: فَلَفَّظَهُ مَاءً ثَجَّاجٌ، وَدُرَّ رَجْرَاجٌ، وَمَعْنَاهُ سِرَاجٌ وَهَاجٌ عَلَى
أَهْدَى مِنْهَاجٍ. يَنْسَبُ شَعْرُهُ، إِلَى مَا يَجِيشُ بِهِ صَدْرُهُ، يُسَرُّ مُرَادٌ، وَلَيْنَ قِيَادٍ. إِنْ
شَرِبْتَهُ أُرَاوَكٌ، وَإِنْ قَذَخْتَهُ أُرَاكٌ. طَبَعٌ لَا تَكْلَفُ يَغْنِيهِ، وَلَا الْعِنَادُ يَنْتْنِيهِ، لَا يُمَلُّ
كَثِيرُهُ، وَلَا يُسْتَكْفُ غَزِيرُهُ، لَمْ يَهْفُ أَيَّامَ الْحُلُمِ، وَلَمْ يَصِفْ زَمَنَ الْهَرَمِ.

* * *

وَأَمَّا الْمُتَنَبِّيُّ: فَقَدْ شَغِلَتْ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَسَهَرَتْ فِي أَشْعَارِهِ الْأَعْيُنُ، وَكَثُرَ
النَّاسُخُ لِشِعْرِهِ، وَالْأَخِذُ لِذِكْرِهِ، وَالْغَائِصُ فِي بَحْرِهِ، وَالْمُقَشِّشُ فِي قَفَرِهِ، عَنْ
جُمَانِهِ وَدُرِّهِ. وَقَدْ طَالَ فِيهِ الْخُلْفُ، وَكَثُرَ عَنْهُ الْكُشْفُ، وَلَهُ شِيعَةٌ تَغْلُو فِي
مَذْحِهِ، وَعَلَيْهِ خَوَارِجُ تَتَعَايَا فِي جَرْحِهِ: وَالَّذِي أَقُولُ إِنَّ لَهُ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ،
وَحَسَنَاتُهُ أَكْثَرُ عِدْدًا. وَأَقْوَى مَدْدًا. وَغَرَائِبُهُ طَائِرَةٌ، وَأَمْثَالُهُ سَائِرَةٌ، وَعِلْمُهُ
فَسِيحٌ، وَمِيزُهُ صَحِيحٌ، يَرُومُ فَيَقْدِرُ، وَيَكْدِرُ مَا يُورِدُ وَيُصْدِرُ.

* * *

وَأَمَّا الْقَسْطَلِيُّ: فَشَاعَرٌ مَاهِرٌ عَالِمٌ بِمَا يَقُولُ، تَشْهَدُ لَهُ الْعُقُولُ، بِأَنَّهُ
الْمُؤَخَّرُ بِالْعَصْرِ، الْمُتَقَدِّمُ فِي الشَّعْرِ. حَازِقٌ بِوَضْعِ الْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ، لَا سِيَّمَا
إِذَا ذَكَرَ مَا أَصَابَهُ فِي الْفِتْنَةِ، وَشَكََا مَا دَهِاهُ فِي أَيَّامِ الْمَحَنَةِ: وَبِالْجَمَلَةِ فَهُوَ أَشْعَرُ
أَهْلِ مَغْرِبِهِ، فِي أَبْعَدِ الزَّمَانِ وَأَقْرَبِهِ.

ابن بسام

(الذخيرة في معاسن أهل الجزيرة)

(القسم الرابع المجلد الأول، ص 196 - 211)

[نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير
الشعراء له عبر كتب الموازنة والوساطة والسرقات :
الأمدي نموذجاً]

ووجدتُ - أطال الله عمركَ - أكثرَ مَنْ شاهدتهُ ورأيتُهُ من رُواة الأشعار
المتأخرين يزعمون أن شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي لا يتعلّق بجيده جيّد
أمثاله، وردّيه مطروحٌ ومرذول؛ فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه، وأن شعر الوليد بن
عبيد البحرّي صحيحُ السّبك، حَسَنُ الدِّيابة، وليس فيه سَفَسافٌ ولا رَدِيّ ولا
مَطروح، ولهذا صار مُستَوياً يُشبه بعضُهُ بعضاً. ووجدتهم فاضلوا بينهما لغزارة
شعريهما وكثرة جيديهما وبدائعهما، ولم يتفقوا على أيهما أشعر، كما لم يتفقوا
على أحدٍ ممن وقع التفضيلُ بينهم من شعراء الجاهلية والإسلام والمتأخرين،
وذلك كمن فَضّل البحرّي، ونسبه إلى حلاوة اللَّفْظ، وحسن التخلص، ووضع
الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقُرْب المآتي، وانكشاف المعاني، وهُمُ
الكُتّاب والأعرابُ والشعراء المطبوعون وأهلُ البلاغة، ومثل من فَضّل أبا تمام،
ونسبه إلى غُمُوض المعاني ودِقَّتْها، وكثرة ما يورد، مما يحتاج إلى استنباط
وشرح واستخراج، وهؤلاء أهلُ المعاني والشعراء أصحابُ الصَّنعة ومَنْ يميل
إلى التدقيق وفلسفيّ الكلام. وإن كان كثير من الناس قد جعلهما طبقةً، وذهب
إلى المساواة بينهما. وإنهما لمختلفان؛ لأن البحرّي أعرابيُّ الشعر، مطبوعٌ،
وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عُمود الشعر المعروف، وكان يتجنّب التعقيدَ
ومُسْتَكْرَةَ الألفاظ ووَخْشِيّ الكلام؛ فهو بأن يُقاس بأشجع السُّلَمي ومنصور
وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى، ولأن أبا تمام شديدُ
التكلف، صاحبُ صنعة، ومُسْتَكْرَةُ الألفاظ والمعاني، وشِعْرُهُ لا يشبه أشعار
الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني
المولدة، فهو بأن يكون في حَيَرِ مسلم بن الوليد ومَنْ حَدَا حَذْوَهُ أَحَقُّ وأشبه، وعلى
أنّي لا أجد مَنْ أَقرنه به؛ لأنه يَنحط عن درجة مسلم؛ لسلامة شعر مسلم وحُسْنِ
سبكه وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر مَنْ ذهب هذا المذهب وسلك هذا

الأسلوب؛ لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته.

ولست أحبُّ أن أطلق القولَ بأيهما أشعر عندي؛ لتباين الناس في العلم، واختلاف مذاهبهم في الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدفَ لدم أحد الفريقين؛ لأن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشعر في امرئ القيس والنابعة وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في بشَّار ومَرْوَّان [والسَّيِّد]، ولا في أبي نُؤاس وأبي العتاهية ومُسلم؛ لاختلاف آراء الناس في الشعر، وتباين مذاهبهم فيه.

فإن كنت - أدام الله سلامتك - ممن يُفْضَلُ سَهْلُ الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السَّبك وحسن العبارة وحُلُو اللفظ وكثرة الماء والروْنق فالبحتريُّ أشعر عندك ضرورةً. وإن كنت تميل إلى الصُّنعة، والمعاني الغامضة التي تُستخرج بالغوص والفكرة، ولا تُلَوِّي على غير ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة.

فأما أنا فلست أَفْصِحُ بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكني أوازنُ بين قصيدتين من شعرهما إذا اتَّفَقَتَا في الوزنِ والقافيةِ وإعرابِ القافية، وبين مَعْنَى ومَعْنَى، فأقول: أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى، ثم أَحْكُمُ أنت حيثنَّذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أَحْطَتِ علماً بالجيد والردىء.

الآمدي

(الموازنة بين أبي تمام والبحتري ص 10 - 12)

- 70 -

[نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير

الشعراء له عبر كتب الموازنة والوساطة والسرقات:

القاضي الجرجاني نموذجاً]

[...] وما زلتُ أرى أهل الأدب - منذ ألحَقْتَنِي الرغبةُ بجملتهم، ووصلتِ العنايةُ بيني وبينهم - في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي فثنين: من مُطَنب في تقيظه، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلبه، يلتقي

مناقِبُه إذا ذُكِرَتْ بالتعظيم، ويُشيع محاسنه إذا حُكِيت بالتفخيم، ويُعجَب ويعيد ويكرر، ويميل على من عابه بالزَّرايَة والتقصير، ويتناول من يَنْقُصُه بالاستحقار والتجهيل؛ فإن عَثَرَ على بيت مختل النظام، أو نَبِهَ على لفظ ناقص عن التمام التزم من نُصْرَةِ خطئه، وتحسين زَلَلَه ما يُزيله عن موقف المُعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر. وعائب يروم إزالته عن رُتْبَتِه، فلم يسَلِّم له فضله، ويحاول حَطَّه عن منزلة بَوَاهِ إياها أدبُه؛ فهو يجتهدُ في إخفاء فضائله، وإظهار مَعاييه، وتتبع سقطاته، وإذاعة غَفلاته.

وكلا الفريقين إما ظالمٌ له أو للأدب فيه؛ وكما أن الانتصارَ جانبٌ من العَدْل لا يسدّه الاعتذار؛ فكذلك الاعتذار جانبٌ هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرّق بينهما وقفت به المَلَامَةُ بين تفریط المقصّر، وإسراف المفرط؛ وقد جعل الله لكل شيء قَدْرًا، وأقام بين كل حديث فضلاً؛ وليس يطالبُ البَشَر بما ليس في طبع البشر، ولا يُلتَمَس عند الآدمي إلا ما كان في طبيعة وَلَدِ آدَمَ؛ وإذا كانت الخلقة مبنيةً على السهو وممزوجة بالنسيان؛ فاستسقاط من عَزَّ حاله حيف، والتحامُلُ على من وُجَّه إليه ظلم.

وللفضل آثارٌ ظاهرة، وللتقدم شواهدٌ صادقة، فمتى وُجِدَتْ تلك الآثار، وشُوهِدَتْ هذه الشواهد فصاحبُها فاضلٌ متقدم؛ فإن عَثَرَ له من بعدُ على زَلَّة، ووحدت له بعقب الإحسان هَفْوَةٌ انتحلَّ له عذرٌ صادق، أو رُخْصَةٌ سائِغة؛ فإن أعوز قيل: زَلَّةٌ عالم، وقُلٌّ من خلا منها، وأيُّ الرجال المهذب! ولولا هذه الحكومة لبطل التفضيل، ولزال الجَرَح ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً، ولم نَسِم به إذا أردنا حقيقة أحداً، وأيُّ عالم سمعت به ولم يزل ويغلط! أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يَهْفُ ولم يسقط!...

ودونك هذه الدواوينَ الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجدُ فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القَدْح فيه؛ إمَّا في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه؟ ولولا أن أهلَ الجاهلية جُدُّوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القُدوة، والأعلام والحجة، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة

مُستردلة، ومردودة منفية، لكنّ هذا الظنّ الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم، ونفى الظّنة عنهم، فذهبت الخواطر في الذّبّ عنهم كلّ مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام...».

القاضي الجرجاني

(الوساطة بين المتنبي وخصومه ص 3 - 5)

— 71 —

[أدب الشروح ومنحى الموازنة]

أو

[في تعقب المعنى الواحد في الأشعار المختلفة]

[الطويل]

قال أبو معاذ [بشار بن برد]:

- 1- إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ
 - 2- وَأَرَعْنَ يَغْشَى الشَّمْسَ لَوْنُ حديدِهِ
 - 3- تَغْصُّ بِهِ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ إِذَا غَدَا
 - 4- رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بِكُلِّ مُتَغَفِّفٍ
 - 5- كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا
- مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِيَهُ
وَتَخَبَسُ أَبْصَارَ الْكُمَاةِ كَتَائِيَهُ
تُزَاحِمُ أَرْكَانَ الْجِبَالِ مَنَاجِيَهُ
وَأَيُّضَ تَسْتَسْقِي الدِّمَاءَ مَضَارِيَهُ
وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ⁽¹⁾

قوله كأن مثار النقع نحوه قول مسلم:

في جَحْفَلٍ تُشْرِقُ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ بِهِ كَاللَّيْلِ أَنْجُمُهُ الْقُضْبَانُ وَالْأَسْلُ
وأخذه منصور النمرئي⁽²⁾ فقال:

(1) أوردنا القصيدة كاملةً بالقسم الأول، الجزء الأول ص 233 - 238.

(2) منصور النمرئي وكلثوم العتابي وابن جبلة العكوك وابن أبي فتن، من الشعراء المحدثين الذين غطى عليهم أمثال مسلم بن الوليد وابن المعتز والمتنبي المذكورين في النص (انظر عرضنا النقدي لمجاميع أشعارهم بالجزء السادس من هذا العمل).

لَيْلٌ مِنَ النِّقْعِ لَا شَمْسَ وَلَا قَمَرَ
 وَأَخَذَهُ الْعَتَّابِيُّ⁽¹⁾ فَقَالَ :
 يَبْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ هَامِهِمْ
 وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :
 نَسَجَتْ حَوَافِرُهَا سَمَاءً فَوْقَهَا
 وَقَالَ فِيهِ الْبُحْتَرِيُّ :
 مَدَّ لَيْلًا عَلَى الْكُمَاةِ فَمَا يَمُ
 وَنَحْوَهُ مِنْهُ قَوْلُ الْعَكَّوكِ⁽²⁾ :
 فَرَجَّتْ سُدُفَتُهَا بِوَجْهِكَ مُعْلِمًا
 وَجَعَلَتْ عَالِيَةَ الرِّمَاحِ ذُبَالَهَا
 وَقَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَزِ :
 وَعَمَّ السَّمَاءُ النِّقْعُ حَتَّى كَانَهُ
 وَنَحْوَهُ قَوْلُ الْآخَرِ :
 كَأَنَّ سَمُوَ النِّقْعِ وَالْبَيْضُ تَحْتَهُ
 وَأَخَذَهُ الْمُتَنَبِّيُّ فَقَالَ :
 يَزُورُ الْأَعَادِي فِي سَمَاءِ عَجَاجَةٍ
 وَكَرَّرَهُ الْمُتَنَبِّيُّ فَقَالَ أَيْضًا :
 وَعَجَاجَةٌ تَرَكَّ الْحَدِيدُ سَوَادَهَا
 فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النَّهَارُ بِهَا دُجَى
 وَأَخَذَهُ ابْنُ أَبِي فَنَنْ⁽³⁾ فَقَالَ :

(1) انظر ص 213 : الحاشية (2).

(2) انظر ص 213 : الحاشية (2).

(3) انظر ص 213 : الحاشية (2).

ترى للنقع فوقهم سماءً كواكبها الأسنة والنُصولُ
وبيت أبي معاذ أفضل وأحسن وأصنع وأرصن، وهو من محاسن شعره،
وأفراد أبياته.

التجبي

(شرح المختار من شعر بشار، ص 1 - 3)

- 72 -

[نحو النقد التحليلي واستقطاب مشاهير الشعراء

له عبر كتب البلاغة:

ابن الأثير نموذجاً]

[...] لقد وقفت، من الشعر، على كل ديوانٍ ومجموع؛ وأنفدت شطراً
من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فالفيتة بحراً لا يوقفت على ساحله.
وكيف ينتهي إحصاء قولٍ لم تُحصَ أسماءُ قائله؟ فعند ذلك اقتصرتُ منه على ما
تكثرُ فوائده وتشعبُ مقاصده ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم، في اتباع من
قصرَ نظره على الشعر القديم؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إبداعُ المعنى الشريفِ
في اللفظِ الجزلِ اللطيف؛ فمتى وجدت ذلك فكلُّ مكانٍ خيمنتَ فهو بابل. وقد
اكتفيتُ من هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس، وأبي عبادة الوليد [البحري]،
وأبي الطيب المتنبى؛ وهؤلاء الثلاثة هم: لاث الشعرِ وعزاهُ ومناته الذين
ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته. وقد حوت أشعارهم غرابةً المحدثين،
وفصاحةً القدماء؛ وجمعت بين الأمثالِ السائرة وحكمة الحكماء. أما أبو تمام
فإنه ربُّ معانٍ، وصيقلُ البابِ وأذهانٍ، قد شهد له بكلِّ معنى مبتكرٍ، لم يمش
فيه على أثرٍ، فهو غيرُ مدافعٍ عن مقامِ الإغراب، الذي برز فيه على الأضراب.
ولقد مارسْتُ من الشعر كلَّ أوَّلٍ وأخيرٍ، ولم أقل ما أقوله إلا بتقيرٍ؛ فمن حفظ
شعرَ الرجلِ، وكشفَ عن غامضه، وراضَ فكره برائضه، أطاعته أعنته الكلام...

[...] وَأَمَّا أَبُو عُبَادَةَ الْبُحْتَرِيُّ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ فِي سَبْكِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى،
وَأَرَادَ أَنْ يَشْعُرَ فَعَنَى، وَلَقَدْ حَازَ طَرَفِي الرِّقَّةَ وَالْجَزَالَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَبَيْنَا يَكُونُ
فِي شَطَفِ نَجْدٍ، حَتَّى يَتَشَبَّثَ بِرَيْفِ الْعِرَاقِ. وَسُئِلَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئُ عَنْهُ
وَعَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَعَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: أَنَا وَأَبُو تَمَّامٍ حَكِيمَانِ، وَالشَّاعِرُ الْبُحْتَرِيُّ.
وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَنْصَفَ فِي حُكْمِهِ، وَأَعَرَبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا عَنْ مَتَانَةٍ عِلْمِهِ. فَإِنَّ
أَبَا عُبَادَةَ أَتَى فِي شِعْرِهِ بِالْمَعْنَى الْمَقْدُودِ مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ، فِي اللَّفْظِ الْمَصْوَغِ
مِنْ سَلَاسَةِ الْمَاءِ؛ فَأَدْرَكَ بِذَلِكَ بَعْدَ الْمَرَامِ، مَعَ قُرْبِهِ إِلَى الْأَفْهَامِ؛ وَمَا أَقُولُ إِلَّا
أَنَّهُ أَتَى، فِي مَعَانِيهِ، بِأَخْلَاطِ الْغَالِيَةِ وَرَقِي فِي دِيبَاجَةِ لَفْظِهِ إِلَى الدَّرَجَةِ الْعَالِيَةِ.
وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئُ فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَبِي تَمَّامٍ، فَقَصُرَتْ عَنْهُ
خُطَاهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ الشَّعْرُ مِنْ قِيَادِهِ مَا أَعْطَاهُ. وَلَكِنَّهُ حَظِيَ فِي شِعْرِهِ بِالْحِكْمِ
وَالْأَمْثَالِ؛ وَاخْتَصَّ بِالْإِبْدَاعِ فِي وَصْفِ مَوَاقِفِ الْقِتَالِ. وَأَنَا أَقُولُ قَوْلًا لَسْتُ فِيهِ
مُتَأَثِّمًا، وَلَا مِنْهُ مُتَلَكِّمًا، وَذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا خَاضَ فِي وَصْفِ مَعْرَكَةٍ كَانَ لِسَانُهُ أَمْضَى
مِنْ نِصَالِهَا، وَأَشْجَعَ مِنْ أَبْطَالِهَا، وَقَامَتْ أَقْوَالُهُ لِلْسَّامِعِ مَقَامَ أَفْعَالِهَا؛ حَتَّى نَظُنُّ
الْفَرِيقَيْنِ قَدْ تَقَابَلَا، وَالسَّلَاحَيْنِ قَدْ تَوَاصَلَا. وَطَرِيقُهُ فِي ذَلِكَ تَضَلُّ بِسَالِكِهِ،
وَتَقْوُمُ بَعْدَرِ تَارِكِهِ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ الْحُرُوبَ مَعَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، فَيَصِفُ
لِسَانُهُ، مَا أَذَاهُ إِلَيْهِ عِيَانُهُ. وَمَعَ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ عَادِلِينَ فِيهِ عَنِ السَّنَنِ
الْمُتَوَسِّطِ: فَإِمَّا مُفَرِّطٌ فِي وَصْفِهِ وَإِمَّا مُفَرِّطٌ [...].

وَلِسَائِلٍ هُنَا أَنْ يَسْأَلَ وَيَقُولَ: لِمَ عَدَلْتُ إِلَى شِعْرِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ دُونَ
غَيْرِهِمْ؟ فَأَقُولُ: إِنِّي لَمْ أَعْدِلْ إِلَيْهِمْ اتِّفَاقًا، وَإِنَّمَا عَدَلْتُ نَظْرًا وَاجْتِهَادًا؛ وَذَلِكَ
أَنِّي وَقَفْتُ عَلَى أَشْعَارِ الشُّعْرَاءِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دِيْوَانُ لِشَاعِرٍ مُفْلِقٍ
يَبْنِي شِعْرَهُ عَلَى الْمَحَكِّ، إِلَّا وَعَرَضْتُهُ عَلَى نَظْرِي، فَلَمْ أَجِدْ أَجْمَعَ مِنْ دِيْوَانِ
أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ لِلْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ، وَلَا أَكْثَرَ اسْتِخْرَاجًا مِنْهُمَا لِلطَّيْفِ

الأغراض والمقاصد؛ ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عبادة، ولا أنفس ديباجة، ولا أبهج سبكاً.

ابن الأثير

(المثل السائر في صناعة الكاتب والشاعر)

— 73 —

[الشعر وقضية الإعجاز]

أو

[الباقلائي ينقد معلقة امرئ القيس⁽¹⁾]

[...] وأنت لا تشك في جودة شعر «امرئ القيس» ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها، من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى ما يصل بذلك: من البديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والملح الذي تجد في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه: من صناعة وطبع، وسلاسة وعفو، ومتانة ورقة، وأسباب تُحمد، وأمور تُؤثر وتمدح. وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً، ويضمون أشعارهم إلى شعره، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة، وأمور بديعة، وربما فضّلوه عليه، أو سَوّوا بينهم وبينه، أو قرّبوا موضع تقدمه عليهم، وبرّزوه بين أيديهم.

ولما اختاروا قصيدته في «السبعيات». أضافوا إليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها، ثم تراهم يقولون: لفلان لامية مثلها، ثم ترى أنفس الشعراء تشوّق إلى معارضته، وتساويه في طريقته، وربما غبّرت في وجهه في أشياء كثيرة، وتقدمت عليه في أسباب عجبية.

(1) سنقتصر على مقتطفات من القصيدة مع الملاحظة أن نقد الباقلائي يستغرق 25 صفحة من كتابه «إعجاز القرآن».

وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره، كان أمراً محصوراً، وشيئاً معروفاً أن تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، وتنظر إلى المُحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن، منهم من جمع رَصانة الكلام إلى سلاسته، ومتانته إلى عُذوبته، والإصابة في معناه إلى تحسين بهجته؛ حتى إن منهم إن قَصُر عنه في بعض، تقدَّم عليه في بعض، وإن وقف دونه في حال، سبقه في أحوال، وإن تشبَّه به في أمر، ساواه في أمور لأن الجنس الذي يَرْمُونُ إِلَيْهِ، والغرض الذي يَتَوَارَدُونَ عليه، هو مما للآدمي فيه مَجَالٌ، وللْبَشَرِيّ فيه مِثَالٌ؛ فكلُّ يضرب فيه بسهم، ويفوز فيه بِقُدْح، ثم قد تفاوتت السهام تفاوتاً، وتباينت تبايناً، وقد تتقارب تقارباً، على حسب مشاركتهم في الصنائع، ومساهمتهم في الحِرَف.

«ونظمُ القرآن» جنسٌ مُتَمَيِّزٌ، وأسلوب مُتَخَصِّصٌ، وقَبِيلٌ عن النظم مُتَخَلِّصٌ؛ فإذا شئتَ أن تعرفَ عِظَمَ شأنِهِ، فتأمل ما نقولُه في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره، وما نبينُ لك من عَوَارِهِ، على التفصيل. وذلك قوله:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلٍ
فَتَوَضَّحَ فَاَلْمِقْرَاءَ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

فالذين يتعصبون له ويدَّعون محاسن الشعر، يقولون: هذا من البديع؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجَّع واستوجع، كله في بيت؛ ونحو ذلك.

وإنما بيَّنا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن - إن كانت - ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة، إن وُجِدَتْ.

تأمل - أرشدك الله، وانظر - هداك الله: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سَبَقَ في ميدانه شاعراً، ولا تقدَّم به صانعاً. وفي لفظه ومعناه خلل:

فأولُ ذلك: أنه استوقف مَنْ يَبْكِي لذكر الحبيب، وذكره لا تقتضي بكاء الخَلِيّ، وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يَبْكِي لبكائه ويرقُّ

لصديقه في شدة بُرَحَائِهِ؛ فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه، فأمرٌ محال.

فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضاً عاشقاً، صحَّ الكلام من وجه، وفسد المعنى من وجه آخر! لأنَّه من السُّخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التَّغَازُلِ عليه، والتَّوَاجُدِ معه فيه!

/ ثم في البيتين ما لا يفيد، من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن: من «الدَّخول» و«حومل» و«توضيح» و«المِقرأة» و«سِقط اللّوى»، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا. وهذا التطويل إذا لم يُقدَّح كان ضَرْباً من العِي!

ثم إن قوله: «لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا»، ذكر الأَصْمَعِيُّ من محاسنه: أنَّه باق فنحن نحزن على مشاهدته، فَلَوْ عَفَا لاسترحنا.

وهذا بأن يكون من مَسَاويه أولى؛ لأنه إن كان صادق الوُدِّ، فلا يزيده عَفَاءُ الرُّسُومِ إلا جِدَّةَ عَهْدٍ، وشِدَّةَ وَجْدٍ. وإنما فَرَعَ الأَصْمَعِيُّ إلى إفادته هذه الفائدة، خشية أن يُعَاب عليه، فيقال: أيُّ فائدة لأن يُعرِّفنا أنَّه لم يَغْفُ رَسْمُ منازل حبيبه؟ وأي معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر؛ ولكن لم يخلصه - بانتصاره له - من الخلل.

ثم في هذه الكلمة خلل آخر، لأنه عَقَبَ البيت بأن قال:

فهل عند رسم دارس من مُعَوَّل!

فذكر أبو عُبيدة: أنه رجع فأكذَّب نفسه [...].

وقال غيره: أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كلُّه، وبالثاني أنه ذهب بعضُه، حتى لا يَتَنَاقَضَ الكلامان.

وليس في هذا انتصار؛ لأن معنى «عفا» و«دَرَسَ» واحد، فإذا قال: «لم يَغْفُ رَسْمُهَا» ثم قال: «قد عَفَا»، فهو تناقضٌ لا محالة! [...].

وقوله: «لِمَا نَسَجَتْهَا»، كان ينبغي أن يقول: «لِمَا نَسَجَهَا» ولكنه تعسَّف

فجعل «ما» في تأويل تأنيث، لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد قادت إلى هذا التعسف.

وقوله: «لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا» كان الأولى أن يقول: «لَمْ يَغْفُ رَسْمُهُ»؛ لأنه ذَكَرَ المنزل؛ فإن كان ردُّ ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها، فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه، بِعَفَائِهِ، أو بَأَنَّهُ لم يَغْفُ دون ما جاوره.

وإن أراد بالمنزل الدارَ حتى أُنْث، فذلك أيضاً خلل. ولو سَلِمَ من هذا كله ومما نكَّره ذكره كراهية التطويل - لم نَشْكُ في أن شعر أهل زماننا لا يَقْصُر عن البيتين؛ بل يزيد عليهما ويُفْضِلُهُمَا.

ثم قال:

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهَمْ يقولون: لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَحَمَّلِ
وإن شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ

وليس في البيتين أيضاً معنى بديع، ولا لفظ حسن كالأولين. والبيت الأول منهما متعلق بقوله: «قفا نبك» فكأنه قال: قفا وقوف صحبي بها عليَّ مطيَّهم، أو: قفا حالَّ وقوف صحبي. وقوله «بها»: متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ. ففي ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام. والبيت الثاني مُخْتَلَّ من جهة أنه قد جعل الدَمْعَ في اعتقاده شافياً كافياً، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى، وَتَحَمُّلَ وَمُعَوَّلَ عند الرُّسُومِ؟

ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يَدُلَّ على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن، ثم يسأل: هل عند الربع من حيلة أخرى؟

[...] وقد بيَّنَّا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة⁽¹⁾ والرِّداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكُّن والاستصعاب والتسهُّل والاسترسال، والتوَحُّش والاستكراه. وله

(1) من الأبيات التي تتميز بالجودة في نظر الباقلاني: وصف امرئ القيس لليل والفرس.

شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها. ولا سواءُ كلامٌ يُنَحْتُ من الصخر تارةً، ويذُوب تارةً، ويتلوّن تلوّن الحِرْبَاءِ، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرّفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه. وبين قول يُجرى في سبكه على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حدّ، وفي صفائه على باب، وفي بهجته ورونقه على طريق، مُختلفه مُؤتلف، ومُؤتلفه مُتّحد، ومُتّباعده مُتقارب، وشارده مُطيع، ومُطيعه شارد. وهو على مُتصرّفاتِه واحد، لا يُستصعبُ في حال، ولا يتعقّد في شأن.

* * *

وكنا أردنا أن نتصرّف في قصائد مشهورة، فتكلّم عليها، وندلّ على معانيها ومحاسنها، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها، ونبسّط لك القول في هذا الجنس، ونفتح عليك في هذا النّهج.

ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعيابه، ووزنه بميزانه ومعياره، ولك كُتُبٌ وإن لم تكن مُستوفاة، وتصانيفٌ وإن لم تكن مستقصاة.

وهذا القدرُ يكفي في كتابنا، ولم نُحبّ أن ننسخ لك ما سطره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني، وما عابوه عليه في أشعاره، وتكلموا به على ديوانه. لأنّ ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا، ومُجانبٌ لمقصوده.

وإنما أردنا أن نبين الجملة التي بيّناها. لتعرف أن طريقة الشعر شريعةٌ موزودةٌ، ومترلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم.

وأنت تجدُ للمتقدم معنى قد طمسه المتأخّر بما أبرّ عليه فيه، وتجدُ للمتأخّر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد معنى قد توافدا عليه، وتوافياً إليه، فهما فيه شريكا عنان، وكأنهما فيه رضيعا لبان، والله يُؤتي فضله من يشاء.

* * *

فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته،
وتحار في بحره، وتضلُّ دون وصفه.

الباقلاني

(إعجاز القرآن، ص 158 - 183)

— 74 —

[الباقلاني ينظر في شعر المحدثين:

البحري نموذجاً]

[...] ونحن نعمد إلى بعض قصائد «البُحْرِيّ» فتتكلّم عليها، كما
تكلّمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرةً، ويستخلص من
سرّ المعرفة سريرةً، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة.
ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره.

سمعت الصّاحب إسماعيل بن عبّاد يقول: سمعت أبا الفضل بن العميد
يقول: سمعت أبا مسلم الرُّسْتُمي يقول: سمعت البحري يذكر أن أجود شعر
قاله:

أهلاً بـذلكم الخيال المقبل

قال: وسئلتُ عن ذلك؟ فقلت: البحري أعرف بشعر نفسه من غيره.
فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا:

قوله:

أَهْلًا بِذَلِكَمُ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ فَعَلَ الَّذِي نَهَوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلِ
بَرْقُ سَرَى فِي بَطْنٍ وَجَرَّةٌ فَاهْتَدَتْ بِسَنَاهُ أَغْنَاكَ الرُّكَّابِ الضُّلَّلِ

البيت الأول، في قوله: «ذلكم الخيال»، ثقل روح، وتطويل وحشو،
وغيره أصلح له. وأخفّ منه قول الصنوبري:

أَهْلًا بِذَاكَ الزَّوْرِ مِنْ زَوْرِ شَمْسٌ بَدَتْ فِي فَلَكِ الدَّوْرِ

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير إلى الكَزَازَةِ، وتعود ملاحظته بذلك مُلوحة، وفصاحته عِيّاً، وبراعته تكلفاً، وسلاسته تعسفاً، وملاسته تلويحاً وتعقداً. فهذا فصل.

وفيه شيء آخر، وهو: أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله، فأما أن يحكى الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عُهْدَةٌ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عُقْدَةٌ [...].

ثم قوله: «فَعَلَ الذي نَهَوَاهُ أو لم يفعل» ليست بكلمة رشيقة، ولا لفظة ظريفة، وإن كانت كسائر الكلام.

فأما بيته الثاني، فهو عظيم الموقع في البهجة، وبديع المأخذ، حسن الرِّوَاء أنيقُ المنظر والمسمع، يملأ القلب والفهم، ويفرح خاطر، وتسرى بِشَاشَتُهُ في العروق.

وكان البُخْتَرِيُّ يسمي نحو هذه الأبيات: «عُرُوقُ الذهب» وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة، وحذقه في البلاغة.

ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل، مع الديباجة الحسنة، والروثق المليح.

وذلك: أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه في مسراه، كما يقال: إنه يسري كنسيم الصَّبَا، فيطيب ما مرَّ به، كذلك يضيء ما مرَّ حوله، وينور ما مرَّ به. وهذا غلو في الصنعة، إلا أن ذكره «بطن وجرة» حشو، وفي ذكره خلل؛ لأن النور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمان منها، بخلاف ما يؤثر في غيرها، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وَجَرَةٍ.

وتحديده المكان - على الحشو - أحمَدُ من تحديد امرئ القيس من ذكر «سقط اللوى بين الدخول فحومل، فتوضح فالمقراة» لم يقنع بذكر حدّ، حتى حدّه بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى - إن أخلّ بحدّ - أن يكون يبعه فاسداً أو شرطه باطلاً!! فهذا باب.

ثم إنما يُذكر الخيال بخفاء الأثر، ودقة المطلب، ولطف المسلك، وهذا الذي ذكر يضادُّ هذا الوجه، ويخالف ما وضع عليه أصل الباب.

ولا يجوز أن يقدَّر مقدَّر أن البحرّي قطع الكلام الأوّل، وابتدأ بذكر برق لَمَعَ من ناحية حبيبه من جهة بطن وَجَرَةٍ؛ لأن هذا القطع إن كان فعَلَهُ كان خارجاً به عن النظم المحمود، ولم يكن مبدعاً، ثم كان لا تكون فيه فائدة؛ لأن كل برق شَعَلَ وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام، وكان لا يكون بما نظمه مفيداً ولا متقدماً. وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود، ومعنى مُسْتَجْلِب غير مقصود، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات، وتعليق القول بالإشارات.

وهذا من الشعر الحسن، الذي يحلو لفظه، وتقل فوائده، كقول القائل:

[الطويل]

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشَدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا وَلَا يَنْظُرُ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
/ أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

هذه ألفاظ بديعة المطالع والمقاطع، حلوة المَجَانِي والمواقع، قليلة المعاني والفوائد⁽¹⁾.

فأما قول البحرّي بعد ذلك:

مِنْ عَادَةٍ مُنَعْتُ وَتَمَنَعُ نَيْلَهَا فَلَوْ أَنَّهَا بُذِلَتْ لَنَا لَمْ تَبْذُلْ
كَالْبَذْرِ غَيْرَ مُخَيَّلٍ، وَالْغُصْنِ غَيْرِ رَمِيمِلٍ، وَالْدَّغْصِ غَيْرِ مُهَيَّلٍ

فالبيت الأول - على ما تكلف فيه من المُطَابَقَةِ، وَتَجَسُّمِ الصَّنْعَةِ - ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد/ وضع العبارات في مثله! ولو قال: هي ممنوعة مانعة، كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام

(1) الباقلائي يقتضي هنا أثر ابن قتيبة في نقده لهذه الأبيات (انظر النص رقم 32). انظر كذلك نص عبد القاهر الجرجاني (رقم 34) حيث نقف على رأي مخالف.

وتهويله . ثم هو معنى متداول مكرّر على كل لسان .

وأما البيت الثاني، فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدغص، أمرٌ منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك .

وإنما يبقى تشبيهه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضاً قريب؛ لأن المعنى مكرر .

ويبقى له بعد ذلك شيء آخر، وهو تعمّله للتّرصيع في البيت كله، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضرب من التكلف؛ لأن التشبيه بالغصن كاف، فإذا زاد فقال: كالغصن غير مُعَوّج، كان ذلك من باب التكلف خللاً، وكان ذلك زيادةً يُستغنى عنها .

وكذلك قوله: «كالدغص غير مُهَيَّل»؛ لأنه إذا انهال خرجَ عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفاً إليه، فلا يكون لتقييده معنى .

وأما قوله:

ما الحُسْنُ عندك يا سَعَادُ بِمُحْسِنٍ فيما أتاهُ ولا الجَمالُ بِمُجْمِلٍ
عُذْلُ المَسْوَئِ وَإِنَّ مِنْ سِيما الهوى في حيث يَجْهَلُهُ لَجَاجُ العُذْلِ
قوله في البيت الأول: «عندك»، حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كلفة .

والمعنى الذي قصده، أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء .

وفيه شيء آخر؛ لأنه يذكر أن حسنها لم يُحْسِن في تهيج وجده وتهيم قلبه وضدّ هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

وبيت كشاجم أسلم من هذا، وأبعد من الخلل، وهو قوله:

بحياة حُسْنِكَ أَحْسِنِي، وبحق مَنْ جَعَلَ الجمالَ عَلَيْكَ وَفَقاً أَجْمَلِي

وأما البيت الثاني فإنّ قوله: «في حيث»، حشا بقوله في كلامه، ووقع ذلك مستنكراً وحشياً، نافراً عن طبعه، جافياً في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن! فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله .

ثم في المعنى شيء، لأن لَجَاجَ العُدْل لا يدل على هوى مجهول، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعدل عليه. فعلم أن المقصد استجلابُ العبارات دون المعاني.

ثم في المعنى شيء، لأن لَجَاجَ العُدْل لا يدل على هوى مجهول، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعدل عليه. فعلم أن المقصد استجلابُ العبارات دون المعاني.

ثم لو سلم من هذا الخلل لم يك في البيت معنى بديع، ولا شيء يفوت قول الشعراء في العُدْل؛ فإن ذلك جَمَلُهُم الذُّلُول، وقولهم المُكْرَّر المَقُول:

* * *

وأما قوله:

ماذا عليك مِنْ انتظارٍ مُتَيِّمٍ بَلْ مَا يَضُرُّكَ وَقَفَةٌ فِي مَنْزِلِ
إِنْ سِيلَ عَيٍّ عَنِ الْجَوَابِ فَلَمْ يُطَقْ رَجْعاً، فكيف يكون إن لم يُسأل؟!

لست أنكر حسن البيتين وظرفهما، ورشقتهما ولطفهما، وماءهما وبهجتهما، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع؛ لأنه لم يجز لمشافهة العاذل ذكراً، وإنما جرى ذكر العُدال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائمه.

ثم الذي ذكره من الانتظار - وإن كان مليحاً في اللفظ - فهو في المعنى متكلف؛ لأن الواقف في الدار لا ينظر أمراً، وإنما يقف تحسراً وتلذذاً وتحيراً.

والشطر الأخير من البيت واقع، والأول مُسْتَجَلَب؛ وفيه تعليق على أمر لم يَجِرْ له ذكر؛ لأن وضع البيت يقتضي تَقَدُّمَ عَدْلٍ على الوقوف، ولم يحصل ذلك مذكوراً في شعره من قبل.

وأما البيت الثاني، فإنه معلق بالأول، لا مستقل إلا به؛ وهم يعيرون وقوف البيت على غيره، ويرون أن البيت التام هو المحمود، والمصراع التام بنفسه - بحيث لا يقف على المصراع الآخر - أفضل وأتم وأحسن.

وقوله: «فكيف يكون إن لم يسأل»، مليح جداً، ولا تستمرُّ ملاحه ما قبله عليه، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه.

وفيه شيء آخر؛ لأنه لا يصح أن يكون السؤال سبباً لأن يعيناً عن الجواب، وظاهر القول يقتضيه.

* * *

فأما قوله:

لا تَكْلَفَنَّ لِي الدَّمُوعَ فَإِنَّ لِي دَمْعاً يُثْمُ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَفْضُلِ
ولقد سَكَنْتُ إِلَى الصَّدُودِ مِنَ النَّوَى وَالشَّرِي أَزِيَّ عِنْدَ أَكْلِ الحَنْظَلِ
وكذاكَ طَرْفَةً حِينَ أَوْجَسَ ضَرْبَةً فِي الرَّأْسِ هَانَ عَلَيْهِ فَضْدُ الْأَكْحَلِ⁽¹⁾

فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم، في طلب الإسعاد بالدموع، والإسعاف بالبكاء، ومُخَالَفٌ لِأَوَّلِ كلامه؛ لأنه يفيد مخاطبة العذل، وهذا يفيد مخاطبة الرفيق.

[...] ثم إن قوله: «عند أكل الحنظل»، ليس بحسن ولا واقع.

وأما البيت الثالث، فهو أجنبي من كلامه، غريب في طباعه، نافر من جملة شعره، وفيه كَرَاذَةٌ وَفَجَاجَةٌ، وإن كان المعنى صالحاً.

فأما قوله⁽²⁾:

وَأَغَرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحِجَّلٍ قَدْ رُخْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرِّ مُحِجَّلٍ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ

فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروجٌ حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام.

وعامةُ خروجه نحو هذا، وهو غير بارع في هذا الباب، وهذا مذموم

(1) إشارة إلى مقتل طرفه بن العبد.

(2) تقتصر على هذين البيتين في وصف الفرس.

معيب منه ؛ لأن من كان صناعته الشعر، وهو يأكل به، وتغافل عما يدفع إليه في كل قصيدة، واستهان بإحكامه وتجويده، مع تتبعه لأن يكون عامة ما به يُصدَّر أشعاره من النسب عشرة أبيات، وتتبعه للصنعة الكثيرة، وتركيب العبارات، وتنقيح الألفاظ وتزويرها - كان ذلك أدخل في عيبه، وأدل على تقصيره أو قصوره، وإنما يقع له الخروج الحسن في مواضع يسيرة. وأبو تمام أشدَّ تَبَعاً لتحسين الخروج منه.

وأما قوله: «وأغر في الزمن البهيم محجل»، فإن ذكر التَّخْجِيل في الممدوج قريب، وليس بالجيد، وقد يمكن أن يقال: إنه إذا قُرِنَ بالأغر حَسَنٌ، وجَرى مجراه، وانخرط في سلكه، وأهْوَى إلى مِضْمَارِهِ، ولم يُنْكَرْ لمكانه من جواره. فهذا عذر، والعدول عنه أحسن.

وإنما أراد أن يَرُدَّ الْعَجْزَ على الصَّدْر، ويأتي بوجه في التجنيس. وفيه شيء؛ لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطياً الأغر الأول ورائحاً عليه.

ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء، وأقاويل الناس. فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني، وردّه عجز البيت عليه، وظنّه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيئاً، حتى كررها، فهي كلمة فيها ثقل، ونحن نجدهم إذا أرادوا أن يصفوا بنحو هذا قالوا: «ما هو إلا صورة»، و «ما هو إلا تمثال»، و «ما هو إلا دُمية»، و «ما هو إلا ظبية»، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان.

وقد استدرك هو أيضاً على نفسه، فذكر أنه كصورة في هيكل، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل.

ولو أن هذه الكلمة كرّرها أصحابُ العزائم على الشياطين، لَرَأَوْهُمْ بها، وأفزعوهم بذكرها! وذلك من كلامهم، وشبيهة بصناعتهم.

ولو نسختُ لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم

وغير ذلك من الأمور، وتشبيه الحجول - لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها،
وأمر مليحة قد ذهبوا إليها، وليس ذلك موضع كلامنا، فتنبغ ذلك في
أشعارهم؛ تعلم ما وصفت لك.

واعلم أننا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس؛ لأنه ذكر عشرين بيتاً في
ذلك.

والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده، ولا يعدو ما تركناه أن
يكون حسناً مقولاً، وبديعاً منقولاً؛ أو يكون متوسطاً إلى حد لا يفوت طريقة
الشعراء.

ولو تتبعنا أقاويل الشعراء في وصف الخيل، علمت أنه وإن جمع
فأوعى، وحشّر فنادى، ففيهم من سبقه في ميدانه، ومنهم من ساواه في شأوه،
ومنهم من دأناه، فالقبيل واحد، والنسيج متشاكل. ولولا كراهة التطويل لنقلت
جملة من أشعارهم في ذلك، لتقف على ما قلت.

فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة.

قال:

[الكامل]

- 1- لمحمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل
- 2 - وسحابة لولا تتابع مزنها فينال راح المزن غير مبخل
- 3 - والجرود يعذله عليه حاتم سرفاً ولا جود لمن لم يعذل

البيت الأول منقطع عما قبله، على ما وصفناه به شعره: من قطعه
المعاني، وفضله بينها، وقلة تأتیه لتجويد الخروج والوصل، وذلك نقصان
في الصناعة، وتخلف في البراعة، وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها،
وأما إذا كان بناءً الغالب من كلامه على هذا، فلا عذر له.

وأما المعنى الذي ذكره، فليس بشيء مما سبق إليه، وهو شيء مشترك
فيه، وقد قالوا في نحوه: إن مجده سماء السماء، وقالوا في نحوه الكثير الذي
يصعب نقل جميعه [...].

والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب، وهو حديث مكرر، ليس ينفك مديح شاعر منه، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع، كما قد يقع لهم في نحو هذا، ولكنه لم يتصنع له، وأرسله إرسالاً. [...].

ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد. [...].

ولإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحري؛ لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من في عصره؛ ومنه من يدعي له الإعجاز غلوًا، ويزعم أنه يُناغي النجم في قوله غلوًا؛ والمُلحِدَةُ تَسْتَظْهُرُ بشعره، وتكثر بقوله، وترى كلامه من شبهاتهم، وعباراته مُضَافَةٌ إلى ما عندهم من تُرَاهَتِهِمْ. فَبَيْنَا قَدَرَ درجته وموضع رتبته، وحدّ كلامه.

البلاقلاني

(إعجاز القرآن، ص 219 - 245)

— 75 —

[في نقد النقد]

أو

[البلاقلاني يرّد على ناقيه]

فإن قال قائل: أجذك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، وبين اللطف والشكاسة، وبين التوحش والاستئناس، والتقارب والتباعد، ورأيت الكلام الأعدل أفضل، والنظام المستوثق أكمل، وأنت تجد البحري يسبق في هذا الميدان، ويفوت الغاية في هذا الشأن، وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى، ما يتحير فيه أهل اللفظ، ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر، ويروه لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره، وزبرجاً لا يتفق لسواه... فكيف يعرف فضل ما سواه عليه؟ [...].

نقول: أنت تعلم أنَّ من يقول بتقدُّم البحترى في الصنعة، به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي، أو تسوية ما بينهما، ما لا يطمع معه في تقديمه على امرئ القيس ومَنْ في طبقته... وكذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه، من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل، فأما أن يظنَّ ظانُّ أو يتوهَّم متوهَّم، أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن، ﴿فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾⁽¹⁾؛ وإنما هي خواطر، يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يُرمى إليه، ويصح التوافي عليه في الجملة، فهو قبيل متداول، وجنس متنازع، وشرعية مورودة، وطريقة مسلوكه.

ألا ترى إلى ما رُوي عن الحسين بن الضحاك، قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

[المنسرح]

وشاطري اللسان مختلف التكريه زان المجنون بالنسك
كأنه - نصب كأسه - قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

قال: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها: [الطويل]
أعاذل أعتبت الإمام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقياها: أجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عني عقاراً ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعاً مطنبا
إذا عبَّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالته، فقال: أتظن أنه يُروى لك معنى وأنا حي؟

فتأمل هذا الأخذ، وهذا الوضع، وهذا الإتيان، أما الخليع فقد رأى الإبداع في المعنى، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنَّه، لأن قوله «يكرع»

(1) سورة الحج، الآية 31.

ليس بصحيح وفيه ثقلٌ بيّنٌ وتفاوت، وفيه إحالة، لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم، وأما قول أبي نواس: «إذا عب فيها» فكلمة قد قصد فيها المتانة، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملح، وقوله «شارب القوم» فيه ضرب من التكلف، الذي لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله: «خلته يقبل في داج من الليل كوكباً» تشبيه بحالة واحدة من أحواله، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما يتناوله ليلاً، فليس بتشبيه مستوفى، على ما فيه من الوقوع والملاحاة.

وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبعد: [الكامل]

ومهفّف تمت محاسنه	حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكئوس إلى مراشفه	وتحن في يده إلى الحبس
أبصرته والكأس بين فم	منه وبين أنامل خمس
وكانها وكان شاربها	قمرٌ يقبّل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب، إلا أنه تمكن من إيراد في بيتين، وهما - مع سبقهما إلى المعنى - أتيا به في بيت واحد.

* * *

وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس والتعارض، والأطماع متعلقة بها، والهمم تسمو إليهما، وهي إلف طباعنا، وطوع مداركنا، ومجانس لكلامنا... وإعجاب قوم بنحو هذا وما يجري مجراه، وإيثار أقوام لشعر البحترى على أبي تمام وعبد الصمد⁽¹⁾ وابن الرومي، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه، وذهاب قوم عن المعرفة، ليس بأمر يضر بنا ولا سبب يعترض على أفهامنا.

الباقلاني

(إعجاز القرآن، ص 215 - 218)

(1) هو عبد الصمد بن المعذل: من شعراء المائة الثالثة (انظر بالجزء السادس الثبت النقدي لما نُشر من شعر المغمورين في العقود الأخيرة، رقم 20).

من النوادر

شاعر متماجن من متأدبي القرن السادس

يجاهر في ضرب من التحدي الصارخ بتحرّره من «سلطان»
الأعلام المشتهرين

[قال ياقوت⁽¹⁾: وَكُنْتُ قَدْ وَرَدْتُ إِلَى أَمَدٍ فِي شُهُورِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ
وَحَمْسِمِائَةٍ، فَرَأَيْتُ أَهْلَهَا مُطِيقِينَ عَلَى وَصْفِ هَذَا الشَّيْخِ⁽²⁾، فَقَصَدْتُ إِلَى
مَسْجِدِ الْخَضِرِ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ شَيْخًا كَبِيرًا قَصِيفَ الْجِسْمِ فِي حُجْرَةٍ مِنْ
الْمَسْجِدِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ جَامِدَانٌ مَمْلُوءٌ كُتُبًا مِنْ تَصَانِيفِهِ فَحَسَبْتُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قُلْتُ مِنْ بَغْدَادَ: فَهَشَّ بِي
وَأَقْبَلَ يُسَائِلُنِي عَنْهَا وَأَخْبِرُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا جِئْتُ لِأَقْتَبِسَ مِنْ عُلُومِ الْمَوْلَى
شَيْئًا، فَقَالَ لِي: وَأَيُّ عِلْمٍ تُحِبُّ؟ قُلْتُ لَهُ: أَحِبُّ عُلُومَ الْأَدَبِ. فَقَالَ: إِنَّ
تَصَانِيفِي فِي الْأَدَبِ كَثِيرَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوَائِلَ جَمَعُوا أَقْوَالَ غَيْرِهِمْ وَأَشْعَارَهُمْ
وَبَوَّبُوهَا، وَأَمَّا أَنَا فَكُلُّ مَا عِنْدِي مِنْ نَتَائِجِ أَفْكَارِي، وَكُنْتُ كُلَّمَا رَأَيْتُ النَّاسَ
مُجْمَعِينَ عَلَى اسْتِحْسَانِ كِتَابٍ فِي نَوْعٍ مِنَ الْأَدَابِ اسْتَعْمَلْتُ فِكْرِي وَأَنْشَأْتُ مِنْ
جَنْسِهِ مَا أُدْحِضُ بِهِ الْمُتَقَدِّمَ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا تَمَّامَ جَمَعَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ فِي
حِمَاسَتِهِ، وَأَمَّا أَنَا فَعَمِلْتُ حِمَاسَةً مِنْ أَشْعَارِي وَبَنَاتِ أَفْكَارِي، «ثُمَّ شَنَعَ أَبَا تَمَّامَ

(1) شهادة ياقوت هنا وإن وردت في شكل نادرة لها أكثر من دلالة فيما يتعلق «بسلطان»
المشاهير وتغطيتهم على من هم دونهم شهرة وإن لم يكونوا أحياناً دونهم إجادة.

(2) هو علي بن الحسن المعروف بشيخ الحلي، نحوي، لغوي، يقول الشعر الجيد حسب
شهادة المعاصرين، توفي 601. وكان حسب أخباره الواردة في أنباء الرواة للقفطي
(ص 543) «مهوراً ناقص الحركات، سقيء العقيدة».

وَشَتَمَهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ النَّاسَ مُجْمِعِينَ عَلَى تَفْضِيلِ أَبِي نُوَّاسٍ فِي وَصْفِ الْخَمْرِ، فَعَمِلْتُ كِتَابَ الْخَمَرِيَّاتِ مِنْ شِعْرِي، لَوْ عَاشَ أَبُو نُوَّاسٍ لَأَسْتَحْيَا أَنْ يَذْكُرَ شِعْرَ نَفْسِهِ لَوْ سَمِعَهَا، وَرَأَيْتُ النَّاسَ مُجْمِعِينَ عَلَى تَفْضِيلِ خُطْبِ ابْنِ نُبَاتَةَ فَصَنَعْتُ كِتَابَ الْخُطْبِ فَلَيْسَ لِلنَّاسِ الْيَوْمَ اشْتِغَالٌ إِلَّا بِخُطْبِي، وَجَعَلَ يُزْرِي عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ وَيَصِفُ وَيُجْهَلُ الْأَوَائِلَ وَيُخَاطِبُهُمْ بِالْكَلْبِ، فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ: فَأَنْشِدْنِي شَيْئاً مِمَّا قُلْتَ، فَابْتَدَأَ وَقَرَأَ عَلَيَّ خُطْبَةَ كِتَابِ الْخَمَرِيَّاتِ فَعَلِقَ بِخَاطِرِي مِنَ الْخُطْبَةِ قَوْلُهُ «وَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَكَمِيَّ قَدْ أَبْدَعَ وَلَمْ يَدْعُ لِأَحَدٍ فِي أَتْبَاعِهِ مَطْمَعاً، وَسَلَكَ فِي إِفْشَاءِ سِرِّ الْخَمْرَةِ مَا سَلَكَ، أَثَرْتُ أَنْ أَجْعَلَ لَهَا نَصِيباً مِنْ عِنَايَتِي مَعَ مَا أَتْنِي عَلَيْهِمُ اللَّهُ لَمْ أَلْمُمْ لَهَا بِلَثْمٍ نَغَرٍ إِنْهُمْ مُذْ رَضِعْتُ ثَدْيِي أُمٌّ» أَوْ كَمَا قَالَ. ثُمَّ أَنَشِدْنِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ:

[مجزور الكامل]

- | | |
|---|------------------------------------|
| 1 - أَمْزُجْ بِمَسْبُوكِ اللَّجِينِ | ذَهَباً حَكَنَهُ دُمُوعُ عَيْنِي |
| 2 - لَمَّا نَعَى نَاعِي الْفِرَا | قِي بَيْنَ مَنْ أَهْوَى وَيَبْنِي |
| 3 - كَانَتْ وَلَمْ يُقْدَرْ لَشْي | ءِ قَبْلَهَا إِيْجَابُ كَوْنِ |
| 4 - وَأَحَالَهَا التَّخْرِيمُ لَمْ | مَا شُبِّهَتْ بِدَمِ الْحُسَيْنِ |
| 5 - خَفَقَتْ لَنَا شَمْسَانِ مِنْ | لَأَلَا نَهَا فِي الْخَافِقَيْنِ |
| 6 - وَبَدَتْ لَنَا فِي كَأْسِهَا | مِنْ لَوْنِهَا فِي حُلَّتَيْنِ |
| 7 - فَاعْجَبَ هَذَاكَ اللَّهُ مِنْ | كَوْنِ اتِّفَاقِ الضَّرَّتَيْنِ |
| 8 - فِي لَيْلَةٍ بَدَأَ السُّرُ | رُ بِهَا يُطَالِبُ الْبَا بَدَيْنِ |
| 9 - وَمَضَى طَلِيقَ الرَّاحِ مَنْ | قَدْ كَانَ مَغْلُولَ الْيَدَيْنِ |
| 10 - ذِي زِينَةِ الْأَحْيَاءِ فِي الذِّ | سْ دُنْيَا وَزِينَةُ كُلِّ زَيْنِ |

فَاسْتَحْسَنْتُ ذَلِكَ، فَغَضِبَ وَقَالَ لِي: وَبِئْسَ مَا عِنْدَكَ غَيْرُ الْإِسْتِحْسَانِ؟ قُلْتُ لَهُ: فَمَا أَصْنَعُ يَا مَوْلَانَا، فَقَالَ لِي: تَصْنَعُ هَكَذَا؟ ثُمَّ قَامَ يَرْقُصُ وَيُصَفِّقُ إِلَيَّ

أَنْ تَعْبَ ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ: مَا أَصْنَعُ وَقَدْ ابْتُلِيتُ بِبَهَائِمَ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ الدُّرِّ
وَالْبَغْرِ، وَالْيَاقُوتِ وَالْحَجَرِ [...] قُلْتُ: فَمَا فِيهِمْ قَطُّ أَحَدٌ جَاءَ بِمَا يُرْضِيكَ؟
فَقَالَ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَنَبِّي فِي مَدِيحِهِ خَاصَّةً، وَأَبْنُ نُبَاتَةَ فِي خُطْبِهِ،
وَأَبْنُ الْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَقْصُرُوا. [...] ثُمَّ سَطَحَ فِي الْكَلَامِ
وَقَالَ:

لَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا خَالِقَانِ: فَأَحَدٌ فِي السَّمَاءِ وَأَحَدٌ فِي الْأَرْضِ، فَالَّذِي
فِي السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ أَنَا، ثُمَّ التَّمَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: هَذَا كَلَامٌ لَا
يَحْتَمِلُهُ الْعَامَّةُ لِكُونِهِمْ لَا يَفْهَمُونَهُ، أَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ إِلَّا خَلَقَ الْكَلَامُ
فَأَنَا أَخْلُقُهُ...

ياقوت الحموي

(معجم الأدباء، ج 17 ص 50 - 58)

المحور السادس

المجالس ودورها في الحفاظ
على جانب من مدونة المغمورين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في الآداب والمجالس

وقد قال الحسن به سهل: الآداب عشرة؛ فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عريية، وواحدة أزيّت عليهن؛ فأما الشهرجانية فضربُ العُود. ولعب الشطرنج، ولعب الصّوالج. وأما الأنوشروانية فالطّب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشُّعر، والنَّسب، وأيام الناس. وأما الواحدة التي أزيّت عليهن: فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقّاه الناسُ بينهم في المجالس.

وحضّر بشارُ بن بُرْدٍ مجلساً فقال: لا تجعلوا مَجْلِسَنَا غِناءَ كلّه، ولا شعراً كلّه، ولا سَمراً كلّه، ولكن انتهبوه انتهاباً.

من نقول إبراهيم الحصري

(في زهر الآداب، ج 1 ص 196 - 197)

[مجلس الخليفة الأمين]

أو

[بين الشراب والمذاكرة والنشيد والسماع]

حدثني أبو يعقوب إسحاق بن سيار قال: حدثني عامة أصحاب أبي نواس منهم عبد الله بن أحمد بن حرب المعروف بابي هِفَّان قالوا:

بُنِيَ للمخلوع مجلسٌ لم تر العرب والعجم مثله، قد صُوِّر فيه كلّ التصاوير، ودُهِبَ سَقْفُهُ وحيطانُهُ وأبوابُهُ، وعُلِّقَت على أبوابه ستورٌ معصفرة

مُذهبة، وفُرْش بمثل ذلك من الفَرَش، فَلَمَّا فُرِغَ من جميع أسبابه، وعَرَفَ ذلك، اختار له يوماً، وتقدّم بأن يُؤمّر التُّدماء والشعراء بالحضور غُدوة ذلك اليوم ليصطحبوا معه فيه، فلم يتخلف أحد، وكان فيمن حضر أبو نواس، فدخلوا فرأوا أَسْأَلَمَ يروا مثله قط ولم يسمعوا به، من إيوان مشرف فاتح فاسح، يسافر فيه البصر، وجعل كالبيضة بياضاً، ثم ذَهَبَ بالإبريز المخالفِ بينه باللأزورد ذي أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب، قد قُمِعَتْ رءوسها بالجوهر النفيس، وقد فرش بُفُرْشٍ كأنها صِنْعُ الدم، منقش بتساوير الذهب وتمائيل العُقيان ونُضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعّد وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمامات والترازين، فدعوا له وأثنوا عليه، وأخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده، ومنزلتهم منه، ثم أقبل عليهم فقال: إني أحببت أن أفرغ مُتعة هذا المجلس معكم، وأصطحب فيه بكم، وقد ترون حسنه، فلا تنغصوني ذلك بالتكلف، ولا تكدّروا سروري بالتحفّظ، ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبدّلوا، فما العيش إلّا في ذلك. فقالوا: يا أمير المؤمنين، بالطائر الميمون والكوكب السعديّ والجَدِّ الصاعد والأمر العالي والظفر والفوز، ووفقت يا أمير المؤمنين، وفقت ولم تزل موقفاً. ثمّ لما طَعِمُوا أُتِيَ بالشراب كأنه الزعفران، أصفى من وصال المعشوق، وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب، وقام سقاة كالبذور، بكنوس كالنجوم، فطافوا عليهم وعملت الستائر بمزاهرها فشربوا معه من صَدْر نهارهم إلى آخره، في مذاكرة كقطع الرياض، ونشيد كالدّر المفصل بالعقيان، وسماع يحيي النفوس ويزيد في الأعمار، فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار في صَوَانِيّ، فأمر فُتْرت عليهم فانتهبوها، والشراب بعدُ يدور عليهم بالكبير والصغير، من الصرف والممزوج، وليس يُمنع أحد منهم مما يريد ولا يُكره على ما ياباه، وكان جيّد الشراب، فصبروا معه إلى أن سكر فنام، ونام جميع من في المجلس عند ذلك إلّا أبا نواس فإنه ثبت مكانه فشرب وحده، فلما كان السحر دنا من محمد فقال: يا أمير المؤمنين. قال: لبيك يا خير الندامى. فقال أبو نواس: يا سيد العالمين أما ترى رقة هذا النسيم، وطيب هذه السّمال، وبزء هذا السحر، وصحة هذا الهواء المعتدل والجو الصافي، وبهيج

هذه الأنوار؟ فلما سمع محمد وصفه استوى جالساً وقال: يا أبا نواس، ما بي للشرب موضع، ولا للسهر مكان، وقد بَسَطْتُني بَمَشْور وصفك فنَشُطُّني بمنظومه للشرب. فأنشأ يقول:

نَبْهٌ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسَ يسقيك كأساً في الغَلَسِ
صِرْفاً كَانَ شُعَاعُهَا - في كَفِّ شاربها - قَبَسٌ [. . .]

ابن المعتز

(طبقات الشعراء، ص 209 - 210)

- 79 -

مَجَالِسُ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَعْتَمِدِ

وتدوين ما جرى فيها من مذكرات

قال المسعودي: وللمعتد مجالسات ومذكرات ومجالس قد دَوِّنت في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله وذم التفرد بشرب النبيذ، وما قيل في ذلك من المنشور والشعر، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وعفافه وأمن عبئه والتداعي إلى المناديات والمراسلات في ذلك، وعدد أنواع الشرب في الكثرة، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه وأصول الغناء ومبادئه في العرب وغيرها من الأمم، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء والتحيات كما قال العَطَوِيُّ⁽¹⁾ في ذلك:

[بسيط]

حَيِّ التَّحِيَّةِ أَصْحَابَ التَّحِيَّاتِ القائلين إذا لم تَنْقِهِم: هَاتِ
أما الغداة فسَكَرَى في نعيمهم وبالعشي فصرَعَى غير أمواتِ
وبين ذلك قصف لا يعادله قصف الخليفة من لهو ولذاتِ

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان على الشرح

(1) العطوي: مر ذكره (انظر الفهرس العام).

والإيضاح ممّا لم يتقدّم ذكره كصنوف الشراب والاستعمال لأنواع النُّقل إذا وُضع ذلك في المناقل والأطباق فتُضدّ نَضْداً ورُصف رَصْفاً، والإبانة عن المراتب في ذلك، ووصف جُمَل آداب الطبخ ممّا يحتاج التابع إلى معرفته والأديب إلى فهمه من المتولّدات في معرفة الألوان ومقادير التوابل والأبزار، وأنواع المحادثات وغسل اليدين بحضرة الرئيس والقيام عن مجلسه، وإدارات الكاسات، وما حُكي في ذلك عن الأسلاف من ملوك الأمم وغيرهم، وما قيل في الإكثار والإقلال من الشراب وما ورد في ذلك من الأخبار، وطلب الحاجات والاستمناعات من أهل الرئاسة على المعافرات، وهيئة النديم وما يلزمه لنفسه وما يلزم الرئيس لنديمه، والفرق بين التابع والمتبوع والنديم والمنادم، وما قال الناس في العِلّة التي من أجلها سُمّي النديم نديماً وكيفيّة الأدب في ملاعبة الشُّطرنج والفرق بينها وبين النرد وما ورد في ذلك من الأخبار وانتظم فيه من الدلائل والآثار، وما ورد عن العرب في أسماء الخمر وورود التحريم فيها، وتنازع الناس في ردّ غيرها من أنواع الأنبذة عليها قياساً، ووصف أنواع آنيّتها، ومَن كان يشربها في الجاهليّة ومن حرّمها، ووصف السُّكر وما قال الناس في ذلك وكيفيّة وقوعه: أَمِنَ الله أم من خلقه؟ وغير ذلك ممّا لحق بهذا الباب واتّصل بهذه المعاني؛ وإنّما نذكر هذه اللّمع منبّهين بها على ما قدّمنا فيما سلف من كتبنا.

المسعودي

(مروج الذهب/ ط. بلا، ج 5 ص 132 - 133)

— 80 —

[مجالس الرؤساء ومذاكرات العلماء]

أ - مجلس المنصور

قيل: رُواة الكوفة أربعة: حمّاد - ولَقْبُهُ الخَرَجُوبِيّ - وَجَنّادُ وابن الجصّاص والمفضّل، ورُواة بغداد أربعة: أبو عمرو الراوية والأثرم وابن الأعرابي والطوسي.

تَلَاَحُوا فِي مَجْلِسِ الْمَنْصُورِ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ، فَسُئِلَ حَمَّادٌ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:
صَنَاجَةُ الْعَرَبِ! - يَعْنِي الْأَعَشَى، وَسُمِّيَ بِهِ لِقَوْلِهِ:

[البسيط]

وَمُسْتَجِيبٌ تَخَالَ الصَّنَجَ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرْجِعَ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ

المستجيب المزمار ههنا، وقيل: العود. وسئل عن عمر بن أبي ربيعة،
فقال: ذلك الفُستُقُ المقشَّر. وسئل عن شعر امرئ القيس، فقال: ما أقول؟
مبتدئٌ بإحسانٍ، والناسُ بعده له تَبِعٌ لَا يَلْحَقُونَهُ. قيل: فالنابغة الذبياني؟ قال:
ذاك كاتبُ الشعراء، أحسنُهم نَمَطًا وأحضرُهم احتجاجاً. قيل: فزُهَيْر؟ قال: ذاك
حكيمُ العرب، أشدُّهم أنسَ كلامٍ ومبالغةً في مدح. قيل: فالأعشى؟ قال: ذاك
أجمعُهم للمعاني، وأكثرُهم شعراً وفنوناً، وما أقيسُ به أحداً. قيل: فجزير؟
قال: جزؤُ خراشٍ يَنطِقُ بِمِلٍّ فِيهِ وَيَذْهَبُ فِي كُلِّ فَنٍّ. قيل: فالفرزدق؟ قال:
أكثرُ العربِ شعراً وأبعدُهم ذِكْراً وأوسعُهم فِكْراً وأجودُهم فَخْراً. قيل:
فالأخطل؟ قال: ذاك شاعرٌ قد حَبَّبَ شِعْرُهُ إِلَى النَصْرَانِيَّةِ.

المرزباني

(نور القبس... ص 269 - 270)

- 81 -

[مجالس الرؤساء ومذاكرات العلماء]

ب - مجلس الرشيد

«القاسم بن محمد السَّلَامِي قال: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ بَشْرِ الْأَطْرُوش قال:
حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ قال: أَخْبَرَنِي الْأَصْمَعِيُّ قال: تَصَرَّفْتُ بِي الْأَسْبَابُ إِلَى
بَابِ الرَّشِيدِ مُؤَمَّلًا لِلظَّفَرِ بِمَا كَانَ فِي الْهِمَّةِ دَفِينًا، أَتَرَقَّبُ بِهِ طَالِعَ سَعْدٍ يَكُونُ
عَلَى الدَّرَكِ مُعِينًا. فَاتَّصَلَ بِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ كُنْتُ لِلْحَرَسِ مُؤَنِّسًا بِمَا اسْتَمَلْتُ بِهِ

مودتْهم . فكنتُ كالضَّيف عند أهل المبرَّة . فطَرَقْتُهُم بِاتِّحَافِي . وطاولتُني الغَايَاثُ
بما كِدْتُ أَصِيرُ بِهِ إِلَى مَلَالَةٍ ، غيرَ أَنِّي لم أَزِلْ مُخَيِّياً لِلأَمَلِ بِمَذاكِرتِهِ عندَ اعْتِرَاضِ
الْفَتَرَةِ ، وقلْتُ في ذلك :

[الوافر]

- 1 - وَأَيُّ فِتْيَ أُعِيرَ ثَبَاتَ قَلْبٍ وساع ما تَضَيَّقَ بِهِ المَعَانِي
- 2 - تُجَاذِبُهُ المَوَاهِبُ عَنِ إِيَاءِ الأَبْلُ لَا تُوَاتِيهِ الأَمَانِي
- 3 - فَرُبُّ مُعَرَّسٍ لِلنَّاسِ أَجْلَى عَنِ الدَّرَكِ الحَمِيدِ لَدَى الرُّهَانِ
- 4 - وَأَيُّ فِتْيَ أَنَا فَعَلَى سُمُوِّ مِنَ الهِمَّاتِ مُلْتَهَبِ الْجَنَانِ
- 5 - بِغَيْرِ تَوْشُّعٍ فِي الصَّدْرِ مَاضٍ عَلَى العَزَمَاتِ كَالْعَضْبِ الِيْمَانِي

فلم نَبْعُدْ أَنْ خَرَجَ عَلَيْنَا خَادِمٌ فِي لَيْلَةٍ نَثَرَتْ السَّعَادَةَ وَالتَّوْفِيقَ ؛ وَذلكَ أَنَّ
الرَّشِيدَ تَرَجَّعَ الأَرَقُّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ : هَلْ بِالْحَضْرَةِ أَحَدٌ يَحْسِنُ الشَّعْرَ ؟ فَقُلْتُ :
اللهُ أَكْبَرُ ، رَبُّ قَيْدٍ مُضَيَّقٍ قَدْ فَكَّهُ التَّيْسِيرَ لِلْإِنْعَامِ . أَنَا صَاحِبُكَ ، إِنْ كَانَ صَاحِبُكَ
مَنْ طَلَبَ فَأَذْمَنَ ، أَوْ حَفِظَ فَأَتَّقَنَ . فَأَخَذَ بِيَدِي ، ثُمَّ قَالَ : ادْخُلْ ، إِنْ يَخْتَمِ اللهُ لَكَ
بِالإِحْسَانِ لَدَيْهِ وَالتَّصَوُّبِ ، فَلَعَلَّهَا تَكُونُ لَيْلَةً تُعَوِّضُ صَاحِبَهَا الغَنَى . قُلْتُ :
بَشَرِكِ اللهُ بِالْخَيْرِ . قَالَ : وَدَخَلْتُ فَوَاجَهْتُ الرَّشِيدَ فِي الْبَهْوِ جَالِساً كَأَنَّمَا رُكِّبَ
البَدْرُ فَوْقَ أَزْرَارِهِ جَمَالاً ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى إِلَى جَانِبِهِ ، وَالشَّمْعُ يُحَدِّقُ بِهِ عَلَى
قُضْبِ المَنَابِرِ ، وَالْحَدَمُ فَوْقَ فَرَشِهِ وَقُوفٌ . فَوَقَفَ بِي الخَادِمُ حَيْثُ يَسْمَعُ
تَسْلِيمِي ، ثُمَّ قَالَ : سَلِّمْ . فَسَلَّمْتُ . فَرَدَّ ، ثُمَّ قَالَ : يُنَحَّى قَلِيلاً لِيَسْكُنَ رَوْعُهُ إِنْ
وَجَدَ لِلرَّوْعَةِ حِسّاً . فَقَعَدْتُ حَتَّى سَكَنَ جَاشِي قَلِيلاً ، ثُمَّ أَقْدَمْتُ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ
المُؤْمِنِينَ ، إِضَاءَةُ كِرْمِكَ ، وَبِهَاءُ مَجْدِكَ ، مُجِيرَانِ لِمَنْ نَظَرَ إِلَيْكَ مِنْ أَعْتِرَاضِ
أَذْيَةٍ لَهُ ، أَيْسَأَلُنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَجِيبُ ، أَمْ أَبْتَدِيءُ فَأُصِيبُ ، يَيْمُنُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
وَفَضْلُهُ ؟ قَالَ : فَتَبَسَّمَ إِلَيَّ الْفَضْلُ ثُمَّ قَالَ : مَا أَحْسَنَ مَا أَسْتَدْعِي الْإِخْتِبَارَ ،
وَأَسْتَهْلَ بِهِ الْمُفَاتِحَةَ ، وَأَجْدُرُ بِهِ أَنْ يَكُونَ مُحْسِناً . ثُمَّ قَالَ الْفَضْلُ : وَاللهُ يَا أَمِيرَ
المُؤْمِنِينَ لَقَدْ تَقَدَّمَ مُبْرِزاً مُحْسِناً فِي اسْتِشْهَادِهِ عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنَ الْخِيَرَةِ ، وَأَرْجُو أَنْ
يَكُونَ مُمْتَعاً . قَالَ : أَرْجُو . ثُمَّ قَالَ : أَدُنُّ . فَدَنَوْتُ . فَقَالَ : أَشَاعِرُ أَمْ رَاوِيَةٌ ؟ قُلْتُ :

راوية يا أمير المؤمنين . قال : لمن ؟ قلت : لذي جدٍّ وهزل ، بعد أن يكون محسناً . قال : والله ما رأيتُ أوعى لعلم ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك . ولئن صرتُ حامداً أثرك لتعرفنَّ الإفضالَ متوجّهاً إليك سريعاً . قلت : أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من عقالي مُجيباً فيما أحبه . [. . .] .

[يلي هذا مذاكرة طويلة بين الرشيد والفضل بن يحيى البرمكي والإصمعي ، استطردوا فيها إلى بعض الأمثال والأشعار القديمة] .

« . . . » ثم التفت إلى الفضل ، فقال : لِكَلَامِ هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، دِيْبَاجُ الْكَلَامِ الْخُسْرَوَانِي ، يَزِيدُ عَلَى الْقَدَمِ جِدَّةً وَحُسْنًا . فإذا جاءك الكلام المُزَيَّنُّ بالبديع ، جاءك الحرير الصَّيْنِيّ المذهب ، يَبْقَى عَلَى الْمُحَادَثَةِ فِي أَفْوَاهِ الرِّوَاةِ . فإذا كان له رَوْنَقٌ صَوَابٌ ، وَعَثَّةُ الْأَسْمَاعِ ، وَلَذَّةٌ فِي الْقُلُوبِ ، وَلَكِنْ فِي الْأَقْلَ مِنْهُ . ثم قال : يُعْجِبُنِي مِثْلُ قَوْلِ مُسْلِمٍ فِي أَبِيكَ وَأَخِيكَ الَّذِي أَتَتْحَهُ بِمُخَاطَبَةِ حَلِيلَتِهِ ، مَفْتَخِرًا عَلَيْهَا بِطُولِ الشُّرَى فِي اكْتِسَابِ الْمَغَانِمِ ، حَيْثُ قَالَ :

[الطويل]

أَجَدَّكَ هَلْ تَدْرِيْنَ أَنَّ رَبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُشْرُ
صَبْرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بَغْرَةٌ كَغُرَّةٍ يَحْيَى حِينَ يُذَكَّرُ جَعْفَرُ

أفرايت ؟ ما ألطف ما جعلهما معدناً لكمال الصفات ومحاسنها ؟ ثم التفت إليّ ، فقال : أجدُّ ملالة ، ولعلَّ أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف في ليلتنا هذه ، فأقيم معه مُسامراً له ، ثم نهض . فتبادر الخدم ، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه ، ثم قُدِّمَتِ النعل ، فلما وضع قدمه فيها جعل الخادم يُسَوِّي عَقَبَ النعل في رجله . فقال له : ارفُقْ ويحك ، حَسْبُكَ قَدْ عَقَرْتَنِي . قال الفضل : لَهْ دَرُّ الْعَجَمِ ، مَا أَحْكَمَ صَنَعَتُهُمْ ، لَوْ كَانَتْ سِنْدِيَّةٌ مَا احْتَجَجْتُ إِلَى هَذِهِ الْكُلْفَةِ . قال : هَذِهِ نَعْلِي وَنَعْلُ آبَائِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَتِلْكَ نَعْلُكَ وَنَعْلُ آبَائِكَ . لَا تَزَالُ تُعَارِضُنِي فِي الشَّيْءِ ، وَلَا أَدْعُكَ بِغَيْرِ جَوَابٍ يَمْضُكَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا غَلَامَ ، عَلَيَّ بِصَالِحِ الْخَادِمِ . فقال : يُؤْمَرُ لَهُ بِتَعْجِيلِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي لَيْلَتِهِ هَذِهِ . قَالَ

الفضل: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحدٌ غيره لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين. فدعا له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين إلا ألف درهم. وقال: تُصبح من غد فتلقى الخازن إن شاء الله. قال الأصمعي: فما صليت الظهر إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم.

ابن عبد ربه

المقد الفريد (تحقيق أمين وجماعته)

الجزء الخامس ص 310 - 317

- 82 -

[مجالس الرؤساء ومذاكرات العلماء]

ج - مجلس أحد البرامكة

قال الأصمعي:

طرب الفضل بن يحيى إلى مذكراتي، فأتاني رسوله، وكان يوماً بارداً ذا صِرٍّ وقرٍّ. فقال: أجب الوزير. فمضيت معه، فلما دخلت عليه إذا هو في بهوٍ له. قد فرش بالسَّمُور، وهو في دَسْتٍ منه، وعلى ظهره دُواج سَمُور أشهب، مبطن بخزٍّ، وبين يديه كانون فضة، فوقه أثْفِيَّة ذهب، في وسطها تمثال أسدٍ رابض، في عينيه ياقوتتان تتوقدان، وفوق الصينية إبريق زُجاجٍ فزعوني، وكأس كأنها جوهرة محفورة، تَسَعُ رِطَلاً، لا أظنها بقي بها مالٌ كثير، وهو على سرير من عاج، وأنا عليّ ثيابُ قطنٍ. فسلمت عليه فردّ السلام وقال لي: يا أصمعي. ليس هذا من ثياب هذا اليوم. قلت: أصلح الله الوزير. إنما يلبس الرجل ما يجد، فقال: يا غلام ألق عليه شيئاً من الوبَر، فأثيْتُ بمثل ما عليه فلبسته حتى الجورب، ثم أتيّ بخُوان لم أذرِ ما جنسه، غير أنني تحيرت في جنسه، وبصحفة مُشَمِّسة، فيها لون من مُخِّ الطير، فتناولنا منها.

ثم تتابعت الألوان، فأكلت من جميع ما حضر، ألا والذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله بالرسالة ما عرفت منها لوناً واحداً، إلا أنني لم آكل في الدنيا شيئاً يدانيها قطّ لذة وطيباً عند خليفة ولا ملك. ثم رُفِعَ الخوان، وأتينا بألوان من الطيب، فغسلنا أيدينا، وكنت كلما استعملت منه لوناً ظننته أطيب ما في الدنيا من عطر فاخر، حتى إذا استعملت غيره زاد عليه طيباً، فلما فرغنا من ذلك إذا غلام قد أقبل معه جَآمٌ بَلُور فيه غالية، قد ازرقّت بكثرة العنبر، فتناولنا بملعقة من الذهب حتى نضحناه، فصرت كأني جمرة، ثم قال: اسقنا، فسقاه رطلاً وسقاني مثله، فما تجاوز والله لهأتي حتى كذت أطير فرحاً وسروراً، وصرت في مِسلّاخ ابن عشرين طرباً. ودبّت الشربة فخرت ما بين الذؤابة والنعل، وكأن دبی الجراد يثب ما بين أحشائي وثباً، فلم أتمالك أن قلت: قاتل الله أبا نواس حيث يقول:

[الطويل]

1- إذا ما أتت دون اللّٰهة من الفتى دعا همّه من صدره برحيل

فقال الفضل هذا البيت له؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: وليس إلا هذا البيت الواحد؟

قلت أعز الله الوزير، هي أبيات. قال: هاتها، فأنشدته:

1- وخيمة ناطور برأس مُنيّفة تَهْمُ يدا مَنْ رامها بِزَلِيل

2- حَطَطْنَا بِهَا الْأَثْقَالَ فَلَّ هَجِيرَة عَبُورِيَة تُذَكِّي بغير فتيل [...]]

قال: قاتله الله ما أشعره، يا غلام: أثبتها. ثم قال: أما والله لولا قاله الناس فيه ما فارقتني، ولكن إذا فكرت فيه وجدت الرجل ماجناً خليعاً متهتكاً ألّوفاً لحانات الخمارين فأترك نفعه لضره. فقلت: أصلح الله الوزير، إنه مع ذلك بمكان من الأدب، ولقد جالسته في مجالس كثيرة، قد ضمت ذوي فنون من الأدباء والعلماء، فما تجاروا في شيء من فنونهم إلا جاراهم فيه، ثم برز

عليهم، وهو من الشعر بالمحل الذي قد علمته، أليس هو القائل :

ذكرتُم من التَّرحال يوماً فغمَّنا فلو قَدْ فعلتُم صَبَّحَ الموتُ بعضَنا
زعمتُم بأنَّ البَيْنَ يَخزُنُكم. نَعَمْ سيخزُنُكم حُزناً ولا مثلَ حُزْننا [...]

ابن المعتز

(طبقات الشعراء، ص 214 - 216)

- 83 -

[مجالس الرؤساء ومبادهاث (*) الشعراء]

هَجَرَ الرشيد جارية له ثم لقيها في بعض الليالي تدور في جوانب
القصر وعليها مطرف خز وهي تسحب أذيالها من التبة فراودها عن نفسها فقالت
يا أمير المؤمنين هجرتني هذه المدة وليس معي علم بموافاتك فأنظرني الليلة
حتى اتهايا للقيامك وآتيك بالغداة فلما أصبح قال للحاجب لا تدع أحداً يدخل علي
وانتظرها فلم تجيء فقام ودخل عليها وسألها نجاز وعدها فقالت يا أمير
المؤمنين كلام الليل يمحوه النهار فرجع واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل
عليه أبو نواس والرقاشي ومصعب فقال هاتوا علي كلام الليل يمحوه النهار فقال
الرقاشي⁽¹⁾ إني قائل في ذلك ثلاثة أبيات وأنشد:

[الكامل]

- 1 - أتسلوها وقلبك مستطار وقد مُنِعَ القرار فلا قرارُ
- 2 - وقد تركتك صَباً مستهماً فتاة لا تزور ولا تُزارُ

(*) يدخل في باب المبادهاث «الإجازة»: انظر خبر ماني الموسوس بمجلس أحد الطاهريين
(الجزء II ص 253 - 259) حيث نقف على شواهد لذلك. انظر كذلك النص رقم 58
بهذا الجزء.

(1) ذكرناه وأوردنا بعض شعره في الجزء 3 (انظر الفهرس).

3 - إذا ما زرتها وعدت وقالت كلام الليل يمحوه النهار
وقال مصعب⁽¹⁾ أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات وأنشد:

[الكامل]

- 1 - أما والله لو تجددت وجدي لَمَّا وسعتك في بغداد دارُ
- 2 - أما يكفيك أن العينَ عبرى ومن ذكراك في الأحشاء نار
- 3 - تبسم ضاحكاً من غير ضحك كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس وأنا قائل أربعة أبيات في ذلك وأنشد:

[الكامل]

- 1 - ليلة أقبلت في القصر سكرى ولكن زَيْن السكر الوقارُ
- 2 - وقد سقط الردا عن منكبيها من التخميش وانحلّ الازار
- 3 - وهزّ الريح أردافاً ثقالاً وصدرأ فيه رمان صغار
- 4 - فقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهار⁽²⁾

فقال له الرشيد قاتلك الله كأنك كنت حاضراً وأمر لكل واحد بخمسة آلاف درهم ولأبي نواس بعشرة آلاف درهم وخلعة سنّية وهذه حكاية مشهورة أوردتها أبو سعيد السمعاني في تذيله على تاريخ بغداد تأليف الخطيب الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ونسبها إلى الرشيد.

التّواجي

(حلبة الكميت، ص 83 - 84)

(1) جمعنا ما وصلنا من شعره وقدمنا له في الجزء الخامس (انظر الفهرس).

(2) لا أثر لهذه المقطعة فيما وقفنا عليه من شعر أبي نواس.

[مجالس الشعراء فيما بينهم]

أو

[في المساجلات]

حدّث دِغْبِلُ الشاعر: أنه اجتمع هو ومُسْلِمٌ وأبو الشَّيْصِ (1) وأبو نُوَاسٍ في مجلس، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل واحد منكم بأحسن ما قال فليُنشِده، فأنشد أبو الشَّيْصِ:

[الكامل]

- 1- وَقَفَّ الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
 - 2- أجد المَلَامَةَ في هواك لذيدة جبالذكرك فليُلمني اللوم
 - 3- وأهتتني فأهت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممن يُكرّم!
 - 4- أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
- فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم أنشد مسلم أبياتاً من شعره الذي يقول فيه:

[الطويل]

- 1- فأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصبا وقد فاجأتها العينُ والستر واقعُ
 - 2- فغطتُ بأيديها ثمارَ نحوورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع
- قال دِغْبِلُ: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأنني بك قد جئتنا بأمر القلادة، فأنشدته:

[الكامل]

- 1 - أينَ الشبابُ؟ وأيَّ سَلَكَا؟ أم أينَ يَطْلُبُ؟ ضَلَّ بَلْ هَلَكَا
- 2 - لا تَعَجَّبي يا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضحكك المشيبُ برأسه فبَكَى

(1) أبو الشَّيْصِ الخزاعي من شعراء المائة الثانية (جمعنا بعض شعره وقدمنا له بالجزء الأول ص 193 - 218 انظر كذلك بالجزء السادس «الثبت النقدي» لما نُشر من شعر المغمورين في العقود الأخيرة: رقم 31).

3- يا ليت شعري كيف صَبَرْتُ كما يا صاحبي إذا دَمِي سَفِكَ!

4- لا تطلبوا بظلماتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سألنا أبا نواس أن يُنشد، فأنشد:

[البسيط]

لا تَبْكِ هندا ولا تَطْرُبِ إلى دَعْدِ واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في كف شاربها أخذت بحمرتها في العين والخذ
فالخمر ياقوتة، والكأس لؤلؤة في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها خمراً، فما لك من سُكْرَيْنِ من بُدْ
لي نشوتان وللثدمان واحدة شيء خُصِصْتُ به من بينهم وخدي

فقاموا كلهم، فسجدوا! فقال: أفعلتموها أعجمية؟ لا كلمتكم ثلاثاً.

ابن عبد ربه

(العقد الفريد، ج 4 ص 2)

— 85 —

[مجلس شاعر]

كان لبشار في داره مجلسان: مجلس يجلس فيه بالغداة يُسمِّيهِ «البردان» ومجلس يجلس فيه بالعشي أسمه «الرقيق»، فأصبح ذات يوم فاحتجم وقال لغلامه: أمسك عليّ بابي وأطبخ لي من طيب طعامي وصف نبذي؛ قال: فإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعاً عنيفاً؛ فقال: ويحك يا غلام! أنظر من يدق الباب دق الشرط؛ قال: فنظر الغلام، فقال له: نسوة خمس بالباب يسألن أن تقول لهن شعراً يُنخَن به؛ فقال: أَدْخِلُهُنَّ، فلما دخلن نظرن إلى النبيذ مُصَفَّى في قنانيه في جانب بيته؛ قال: فقالت واحدة منهن: هو خمر، وقالت الأخرى: هو زبيب وعسل، وقالت الثالثة: نقيع زبيب؛ فقال: لست بقاتل لكن حراً أو تطعمن من طعامي وتشربن من شرابي؛ قال: فتماسكن ساعة، ثم قالت واحدة منهن: ما عليكن! هو أعمى فكلن من طعامه وأشربن من شرابه وخذن شغره؛ فبلغ ذلك

الحسنَ البصريَّ فعابه وهتَفَ ببشارٍ؛ فبلغه ذلك - وكان بشار يُسمِّي الحسنَ
البصريَّ القسَّ - فقال:

[الكامل]

- 1- لما طَلَعَنَ مِنَ الرَّقِيذِ قى عليَّ بالبردانِ خمسًا
- 2- وكأنهنَّ أَهْلًا تحت الثيابِ زَفَقَنَ شمسًا
- 3- باكَرْنَ عِطْرَ لَطِيمَةٍ وغمسنَ في الجادِي غمسًا
- 4- فسألنني مَنْ في البيو ت فقلتُ مَا يُؤْوِيْنَ إِنْسًا
- 5- لیتَ العيونَ الطارفا تِ طُمِسْنَ عَنَّا اليومَ طُمسًا
- 6- فأصَبْنَ مِنْ طَرْفِ الحديدِ سِ لَدَاذَةٍ وَخَرَجْنَ مُلْسًا
- 7- لولا تَعَرُّضُهُنَّ لِي يا قسُّ كُنْتُ كَأَنْتَ قَسًّا

غنى في هذه الأبيات يحيى المكي، ولحنه رملٌ بالنصر عن عمرو.
(الأغاني / كتب، ج 13 ص 169 - 170)

— 86 —

[مجلس جارية شاعرة: فضل]

حدثني أحمد بن الحارث البغدادي - وكان نخاساً أديباً بارعاً ظريفاً، وكان
ربما اجتمع عنده بمائة ألف دينار رقيق. وكان يعامل الخلفاء والوزراء - قال:
كانت فضل الشاعرة⁽¹⁾ في نهاية الجمال والكمال، والفصاحة واللسن وجودة
الشعر، ويجتمع عندها الأدباء، ولها في الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة،
وكانت تشيع وتتعصب لهذه العصابة، وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند
الملوك والأشراف، وكان من خبرها أنها عشقت سعيد بن حميد الكاتب⁽²⁾،

(1) فضل الشاعرة من شهيرات الجواري الشواعر في القرن الثالث (ت. نحو 260). انظر
«تاريخ الآثار العربية المدونة» لفؤاد سزغن، ج 2 ص 623 - 624 حيث نجد ثبتاً وافياً
لحصول ما تجمع حتى اليوم من معلومات ببليوغرافية تتعلق بها.
(2) مر ذكره: انظر الفهارس.

وكان سعيد من أشد الناس نَصَباً وانحرافاً عن آل الرسول عليهم السلام. وكانت فضل في الغاية والنهاية من التشيع، فلما هَوِيَتْ سعيداً انتقلت إلى مذهبه، فلم تزل على ذلك إلى أن توفيت، وكان سعيد يقول بعد موتها:

ما رسائي المدونة عند الناس إلا من إنشائها.

ابن المعتز

(طبقات الشعراء، ص 226)

— 87 —

[مجلس جارية شاعرة: عنان]

[اجتمع الحسين بن الضحاك وأبو نواس والرقاشي وغيرهم جماعة من الشعراء في منزل عنان جارية الناطفي، فتناشدوا إلى وقت العصر، فلما أرادوا الانصراف قالوا: أين نحن الليلة؟ فكل قال عندي، فقالت عنان: بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمي، فقال كل منهم شعراً.

وقال الحسين بن الضحاك⁽¹⁾:

[المجث]

- | | |
|--------------------|--------------------------|
| إلى شراب الخليع | 1 - أنا الخليعُ فقوموا |
| وأكل جَـذِي رضيع | 2 - إلى شرابٍ لذيذٍ |
| بالخَـنْدِيسِ صريع | 3 - وَيَلْ أَخَوَى رخيِم |
| بُ غادياتِ الربيع | 4 - في روضةٍ جادها صو |
| منالٌ كُلُّ رَفِيع | 5 - قوموا تنالوا وشيكاً |

وقال داود بن رَزِين⁽²⁾:

- | | |
|-------------------|---------------------------|
| وظلَّ يَنْتِ كَين | 1 - قوموا إلى قُطْفٍ لَهو |
|-------------------|---------------------------|

(1) الحسين بن الضحاك (ت 250) مرّ ذكره (انظر الجزء الخامس).

(2) داود بن رزین من مخضرمي الدولتين (توفي نحو 170). يذكر له ابن النديم ديواناً في ثلاثين ورقة (الفهرست، طهران ص 186).

- 2- فِيهِ مِنَ الْوَرْدِ وَالْمَرْ
3- وَرِيحٍ مَسْكٍ ذَكِيٍّ
4- وَقَيْنَةَ ذَاتِ غُنْجٍ
5- تَشْدُو بِكُلِّ ظَرِيفٍ
- وقال أبو نواس:

- 1- لَا بَلَّ إِلَيَّ ثِقَاتِي
2- قَوْمُوا نَلْذُ جَمِيعاً
3- فَإِنْ أَرَدْتُمْ فِتَاةً
4- وَإِنْ هَوَيْتُمْ غَلَاماً
5- فَبَادِرُوهُ مُجُوناً
- وقال فضل الرقاشي⁽¹⁾:

- 1- اللَّهُ دَرُّ عُقَارٍ
2- عِذْرَاءِ ذَاتِ احْمَرَارٍ
3- قَوْمُوا نَدَامَايَ رَوْوَا
4- وَنَاطِحُونِي بِكَأْسٍ
5- وَإِنْ نَكَلْتُ فَجِلِّ
- وقال عمرو الوراق⁽²⁾:

- 1- قَوْمُوا إِلَى بَيْتِ عَمْرٍو
2- وَسَاقِيَاتِ عَلَيْنَا
3- وَيَسَّرِي رَخِيمٍ
4- فَهَآكَ أَحْلَى وَأَشْهَى
5- هَذَا وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

(1) الفضل الرقاشي: مرّ ذكره في أماكن مختلفة من هذا العمل (انظر الفهرس العام).

(2) انظر ما جمعناه من شعره بالجزئين الرابع والخامس.

وقال حسين الخياط⁽¹⁾ : [المجث]

- 1 - قَضَيْتُ عِنَانٌ عَلَيْكُمْ بَأْنَ تَزُورُوا حُسَيْنَا
- 2 - وَأَنْ تَقْرُوا لَدَيْهِ بِالْقَصْفِ وَاللَّهُوَ عَيْنَا
- 3 - فَمَا رَأَيْنَا كظرفِ الحُسينِ فِيمَا رَأَيْنَا
- 4 - قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ مِنْهُ زَيْنًا وَبَاعَدَ شَيْنَا
- 5 - قَوْمُوا وَقُولُوا أَجْزْنَا مَا قَدْ قَضَيْتَ عَلَيْنَا

فَقَالَتْ عِنَانُ⁽²⁾ : [المجث]

- 1 - مَهْلًا فَدَيْتُكَ مَهْلًا عِنَانُ أُخْرَى وَأَوْلَى
- 2 - بَأْنَ تَنَالُوا لَدَيْهَا أَسْنَى النِّعَمِ وَأَحْلَى
- 3 - وَإِنَّ عِنْدِي حَرَامًا مِنْ الشَّرَابِ وَحِلًّا
- 4 - لَا تَطْمَعُوا فِي سِوَى ذَا مِنَ الْبَرِيَّةِ كَلًّا
- 5 - يَا سَادَتِي خَبِّرُونِي أَجَازَ حُكْمِي أَمْ لَا

فَقَالُوا جَمِيعًا: قَدْ أَجْزْنَا حُكْمَكَ . وَأَقَامُوا عِنْدَهَا .

التخريج :

قطب السرور (ص 180) وأخبار أبي نواس (ص 81) والمحاسن والأضداد (ص 153) مع اختلاف جزئي في الراوية.

— 88 —

[مجالس القيان والغناء ورواية الشعر]

— أ —

[...] وتروي الحاذقة منهنّ [يعني القيان] أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من

(1) حسين الخياط : من الشعراء «الظرفاء المجان» مخضرمي الدولتين (انظر الأغاني، ج 19، ص 273).

(2) من شهيرات القيان الشواعر: توفيت نحو 226 (مرّر ذكرها: انظر الفهرس العام).

الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت .

(الجاحظ، الرسائل ج 2 ص 176)

— ب —

[...] وقد أَحْصَيْنَا - ونحن جماعةٌ في الكَرْخِ - أربعمائة وستين جاريةً في الجانيين، ومائةً وعشرين حُرّةً، وخمسةً وتسعين من الصُّبيان البُدُور، يجمعون بين الحِذْق والحُسْن والظَّرْف والعِشرة، هذا سِوَى مَنْ كُنَّا لَا نَظْفُرُ بِهِ وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِ لِعِزَّتِهِ وَحَرَسِهِ وَرُقْبَائِهِ، وَسِوَى مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِمَّنْ لَا يَتَظَاهَرُ بِالْغِنَاءِ وَبِالضَّرْبِ إِلَّا إِذَا نَشِطَ فِي وَقْتٍ، أَوْ ثَمَلَ فِي حَالٍ، وَخَلَعَ الْعِذَارَ فِي هَوَى قَدْ حَالَفَهُ وَأَضْنَاهُ، وَتَرَنَّمَ وَأَوْقَعَ، وَهَزَّ رَأْسَهُ، وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ، وَأَطْرَبَ جُلَاسَهُ، وَأَسْتَكْتَمَهُمْ حَالَهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ حِجَابَهُ، وَأَدْعَى الثِّقَةَ بِهِمْ، وَالِاسْتِنَامَةَ إِلَى حِفَازِهِمْ .

(التوحيدي، الإمتاع... ج 2 ص 183)

— 89 —

[إبراهيم بن المهدي نديماً]

أو

[من أخبار مجالس المنادمة في دُور ذوي اليسار]

أمر المأمونُ أن يُحْمَلَ إِلَيْهِ عَشْرَةٌ مِنَ الزَّادِقَةِ سُمُّوا لَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَجُمِعُوا فَأَبْصَرَهُمْ طُفَيْلِي فَقَالَ: مَا اجْتَمَعُوا إِلَّا لِصَنِيعٍ، فَدَخَلَ فِي وَسْطِهِمْ، وَمَضَى بِهِمُ الْمُوَكَّلُونَ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى زُورْقٍ قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ، قَالَ الطُّفَيْلِيُّ: هِيَ نَزْهَةٌ، فَدَخَلَ مَعَهُمُ الزُّورَقُ، فَلَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ يَقِيدُوا، وَقَيَّدَ مَعَهُمُ الطُّفَيْلِيُّ .

ثُمَّ سِيرَ بِهِمْ إِلَى بَغْدَادَ، فَأَدْخَلُوا عَلَى الْمَأْمُونِ، فَجَعَلَ يَدْعُوهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ رَجُلًا رَجُلًا؛ وَيَأْمُرُ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الطُّفَيْلِيِّ، وَقَدْ اسْتَوَفَى

العِدَّة، فقال للموَكَّلِين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم، فجئنا به. فقال له المأمون: ما قَصَّتُكَ وِلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا أعرفُ من أقاويلهم شيئاً، وإنما أنا رجلٌ طفيلي، رأيتُهم مجتمعين، فظننتُ صَنِيعاً يُدْعَوْنَ إليه. فضحك المأمون، وقال: يؤدَّب!

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي أدبه، وأحدِّثك بحديثٍ عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم.

قال: يا أمير المؤمنين، خرجتُ من عندك يوماً؛ فطُفْتُ في سِكَكِ بغداد متطرفاً، حتى انتهيت إلى موضع كذا، فشممت من قُتَارِ أَبَا زِيرٍ قَدُورٍ قَدْ فاح؛ فتأقَّتْ نفسي إليها، وإلى طيب ريحها، فوقفتُ إلى خِيَاطٍ، فقلت له: لِمَنْ هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجار. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان، فرميتُ بطرْفِي إلى الدار؛ فإذا شُبَّكَ به جارية ذات منظر حسن، فُبِهَتْ ساعةٌ ثم أدركني ذِهْنِي، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأحسب أن عنده اليوم دعوة، وهو لا يُتَادَمُ إِلَّا تُجَّاراً مِثْلَهُ مَسْتَوِرِينَ⁽¹⁾.

فإني لكذلك، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدَرْبِ، فقال لي الخياط: هؤلاء مُنَادِمَاهُ، فقلت: ما اسماهما وما كُنَاهُما؟ فقال: فلان وفلان، فحرَّكْتُ دَبَّتِي وداخلتُهما، وقلت: جُعِلْتُ فِدَاكُمَا، قد استَبْطَأْتُكُمَا أبو فلان، وسائرُتُهما حتى بلغنا الباب، فأجَلَّانِي وقَدَّمَانِي؛ فدخلتُ ودخلا.

فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشك أنني منهما؛ فَرَحَّبَ بي وأجلسني في أفضل المواضع، فجِئْتُ يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف، وأُتِينَا بتلك الألوان، فكان طعامها أَطْيَبَ من ريحها، ثم رُفِعَ الطعام، وجِئْتُ

(1) وهم من فئة من وصفهم الجاحظ بـ «المستمعين، بالنعمة والمؤثرين للذة، المتمتعين بالقيان والإخوان المعدين لوظائف الأطعمة، وصنوف الأشربة، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس، أصحاب الستر والستارات، والسرور والمروءات» (الرسائل، ج 2 ص 143).

بالوضوء، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة، وجعل صاحب المنزل يلفف بي؛ ويميل عليّ بالحديث؛ حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا جارية، كأنها بذر فأقبلت؛ وسلّمت غير خجلة، وثبتت لها وسادة، فجلست عليها؛ وأتي بالعود فوضع في حجرها؛ فجسّته فاستبنت حذقها في جسّها؛ ثم اندفعت تغني:

[الطويل]

توهمها طرقي فأصبح خدّها وفيه مكان الوهم من نظري أثر
تصافحها كفي فتزّلم كفّها فمن مسّ كفي في أناملها عقر⁽¹⁾

فهيجت يا أمير المؤمنين بلأبلي، وطربت لحسن شعرها، ثم اندفعت تغني:

[الطويل]

1 - أشرت إليها هل عرفت مودتي؟ فردت بطرف العين: إني على العهد
2 - فحذت عن الإظهار عمداً لسرها وحادثت عن الإظهار أيضاً على عمد
فصحت يا أمير المؤمنين، وجاءني من الطرب ما لم أملك نفسي معه، ثم اندفعت فغنت الصوت الثالث:

[طويل]

1 - أليس عجيباً أن بيتاً يضمّني وإياك لا نخلو ولا نتكلّم!
2 - سوى أعين تشكو الهوى بجفونها وتقطيع أكباد على النار تضرّم
3 - إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكفّ تسلّم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها لمعنى الشعر، فقلت: بقي عليك يا جارية، فضربت بالعود على الأرض، وقالت: متى كنتم تُحضرون مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني،

(1) البيتان لخالد الكاتب (توفي نحو 260): انظر ما جمعناه وقدمناه له من شعره بالجزء الثاني، المقطعة رقم 57.

ورأيت القوم قد تغيّروا لي، فقلت: أما عندكم عودٌ غير هذا؟ قالوا: بلى،
فأتيتُ بعود فأصلحتُ من شأنه ثم غنّيت:

[الكامل]

1 - ما لِلْمَنَازِلِ لَا يُجِبْنَ حَزِينًا أَصَمَمَنْ أَمْ قَدَمَ الْبَلَى فَبَلِينَا؟

2 - راحُوا الْعَشِيَّةَ رَوْحَةً مَنْكُورَةً إِنْ مُتْنَا أَوْ حَيَيْنَ حَيِينَا

فما اسْتَمَمْتُهُ يا أمير المؤمنين حتى قامتِ الجارية، فأكَبْتُ على رِجْلَيْ
تَقَبُّلُهما، وقالت: مَعْدِرَةٌ يا سيدي، فوالله ما سمعتُ أحداً يَغْنِي هذا الصوت
غِنَاءَكَ، وفعل مولاها وأهل المجلس كفعلها، وطرب القومُ واستَحَبُّوا الشُّرْبَ
فشربوا، ثم اندفعتُ أُغْنِي:

[الطويل]

1 - أَفِي الْحَقِّ أَنْ تَمْشِي وَلَا تَذْكُرْتَنِي وَقَدْ هَمَعَتْ عَيْنَايَ مِنْ ذِكْرِهَا الدِّمَا

2 - إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بُخْلَهَا وَسَمَاحَتِي لَهَا عَسَلٌ مِنِّي وَتَبَذَلُ عَلَقَمَا

3 - فَرُدِّي مَصَابَ الْقَلْبِ أَنْتِ قَتَلْتِهِ وَلَا تَتْرِكِيهِ ذَاهِلَ الْعَقْلِ مُغْرَمَا

فَطَرِبَ الْقَوْمُ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ عَقُولِهِمْ، فأمسكتُ عنهم ساعةً حتى
تراجعوا، ثم غنيت الثالث:

[البسيط]

هذا مُجِبُّكَ مَطْوِيًّا عَلَى كَمَدِهِ عَبْرَى مَدَامَعُهُ تَجْرِي عَلَى جَسَدِهِ⁽¹⁾

لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاحَتَهُ مِمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبَدِهِ

فجعلت الجاريةُ تصيحُ: هذا الغناء، والله يا سيدي، لا ما كُنَّا فيه منذ
اليوم. وقال صاحب المنزل: يا سيدي؛ ذهبَ ما مضى من أَيَّامِي ضَيَاعًا، إذ
كنتُ لا أعرفك، فمن أنت؟ ولم يزل يُلحُّ عليَّ حتى أخبرته الخبرَ، فقام وقبَّلَ
رأسي، وقال: وأنا أعجبُ أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإني جالس مع

(1) البيتان لخالد الكاتب (انظر الجزء الثاني، المقطعة رقم 52).

الخليفة ولا أشعُرُ، ثم سألني عن قصّتي، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التي رأيتهَا، فقال للجارية: قومي فقولي لفلانة: تنزل، فلم تزل تنزل جواريه واحدةً واحدةً، فأنظر إلى كفّها ومعصمها، وأقول: ليست هذه! حتى قال: والله ما بقي غير أختي وأمي، والله لأنزلنّهما، فعجبتُ من سعة صدره، فقلت: جعلتُ فداك! ابداً بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون هي.

فبرزت، فلما رأيت كفّها ومعصمها، قلت: هذه هي! فأمر غلمانَه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه؛ فأقبل بهم، وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم؛ ثم قال للمشايع: هذه أختي فلانة، أشهدكم أنني قد زوجتها من سيدي إبراهيم بن المهدي؛ وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقبلت الزواج، فدفع إليها بذرة، وفرّق الأخرى على المشايخ وصرفهم، ثم قال: يا سيدي، أمهد بعض البيوت! فأخسمني ما رأيت من كرمه، فقلت: أخضِرْ عماريّة وأحملها إلى منزلي. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا، فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - يشير إلى ولده.

فعجب المأمون من كرم الرجل، وألحقه في خاصة أهله، وأطلق الطفيلي، وأجازه.

ابن عبد ربه

(العقد الفريد، ج 4 ص 237)

— 90 —

[مجلس وشاعر ومغن]

أو

من أخبار الشعراء

حدّث مخارق قال:

جاءني أبو العتاهية فقال: قد عزمْتُ على أن أتزوّد منك يوماً تهبّه لي، فمتى تنشط؟ فقلت: متى شئت؛ فقال: أخاف أن تقطع بي؛ فقلت: والله لا

فعلتُ وإن طلبني الخليفة؛ فقال: يكون ذلك في غد؛ فقلت: أفعل. فلما كان من غد باكرني رسوله فجئته، فأدخلني بيتاً له نظيفاً فيه فرش نظيف، ثم دعا بمائدة عليها خبز سَمِيد وخلٌ وبَقْلٌ وملح وجَذِيّ مَشْوِيّ فأكلنا منه، ثم دعا بسمك مشويّ فأصبنا منه حتى اكتفينا، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة، فقال: اختر ما يصلح لك منها، فأخترتُ وشربت؛ وصبتُ قدحاً ثم قال: غنني في قولي:

أحمدُ قال لي ولم يذُرِ ما بي أتحبُّ الغداة عُتْبَةَ حَقًّا
فغنَّيته، فشرب قدحاً وهو يبكي أحراً بكاء؛ ثم قال: غنني في قولي:
ليس لمن ليست له حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصَّبرِ
فغنَّيته وهو يبكي ويَشْجُج، ثم شرب قدحاً آخر ثم قال: غنني، فديتك، في قولي:

خليليّ ما لي لا تزالُ مَضْرَبِي تكون مع الأقدار حتماً من الحتم
فغنَّيته إياه، وما زال يقترح عليّ كلّ صوت غُنِّي به في شعره فأغنَّيه ويشرب ويبكي حتى صار العتمة؛ فقال: أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنعُ فجلست، فأمر أبنته وعلامته فكسرا كلّ ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهي، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النبيذ وآلته، فأخرج جميعه، فما زال يكسره ويصبتُ النبيذ وهو يبكي حتى لم يبق من ذلك شيء، ثم نزع ثيابه وأغتسل، ثم لبس ثياباً بيضاً من صوف، ثم عانقني وبكى، ثم قال: السلام عليك يا حبيبي وفرحي من الناس كلّهم سلامَ الفراق الذي لا لقاء بعده؛ وجعل يبكي، وقال: هذا آخرُ عهدي بك في حال تعاشرِ أهل الدنيا، فظننتُ أنّها بعضُ حماقاته، فأنصرفتُ وما لقيته زماناً، ثم تشوّفته فأتيته فاستأذنتُ عليه فأذن لي فدخلت، فإذا هو قد أخذ قَوْصَرَتَيْنِ وثَقَبَ إحداهما وأدخل رأسه ويديه فيها وأقامها مقامَ القميص، وثَقَبَ الأخرى وأخرج رجله منها وأقامها مقامَ السراويل، فلما رأيته نسيت كلّ ما كان عندي من الغمّ عليه والوحشة لعشرته، وضحكت والله ضحكاً ما ضحكت مثله قط؛ فقال: من أيّ شيء تضحك؟ فقلت: أسخن الله عينك!

هذا أي شيء هو؟ مَنْ بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزُّهَّاد والصَّحابة والمجانين، أنزع عنك هذا يا سَخِينِ العين! فكأنه أَسْتَحيا مِنِّي؛ ثم بلغني أنه جلس حَجَّاماً، فجهذْتُ أن أراه بتلك الحال فلم أراه، ثم مَرِضُ، فبلغني أنه أَشْتَهَى أن أُغْنِيَه، فَأَتَيْتَه عَائِداً، فخرج إِلَيَّ رسوله يقول: إِنْ دَخَلْتَ إِلَيَّ جَدَّدْتَ لِي حُزْناً وتآقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا أَسْتودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء، ثم كان آخر عهدي به.

(الأغاني (دار الثقافة) ج 4 ص 109 - 111)

- 91 -

[مجالس العبث والهزل والمضاحك⁽¹⁾]

[...] ويحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة، والتبسط في القصف والخلاعة. وهم ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي وغيرهم. وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبى. فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه. وهبوا أثواب الوقار، للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش. بين الخفة والطيش. ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءاً شرباً قطربلياً أو عُكْبَرِيّاً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره، ويرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات ومخانق البُرْم والمنثور، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر. وإياهم عنى السري بقوله: [من المنسرح]:

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| 1 - مجالسُ ترقصُ القضاة بها | إذا انتشروا في مخانق البُرْم |
| 2 - وصاحب يخلط المجون لنا | بشيمة حلوة من الشيم |
| 3 - تخضب بالراح شيبه عبثاً | أناملٌ مثلُ حمرة العنم |
| 4 - حتى تخال العيون شيبته | شبية فعلان ضرجت بدم |

(1) انظر نماذج من أدب المضاحك بـ «حكاية أبي القاسم البغدادي» لأبي المطهر الأزدي.

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزمّت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة
وحشمة المشايخ الكبراء.

الثعالبي

(البيّمة... ج 2 ص 335 - 336)

- 92 -

[إبراهيم الموصلي في إحدى خلواته بمجلسه الخاص]

أو

[أشعار وألحان]

قال إبراهيم بن إسحاق الموصلي:

سألت الرشيد أن يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعثُ فيه إليّ بوجه ولا
بسبب لأخلو فيه بجوّاري وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، وقال لي: هو يوم
أستثقله، فآله فيه بما شئت؛ فأقمْتُ يوم السبت بمنزلي، وتقدّمتُ في إصلاح طعامي
وشراي بما احتجتُ إليه، وأمرتُ بوابي فأغلق الأبواب، وتقدّمتُ إليه ألا يأذن عليّ
لأحد.

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفُّوا بي وجوّاري يتردّدون بين يدي، إذا
أنا بشيخ ذي هيئة وجمال، عليه قميصان ناعمان وخُفّان قصيران، وعلى رأسه
قَلَنْسُوءٌ لاطئة، ويده عُكّازة مُقَمَّعة بِفِضّة، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ
البيت والدار، فداخلني بدخوله عليّ - مع ما تقدّمت فيه - غيظٌ ما تداخلني قطُّ
مثله، وهممتُ بطرد بوابي ومن حجبني لأجله، فسلم عليّ أحسن سلام،
فرددتُ عليه، وأمرته بالجلوس فجلس، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام
العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلّى ما بي من الغضب، وظننتُ أن غلماني
تحرّروا مسرّتي بإدخالهم مثله عليّ لأدبه وظرفه.

فقلتُ: هل لك في الطعام، فقال: لا حاجة لي فيه، فقلت: هل لك في
الشراب، فقال: ذلك إليك، فشربتُ رطلاً وسقيته مثله، فقال لي: يا
أبا إسحاق؛ هل لك أن تُغني لنا شيئاً من صنّعتك وما قد نفقت به عند الخاصّ

والعام؟ فغاظني قوله، ثم سهَّلتُ على نفسي أمره، فأخذتُ العود فجسَّنتُهُ ثم ضربتُ فغَنَيْتُ، فقال: أحسنت يا إبراهيم! فازداد غيظي وقلت: ما رضي بما فعله من دخوله عليّ بغير إذن واقتراحه أن أُغْنِيه حتى سمَّاني ولم يُكَنِّنِي ولم يُجَمِّلِ مخاطبتي! ثم قال: هل لك أن تزيدنا؟ فتَدَمَّمتُ فأخذتُ العود فغَنَيْتُ، فقال: أَجَدَّتْ يا أبا إسحاق! فَأَتَمَّ حتى نكافئك ونُغْنِيكَ، فأخذتُ العود وتغنيت وتحفَظْتُ وقمتُ بما غنَّيته إياه قياماً تاماً ما تحفَظت مثله، ولا قمتُ بغناء كما قمتُ به له بين يَدَيَّ خليفة قط ولا غيره، لقوله لي: أكافئك، فطرب وقال: أحسنت يا سيدي، ثم قال: أتأذن لعبدك بالغناء؟ فقلت: شأنك، واستضعفتُ عقله في أن يغنيني بحضرتي بعدما سمعه مني، فأخذ العود وجسَّه فوالله لَخِلَّتْه ينطق بلسانٍ عربيٍ لِحُسْنٍ ما سمعته من صوته ثم تغني:

[الطويل]

- 1- ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يَبِيعُنِي بها كِبِداً لَيْسَتْ بذاتِ قُرُوحٍ
- 2- أباهَا عليّ النَّاسُ لا يَشْتَرُونَهَا وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحٍ؟
- 3- أَتَنْ مِنْ الشَّوْقِ الَّذِي فِي جَوَانِبِي أَنْيَنَ غَصِيصٍ بِالشَّرَابِ جَرِيحٍ

قال إبراهيم: فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ ما في البيت يجيبه ويُغْنِي معهُ من حُسن غنائه، حتى خِلْتُ والله أني أسمعُ أعضائي وثيابي تُجَاوِبُه! وبقيتُ مبهوتاً لا أستطيعُ الكلامَ ولا الجوابَ ولا الحركةَ لِمَا خَالَطَ قلبي، ثم غنَى:

[الطويل]

- 1- ألا يا حماماتِ اللُّوى عُدْنَ عَوْدَةً فإِنِّي إلى أصواتكن حزينٌ
- 2- فعُدْنَ فلما عُدْنَ كِذْنٌ يُمَتِّنِي وكدتُ بأسراري لهنَّ أيبِنُ
- 3- دَعَوْنَ بَرَزْدَادَ الهَدِيرِ كأنما سُقِينَ حُمِيًّا أو بهنَّ جُنُونُ
- 4- فلم تَرَ عيني مثلهنَّ حمائمًا بَكِينَ ولم تَدْمَعْ لهنَّ عيونُ

فكاد، والله أعلم، عقلي أن يذهب طرباً وارتياحاً لما سمعتُ، ثم غنَى:

[الطويل]

- 1 - ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
- 2 - أأن هتفت وزقاء في رزوق الضحا
- 3 - بكيت كما يبكي الحزين صبا
- 4 - وقد زعموا أن المحب إذا دنا
- 5 - بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
- 6 - على أن قرب الدار ليس بنافع
- لقد زادني مسراك وجداً على وجد
- على فكن غصن النبات من الرند
- وذبت من الحزن المبرح والجهد
- يمل وأن الناي يشفي من الوجد
- على أن قرب الدار خير من البعد
- إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

ثم قال: يا إبراهيم؛ هذا الغناء فخذهُ وانح نحوه في غنائك وعلمهُ جواريك، فقلتُ: أعدهُ عليّ، فقال: لستَ تحتاج، قد أخذته وفرغتَ منه، ثم غاب من بين يدي فارتعتُ وقمتُ إلى السيف فجردته، وعدتُ نحو أبواب الحرم فوجدتها مُغلقة، فقلتُ للجواري: أي شيء سمعتنَ عندي؟ فقلن: سمعنا أحسنَ غناء سَمِعَ قطّ، فخرجتُ متحيراً إلى باب الدار، فوجدته مُغلَقاً؛ فسألتُ البوابَ عن الشيخ. فقال لي: أي شيخ هو؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد، فرجعتُ لأتأملُ أمري، فإذا هو قد هتَفَ بي من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق! أنا إبليس وأنا كنتُ جليستُك ونديمك اليوم، فلا تُرغ.

فركبتُ إلى الرشيد وقلت: لا أطرفه أبداً بطُرْفَةٍ مثل هذه، فدخلتُ إليه فحدّثته بالحديث، فقال: وَيْحَكَ! تأملُ هذه الأصوات، هل أخذتها؟ فأخذتُ العود أمتحنها، فإذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب، وأمر لي بصلّة وحُملانٍ وقال: الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغتَ منها، فليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك!

(الأغاني / كتب، ج ٥ ص 210 - 213)

[مجالس الأنس بالأندلس في القرن الرابع]

[...] كنتُ بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتللتُ بها مُدَيِّدة انقطعتُ فيها عن التصرُّف، ولزمتُ المنزل وكان يُمرِّضُنِي حيثُ رفيقان كانا معي، يَلْمَآن من شعبي ويزفُّقان بي، وكنتُ إذا جنَّ الليل اشتد سهرِي وخَفَقَتْ حولي أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قلقي وتألّمي، فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعاً وتكره تلك الأصوات جبلةً وأودُّ لو أجدُ مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذينك ويتعذر عليّ وجوده لغلبة ذلك الشان علي أهل تلك الناحية وكثرته عندهم وإنِّي لساهر ليلةً بعد إغفاءة في أول ليلتي وقد سكنتُ تلك الألفاظ المكروهة وهدأت تلك الضروب المضطربة وإذا ضرب خفيّ معتدل حسنٌ لا أسمع غيره فكان نفسي أنست به وسكنت إليه ولم تنفر منه نِفَارها من غيره، ولم أسمع معه صوتاً، وجعل الضرب يرتفع شيئاً فشيئاً ونفسي تتبعه وسمعي يُضْغِي إليه إلى أن بلغ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه فارتختُ له ونسيْتُ الألم وتداخلني سرور وطرب خُيلَ إليّ أن أرض المنزل ارتفعت بي، وأن حيطانه تمورٌ حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً فقلتُ في نفسي أما هذا الضرب فلا زيادة عليه فليت شعري كيف صوت الضارب وأين يقع من ضربه ولم ألبث أن اندفعت جارية تُغَنِّي في هذا الشعر بصوتٍ أُنْدَى من الثَّوَار، غَبَّ القطار، وأحلى من البارد العذب، على كبد الهائم الصب، فلم أملك نفسي أن قمْتُ ورفيقي نائمان ففتحتُ الباب وتبعْتُ الصوت وكان قريباً مني فاطلعتُ من وسط منزلي على دارٍ فسيحةٍ وفي وسط الدار بستان كبير وفي وسط البستان شَرَبْتُ نحو من عشرين رجلاً قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة وجوارٍ قيام بعيدان وطناير وآلات لهو ومزامير لا يُحَرِّكُنَّهَا والجارية جالسة ناحيةً وعودُها في حجرها وكلُّ يزُمُّها ببصره ويوعِيها سمعه وهي تغني وتضرب وأنا قائم

بحيث أراهم ولا يروني وكلما غنّت بيتاً حفظته إلى أن غنّت عِدَّةَ أبيات وقطعت
فعدتُ إلى موضعي يشهدُ الله وكأنما أنشطتُ من عقال وكان لم يكن بي ألم وقد
وعيتُ الأبيات وهي :

[البسيط]

- 1 - ما بال أنجم هذا الليل حائرةً أضلّت القصد أم ليست على فلكٍ
- 2 - عادت سواريه وقفاً لا حراك بها كأنما جثت صرعى بمُعتركٍ
- 3 - ما تنقضي ساعة منه فتطمعني به ولا هوفي وجه بمنسلك
- 4 - هل من بشير بنور الصبح تُنقذني بُسراه من طول وجدٍ غير مُتركٍ
- 5 - فقد أجدّ التواء الليل لي شجناً وأضجعتني تباريحي على الحسك
- 6 - خذ يا شمول كؤوس الراح مُترعة فسقينها ولا تسأل عن الدرك
- 7 - وهج بالحنك الطنبُور إن له على شجون المعنى سطوة المَلِك

ثم انصرفْتُ في صباح تلك الليلة فلقيتُ صديقاً لي من أهل العلم قرطبياً
سكن مالقة فأخبرته الخبر وأنشدته الشعر ووصفت له الدار فاغرورقت عيناه
وقال الدار للوزير فلان ابن وخشون، والجارية فلانة البغدادية إحدى المحسنات
من جواري المنصور بن أبي عامر وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور
وتمزق مملكته، والشعر قاله محمد بن قزمان في سعيد بن أبي قنديل الطنبوري
وكان ابن قزمان يهواه قلْتُ فما ذكرُ شمولٍ في هذه الأبيات؟ فقال شمول غلام
صَقْلَبِيٍّ من صَقَالِبَةِ المنصور وكان جميلاً فلما غني المنصورُ بهذا الشعر قال
لمن غناه إياه اجعل مكان سعيد شمولاً وكان يغني به كذلك، وجرت الجارية في
غنائها على ما كان أمر به مولاه... (1).

التجسي

شرح المختار من شعر بشار (ص 14 - 16)

(1) أورد التجسي هذا الخبر في معرض شرحه لأبيات لبشار في السهر.

[ديوان الشعراء⁽¹⁾]

أو

[الشعر في كنف السلطان في عهد بني مرين بفاس]

هناك الكثير من الشعراء في فاس من الذين يقرضون الشعر باللغة العامية في مختلف الموضوعات، ولا سيما في الحب. فبعضهم يصف الحب الذي يحسه تجاه النساء، والآخرين يعبرون عن مشاعرهم تجاه الغلمان ويصرح الواحد منهم بدون أي خجل أو حياء باسم الغلام الذي يهواه.

وينظم هؤلاء شعراً بمناسبة عيد مولد محمد ﷺ هو عبارة عن قصيدة في مدحه ويدعى الشعراء في صبيحة ذلك العيد إلى ساحة رئيس الأمراء. ويصعدون فوق أريكة هذا الرئيس. ويأخذ كل واحد منهم في إلقاء قصيدته بحضور جمع غفير من الناس. وينادى بالشاعر، الذي ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعراً وإلقاء، أميراً على الشعراء لذلك العام، وينظر إليه على أنه أميرهم. وكان من عادة الذي يحكم فاس في أزهى أيام ملوك بني مرين أن يدعو لقصره العلماء وأهل الأدب في المدينة، ويحتفل على شرف الشعراء الذين كانوا مجليين في هذه المناسبة، فيلقي كل واحد منهم قصيدة في تمجيد الرسول بحضوره وأمام الجميع. وكان يقف المنشدون فوق مصطبة عالية. وفي نهاية الحفل، واستناداً إلى حكم أشخاص من ذوي الخبرة، كان يمنح الملك لأكثر الشعراء نبوغاً مائة دينار، وحصاناً، وأمة، وكسوة، ويعطي كل واحد من الآخرين خمسين ديناراً فينصرف الجميع من عنده وقد حصل كل منهم على إجازة ومكافأة. غير أن هذه العادة قد انقرضت منذ مائة وثلاثين عاماً⁽²⁾ بسبب انحطاط هذه الأسرة.

الحسن الوزان (ليون الافريقي)

(صورة افريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة ص 263)

(1) انظر الفصل: رعاية الأدب، ص 115.

(2) أي منذ سنة 800 / 1398 في عهد السلطان أبي سعيد عثمان.

[مما يرويه التوحيدى من نواذر تتعلق بالصاحب

بن عباد فى كتابه «مثالب الوزيرين»]

أو

[الشاعر فى علاقته بالسلطان :

وجهه المريب]

[...] ثُمَّ [إنه] ⁽¹⁾ يَغْمَلُ فى أَوْقَاتِ كَالْعِيدِ وَالْفَضْلِ شِغْرًا، وَيَذْفَعُهُ إِلَى أَبِي عِيسَى بْنِ الْمُنَجِّمِ، وَيَقُولُ لَهُ: قَدْ نَحَلْتُكَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، أَمْدَحْنِي بِهَا فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ، وَكُنِ الثَّالِثَ مِنَ الْمُتَشَدِّينَ، فَيَفْعَلُ ذَلِكَ أَبُو عِيسَى، وَهُوَ بَعْدَ ادِّعَى مُحَكَّكَ قَدْ شَاخَ عَلَى الْخَدَائِعِ وَتَحَنَّنَ، وَيُنْشِدُ فَيَقُولُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ شِغْرُهُ فِي نَفْسِهِ، وَوَضَفَهُ بِلِسَانِهِ، وَمَذَحَهُ مِنْ تَخْبِيرِهِ، أَعِذْ يَا أَبَا عِيسَى، فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مُجِيدٌ زَهْ يَا أَبَا عِيسَى، قَدْ صَفَا ذَهْنُكَ، وَجَادَتْ قَرِيحَتُكَ وَتَنَفَّحَتْ قَوَائِفُكَ، لَيْسَ هَذَا مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ حِينَ أَنْشَدْتَنَا فِي الْعِيدِ الْمَاضِي: الْمَجَالِسُ تُخْرِجُ النَّاسَ، وَتَهْبُ لَهُمُ الذِّكَاءُ، وَتَزِيدُهُمُ الْفِطْنَةَ، وَتُحَوِّلُ الْكُودْنَ عَتِيقًا، وَالْمُحَمَّرَ جَوَادًا، ثُمَّ لَا يَصْرِفُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ إِلَّا بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ، وَعَطِيَّةٍ هَنِيئَةٍ، وَيُعَايِظُ الْجَمَاعَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَغْلَمُونَ أَنَّ أَبَا عِيسَى لَا يَقْرِضُ مِصْرَاعًا، وَلَا يَزِنُ بَيْتًا، وَلَا يَذُوقُ عَرُوضًا.

مما نقله ياقوت فى

(معجم الأدباء ج 12 ص 177 - 178)

(1) الضمير يتعلق بالصاحب بن عباد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحور السابع

مدونة الشعراء المغمورين
ومسالك الرواية والتدوين
(مداخل عامة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الشعر ومناهج التعليم بالأندلس]

[في القرن الرابع]

[...] وإن كان مع ما ذكرنا⁽¹⁾ رواية شيء من الشعر فلا يَكُنْ إلّا من الأشعار التي فيها الحِكمُ والخَيْرُ كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العَوْن على تنبيه النفس وينبغي أن يُتَجَنَّبَ من الشعر أربعة أضرُب:

أحدهما: الأغزَال والرَّقِيق فإنها تحثّ على الصَّبَابَة وتدعو إلى الفتنة، وتحضّض على الفتوة وتصرفُ النفس إلى الخلاعة واللذت وتُسَهِّلُ الانهماك في الشَّطَرَة والعشق وتنهي عن الحقائق حتّى ربّما أدّى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدّين وتبذير المال في الوجوه الذّميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات. وإنّ سماعَ شعرٍ رقيق لينقُضُ بنية المرء الرّائض لنفسه حتّى يحتاج إلى اصلاحها ومعاناتها برهة لا سيما ما كان يُعْنَى بالمدكّر وصفة الخمر والخلاعة، فإنّ هذا النَّوعُ يُسَهِّلُ الفُسُوقَ ويهوّنُ المعاصي ويُرْذِي جملة.

والضرب الثاني: الأشعار المَقُولَة في التَّصَعُّلِ وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد... وما هنالك، فإنّ هذه أشعارٌ تُثِيرُ التَّفُوسَ وتُهيِجُ الطّبيعة وتُسَهِّلُ على المرء موارِدَ التَّلَفِ في غير حقّ وربّما أدّتْه إلى هلاك نفسه في غير حقّ، وإلى خَسَارَة الآخرة مع إثارة الفِتْنِ وتَهْوِينِ الجنّيات والأحوال الشّنيعة والشّرّه إلى الظلم وسفك الدّماء.

(1) ذكر ابن حزم قبل هذا على التوالي الفنون التالية التي تمهّد لدراسة الشعر وهي الكتابة والقراءة والنحو واللغة وذلك قبل الانتقال إلى الحساب والنجوم والمنطق والتاريخ والإلهيات.

والضرب الثالث: أشعار التغرب، وصفات المفاوز والبيد المَهامه، فإنها تسهل التجول والتغرب وتنشئ المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى.

والضرب الرابع: الهجاء، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه، فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه... من المتكسبين بالسفاهة والتذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العوزات وانتهاك حرّم الآباء والأمهات وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة.

ثم صنفان من الشعر لا يُنهي عنهما نهياً تاماً ولا يُخصّ عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما: المدح والرتاء: فأما إباحتهما فلأنّ فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال، وأما كراهتهما لهما فإن أكثر ما في هذين النوعين الكذب، ولا خير في الكذب.

وأيضاً فإن الإكثار من رواية الشعر هو كسب غير محمود، لأنّه من طريق الباطل والفضول، لا من طريق الحق والفضائل، ولا يظنّ ظانّ أنّ هذا علم جهلناه فذممناه فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف توسّعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكّنا من الإشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف قوتنا على صناعته، وكيف تأتّى مقصده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه والتقصير، ولكن الحق أولى بما قيل (*) .

ابن حزم

رسالة مراتب العلوم

(*) هذا النص وبقية النصوص الواردة في هذا المحور باستثناء النص رقم 109 رجعنا فيها إلى كتابنا (بالمشاركة):

«الفكر التربوي عند العرب»

تونس - الدار التونسية للنشر، 1985.

[محتويات التعليم بالأندلس في القرن الخامس]

ونصيب فن الشعر منها]

... كان من حسن قضاء الله تعالى أني كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند ريعان النشأة رتب لي أبي رحمه الله حتى حذقت القرآن في العام التاسع ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ونبه الصادق صلى الله عليه، عليها في قوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» في تفصيل فيها، والثاني لعلم العربية، والثالث للتدريب في الحساب. فلم يأت علي ابتداء الأشد في العام السادس عشر من العدد إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحواً من عشرة بما يتبعها من ادغام وإظهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتخريك وتسكين وحذف وتثمين وترقيق وتفخيم. وقد جمعت من العربية فنوناً وتصرفت فيها تمريناً: منها كتاب «الواضح»⁽¹⁾ و«الجميل»⁽²⁾ وكتابا النحاس⁽³⁾ و«الأصول» لابن السراج⁽⁴⁾ وسمعت كتاب الصناعة الأصلي الذي أنهاه الخليل إلى سيبويه ثم تولي سيبويه نظمه وترتيبه، وقرأت من الأشعار جملة منها الستة⁽⁵⁾ وشعر الطائي⁽⁶⁾ والجعفي⁽⁷⁾ ويسيرا من أشعار العرب والمحدثين. وقرأت في اللغة كتاب ثعلب⁽⁸⁾ و«اصلاح المنطق»⁽⁹⁾ و«الأمالي»⁽¹⁰⁾ وغيرها، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة، وقرأت من

(1) لأبي بكر محمد بن الحسن الأنديلسي (توفي 379هـ).

(2) لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (توفي 337هـ).

(3) أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس: توفي 338هـ. له كتاب في النحو «الكافي».

(4) محمد بن السري بن سهل المعروف بابن السراج (توفي 316هـ) من تلاميذ المبرد.

(5) الأشعار الستة هي أشعار امرئ القيس والنابعة وعلقمة وعنترة وزهير وطرفة.

(6) الطائي هو أبو تمام (190 - 231هـ).

(7) الجعفي هو المتنبي (303 - 354هـ).

(8) ثعلب (توفي 291): من رواد مدرسة الكوفة في اللغة.

(9) اصلاح المنطق لابن السكيت (186 - 244هـ).

(10) «الأمالي» لأبي علي القالي (288 - 356هـ).

علم الحساب: المعاملات والجبر والفرائض عملاً. ثم كتاب أوقليدس وما يليه إلى الشَّكْل القَطَّاع⁽¹⁾، وعدلت بالأزياج الثلاثة، ونظرت في الأسطربلاب في مَسَقَط النقطه ونحوه يتعاقب عليّ هؤلاء المَعْلَمون من صلاة الصَّبح إلى صلاة العصر ثم ينصرفون عني وأخذ في الراحة إلى صبح اليوم الثاني، فلا تتركني نفسي فارغاً من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة، وأنا بغرارة الشَّباب.

(رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل)

— 98 —

[تدوين التراث]

أو

[في التأليف والإملاء والوراقة]

أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء⁽²⁾ أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، وأمر أن يُفَرَّدَ في حجرة من حجر الدار، ووكل به جواربي وخدماء يقمن بما يحتاج إليه حتى لا يتعلّق قلبه، ولا تتشرف نفسه إلى شيء، حتى أنهم كانوا يُؤذِنُونَهُ بأوقات الصلاة، وصيّر له الوراقين، وألزمه الأمانة والمنفقين، فكان يُمْلِي والوراقون يكتبون، حتى صَنَّفَ الحدودَ في سنين، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يُمْلِي كتاب المعاني. وكان وراقه سلمة وأبو نصر، قال فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم يضبط. قال فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً، فلم يزل يمليه حتى أتمه. وله كتابان في المشكل، أحدهما أكبر من الآخر. قال فلما فرغ من إملاء المعاني خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به، وقالوا لا نخرجه إلى أحد إلا من أراد أن ننسخه على خمس أوراق بدرهم، فشكى الناس ذلك إلى الفراء فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك، فقالوا إنما

(1) الشكل القطّاع: قطعة من دائرة رأسها إما على مركزها وإما على محيطها (نقلًا عن الخوارزمي: «مفتاح العلوم»).

(2) الفراء: من أعلام الكوفة في اللغة والنحو والرواية (توفي 207 / 823).

صحبناك لِنَتَنَفَّعَ بِكَ، وكل ما صَنَّفْتَهُ فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب، فدَعْنَا نَعِشْ بِهِ. قال فَقَارِبُوهم تَتَنَفَّعُوا وَيَتَنَفَّعُوا، فَأَبَوْا عَلَيْهِ. فقال سَأُرِيكُمْ. وقال للناس إني مُنْجِلُ كِتَابٍ مَعَانَ أَتَمَّ شَرْحاً، وَأَبْسَطَ قَوْلًا مَنِ الَّذِي أَمَلَيْتُ. فجلس يُمِلُّ فَأَمَلَّ الْحَمْدَ فِي مِائَةِ وَرَقَةٍ، فَجاء الْوَرَّاقُونَ إِلَيْهِ فَقَالُوا نَحْنُ نَبْلِغُ لِلنَّاسِ مَا يَحْبُونَ، فَنَسْخُوا كُلَّ عَشْرَةِ أَوْرَاقٍ بِدِرْهَمٍ.

الخطيب البغدادي

(تاريخ بغداد)

— 99 —

[تدوين التراث]

أو

[من وظائف الحافظ في اللغة: الإملاء]

وظائف الحافظ في اللغة أربعة: أحدها وهي العليا الإملاء كما أن الحافظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء وقد أُملي حفظ اللغة من المتقدمين الكثير فأُملي ثعلب⁽¹⁾ مجالس عديدة في مجلد ضخيم وأُملي ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً، وأُملي أبو محمد القاسم بن الأنباري⁽²⁾ وولده أبو بكر ما لا يحصى، وأُملي أبو علي القالي⁽³⁾ خمس مجلدات وغيرهم وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستملي أول القائمة مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ويذكر التاريخ ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ويورده من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره وقد

(1) أبو العباس ثعلب (ت 291هـ/904م) من أئمة الكوفة في النحو واللغة. من كتبه قواعد الشعر، مجالس ثعلب.

(2) ابن الأنباري (271/328هـ - 885/939م) من أئمة اللغة، أخذ النحو عن ثعلب، له من الكتب شرح المفضليات وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات والأضداد في اللغة.

(3) القالي (ت 356هـ/967م) من كبار العلماء في اللغة والشعر والرواية، غادر المشرق إلى الأندلس واستقر بقرطبة سنة 330هـ، شهر بكتابه «الأمالي».

كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً ثم ماتت الحفاظ وانقطع إملاء اللغة عن دهر مديد واستمر إملاء الحديث ولما شرعت في إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجدته بعد انقطاع عشرين سنة من سنة مات الحافظ أبي الفضل بن حجر⁽¹⁾ أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره فأملت مجلساً واحداً فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته. وآخر من علمته أملت على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي⁽²⁾ له آمالي كثيرة في مجلد ضخمة وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ولم أقف على أمالٍ لأحد بعده.

جلال الدين السيوطي

(المزهر)

— 100 —

[التحري في ضبط التراث العلمي⁽³⁾]

أو

[من طرق التدريس والتأليف في القرن الثالث :

إملاء كتاب الباقوت في اللغة]

قرأت بخط أبي الفتح عبيد الله ابن أحمد النحوي عليه - وكان صدوقاً بحاثاً منقراً -: كان أبو عمر محمد بن عبد الواحد، صاحب أبي العباس ثعلب، ابتداءً بإملاء هذا الكتاب، كتاب الباقوت، يوم الخميس ليلة بقيت من المحرم سنة ست وعشرين وثلثمائة في جامع المدينة، مدينة أبي جعفر، ارتجالاً من غير كتاب ولا دستور. فمضى في الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره. وكتبْتُ

(1) ابن حجر العسقلاني (ت 852/773 - 1429/1372م)، مولده مصر، من كبار المحدثين في عصره، من كتبه: الإصابة في تمييز الصحابة، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

(2) أبو القاسم الزجاجي (ت 340هـ/952م) أخذ النحو عن ابن دريد والأخفش الأصغر، من كتبه: الأمالي، الجمل، مجالس العلماء.

(3) وهو ما لم يكن من حظ مدونة الشعر عموماً ومدونة الشعراء المنمورين على وجه الخصوص.

ما أملاه مجلساً يتلو مجلساً. ثم رأى الزيادة فيه، فزاد في أضعاف ما أملى وارتجل يواقيتَ أُخَرَ واختصَّ بهذه الزيادة أبو محمد الصفار، لملازمة وتكرير قراءته لهذا الكتاب على أبي عمر، فأخذتُ الزياداتِ منه ثم جمع الناسَ على قراءة أبي إسحاق الطبري له. فسَمِي هذه القراءة، الفذْلَكَة، فقرأ عليه وسمعه الناسُ ثم زاد فيه بعد ذلك، فجمعتُ أنا في كتابي الزياداتِ كُلَّها. وبدأتُ بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وثلثمائة، إلى أن فرغت منه في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة. وحضرت النسخَ كُلَّها عند قراءتي، نسخة أبي اسحق الطبري ونسخة أبي محمد بن سعد القطريلي ونسخة أبي محمد الحجاجي. وزادني في قراءتي عليه أشياء. فتوافقنا في الكتاب كله من أوله إلى آخره. ثم ارتجلَ بعد ذلك يواقيتَ أُخَرَ وزياداتٍ في أضعاف الكتاب. واختصَّ بهذه الزيادة أبو محمد وهب لملازمته. ثم جمع الناسَ ووعدهم بعرض أبي إسحاق الطبري عليه هذا الكتاب. وتكون آخر عرضة يتقرَّر عليه الكتابُ، فلا يكون بعدها زيادة... واجتمع الناس يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة في منزله بحضرة سكة أبي العنبر. فأملَى على الناس ما نسخته. قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد: هذه العرضة هي التي تفرَّد بها أبو إسحاق الطبري، آخر عرضة أسمعها بعده، فمن روى عني في هذه النسخة وهذه العرضة واحداً فليس هو من قولي وهو كذاب عليّ.

ابن النديم

(الفهرست - طبعة طهران)

— 101 —

[النسخ بين الرق والورق]

أو

[الجاحظ ومن عابه بتفضيل الورق على الجلود]

[...] وما عليك أن تكونَ كُتبي كُلَّها من الورق الصَّيْنِي، ومن الكاغد

الخُرَّاساني؟!]

قال لي: لِمَ زَيَّنْتَ النَّسَخَ فِي الْجُلُودِ، وَلَمْ حَشَّيْتَنِي عَلَى الْأَدَمِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْجُلُودَ جَافِيَةَ الْحَجْمِ، ثَقِيلَةَ الْوِزْنِ، إِنْ أَصَابَهَا الْمَاءُ بَطَلَتْ، وَإِنْ كَانَ يَوْمٌ لَثَقِي اسْتَرَخْتُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا تَبْغُضُ إِلَى أَرْبَابِهَا نَزُولَ الْغَيْثِ، وَتَكْرَهُ إِلَى مَالِكِيهَا الْحَيَا، لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا كَفَى وَمَنْعَ مِنْهَا.

قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْوَرَّاقَ لَا يَخْطُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ سَطْرًا، وَلَا يَقْطَعُ فِيهَا جِلْدًا. وَإِنْ نَدَيْتَ - فَضْلًا عَلَى أَنْ تُمَطَّرَ، وَفَضْلًا عَلَى أَنْ تَغْرُقَ - اسْتَرْسَلْتُ فَاثْمَدْتُ. وَمَتَى جَفَّتْ لَمْ تَعُدْ إِلَى حَالِهَا إِلَّا مَعَ تَقْبُضٍ شَدِيدٍ، وَتَشْجُجٍ قَبِيحٍ. وَهِيَ أَنْتَنَ رِيحًا وَأَكْثَرَ ثَمَنًا، وَأَحْمَلُ لِلْغَشِّ: يُغَشُّ الْكُوفِيُّ بِالْوَاسِطِيِّ، وَالْوَاسِطِيُّ بِالْبَصْرِيِّ، وَتَعْتَقُ لَكِي يَذْهَبُ رِيحُهَا وَيَنْجَابُ شَعْرُهَا. وَهِيَ أَكْثَرُ عُقْدًا وَعُجْرًا، وَأَكْثَرُ خِبَاطًا وَأَسْقَاطًا، وَالصُّفْرَةُ إِلَيْهَا أَسْرَعُ. وَسُرْعَةُ انْسِحَاقِ الْخَطِّ فِيهَا أَعَمُّ. وَلَوْ أَرَادَ صَاحِبُ عِلْمٍ أَنْ يَحْمِلَ مِنْهَا قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ فِي سَفَرِهِ لَمَا كَفَاهُ حِمْلُ بَعِيرٍ. وَلَوْ أَرَادَ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْقُطْنِيِّ لَكَفَاهُ مَا يَحْمِلُ مَعَ زَادِهِ.

وَقُلْتُ لِي: عَلَيْكَ بِهَا فَإِنَّهَا أَحْمَلُ لِلْحَكِّ وَالتَّغْيِيرِ، وَأَبْقَى عَلَى تَعَاوُرِ الْعَارِيَةِ وَعَلَى تَقْلِيلِ الْأَيْدِي، وَلِرَدِّدِهَا ثَمَنَ، وَلَطَرَسِهَا مَرْجُوعَ، وَالْمَعَادَ مِنْهَا يَنْوِبُ عَنِ الْجُدِّدِ. وَلَيْسَ لِدَفَاتِرِ الْقُطْنِيِّ أَثْمَانٌ فِي السُّوقِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا كُلُّ حَدِيثٍ طَرِيفٍ، وَلَطْفٍ مَلِيحٍ، وَعِلْمٍ نَفِيسٍ. وَلَوْ عَرَضْتَ عَلَيْهِمْ عِذْلَهَا فِي عَدَدِ الْوَرَقِ جُلُودًا ثَمَّ كَانَ فِيهَا كُلُّ شَعْرٍ بَارِدٍ وَكُلُّ حَدِيثٍ غَثٍّ، لَكَانَتْ أَثْمَنَ، وَلَكَانُوا عَلَيْهَا أَسْرَعَ.

وَقُلْتُ: وَعَلَى الْجُلُودِ يَعْتَمِدُ فِي حِسَابِ الدَّوَابِّ، وَفِي الصُّكَاكِ وَالْعُهُودِ، وَفِي الشُّرُوطِ وَصُورِ الْعَقَارَاتِ. وَفِيهَا تَكُونُ نَمُودَجَاتُ النُّقُوشِ، وَمِنْهَا تَكُونُ خَرَائِطُ الْبُرْدِ. وَهَنْ أَصْلَحُ لِلْجُرْبِ وَلِعِفَاصِ الْجَرَّةِ وَسِدَادِ الْقَارُورَةِ. وَزَعَمْتُ أَنْصَ الْأَرْضِ إِلَى الْكَاغِدِ أَسْرَعَ، وَأَنْكَرْتُ أَنْ تَكُونَ الْفَأْرَةُ إِلَى الْجُلُودِ أَسْرَعَ، بَلْ زَعَمْتُ أَنَّهَا إِلَى الْكَاغِدِ أَسْرَعَ وَلَهُ أَفْسَدُ، فَكُنْتُ سَبَبَ الْمَضَرَّةِ فِي اتِّخَاذِ الْجُلُودِ وَالِاسْتِبْدَالِ بِالْكَاغِدِ، وَكُنْتُ سَبَبَ الْبَلِيَةِ فِي تَحْوِيلِ الدَّفَاتِرِ الْخِفَافِ فِي الْمَحْمَلِ، إِلَى الْمَصَاحِفِ الَّتِي تُثْقَلُ الْأَيْدِي وَتَحْطَمُ

الصدور، وتقوُّس الظهور، وتُعْمِي الأبصار.

الجاحظ

(رسالة في الجد والهزل/ مجموعة رسائل الجاحظ، ج 2 ص 252)

— 102 —

[النسخ وأدواته]

أو

[في صناعة القلم الذي اخترعه

المعز الفاطمي⁽¹⁾]

القاضي النعمان

قال القاضي النعمان بن محمد رضي الله عنه: ذكر الإمام المعز لدين الله عليه السلام القلم، فوصف فضله ورمز فيه بباطن العلم ثم قال: نريد أن نعمل قلمًا يُكْتَبُ به بلا استمداد من دواة، يكون مدادُه من داخله: فمتى شاء الإنسان كتبَ به فأمدَّه وكتبَ بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المدادُ، وكان القلم ناشفًا منه، يجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يزشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يُتَغَيَّ منه ويُراد الكتابةُ به، فيكون آلةٌ عجيبة لم نعلم أننا سبقنا إليها ودليلاً على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى فيها.

فقلت: ويكون هذا يا مولانا عليك السلام!؟

قال: يكون إن شاء الله.

(1) المعز لدين الله الفاطمي: كانت ولايته من 341 إلى 362.

التعليق:

لا تخفى أهمية هذا النص من الناحية الحضارية، إذ لا شك أن قلم المعز هذا سبق بشمانيه قرون أول قلم خزان عرف في أوروبا، وهو قلم F. B. Foelsh سنة 1809، ثم قلم J. Scheffer سنة 1819 (انظر دائرة المعارف الإيطالية، فصل Penna ج 26 ص 680) نقلًا عن محققي كتاب «المجالس...» الأستاذة إبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي والحبیب الفقیه).

فما مرّ بعد ذلك إلا أيام قلائل حتّى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة، به . معمولاً من ذهب فأودعه المداد به فكتب . وزاد شيئاً من المداد على مقدار الحاجة . فأمر بإصلاح شيء منه فأصلحه وجاء به فإذا هو قلم يُقَلَّبُ في اليد ويميل إلى كلّ ناحية فلا يبدو منه شيء من المداد . فإذا أخذه الكاتب وكتب به كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به . ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد .

فرايت صنعة عجيبة لم أكن أظنّ أنّي أرى مثلها وتبين لي فيه مثل حسن في أنّه لا يَسْمَحُ بما عنده إلا عند طلب ذلك منه، وفيما يعود بالنفع ممّا جعل سبباً له، ولا وجود لغير مُبْتَنًى ولا يُخرج ما فيه إلا لمن يَجِبُ إخراج ذلك له لمن يحبّ، ولا يخرج منه ما يضرّ فيلَطُخُ يد من يمسكه أو ثوبه أو ما لصق به، فهو نفع ولا ضرر، وجواد لمن سأل، وممسك عمن لم يسأل، ومستغن بما فيه عن غيره أن يستمدّ منه .

القاضي النعمان

(كتاب المجالس والمسامرات)

— 103 —

[صناعة الوراقة ودورها في]

الحفاظ على جانب من التراث باقتناء ما

تفرّق من نواذر المخطوطات بالخزائن الخاصة]

قال محمد بن إسحاق⁽¹⁾: كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ويعرف بابن أبي بكرة، جماعة للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة؛ تحتوي على قطعة من الكتب الغريبة في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة، فلقيت هذا الرجل دفعاتٍ فأنس بي، وكان نفوراً ضئيلاً بما عنده وخائفاً من بني حمدان. فأخرج إليّ قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصيكاك وقرطاس مصر وورق صينيّ وورق تهايميّ وجلود آدم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم، وشيء من

(1) هو ابن النديم .

النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم. وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة، ذهب عني اسمه، كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة، وأنه لما حضرته الوفاة خصّه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال من محمد بن الحسين عليه ومجانسة بالمذهب فإنه كان شيعياً، فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً. إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها. وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج، توقيع بخطوط العلماء واحداً إثر واحد، يُذكر فيها خط من هو، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض.

ابن النديم
(الفهرست - طبعة طهران)

— 104 —

[من دور الحكمة في العهد الفاطمي]

أو

[في نسخ التراث وتدوينه]

[...] وفي يوم السبت هذا يعني العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها. وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعُلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسُموا بخدمتها وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله⁽¹⁾ من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك. وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فكان ذلك

(1) الحاكم بأمر الله: أبو علي المنصور. تولى الخلافة بمصر سنة 386هـ/ 996م.

من المحاسن الماثورة أيضاً التي لم يُسمع بمثلها من إجراء الرزق السنّي لِمَن
رُسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره. وحَضَرها النَّاسُ على
طبقاتهم فمنهم مَن يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للتَّسْنِخ ومنهم من
يحضر للتعلُّم. وجعل فيها ما يحتاج النَّاسُ إليه من الحبر والأقلام والورق
والمحابر.

المقريزي
(الخطط)

— 105 —

[في الخزائن السلطانية]
أو
[اهتمام أولي الأمر بالكتب]

— 1 —

ذُكِرَ عند العزيز بالله⁽¹⁾ كتابُ العين للخليل بن أحمد فأمر خزانَ دفتاره
فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخةٌ بخط
الخليل بن أحمد وحملَ إليه رجلٌ نسخة من كتاب تاريخ الطُّبري اشتراها بمائة
دينار فأمر العزيزُ الخزانَ فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من
تاريخ الطُّبري منها نسخةٌ بخطه وذُكِرَ عنده كتابُ الجُمهرة لابن دريد⁽²⁾ فأخرجَ
من الخزانة مائة نسخة وقال في كتاب الذَّخائر عِدَّةُ الخزائن التي يرسمُ الكتب في
سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، من جُمَلتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم
القديمة وأن الموجودَ فيها من جملة الكتب المخرجة في شدَّة المستنصر⁽³⁾ ألفان

(1) العزيز بالله: أبو منصور نزار. تولى الخلافة الفاطمية بمصر سنة 365هـ/ 975م.

(2) ابن دريد (223 - 321) أديب - لغوي. من كتبه: الجُمهرة في اللغة، المقصور
والممدود. (انظر بعض شعره بالجزء السادس).

(3) المستنصر: أبو تميم مسعد، تولى الخلافة الفاطمية بمصر سنة 427هـ/ 1035م.

وأربعمئة ختمة قرآن في رُبْعَاتٍ بخطوط مَنسُوبَةٍ⁽¹⁾ زائدة الحُسْنِ مُحَلَّاةٍ بذهب وفضّة وغيرهما وأنَّ جميعَ ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراكُ في واجباتهم ببعض قيمته ولم يبقَ في خزائن القصر البرّانية منه شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل إليها ووجدت صناديق مملوءة أقلاماً مبريّة من براية ابن مقلة⁽²⁾ وابن البواب⁽³⁾ وغيرهما.

- 2 -

وخزانة الكتب⁽⁴⁾ كانت في أحد مجالس المارستان اليوم يعني المارستان العتيق فيجيء الخليفة راكباً ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر إليه من يتولاها وكان في ذلك الوقت المجلس ابن عبد القوي فيُخَضَّرُ إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب، فإن عَنَ له أخذُ شيء منها أخذه ثم يعيده، وتحتوي هذه الخزانة على عدة رُفُوفٍ في دور ذلك المجلس العظيم والرُفُوفُ مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز بابٌ مقفل بمفصلات وقفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسيرٌ من المجرّدات فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتبُ الحديث والتواريخ وسيرُ الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ ومنها النواقص التي ما تمت كل ذلك بورقة مترجمة ملصّقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة في مكان فوقها وفيها من الدروج

(1) منسوبة إلى خطاطين مشهورين. وفي هذا دلالة على عناية القدماء بالخط (انظر ابن خلدون: المقدمة).

(2) أبو علي محمد بن علي بن مقلة (272/866 - 328/940): من أئمة الخطاطين ببغداد في عصره، وكان شاعراً أديباً، وتقلد الوزارة لثلاثة من خلفاء بني العباس، خرج بالخط من أنماطه الكوفية إلى النمط النسخي.

(3) أبو الحسن علاء الدين بن هلال، عرف بابن البواب (توفي نحو 413/1022)، إمام الخطاطين في القرن الرابع. احتفظت خزائن المخطوطات باسطنبول ببعض نماذج من خطه نذكر منها قرآناً بخط ريحاني وديوان سلمة بن جندل.

(4) خزانة الخليفة الفاطمي العزيز بالله المذكور آنفاً.

بخط ابن مُقَلَّةَ ونظائره كابن البَوَّاب وغيره... وكانت من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارُ كتبٍ أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمئة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة.

المقريزي
(الخطوط)

— 106 —

[الخطوط وشأنها في تدوين التراث]
أو

[في خزائن الكتب السلطانية في عهد البويهيين ومن كان عليها
من رؤوس خطاطي العصر]

[حَدَّثَ] أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْبَوَّابِ الْكَاتِبُ⁽¹⁾ قَالَ:
كُنْتُ أَنْصَرَفُ فِي خِزَانَةِ الْكُتُبِ لِبَهَاءِ الدَّوْلَةِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بِشِيرَازَ عَلَى اخْتِيَارِي
وَأُرَاعِيهَا لَهُ وَأَمَرَهَا مَرْذُودٌ إِلَيَّ، فَرَأَيْتُ يَوْمًا فِي جُمْلَةٍ أَجْزَاءَ مَنبُودَةٍ جُزْءًا مُجَلَّدًا
بِأَسْوَدَ قَدَرَ الشُّكْرِيِّ فَفَتَحْتُهُ وَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ ثَلَاثِينَ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ بِخَطِّ أَبِي
عَلِيٍّ بْنِ مُقَلَّةٍ⁽²⁾، فَأَعْجَبَنِي وَأَفْرَدْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَظْفَرُ بِجُزْءٍ بَعْدَ جُزْءٍ مُخْتَلِفٍ فِي جُمْلَةٍ
الْكُتُبِ إِلَى أَنْ أَجْتَمَعَ تِسْعَةً وَعِشْرُونَ جُزْءًا، وَبَقِيَ جُزْءٌ وَاحِدٌ اسْتَعْرِفْتُ تَفْشِيرَ
الْخِزَانَةِ عَلَيْهِ مُدَّةً طَوِيلَةً فَلَمْ أَظْفَرُ بِهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُضْحَفَ نَاقِصٌ فَأَفْرَدْتُهُ

(1) انظر النص رقم 105.

(2) انظر النص رقم 105.

وَدَخَلْتُ إِلَى بَهَاءِ الدَّوْلَةِ وَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا، هَهُنَا رَجُلٌ يَسْأَلُ حَاجَةً قَرِيبَةً لَا كُفْلَةَ فِيهَا، وَهِيَ مُحَاطَبَةُ أَبِي عَلِيٍّ الْمُؤَقَّقِ الْوَزِيرِ عَلَى مَعُونَتِهِ فِي مُنَازَعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمٍ لَهُ، وَمَعَهُ هَدِيَّةٌ ظَرِيفَةٌ تَصْلُحُ لِمَوْلَانَا. قَالَ: أَيُّ شَيْءٍ هِيَ؟ قُلْتُ مُضْحَكٌ بِحُطِّ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مُقْلَةٍ. فَقَالَ: هَاتِهِ وَأَنَا أَتَقَدَّمُ بِمَا يُرِيدُ، فَأَخْضَرْتُ الْأَجْزَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا وَاحِدًا وَقَالَ: أَذْكَرُ وَكَانَ فِي الْخِزَانَةِ مَا يُشْبِهُ هَذَا وَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي، قُلْتُ: هَذَا مُضْحَكٌ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فِي طَلَبَتِي لَهُ حَتَّى جَمَعْتُهُ إِلَّا أَنَّهُ يَنْقُصُ جُزْءًا وَقُلْتُ: هَكَذَا يُطْرَحُ مُضْحَكٌ بِحُطِّ أَبِي عَلِيٍّ؟ فَقَالَ لِي: فَتَمِّمْنِي لِي. قُلْتُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَلَكِنْ عَلَى شَرِيطَةِ أَنَّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ الْجُزْءَ النَّاقِصَ مِنْهَا وَلَا تَعْرِفُهُ أَنْ تُعْطِيَنِي خِلْعَةً وَمِائَةَ دِينَارٍ. قَالَ: أَفْعَلُ. وَأَخَذْتُ الْمُضْحَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى دَارِي، وَدَخَلْتُ الْخِزَانَةَ أَقْلُبُ الْكَاعِدَ الْعَتِيقَ وَمَا يُشَابِهُ كَاعِدَ الْمُضْحَكِ، وَكَانَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكَاعِدِ السَّمَرَقَنْدِيِّ وَالصَّبِينِيِّ وَالْعَتِيقِ كُلِّ ظَرِيفٍ عَجِيبٍ، فَأَخَذْتُ مِنَ الْكَاعِدِ مَا وَافَقَنِي وَكَتَبْتُ الْجُزْءَ وَذَهَبْتُهُ وَعَتَقْتُ ذَهَبَهُ، وَقَلَعْتُ جِلْدًا مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ فَجَلَّدْتُهُ بِهِ وَجَلَّدْتُ الَّذِي قَلَعْتُ مِنْهُ الْجِلْدَ وَعَتَقْتُهُ، وَنَسِيَ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ الْمُضْحَكَ، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ نَحْوُ السَّنَةِ. فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَرَى ذِكْرُ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مُقْلَةٍ فَقَالَ لِي: مَا كَتَبْتَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَأَعْطِينِيهِ: فَأَخْضَرْتُ الْمُضْحَكَ كَامِلًا فَلَمْ يَزَلْ يُقَلِّبُهُ جُزْءًا جُزْءًا وَهُوَ لَا يَقِفُ عَلَى الْجُزْءِ الَّذِي بِحُطِّي ثُمَّ قَالَ لِي: أَيُّمَا هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي بِحُطِّكَ؟ قُلْتُ لَهُ: لَا تَعْرِفُهُ فَيَضْغَرُ فِي عَيْنِكَ، هَذَا مُضْحَكٌ كَامِلٌ بِحُطِّ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مُقْلَةٍ وَنَكْتُمُ سِرًّا؟ قَالَ: أَفْعَلُ: وَتَرَكَهُ فِي رُبْعَةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ وَلَمْ يُعِدهُ إِلَى الْخِزَانَةِ، وَأَقَمْتُ مُطَالِبًا بِالْخِلْعَةِ وَالْذَّنَانِيرِ وَهُوَ يَمْطُلُنِي وَيَعِدُنِي، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا قُلْتُ يَا مَوْلَانَا: فِي الْخِزَانَةِ بَيَاضٌ صِينِي وَعَتِيقٌ مَقْطُوعٌ وَصَحِيحٌ، فَتُعْطِينِي الْمَقْطُوعَ مِنْهُ كُلُّهُ دُونَ الصَّحِيحِ بِالْخِلْعَةِ وَالْذَّنَانِيرِ. قَالَ: مَرُّ وَخُذْهُ. فَضَمَيْتُ وَأَخَذْتُ جَمِيعَ مَا كَانَ فِيهَا

مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ فَكَتَبْتُ فِيهِ سِنِينَ.

مما نقله ياقوت

(معجم الأدباء)

— 107 —

[إقامة ياقوت الحموي بمَرَوْ في بداية القرن السادس

وخبر استفادته من خزائن كتبها]

وبمرو⁽¹⁾ جامعان للحنفية والشافعية يجمعهما السور وأقيمتُ بها ثلاثة أعوام...⁽²⁾ ولولا ما عَرَا من ورود التَّـر⁽³⁾ إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات لما في أهلها من الرِّفْد ولين الجانب وحُسن العِشْرَةِ وكثرة كُتُب الأصول المُتَقَنَّة بها فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أرَ في الدنيا مثلاً كثرةً وجودةً منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعياً للسلطان سنجر⁽⁴⁾. وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرايباً له وكان ذا مكانة منه وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها⁽⁵⁾ والأخرى يقال

(1) مدينة مرو جنوب شرقي بخارى وتدعى اليوم «مَري»، وهي إحدى مدن جمهورية ازباكستان.

(2) يذكر ياقوت في معرض حديثه عن مدينة مرو أنه فارقتها سنة 616هـ / 1219م (انظر معجمه: الإحالة أعلاه).

(3) خَرَب المغول المدينة وسَدَّها المشهور سنة 618هـ / 1221م.

(4) هو السلطان سنجر السلجوقي (أيام سلطنته: 511 - 522 / 1118 - 1128).

(5) نذكر هنا على سبيل المقارنة ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب - نقلاً عن المستشرق الألماني آدم متز - : «كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة «كُنْستَانز» (بألمانيا) في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير «الْبَدِكِين» عام 1032م / 424هـ ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة =

لها الكمالية لا أدري إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفي هذا في سنة 494 وكان حنفي المذهب وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن.

ياقوت

(معجم البلدان ط. أوروبا)

— 108 —

[من النوادر]

أو

الحفظ وشأنه في تدوين نصوص التراث

— 1 —

حدث الوزير أبو بكر بن زهر قال:

«بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندني رجلٌ ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني، فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها؛ فقلت له: أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به قال: ما أتيتُ به معي؛ فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجلٌ بدُّ الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لآنها من غير إتيان لها؛ فحسبته لماً رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد

= (بألماني) سنة 1130م / 525هـ ستة وتسعون كتاباً فقط (انظر كتابه: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، المجلد الأول ص 323 طبعة 1967).

وقال لي: يا بني، استأذن لي على الوزير أبي مروان؛ فقلت له: هو نائم؛ هذا بعد أن تكلفتُ جوابه غايةً التكلف؛ حملني على ذلك نزوة الصُّبا وما رأيتُ من خشونة هيئة الرجل؛ ثم سكتَ عني ساعة، وقال: ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟ فقلت له: ما سؤالك عنه؟ فقال: أحب أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب! فقلت: هو كتاب الأغاني؛ فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟ قلت: بلغ موضع كذا، وجعلتُ أتحدثُ معه على طريق السُّخريّة به والضَّحك على قلبه، فقال: وما لكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبتُ منه الأصل الذي يكتب منه لأعارضَ به هذه الأوراق، فقال لم أجيء به معي؛ فقال: يا بني، خذ كراريسك وعارض؛ قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظُ هذا الكتاب في مدّة صباي؛ قال: فتبسّمتُ من قوله، فلما رأى تبسّمي قال: يا بني أمسك عليّ؛ قال: فأمسكتُ عليه وجعل يقرأ، فوالله ما أخطأ واوًا ولا فاء؛ قرأ هكذا نحوًا من كُرَاسَتين، ثم أخذت له في وسط السُّفر وآخره، فرأيت حِفْظَه في ذلك كلّهُ سواء.

«فاشدد عجبِي، وقمتُ مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفتُ له الرجل؛ فقال كما هو من قوّره، وكان ملتفّاً برداءٍ ليس عليه قميصٌ، وخرج حاسرَ الرأس حافيَ القدمين لا يَرَفُقُ على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يُوسعني لوماً، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبّل رأسه ويديه ويقول: يا مولاي اعدرنِي، فوالله ما أعلمني هذا الجلفُ إلا الساعة؛ وجعل يسُبُّني، والرجل يُخَفِّضُ عليه ويقول: ما عرفني؛ وأبي يقول: هَبْهُ ما عَرَفَكَ، فما عُدْرُهُ في حُسن الأدب.

«ثم أَدْخَلَهُ الدارَ وأكرمَ مجلسَه وخَلَا بِهِ فتحدثا طويلاً؛ ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر بدَابَّتِهِ التي يركبها فَأُسْرِجَتْ، وحلف عليه ليركبَها ثم لا ترجع إليه أبداً.

«فلما انفصل قلت لأبي: مَنْ هذا الرجل الذي عَظَّمْتَهُ هذا التعظيم؟ قال لي: اسكُتْ ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيّدُها في علم الآداب، هذا

أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسرُ محفوظاته كتابُ الأغاني؛ وما حفظُهُ في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟».

سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد على مراکش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة 595.

المراكشي

(المعجب في تلخيص أخبار المغرب)

— 2 —

قال أبو العباس ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي، وكان يحضره زهاء مائة إنسان، وكان يُسأل ويُقرأ عليه فيجيبُ من غير كتاب، ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت يده كتاباً قط، ولقد أملت على الناس ما يُحمل على أجمال، ولم يرَ أحدٌ في علم الشعر أغزر منه. ورأى في مجلسه يوماً رجلين يتحادثان، فقال لأحدهما: من أين أنت؟ فقال: من إسيجاب، وقال للآخر: من أين أنت؟ فقال: من الأندلس، فعجب من ذلك وأنشد:

رَفِيقَانِ شَيْءَ أَلْفِ الدَّهْرِ بَيْنَنَا وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّيْءُ فَيَا تَلَفَانِ

ابن خلكان

(وفيان الأعيان)

— 109 —

[ضبط دواوين الشعر في حياة أصحابها:

ابن خفاجة نموذجاً نادراً]

[...] وَلَمَّا ارْتَقَتْ بِسِي السَّنِّ مُرْتَقَاهَا، وَشَارَفَتْ مُنْتَهَاهَا، وَتَوَالَتْ رَغْبَةُ
الإِخْوَانِ فِيهِ⁽¹⁾ تَجَدَّدُ، وَحِرْصُ الْأَعْيَانِ عَلَيْهِ يَتَأَكَّدُ، تَوَخَّيْتُ أَنْ أَقْصِرُهُ فِي مُجَلَّدٍ
وَأَخْصِرُهُ، وَأَخْشَرُهُ جُمْلَةً وَأَنْشُرُهُ. وَكَانَ قَدْ بَادَ، أَوْ كَادَ لِدُثُورِ رِقَاعِ مُسْوَدَاتِهِ،

(1) إشارة إلى مجموع شعره.

وَإِخْلَاقِ حَوَاشِي تَغْلِيْقَاتِهِ. وَاقْتَضَى النَّظْرُ فِيْمَا حَاوَلْتُهُ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ ثَانِيًا تَعَهَّدَ
 مُؤَلَّفٍ، وَأَتَفَقَّدَهُ عَائِدًا تَفَقَّدَ مُتَأَمِّلٍ مُثَقِّفٍ، / فَمِنْهُ مَا تَعَهَّدْتُهُ فَقَيَّدْتُهُ، وَمِنْهُ مَا
 لَحِظْتُهُ فَلَفَظْتُهُ، وَمِنْهُ مَا تَصَفَّحْتُهُ فَأَصْلَحْتُهُ، إِمَّا لِاسْتِفَادَةٍ مَعْنَى، وَإِمَّا لِاسْتِجَادَةِ
 مَبْنَى. وَكَانَ قَدْ شَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَذَاعَ، فَمِنْ مُتَعَلِّقٍ بِنَفْسٍ، وَمِنْ مُتَعَلِّقٍ فِي طَرَسٍ.
 وَسَيَخْتَلِفُ وَجُودُهُ بِمَا عَاوَدْنَاهُ مِنْ مُفْتَقِدِهِ وَمُنْتَقِدِهِ، فَلَا يَوْجَدُ وَاحِدًا، لَا مِنْ
 طَرِيقِ صِبْغَتِهِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ عَدَدِهِ.

ابن خفاجة الأندلسي
 (من خطبة الديوان ص 3 - 4)

المحتوى

مدخل عام: المنهج 9

القسم الأول

شعراء عباسيون منسيون: الإشكالية العامة

- توطئة جمال الدين بن الشيخ 33
- مدخل 39
- الفصل الأول: المدونة. طرح القضية، معالم العمل وفرضياته 45
- المنطلقات التمهيدية 47
- معالم منهجية 50
- الفصل الثاني: المدونة. تقديمها، تحديد برنامج البحث 61
- مشروعنا 63
- الحدود المنهجية 74
- الفصل الثالث: طلب المدونة: الشعراء المشتهرون والشعراء الأغفال 81
- التعريفات 83
- الأسباب العميقة للمباعدة بين منازل الشعراء 85
- الفصل الرابع: طلب المدونة: الحالة الراهنة للمصادر 91
- منطلقات تمهيدية 93
- الإشكالية 94
- مدونة الشعر لذلك العصر: قضية المصادر 99

الفصل الخامس: مدونة الشعراء «المقلّين» وحدودها، العوامل العامة
التي أدّت إلى تشبّثها وانخراطها 109

1 - العوامل الخارجية

- 111 - المنطلقات العامة
 - 113 - «السلطان الأدبي» أو سلطان الأعلام المشتهرين
 - 115 - رعاية الأدب
 - 117 - مركزية بغداد
 - 118 - ملابسات إذاعة الشعر ونشره
- الفصل السادس: مدونة الشعراء «المقلّين» وحدودها.

العوامل التي أدّت إلى تشبّثها وانخراطها 127

2 - العوامل الدّاخلية

- 129 - المنطلقات التمهيدية
 - 129 - الشعراء «المقلّون» ودواعي الرفض
 - 132 - الخطاب الشعري
 - 132 ● الشعر والنظام الثقافي
 - 134 ● الشعر واتساع مدى المدونة
 - 138 ● الشعر وضغوط الحركة الدّاخلية للخطاب الشعري ...
- الفصل السابع: مدونة الشعراء «المقلّين» وحدودها.

العوامل التي أدّت إلى تشبّثها وانخراطها 149

3 - العامل التّأليفي: أو توجّه الفضاء الأدبي إلى الاختيارات

- 151 - المنطلقات التمهيدية
- 152 - العوامل الدّاخلية:
- 152 ● الشعر وضغوط أشكال التعبير
- 154 ● الشعر والنسق اللاشعري في التعبير
- 157 ● الشعر ومفهوم الملكية الأدبية

158	— العوامل الخارجية:
158	● الشعر ومسالك الانتقاء أو الشعر وذوق العصر
160	● الشعر وفضاء المجالس
169	● الشعر وأدب الإختيار
179	الخاتمة وآفاق البحث

ذيل

نصوص مختارة من أمهات الآثار النقدية القديمة

203	المحور الأول: الشعر: حقيقته صناعته
229	المحور الثاني: الشعراء
247	المحور الثالث: الشعر بين «الطبع» و «التكلف»
273	المحور الرابع: مدونة المغمورين وانفلاقها شظايا في مجاميع الأدب
307	المحور الخامس: نقد الشعر والشعراء ومسالكه لدى القدماء
	المحور السادس: المجالس ودورها في الحفاظ على جانب
343	من مدونة المغمورين
	المحور السابع: مدونة الشعراء المغمورين ومسالك التدوين
377	(مداخل عامة)

الجدول العام لما نشر من شعر المقلين في العصر العباسي الأول خلال العقود الأخيرة، والفهارس المختلفة، والثبت المفصل للمصادر والمراجع، فذلك ما يجده القارئ في ذيل الجزء السادس من هذا العمل.

1. *Pharmaceutical industry* – The pharmaceutical industry is a major contributor to the U.S. economy, with sales of over \$200 billion in 2000. The industry is characterized by high research and development costs, long time to market, and high barriers to entry. The industry is also heavily regulated by the FDA.

que le nom d'un auteur y fût prononcé" ⁽¹⁾. Pensons également à ces "micro-*Corpus* parallèles" qui accompagnent sous forme de variantes, dans les éditions critiques - quand elles existent - , la partie du *Corpus* imprimée, et dont l'exploitation n'a donné lieu jusqu'ici à aucune tentative de lecture sérieuse. Travail d'érudition, certes, mais qui en suscitant à côté des textes d'autres textes, peut déboucher sur une sorte de poétique des variantes ⁽²⁾.

Telles sont en conclusion quelques-unes des interrogations auxquelles des recherches futures tenteront de répondre. Mais pour l'instant une halte est nécessaire. Il faudra d'abord faire avancer les travaux de collecte, de recension et d'édition critique du *Corpus*. Rien ne peut se faire, croyons-nous, sans ces travaux préliminaires encore en très grande partie inexistants. Les travaux d'évaluation, de théorisation suivront. Si donc - comme nous le notons dans l'avant propos ouvrant la deuxième partie de ce travail notre *Corpus* tel quel, ainsi que les éléments d'information et de réflexion qui l'accompagnent, auxquels viennent s'ajouter les indicateurs de recherche qui balisent le présent volume - , peuvent aider à faire avancer ces travaux en vue de la réalisation du grand projet du *Corpus* général de la poésie arabe classique, l'entreprise engagée aura atteint un de ses buts.

Brahim NAJAR

TUNIS - CARTHAGE 12 Juillet 1996

1) Paul Valéry, *Variétés V*, p. 288.

2) Cf. J. Bellemin - Noël, *Le texte et l'avant-texte*, pp. 131 - 132, où l'auteur conclut à " une poétique jusqu'aux brouillons " .

patiemment quêtées à travers les dédales inextricables d'un gongorisme sans mesure ⁽¹⁾ ?.

Continuera-t-on également à appliquer au domaine arabe des II/VIII et III/IX siècle la thèse d'une production poétique frappée au sceau du 'collectif' où le cas ("fait de talent" ou "fait de génie", ou encore ce que Blachère appelle : "cas tranché") fait exception : thèse d'ailleurs qu'on serait tenté d'accréditer quand on considère que sur d'autres plans, celui de la collecte et la recension notamment, cette production qui nous est parvenue en grande partie, non sous forme de recensions complètes mais sous forme de citations fragmentaires dont pratiquement aucune oeuvre en prose n'est exempte - est frappée elle-même au sceau du collectif : incorporation des citations au corps même des oeuvres considérées, avec cette adhésion du message au transmetteur qui le situe chronologiquement, adhésion telle que, souvent, le message ne requiert de valeur, de réalité propre que par la seule vertu du transmetteur, "re-créditeur" en quelque sorte, et seul garant de son authenticité chronologique?.

D'autres problèmes sont restés en suspens : pensons seulement à ce pan non négligeable du *Corpus* plongé dans l'ombre de l'anonymat et qui reste le grand absent de la recherche moderne. A quand, en effet, l'exhumation de cette poésie "solitaire" non attribuée dont nombre de spécimens, véritables fleurons, mériteraient de figurer en bonne place dans une anthologie générale de la poésie arabe ? Ne devrait-on pas suivre le raisonnement de Valéry et admettre qu'*"une Histoire approfondie de la Littérature devrait (...) être comprise, non tant comme une histoire des auteurs et des accidents de leur carrière ou de celle de leurs ouvrages, que comme une histoire de l'esprit en tant qu'il produit ou consomme de la littérature, et cette histoire pourrait même se faire sans*

1) Notons cependant que les voies nouvelles ouvertes par les sciences de la langue depuis Saussure semble s'orienter vers une nouvelle approche des faits de rhétorique, et en définitive vers une nouvelle lecture de l'écriture poétique (consulter à cet effet : Riffaterre, *Essai de Stylistique structurale*. - Jean Cohen : *Structure du Langage poétique*. - J.E. Bencheikh : *Poétique arabe*).

partie "introuvable" ; à sa périodisation ; à sa typologie ; au processus d'évolution qui a affecté ses différentes couches et dont on ne peut mesurer objectivement l'impact tant qu'on n'a pas saisi l'ampleur réelle des changements de mentalité et de conscience qui ont déterminé un tel processus ; au statut du discours poétique lui-même (porteur de germes de renouveau et de rupture) par rapport à la légitimité culturelle symbolisée par les schèmes exemplaires legs de la tradition : est-il un ou pluriel ? dans quelle mesure participe-t-il au patrimoine culturel commun dans ses constantes les plus profondes ? dans quelle mesure témoigne-t-il d'une époque dans toute sa diversité ? dans quelle mesure pose-t-il, même si c'est souvent à travers la simple imitation d'un modèle, le problème de l'homme dans le monde ? ; à la poésie d'un abu-I-Chamaqmaq, d'un Abù-Dulàma, d'un Ràchid Ibn Ishàq : dans quelle mesure se sépare-t-elle de celle d'un Abù-Tammàm ou d'un Buhturî, en ce sens qu'elle viserait plus à connaître l'homme qu'à témoigner d'un type d'homme et de l'imposer comme tel ? ⁽¹⁾ Et continuera-t-on à souscrire à certaines voies d'analyse à coloration culturaliste, sociologique ou anthropologique qui, érigeant le fixisme ⁽²⁾ dans la littérature arabe en règle générale, en arrivent à réduire tout effort de création poétique à un travail répétitif dans la langue, comme le ferait dans d'autres domaines de l'art - dira Jacques Berque - le dinandier, le lissier, le tourneur, l'ornementaliste, le calligraphe ou le miniaturiste. Travail répétitif ou *mu'arafa* toujours recommencée, où la performance se mesure au degré de conformité de l'oeuvre au modèle originel, et également aux mille petites trouvailles

1) Pour les notions de *adab*, culture, humanisme, voir A. Miquel, *Géographie humaine* ..., pp. 53, 184.

2) Fixisme (ou statisme) qui postule un système clos où tout est donné d'emblée dans le cadre de la culture ou de l'idéologie. A noter ici qu'un orientaliste de grande culture G. Von Grunebaum dont l'oeuvre est exemplaire à plus d'un titre, ne semble pas avoir échappé à cette vision (voir l'étude fouillée que donne Abdallah Laroui de la démarche de cet auteur : *Diogenes* n° 83/1973). A consulter également *Langages arabes du présent* de Jacques Berque, où l'auteur traduira ce fixisme par ce qu'il appelle (par euphémisme) une "*sunna culturelle*").

déployent à plusieurs niveaux) à proposer une sorte de bilan provisoire des problèmes que pose la poésie arabe des périodes classiques à la recherche de notre temps. La table raisonnée des notions que nous produisons au vol. VI, constitue une sorte de cadre général de cette problématique et fait apparaître trois dominantes :

1) - Le centralisme bagdadien et l'ordre établi (politique, culturel, social) comme facteurs décisifs de polarisation et d'intégration de l'univers poétique (ce qui explique entre autres le clivage entre "*poetae minores*" et "*poetae majores*", et le caractère essentiellement urbain de la poésie "moderniste").

2) - L'ordre interne du discours comme facteur d'éclatement du *corpus* (nous savons en effet comment la "combinatoire" ⁽¹⁾ propre au discours poétique arabe, procédant non par "invention obsolue" mais par "participation à des schèmes exemplaires et hérités" ⁽²⁾, confèrera au *corpus* cet aspect redondant ⁽³⁾ et fluide qui favorisera au niveau de la "consommation" toutes les libertés, depuis l'arrangement sans gravité jusqu'au plagiat pur et simple : ce qui ne manquera pas d'accélérer le processus d'éclatement évoqué).

3) - L'ampleur du corpus et l'éclectisme de salon (ce dernier constituant la marque des options culturelles d'une époque, d'une classe) comme facteurs décisifs ayant généré le processus anthologique et favorisé l'émergence de cette littérature d' "*adab*" foisonnante et multiforme où le corpus viendra s'échouer en miettes.

* * *

Tel est donc notre bilan. Bien maigre. Un long parcours reste à faire sur le chemin de la découverte des poètes "mineurs". Certains problèmes ont été à peine effleurés : pensons seulement au *corpus* encore en grande

1) Nous reprenons ici le terme utilisé par Paul Valéry dans son étude : "*Enseignement de la Poétique*", Variété V, p. 289.

2) Zumthor, "*Langue*", p. 201 et techniques poétiques à l'époque romane XI - XIII s"

3) Redondances qui procèdent de l'art de la variation et non de la redite.

ample et souple. L'époque qui nous préoccupe et que la tradition scolaire limite, par simple commodité, au premier siècle du Califat abbasside marqué par la mort de Mutawakkil (247/867), s'étendra en réalité jusqu'à la fin du III/IXe s. : véritable moment tournant qui annonce, avec l'éclatement de Califat et du centralisme bagdadien, l'émergence des capitales provinciales (al-Ray, Nichapour, Iṣfahān, Chirāz, Alep, Mossoul) et la mainmise du mécénat sur la production poétique, qui sera désormais, et pour un millénaire, assujettie au pouvoir et dont les hérauts seront essentiellement des laudateurs ⁽¹⁾.

C'est un long siècle qui, comme on le verra à travers les quelques séquences significatives du *Corpus* que nous proposons, embrasse des oeuvres aussi diverses et distantes les unes des autres que celles d'Abu-l-Chīs (m. 196/812), khālīd al-Kātib (m. 260/883), 'Alī Ibn Bassām (m. vers 302/913), mais qui ont toutes - semblables en cela aux oeuvres contemporaines marquantes de Abu-Nuwās, al-Buḥturī, Ibn al-Mu'tazz - ce souci constant de synthèse et d'équilibre attestant que l'héritage poétique du passé n'est jamais perdu de vue : souci qu'on retrouve même chez les plus turbulents des tenants du renouvellement, et qui restera d'ailleurs la marque première de ce grand siècle.

Ce travail d'approche nous a permis, à partir de recherches dans le détail, à dégager un bilan descriptif global du *Corpus*, élargi à tous les poètes mineurs de la période qui nous préoccupe. Cela nous a conduit à mettre l'accent sur ce qui nous a semblé être la caractéristique majeure de ce *Corpus*, à savoir l'état d' "éclatement" où il nous est parvenu. L'analyse des facteurs de tous ordres ayant déterminé cet éclatement nous ont conduit par ailleurs (à la faveur de débordements inévitables dûs à l'économie même d'une démarche où les éléments de démonstration se

1) Si on exclut la poésie d'inspiration mystique, qui a connu une véritable expansion à des époques tardives, on constatera que des cas comme Abbās Ibn al-Aḥnaf, khālīd al-Kātib, Rabī 'a al-Raqqī, Mānī al-Muwaswas, qui ne se sont pas assujettis au pouvoir, et qui ont consacré l'essentiel de leurs oeuvres à exprimer leur univers intime, ne se reproduiront guère jusqu'à l'époque de la *Nahda*. (A noter que les trois derniers poètes cités figurent en bonne place dans notre *Corpus*, Vol. II).

souci majeur d'asseoir les matériaux de base indispensables à une réflexion qui se veut avant tout une approche critique du *Corpus* et de son histoire.

Il fallait, enfin, adopter - aussi bien dans la mise en place du *Corpus* que dans l'exposé qui l'introduit - une progression qui corresponde davantage à l'enchaînement des problèmes dont nous avons souligné la spécificité, qu'à un plan classique rigoureusement pré-établi. C'est ainsi que nous avons été amené, dans le cadre de cette démarche, à surseoir provisoirement à toute recherche systématique concernant la localisation géographique précise de la production poétique de l'époque. Nous nous sommes toutefois laissé guider dans la délimitation de notre champ d'enquête par un tracé général qui, excluant l'aire maghrébine, tardivement arabisée et pour laquelle nous ne disposons pour l'instant d'aucune source originale - emprunte l'axe mésopotamien fortement urbanisé avec comme épiscentre Bagdad irradiant à l'Ouest vers le désert de Syrie (*Bàdiat al-Chàm*), et à l'Est vers le plateau iranien (*al-Jibâl*). Nous avons dû également, en l'absence d'indications suffisantes concernant le processus d'évolution des différentes couches du *Corpus* d'une part, l'ampleur réelle des changements de mentalité et de conscience qui ont déterminé un tel processus d'autre part -, renoncer à proposer une grille qui dégagerait des délimitations par périodes, écoles, courants, aussi tranchées que celles proposées par les historiens de la littérature ⁽¹⁾. Nous avons tenu ainsi à éviter tout clivage déterminé par les seules considérations d'ordre événementiel ou dynastique, pour ne retenir essentiellement que l'argument de cohésion et de continuité stylistique ⁽²⁾. Cette démarche nous a amené à adopter un tracé chronologique à la fois

1) Voir les travaux du genre (J. Zaydàn, J.-M. Abdeljelil, Ch. Dayf, O. Farrûh et même Blachère in *Arabica, Spécial Bagdad*, 1962, et *Studia Islamica*, XXIV, 1966) où, pour la période qui nous préoccupe, les auteurs font apparaître nettement le clivage entre l'école dite des modernes (qui s'achève avec Abû-Nuwàs et ses continuateurs immédiats) et l'école dite néo-classique qui s'achève avec Ibn al-Mu'tazz .

2) Nous ne pensons pas, en effet, qu'un poète comme 'Alî b. 'Āsim al-Anbārî contemporain d'Abû - Nuwàs et qui préfigure déjà al-Mutanabbî (voir *Corpus*, vol. 1, pp. 229 - 232) soit moins néo-classique qu'Ibn al-Mu'tazz, ni même qu'un Mānî al-Muwaswas, contemporain d'al-Buḥturî (voir Vol. II, pp. 229 - 263) soit moins moderne qu'Abû Nuwàs .

XIII

B - Le mémoire de Synthèse constitué par le présent volume : large étude introductive qui se veut avant tout une approche provisoire des matériaux mis en place en vue d'une exploitation ultérieure globale, à la fois descriptive, évaluative et confrontative de toutes les séquences du *Corpus*.

Il fallait en effet se soustraire - dans le cadre de cette conception bipartite, et en attendant l'achèvement des travaux de recension en cours - au schéma classique ambitieux de l'exposé général d'histoire ou de critique littéraire, ou souvent la simple notice biographique, les considérations d'époque, de milieu ou de coteries l'emportent (en l'absence des indispensables travaux préliminaires) sur l'analyse des oeuvres proprement dites (oeuvres souvent parcellaires d'ailleurs, sinon "introuvables" ⁽¹⁾), et où les mêmes citations généralement tronquées appuyant les mêmes arguments et puisées aux mêmes sources (nombre réduit de *diwan-s*) finissent souvent, eu égard à leur fréquence et à leur longueur, par l'emporter sur l'exposé lui-même ⁽²⁾. Nous nous sommes ainsi abstenu de truffer notre exposé de citations fragmentaires, préférant renvoyer le lecteur - chaque fois que l'argumentation l'impose - au *Corpus* lui-même, qui constitue - devons-nous le noter - la cheville ouvrière de notre travail et dont nous avons tenu à préserver l'unité et l'intégrité.

Il fallait également, pour mieux souligner les points particuliers soulevés par le *Corpus*, accorder une place primordiale à l'apparat critique accompagnant les textes : travail d'érudition certes, mais qui traduit notre

1) Tel poète dont ne subsistent que quelques fragments très courts, figurera en bonne place dans les histoires de la littérature, rappelant en cela la pure tradition des dictionnaires biographiques. Ce qui fait dire à Blachère dans l'avant-propos de son *Histoire de la littérature arabe*, pensant entre autres à ce " *Corpus introuvable* ", que " l'entreprise " à laquelle il se voue " est essentiellement prématurée " vu " qu'elle suppose une foule de travaux préliminaires inexistantes " .

2) Parmi les études les plus représentatives du genre, citons celles relativement récentes de Muḥammad Mustafā al - Chak'a (voir notamment *Rihlat al-Ši'r min al-umawīyya ilā-l-abbāsiyya*, Beyrouth, 1971)

* Vol. V : évasion dans et par la libre participation aux plaisirs et à la jouissance sous toutes ses formes : sorte d'hédonisme sans doctrine ⁽¹⁾ pratiqué par certains cercles de poètes dits "libertins" et qualifiés souvent de "raffinés" (*zuraḥ*), traînant leur oisiveté ou leur "mal de vivre" à travers les "bars" de la cité, les tavernes des faubourgs, ou les monastères (*diārāt*) de la région.

Notons, ici, que ces poètes, prenant le contre-pied de la Culture classique telle qu'elle se déploie dans les florilèges contemporains de Qurachī : *Jamaharat*..., de *Ḍabbiy* : *al-Mufaḍḍaliyyāt* et de 'Asma'ī : *al-'Asma'yyāt* -, ont, à l'instar de leur chef de file al-Raqqāchī ⁽²⁾, cultivé un type d'anti-héros adepte de la non-violence, mais volontiers frondeur et cynique, que perpétuera une tradition de non-conformisme - limitée souvent au verbe et à sa magie - qui marquera un pan non négligeable de la poésie arabe ⁽³⁾.

C'est ainsi qu'à partir de cette problématique du plaisir, nous nous sommes interrogé sur le rapport poésie - conscience religieuse. Cela nous a amené à conclure à l'ambivalence de l'éthique "musulmane", et au rôle joué par la poésie dans l'expression directe et non censurée de cette ambivalence ⁽⁴⁾.

1) Voir le long développement introductif que nous consacrons à cette question au Vol. V du *Corpus*.

2) al-Faḍl Ibn Abd-al-Šamad al-Raqqāchī, poète de la fin du II^e / VIII^e s. : voir notamment son poème-manifeste (en rime *mi*) que nous produisons au Vol. III.

3) Une étude critique sérieuse de ce qui subsiste de l'oeuvre de ces poètes fera probablement apparaître, au niveau de l'analyse psychologique, en chacun d'eux, deux personnages - tels que Gide à l'époque moderne, les a définis, parlant de lui-même - : " un enfant qui s'amuse et un prêtre qui s'ennuie " ---, ce qui expliquera peut-être cette attitude de renoncement et souvent de repentir que l'on observera chez la plupart d'entre eux au déclin de leur vie, -- attitude que l'auteur d'*al-Aḡāni*, parlant de l'un d'eux, formulera en ces termes : " wa kulluhum yamūtūna 'alā tawbatin wa lqlā'in wa madhbin jamilin", *Ag*, XX. 336.

4) Sur le rapport "éthique -esthétique", lire les réflexions très suggestives de Meschonnic dans " Pour la poétique III", pp. 129 sq.

"*madh*"), les Arabes ont cultivé l'art de l'expression ludique sous toutes ses formes; depuis la plaisanterie toute finesse et habilité ("*du'āba*") jusqu'au comique ("*tahazzul*") le plus grotesque ("*sukhf*", "*raqā'a*", "*taḥāmuq*") ⁽¹⁾ Poésie-divertissement, poésie-jeu, langage d'humour ("*fukaha*") et d'ironie ("*sukhria*") mêlés; autant de formes du discours poétique en vogue dans les salons de Bagdad, et encouragées par les califes eux-mêmes.

*** Vol. IV :** évocation par la plainte accompagnée d'un sentiment de révolte, d'amertume ou de libération : plainte d'inspiration collective comme les déplorations sur les villes mises à feu et à sang par les guerres civiles ⁽²⁾, ou d'inspiration personnelle comme les élégies funèbres dédiées à des animaux ou à des objets familiers, ou encore et surtout d'inspiration burlesque , comme ces plaintes toujours recommencées de Abū-Hakīma Rāchid Ibn Ishāq déplorant sa sénescence phallique.

Notons, ici, que cette poésie de l'évasion introduit dans le champ d'une tradition élégiaque solidement établie et souvent contraignante un souffle de spontanéité qui tend à renouveler le genre. Sur un autre plan, nous relevons que, pour un poète comme Rāchid - que nous venons de citer, et dont nous exhumons l'essentiel de l'œuvre dans ce quatrième volume du Corpus -, certaines de ses complaintes, infléchies, certes, par un désir de parodie, n'en proposent pas moins une vision érotique libérée de la vie, qui élève le "sexuel", tabou inavouable, à la hauteur de l'avouable : ce qui, dans une perspective d'analyse thématique globale du Corpus de l'époque, n'est pas sans requérir l'attention du chercheur sur la signification profonde de certaines tendances des œuvres dites modernistes.

1) Notons, ici, à propos de "*sukhf*", "*raqā'a*", "*taḥāmuq*", que ces formes d'expression, où l'excès, parfois déconcertant, est de règle, étaient pratiquées, non seulement par les poètes dits "amuseurs" ou "bouffons", (tels : Abū Dulāma, Abu-l-'Ibar, Abul-l-'Ijl ...) mais également par des savants, des érudits, des grands dignitaires. (Voir Vol. III , 203 - 210)

'2) Rompant le modèle classique du thrène, les orientaux du II/VIIIe s. ont été dans ce domaine et bien avant les maghrebins du V/XIe s., les véritables "initiateurs" du genre, contrairement à la thèse avancée par notre collègue Ch. Bouyehia (voir : *La vie littéraire en Ifriqiya*..., p. 335).

Abu-l-Raqa'maq, d'un Wàsàni ou d'un Abū-Dulaf ⁽¹⁾, et constitue, pensons-nous, ce que ce grand siècle a produit de plus original.

Ce volume III du Corpus que nous consacrons à cette troisième famille de poètes ⁽²⁾ et qui occupe par son étendue (un tiers du volume global environ), par la richesse des contenus (répartition thématique en trois volets), par le nombre et la diversité des protagonistes (quelque vingt poètes cultivant le "comique" ⁽³⁾ sous toutes ses formes) -- , une place privilégiée dans nos travaux de recension, ce volume essaye de rendre compte de tous ces aspects, et tente de reproduire, à travers les quelque trois cents poèmes qui y sont réunis, cet univers ludique de la *fukàha* (humour) ⁽⁴⁾ ou "art de rire et de faire rire" que Jahiz a su hisser au rang de genre majeur dans son *Livre des Avars* (*Kitàb al-Bukhalà'*) - suivi au IV^e -Ve / Xe-XI^e s., par les auteurs de *Maqamat* : al-Hamadhani et al Harîrî -, et qui sera désormais relégué au rang de genre mineur illustré par les *hikayât*, *nawàdir*, *latà'if*, *mulaḥ*... (anecdotes, histoires plaisantes...), et occupant dans la tradition savante ces zones marginales du *Corpus* de la littérature arabe dont nous essayons, aujourd'hui d'exhumer la séquence poétique ⁽⁵⁾.

Nous aurons, ainsi, essayé de démontrer que dans un large pan de leur poésie qui n'exclut aucun des grands genres ("*ḡazal*", "*hijà*", "*rithà*",

1) Voir Blachère, *La poésie arabe au "Iràq ...*, in : Arabica, Volume spécial Bagdad, p. 431. Pour les quatre poètes cités, voir les bribes qui nous ont été conservées de leurs oeuvres dans l'anthologie de Ta'ālībī : *Yatīmat al. Dahr* .

2) Quelques séquences du Vol. IV du présent *Corpus*, et notamment les complaintes burlesques de Abū-Ḥakīm Rāchid Ibn Ishāq pourraient constituer une sorte de pendant à ce volume .

3) Les études sérieuses consacrées à cet aspect de la littérature arabe sont rares. Cf. l'excellente synthèse de Sadok Lassoued : *Le comique et le sérieux dans la littérature arabe d'avant la " nahda"*, in : *Problèmes de la littérature arabe*, pp. 79 -93 / Publication du CERES, Tunis, 1978 .

4) Par opposition à *sukhriya* (ironie, persiflage, raillerie ...) qui reste la marque du genre *hijà* (invective, diatribe ...).

5) C'est en effet, dans des ouvrages tels que : *al-Faraj*... de Tannūkhī, *'Uqala'*... de Nisāburī, *al-Tatfil*... de Bagdadi, *al-Mahāsīn*... de Bayhaqī, *Jam'al-Jawāhir*... de Husri, *al-Muḥàdarāt*... d'al-Rāḡib, *al-Mustatraf*... d'al-Ibchīhī (voir pour ces titres notre Table de références au Vol. VI), que nous avons essayé de glaner une partie non négligeable de notre *Corpus*.

IX

un certain angle, sans connoter cette vision coranique ambivalente de l'Homme, où une dialectique à deux termes intègre, dans le même élan unificateur, les choses de l'esprit et des sens ⁽¹⁾.

* Vol. III : évasion par la recherche sans contrainte du trivial, du burlesque, du scabreux même (*sukhf, raqà'a*)... : toutes formes marginales de conduites en rupture avec le conformisme social. Ici la poésie mêlant les genres, les techniques de composition et les registres de langues les plus divers, mélangeant les tons, et jouant sur les contrastes, sera l'expression d'un double langage :

- langage du désir, langage de la liberté à récupérer. En effet, ce qui pour les poètes de l'anté-Islam était liberté naturelle, inconsciente (on cultivait ingénument l'érotisme trivial, l'invective outrancière), devenait pour les modernes au contraire (*muhdathun*) quelque chose à "retrouver", à "reconquérir" ⁽²⁾ une sorte de processus de libération des tabous et des interdictions préexistants ⁽³⁾;

- langage d'une poésie réconciliée avec un monde en mutation, "ne refoulant pas le particulier, ne refusant pas la palpitation personnelle et ne considérant pas que seul le commun est poétisable" ⁽⁴⁾.

Poésie du rire souvent mise au service du goût populaire, cultivant sans retenue ni vergogne insanités et obscénités, elle annonce déjà ce que seront au IV/Xe s. les tentatives sans lendemain d'un Ibn al-Hajjaj, d'un

1) Pour une approche plus approfondie de cette problématique nous renvoyons aux analyses très suggestives de Abdelwahab BOUHDIBA, dans son étude : " *La sexualité en Islam*", PUF, 1975 .

2) Alberto Moravia : *L'érotisme en littérature*, in : *L'homme*, Flammarion, 1965, pp. 322-324.

3) A noter, ici, que ce processus de libération des tabous que nous signalons à propos de nos poètes Abbassides, est aujourd'hui, *mutatis mutandis*, chose consommée dans de larges secteurs de la création en Occident Européen : ce qui a entraîné, entre autres, l'étiollement du langage du désir. R. Barthes dira : " *Le malaise, la crise de civilisation dont on parle aujourd'hui, c'est peut-être une crise du désir. Il y a perte de désir où les interdits reculent*" R. Barthes.

4) Nous reprenons ici en négatif les propres termes de J.E. Bencheikh qui, traitant du lyrisme arabe, conclut : "Il (le langage lyrique) ... refoule le particulier, refuse toute palpitation personnelle. Seul le commun est poétisable..." (Encyclopaedia Universalis, art. cit., p. 209).

VIII

amené à nous interroger sur la nature même de cette poésie : est-elle mue par une dynamique interne, celle d'une tradition conçue comme une culture en soi, ou est-elle l'expression des motivations profondes (et parfois même inconscientes) des individus ⁽¹⁾? Un long poème d'auteur inconnu : "*al-Qasīda al-Yatīma*" dite "*al-Da'diyya*" (70 vers, mètre "*kāmil*", rime "*du*") par lequel nous ouvrons ce deuxième volume, et que nous considérons comme représentatif du genre par sa facture et la thématique à plusieurs niveaux qui s'y déploie, nous a servi de point de départ pour engager cette problématique. Cela nous a permis de prendre position sur cette question controversée et de conclure que ce poème, exemplaire par sa structure binaire, et coextensif, par les techniques mises en oeuvre, à un large pan de la poésie arabe ⁽²⁾, propose une vision unifiante de l'homme dans ses rapports avec la femme "aimée", "désirée", où convergent à travers une constellation de symboles - tous représentés dans le poème - deux êtres, non pas antinomiques, comme le laisserait entrevoir la structure apparente du poème, mais en parfaite symbiose : l'un, "culturel", dépositaire de toutes les vertus coextensives à la noblesse et à la perfection de l'âme (vertus exaltées, ici, dans les vers 41-70, et dont nous trouvons l'écho chez Ibn Tabātabā ⁽³⁾ et al-Hātimī ⁽⁴⁾; l'autre, "naturel", requerrant - à travers Da'd, l'aimée, décrite ici (vers 12-40) dans toute sa nudité charnelle y compris les parties cachées de son corps - un statut sensuel accessible à toutes les "jouissances" : Ce qui n'est pas, sous

1) Dans quelle mesure, pourrait-on ajouter pour élargir le débat, l'"art d'aimer" ou le "*gāzal*" sous toutes ses formes - comme le fait remarquer Georges DUBY., à propos des sociétés de l'Occident chrétien à l'époque romane - (là encore des analogies possibles), n'a pas été, en terre d'Islam, un des principes régulateur de l'Ordre social ? Qu'on pense au rôle fondamentalement culturel joué, dans la Cité sous les Abbassides, par les "*qiyān*" (esclaves concubines, chanteuses, musiciennes, courtisanes, poétesses ... : voir nos index), et dont on trouve de larges échos dans la production de Jahiz (cf. "*Kitāb al-Qiyān*" in "*Rasā'il ...*" Vol. II, pp. 143 - 182 et "*Les trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme*", pp. 404 - 425) .

2) Voir l'analyse que nous donnons de ce poème, ainsi que les réflexions qui l'introduisent : Vol. II .

3) Cf. "*I'yār al-Chi'r*", pp. 12 - 13 .

4) Cf. "*Hilyat al-Muḥādḍara*", pp. 28 - 29 .

réel ⁽¹⁾, illustrée entre autres par un khàlid al-Kàtib consumé par le mal d'amour, et dont l'épanchement élégiaque s'étale, en complaints lancinantes, sur les quelque 2 500 vers qui subsistent de son *Dîwan*.

Ce deuxième volume consacré à l'*éros*, essaye de rendre compte de cet univers élégiaque (mais qui n'exclut nullement une certaine délectation) où baigne "l'éternel féminin" arabe, en proposant un ensemble textuel homogène inscrit dans le cadre d'une structure diachronique large, où les invariants du discours apparaissent comme l'exemple type d'un travail d' "*extension et d'application de certaines propriétés du langage*" ⁽²⁾, qui reste la marque d'un des genres majeurs de la poésie arabe.

C'est ainsi que nous avons tenté de dégager la notion de "*ġazal*" ⁽³⁾ de cette vision ambivalente ⁽⁴⁾ par couple tranché : "*ġazal 'udhrī - ġazal 'ibāhī*" ⁽⁵⁾ opposant l'amour idéalisé à la façon de Banū - 'Udhra, à l'amour dit libertin à la façon de 'Umar Ibn Abī Rabī'a, où l'a enchassé une tradition millénaire (depuis Abu-l-Faraj jusqu'à Nallino et ses continuateurs), pour l'insérer dans une problématique où les termes apparemment antinomiques sont à la fois débordés et unifiés. Cela nous a

1) Notons ici la réaction de certains poètes de la même période aux fausses idéalizations du fait érotique. Nous en donnons de nombreux exemples dans le Vol. III du *Corpus*. Jāhiz lui-même, nous en donne une illustration burlesque dans sa *Risālat Sinā'at al-quwwād / Rasā'il*, T.I, pp. 382 - 393. Paul Zumthor dans son *Essai de poétique médiévale*, p. 105, signalera le même phénomène pour la poésie en Occident médiéval, et dira comment " Le grand chant courtois engendra, vers la fin du XIII^e siècle, le genre parodique de la "*sotte chanson*" .

2) Paul Valéry, *Variété V*, p. 289 .

3) Nous avons préféré, par souci de précision, maintenir le terme technique de "Ġazal", à l'adoption de formules approximatives telles que "poésie érotique", "poésie d'amour", "poésie d'inspiration courtoise" ..., qui, toutes, ne recouvrent qu'en partie le champ sémantique à plusieurs niveaux connoté par le concept arabe .

4) Ambivalence qui fait glisser la notion, de l'érotisme le plus nuancé à l'érotisme le plus obscène .

5) Ou encore les couples équivalents : " *afīf-mājin* " (opposant abstinence / innocence / pureté à libertinage), " *ʿaṭīfī-hissī*" (opposant l'envolée des sentiments à l'appel des sens), " *aḫlātūnī - wāqī'i* " (opposant amour platonique à amour charnel), " *ramzī-taḥqīqī*" (opposant amour idéalisé à signification symbolique, à amour réalisé dans l'assouvissement du désir) .

VI

une série de constantes dont la plus révélatrice est ce besoin d'évasion communément partagé par tous les poètes retenus, et irradiant à travers ce qui subsiste de leurs oeuvres :

* Vol. I : évasion par un retour aux sources, illustrée, entre autres, par un khalaf al-Ahmar (m. 180?/796?) qui, comme André Chénier (1762-1794) mais sans en faire la profession de foi, "sur une sensibilité nouvelle faisait des vers antiques", et eût pu dire avec le poète français :

Dévot adorateur de ces maîtes antiques.

Je veux m'envelopper de leurs saintes reliques⁽¹⁾

Ce premier volume, grâce à un ensemble de textes assez variés, engage une démarche visant à donner une réponse possible à la problématique posée par la "*querelle des anciens et des modernes*".

C'est ainsi qu'à partir de cas précis - et nous pensons notamment au même khalaf al-Ahmar - nous avons posé le problème épineux du "plagiat" ("*intihāl*") au sens large (imitation d'un modèle, emprunts plus ou moins avoués, fausses attributions, forgeries, ou plagiats proprement dits). Nous nous sommes interrogé sur la position de l'érudition et de la critique traditionnelle vis-à-vis de cette poésie qui se veut un retour aux sources , une sorte de "*défense et illustration*" de la culture bédouine; faudrait-il, comme les anciens et leurs continuateurs parmi les modernes ⁽²⁾, remonter constamment, pour la décrypter, à des modèles définitivement arrêtés (Ceux de la première époque), ou essayerons-nous de percevoir à travers le message d'un khalaf, d'un Bahdalf ou d'un Abū-Surà'a, un déroulement historique qui a marqué une évolution dont nous essayerons de saisir la signification profonde?

* Vol. II : évasion par la substitution d'un monde idéalisé (souvent par la seule "magie souveraine du verbe" ⁽³⁾) au monde

1) André Chénier, *Oeuvres complètes; Epître sur ses ouvrages* (poème de 140 vers), éd. G. Walter, Paris, 1950/

2) Nous pensons à Ahlwardt (cf. Notre Vol. I, p. 16), T. Husayn et Blachère.

3) J.E. Bencheikh, *Le lyrisme arabe*, in : *Encyclopaedia Universalis*, Vol. 10, p. 209.

des ouvrages d'histoire ou de critique littéraire. Nous savons, en effet, - et nous nous contenterons, ici, de citer un seul exemple - que la plupart des travaux concernant cette période, depuis l'époque déjà lointaine où Tāha Husayn et quelques orientalistes posaient les premiers jalons d'une approche critique de la poésie arabe des périodes classiques, ont privilégié une distribution de la poésie dite moderniste, dans ce qu'elle a de novateur, selon deux pôles correspondant à deux courants bien distincts et bien marqués socialement; le courant dit du libertinage ("*ḥalā'a*", "*mujūn*"...) et le courant dit du renoncement ou d'inspiration pieuse ("*zuhd*"). Or, à l'examen, il apparaît clairement qu'une telle distribution, un tel clivage, ne correspond ni à la réalité de l'époque, ni à la réalité des oeuvres produites, et que les différents modes d'expression chez ces poètes - loin de déboucher sur une partition en schèmes d'inspiration tranchés - voisinent sans s'exclure au niveau des oeuvres : ces mêmes oeuvres d'ailleurs, où sur un autre plan, s'entremêlent en parfaite symbiose, tradition et renouveau, ce qui rend sans objet par là même, cette autre répartition cloisonnée des poètes - héritée d'une certaine tradition savante - en deux tendances contrastées : celle des novateurs ("*mujaddidūn*") et celle des tenants de la tradition ("*muqallidūn*") C'est pourquoi nous avons opté pour une distribution souple qui fait apparaître les différentes dominantes qui infléchissent l'essentiel de ce qui subsiste des oeuvres concernées. Cinq familles de poètes en effet ⁽¹⁾, d'inspirations diverses mais cultivant en commun cette turbulence frondeuse propre aux novateurs, ont fixé pour nous les jalons d'une première zone de recherche. Dû au hasard des premiers dépouillements - souvent sauvages -, beaucoup plus qu'à un choix préétabli ou à des inclinations personnelles, ce regroupement, qui ne prétend pas à l'exhaustivité et encore moins à l'exemplarité, nous a permis de dégager provisoirement

1) Nous consacrons un volume à chaque famille de poètes. Les titres envisagés pour les différents recueils dans le cadre de cette distribution sont provisoires et ne sont donnés qu'à titre indicatif. Le terme *masālik* (sing. *maslak* : voie) retenu dans chacun de ces titres pour désigner au plan thématique cette distribution, n'est donné que pour marquer un de nos choix : la primauté que nous accordons dans un premier temps de la recherche, aux contenus des oeuvres, donc au *Corpus*, abstraction faite des auteurs. (Exemples : *Voies de l'expression amoureuse / masālik al-ğazal* / Vol. II, *Voies de l'expression élégiaque / Masālik al-Tafajju'* / vol. IV...).

millénaire : sa dynamique interne, son état de conservation, les différents facteurs qui ont déterminé son éclatement. C'est dire que nous situons d'emblée notre travail dans ce qu'il est convenu d'appeler les "travaux préliminaires". Travail technique rappelant celui de l'archéologue (fouilles et collecte de matériaux), du géologue (essai de restitution de la genèse d'une oeuvre), mais parallèlement travail de prospection où une large place est accordée à la problématique. Telles sont les deux voies empruntées tour à tour durant notre parcours. Quel est donc le bilan de cette double démarche?

A - Le Corpus ⁽¹⁾ : à ce premier niveau nous nous sommes employé à rassembler le maximum de matériaux. Quelque cinquante poètes ont été retenus pour lesquels nous avons établi quelque huit mille vers, en partie inédits ⁽²⁾. Pour des raisons de méthode que nous avons eu à justifier, l'époque choisie a été débordée à ses deux extrêmes. Cela nous a permis d'adjoindre à ce corpus de base des échantillons d'oeuvres antérieures et postérieures : ce qui dans une perspective d'analyse confrontative qu'impose, comme nous avons essayé de le démontrer, la nature même du *Corpus*, pourrait aider à une meilleure évaluation globale de la production de l'époque.

Le classement des matériaux rassemblés n'a pas manqué de poser pour nous un problème de choix. N'ayant pas à engager un travail d'analyse systématique sur les oeuvres, ce qui eût impliqué au préalable une ventilation fonctionnelle rigoureuse du *corpus*, notre choix ne pouvait que relever d'une approche provisoire. Nous avons toutefois tenu à éviter d'enserrer les poètes et leurs oeuvres dans le canevas conventionnel des cloisonnements systématiques du type de ceux pratiqués dans la plupart

1) Cinq volumes au total et un large supplément (6e volumes), le tout constituant la deuxième partie de ce travail .

2) La partie inédite du *Corpus* concerne notamment les *divans* de khalid al-Kàtib et Râchid Ibn Ishâq Abù - Hakîma, poètes bagdadiens, morts respectivement aux environs de 260 / 874 et de 240 / 854 .

étayer une démonstration ou illustrer un thème : rapport quasi dialectique, puisque ces textes divers interviennent non seulement pour éclairer l'énoncé en vers, mais encore pour lui donner une assise situationnelle, qui, elle, anime, "théatralise" un *corpus* dont une large partie donne cette impression d'intemporalité, d'espace d'attente, d'anonymat presque, propres à une poésie dont nous dirons qu'il lui arrive - succombant à la tentation de l'universalité et des schèmes exemplaires - de ne pas avoir de visage.

3) souci d'assurer à ces matériaux une parfaite lisibilité grâce à une vocalisation aussi scrupuleuse que possible, et à un système de notations permettant une vision solidaire et unifiante de toutes les séquences du *corpus*.

4) adoption d'une formule de notices liminaires pouvant atteindre la dimension de la monographie, et d'un système d'annotations accompagnant les textes, qui visent un double objectif : délimiter le cadre de recherches ultérieures et introduire l'essentiel d'une problématique où nécessairement - vu les limites du travail - certaines interrogations sont restées sans réponses. Telle est - résumée - la motivation première qui devait infléchir les grands axes de ce travail, et lui donner sa configuration définitive.

Quel a été le parcours suivi?

Deux voies se sont imposées à nous :

Nous nous sommes proposés dans un premier volet d'apporter une contribution aussi modeste soit-elle aux efforts déployés depuis quelques décennies en vue d'une recension générale du *corpus* des poètes "mineurs" des périodes classiques. Oeuvre ambitieuse, s'il en fut, qui consiste - si on fait abstraction des recueils peu nombreux qui nous sont parvenus - à "fonder" pratiquement ce corpus introuvable, c'est-à-dire à en reconstituer, à partir du peu qui en subsiste, la physionomie générale. Nous nous sommes proposés dans un deuxième volet d'engager un essai de réflexion sur les matériaux recensés en vue d'un bilan descriptif global dégageant les traits distinctifs de ce *corpus* à travers son aventure

II

Au lecteur

Une des raisons premières qui ont infléchi dans une large mesure l'orientation générale de ce travail est d'ordre didactique ⁽¹⁾. Conjuguant enseignement et recherche, nous avons été amené à déceler une constante chez notre jeune auditoire des classes de littérature aussi bien au Secondaire qu'au Supérieur : l'émerveillement jamais démenti devant les textes hors programme, puisés généralement dans le Corpus des "mineurs", que nous leur proposons parallèlement au Corpus proposé par la tradition savante, et inscrits dans les programmes officiels. Cela nous a déterminé à donner à notre travail l'économie d'un ouvrage où se trouvent intimement associés, souci de recherche et volonté de proposer un matériau immédiatement exploitable : ce que nous nous sommes employé à faire apparaître à quatre niveaux :

1) limitation des travaux d'érudition, utiles, certes, mais souvent "encombrants" pour les non-spécialistes, à une seule et large séquence, celle concernant le grand transmetteur-poète : *Khalaf al-Aḥmar* (m. 180?/ 796?), que nous proposons comme simple illustration du genre et non comme modèle (vol. I)

2) répartition des matériaux rassemblés en familles, souvent associées à des textes d'appui en prose (*nawādir*, *'akhbār*, *'amthāl...*) ⁽²⁾ venant

1) L'auteur est l'initiateur d'une série de travaux de recherche axés essentiellement sur la pédagogie appliquée (Techniques de formation, didactique des langues...), et évoluant dans le cadre du Cercle Culturel de l'Ecole Normale de Tunis, établissement dont il a assumé la responsabilité de 1962 à 1973. Une vingtaine de publications à large diffusion parues durant cette période.

2) Voir notamment vol. 6 : supplément, 1^{re} partie.

Publications

- * **La pensée pédagogique chez les arabes** (en Col. avec Béchir ZRIBI), Maison Tunisienne de l'Édition, 1985 (816p)
- * **La mémoire rassemblée**, Maisonneuve et Larose, 1987 (234p)
- * **Poètes arabes "mineurs" des IIe/VIIIe et IIIe/IXe siècles** : (le présent ouvrage) :

Première partie :

- *Approche confrontative et évaluative du Corpus problématique générale.*

Deuxième partie :

- Vol. I : *Permanence de la culture du désert : le retour aux sources.*
- Vol. II : *Voies de l'expression courtoise*
- Vol. III : *Voies du sérieux et du plaisant*
- Vol. IV : *Voies de l'expression élégiaque*
- Vol. V : *Voie de l'expression "libérée"*
- vol. VI : *Suppléments et index.*

* Série d'articles (une douzaine) parus dans :

- *Dictionnaire Universel des littératures*
- *Encyclopedie de l'Islam* (2ème édition)

* Contribution au volume 5 de l'ouvrage : "Culture and learning in Islam - Work on the various aspect of islamic culture"

LA MEMOIRE RASSEMBLEE

Situant son projet - entreprise périlleuse - au centre même du processus de génération et de transmission de la production poétique des IIe/VIIIe et IIIe/IXe siècles, Brahim NAJAR démontre comment le mouvement moderniste des "*muhdathun*" - deuxième et dernière tentative jusqu'à l'époque moderne de création de modèles après celle des fondateurs de la haute époque - déconstruit les cadres d'expression, élargit les codes et diversifie les registres, les schèmes exemplaires, bref le legs de la tradition. Par là est favorisée l'émergence d'une foule innombrable de poètes qui, "*occultés*" par les grands thuriféraires, viendront occuper les zones marginalisées du corpus et finiront par tomber dans l'oubli.

Brahim NAJAR exhume ainsi un certain nombre de ces oubliés de l'histoire, et nous invite - en interrogeant des textes, souvent inédits, peu connus ou méconnus : sept volumes au total - à une réflexion globale sur ces zones d'ombre du corpus. Sa conclusion est qu' "*on ne peut plus prétendre expliquer tout à partir de cette galerie de portraits qui jalonnent par intervalles l'aventure millénaire de la poésie arabe, et qu'il importe désormais - sous peine de tomber dans les erreurs de jugements de bon nombre d'historiens de la littérature - de donner la parole à ceux qui ne l'ont pas eue : ces poètes dits mineurs qui ont su, parfois autant sinon mieux que les plus grands de leurs contemporains, témoigner d'une époque dans toute sa diversité, et être de véritables porteurs de germes de renouveau*".

André MIQUEL

Professeur au Collège de France

BRAHIM NAJAR

Agrégé de l'Université, Docteur ès-lettres, Professeur à la Faculté des lettres et sciences humaines de Tunis et à l'Université de Paris VIII.

Initiateur d'une série de travaux de recherches pédagogiques axés essentiellement sur la didactique des langues, et évoluant dans le cadre du Cercle Culturel de l'Ecole Normale d'Instituteurs de Tunis, établissement dont il a assumé la responsabilité de 1962 à 1973. Une vingtaine de publications à large diffusion parues durant cette période.

Avertissement

Le présent volume ainsi que ceux qui suivent - sept au total - constituent les deux volets d'un travail d'ensemble dont le premier volet - une étude de synthèse en langue française - a fait l'objet d'une publication parallèle parue sous le titre:

La mémoire rassemblée* Poètes arabes «mineurs» des IIe/VIII et IIIe/IXe siècles

L'ensemble de ces travaux reprend, en le développant, le texte initial d'une thèse de Doctorat d'état soutenue en juin 1984, auprès de l'Université de la Sorbonne nouvelle PARIS III.

* Maisonneure - larose, Paris 1987.

Document de la couverture:
page initiale enluminée du
Kitāb al-Šifā' de 'Iyāḍ
(Manuscrit datant du XIe/ XVIIe s)
Collection privée.

A la mémoire de mes parents qui ont été pour moi les premiers rassembleurs d'une autre mémoire : celle de Kairouan, ville encore non éclatée des années trente et qui faisait déjà écho, dans l'imaginaire du jeune adolescent, à Bagdad, cette autre métropole d'Orient qui constituera plus tard, pour le lecteur assidu de poésie classique que j'étais devenu, un champ privilégié de recherche où devait s'insérer "la mémoire rassemblée" d'aujourd'hui, qui lève le voile sur quelques grandes figures oubliées de la poésie arabe au temps de sa première grandeur.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب المصي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود

تلفون: 009611-350331 / خليوي: 009613-638535 Cellulaire:

فاكس: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم 300 / 2000 / 1 / 1997

التنضيد : كومبيوترايب للصف الطباعي الإلكتروني

الطباعة : دار صادر ، ص.ب. 10 - بيروت

COPYRIGHT © 1997

**DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B. P. : 113-5787- BEYROUTH**

**Tous droits de reproduction - quel qu'en soit le procédé -, de
traduction et d'adaptation réservés pour tous pays .**

BRAHIM NAJAR

POÈTES ARABES “MINEURS”

Du 1^{er} Siècle Du Califat Abbasside

Première partie

*Approche confrontative
et evaluative du corpus*



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

BRAHEM NAJAR



POÈTES ARABES "MINEURS"

Du 1^{er} Siècle Du Califat Abbasside

Première partie

*Approche confrontative
et évaluative du corpus*



DAR AL-GHARB AL-ISLAMII
BEYROUTH 1997